دراسات سوسيوأنثروبولوجية

الكتاب الأول

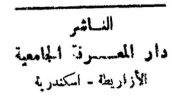
دكتور محمد عبده محجوب
أستاذ ورئيس قسم الأنثروبولوجيا
جامعة الإسكندرية

دكتور حيدر ابراهيم
قسم الاجتماع
جامعة الإمارات العربية المتحدة

دكتور مجدى حميده
المشرف على قسم الاجتماع
جامعة المنصورة

دكتور محمد عباس ابراهيم
قسم الأنثروبولوجيا
جامعة الإسكندرية





الناشر
دار المعرفة الجامعية
الأزاريطة - اسكندرية

اهداءات ٢٠٠١

ا.د. أحمد أبو زيد

أنثروبولوجي

دراسات سوسيوأنثروبولوجية

الكتاب الأول

دكتور محمد عبده محجوب
أستاذ ورئيس قسم الأنثروبولوجيا
جامعة الإسكندرية

دكتور حيدر ابراهيم
قسم الاجتماع
جامعة الإمارات العربية المتحدة

دكتور مجدي حميده
المشرف على قسم الاجتماع
جامعة المنصورة

دكتور محمد عباس ابراهيم
قسم الأنثروبولوجيا
جامعة الاسكندرية


بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

يقوم التعريف « القـــاموسى » العربى بعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا كمبحثين متمايزين على أن «علم الاجتماع هو العلم الذى يدرس النماذج الاجتماعية Patterns أو النظم الاجتماعية Institntions . ومعظم علماء الاجتماع الانجليز والامريكيين يأخذون بهذا التعريف ، أما الفرنسيون والطليان فإنهم يميلون إلى تعريفه بأنه علم دراســة الوقائع الاجتماعية Faits sociaux أو الظواهر الاجتماعية Phénoméues sociaux . وثمة قلة من العلمـــاء يعرفـونه بأنه دراسة العلاقات الاجتماعية مثل ديبريل ، أو البناء الاجتماعى مثل عدد كبير من العلماء الألمان وعلى رأسهم فون فيزى ، وبعضهم يعرفه بأنه دراسة العمليات الاجتماعيـــة .

والواقع أن كل هـــذه التعريفات لا تعارض بينها ، لأنها جميعـاً تدرس الحقيقة الاجتماعية من زوايا مختلفة . فالنماذج الاجتماعية والوقائع الاجتماعية ـ وهما تقريبا فى معنى واحد ـ هى الأحـــداث التى تحدث فى المجتمـــع ، وتكون ناحية من الحياة الاجتماعية . فاذا نظرنا إلى النماذج أو الوقائع من حيث كيانها القانونى ـ ومن حيث القواعد التى تتضمنها ـ فإننا نكون بصدد الكلام عن النظم الاجتماعية ، ولكن إذا نظرنا للوقائع من حيث مدى انتشارها فى المجتمع ـ ومن حيث مظهرها الخارجى ـ فإننا نكون بصدد الكلام عن الظواهر الاجتماعية . ثم إن كل واقعة اجتماعية تعد فى نهاية الامر علاقة بين طرفين أو أكثر ، فالبيع والشراء والزواج والطلاق والملكية والحكومية والتعليم .. كلها نماذج إجتماعية .. ولكنها فى الوقت نفسه تعد عـــلاقات تنظم حياة الافراد إزاء بعضهم بعضاً . وهكذا نجد أن اختلاف هذه التعاريف هو إختلاف ظاهرى ،

فهى تتناول الحقيقة الاجتماعية من زوايا مختلفة (١) .

ويقوم بالتعريف بمجال الانثروبولوجيا على إبراز التمايز بين الجوانب الطبيعية والجوانب الاجتماعية والثقافية التى يكون كل منها فرعاً رئيسيا بين فروع الانثروبولوجيا العامة — أعنى الانثروبولوجيا الفيزيقية من ناحيــة والانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية من ناحية أخرى - كما يتبين فى النص التـــالى :

« تدرس الانثروبولوجيا بشكل رئيسى المجتمعات البدائية . وفى ذلك يقول عالم الانسان الامريكى ما تتشب وايت M. White « إننا فى استخدامنا لتعبير علم الانسان لانقصد دراسة الانسان بقدر مايقصد دراسة الانسان البدائى، وهذا يعنى دراسة المجتمعات الفطرية أو التى لازالت أقرب الفطرة ، وذلك لان دراسة الانسان المتطور المعقد لمجتمعاتنا المتطورة أو المتحضرة — بالمعنى الحضرى لهذه الكلمة — ليست من مهمة عالم الانسان ، بل من مهمة عالم الاجتماع » .

والانثروبولوجيا حين تدرس الإنسان تتناوله من زاويتين : الاولى من حيث كونه جزءاً من الطبيعة أو الظواهر الطبيعية التى تسود الكون ، وهذه الناحية هى موضوع الانثروبولوجيا الفيزيقية Physical Anthroppotogy التى تدرس علاقة الإنسان فى نشأته وتطوره بالمجموعات الحيوانية ، وكيف انفصل الإنسان عن الانواع الحيــوانية الاخرى ، وتعنى بتقسيم الجماعات الإنسانية إلى سـلالات بشرية ، وبيان الاساس الفيزيقى الذى بنى عليه ذلك

(١) معجم العلوم الاجتماعية — الهيئة المصرية العامة للكتاب — ١٩٧٥م — مادة « علم الاجتماع » — ص ٤٠٧ .

التقسيم وبيان المقاييس المستخدمة في ذلك

أما الزاوية الثانية فهى تتناول الانســـان من حيث كونه كائناً حياً ذا عقـــل وثقـافة . وتلك هى الانثروبولوجيا الثقافيـــة Cutural Authropology والانثروبولوجيا الاجتماعيـــة Social Anthropology وهما يدرسان الثقافات والنظم الاجتماعية فى المجتمعات البشرية المختلفة فى نشأتها وتطـورها وانتشـارها . . ويكتشفان القوانين التى تخضع لهـا كل تلك الظواهر .

وهناك أخيراً الانثروبولوجيا التطبيقية lpplied Anthropology وهى العلم الذى يستعين بـه رجال السياسة والعـلماء عندما يريدون إصـــلاح المجتمعات البدائية وتطويرها فى النواحى الاجتماعية المختلفة كإصلاح النظم التعليمية القضـــائية والوسائل التكنولوجية فى الزراعة والشئون الاقتصادية عامة . . ذلك أن هناك متخصصين فى تطبيق وسائل الاصلاح الحـديثة على المجتمعات البدائية ، وهؤلاء يراعون فى تطبيق تلك الوســائل الاتجاهات الدينية والفكرية التى تسود المجتمع ، والتى قد تقف بعنف فى سبيل تلك الوســـائل » (١) .

وفى محاولاتنا للتعريف بمقومات تلك الثنائية القائمة فى الوقت الحاضر بين « علم الاجتماع » و « الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية » كمبحثين فى دراسة الجانب غـــير الفيزيقى فى الانسان نجد تلك المقومات مرتبطة بنشأة

---

(١) معجم العلوم الاجتماعية ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ ١٩٧٥ ــ مادة « انثروبولوجيا » ص ٧١ .

الأنثروبولوجيا العامة ذاتها كعلم عنى بمشكلات معينة فى الحيـــاة البشرية أو الانسانية — وبخاصة فيما يتعلق بالتمايز السلالى والاختلافات اللغوية والعرقية، والنظم القبلية وأنماط الزعامة الدينية والسياسية والسحر والفن البدائى وغيرها من الموضوعات — فنشأت الأنثروبولوجيا العامة على حـد تعبير ساخر كسلة تلقى بها كل الموضوعات التى لا تصنف بين المجالات التقليدية لعلم الاجتماع وبخاصة فى الأنماط المجتمعيه البدائية أو التقليدية .

كذلك فقد كانت هناك مظاهر للتمايز بين علم الاجتماع والأنثروبولوجية وبخاصة الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية «التقليدية» — فيما يتعلق بطرق البحث، ومدى القضيــة التى ينتهى إليها كل من التحليــــل السوسيولوجى والأنثروبولوجى، والاتجاهات التى ينتهجها هذا التحليل . وقد حاولنا فى كتابنا بعنوان : «مقدمة فى الاتجاه السوسيو أنثروبولوجى أن نشير إلى بعض التطورات التى حدثت فيما يتعلق باهتمامات الباحثين السوسيولوجيين والأنثروبولوجيين والتبادل المشترك فيما بينهم فى استخـــدام طرق البحث وأساليب التحليل التى اعتمدت عليها كل من الدراسات السوسيولوجية والدراسات الأنثروبولوجية . وقد كان الاتجاه إلى استخدام الكمبيوتر فى التحليل العلمى يمثل ثورة منهجية فى «العلوم الاجتماعية» ، ومنها علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية بالتأكـيد .

ويضم الجزء الأول من هذا الكتاب ترجمة عربية قام بها الأستاذ الدكتور محمد عبده محجوب لعدد من الدراسات باللغة الانجليزية كما يضم مقالات التعريف بمجالات متنوعة فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا . . وهى — فى الجزء الاول — تتناول : مجال علم الاجتماع ، وملاحظات حول علم الاجتماع السوفيتى — نظرة

من خلال سوسيولوجيا العـــلم ، والنقد الادبى وعلم الاجتماع ، ووضع علم الاجتماع فى ألمانيا الديموقراطية ، والاثنوجرافيا ، والانثروبولوجيا التطبيقية .. وقد أختيرت تلك المقالات لما تعالجه من موضوعات ، وما تنطوى عليـه من اتجاهات نظرية تؤصل الاتجاه السوسيو انثروبولوجى فى دراسة المجتمع .

فالدراسة الاولى بعنوان : مجال علم الاجتماع تعنى بالتعريف بالوحدات السوسيولوجية ، وأنماط النظرية فى علم الاجتماع ، وموضعه بين العلوم الاجتماع الاخرى وبخاصة فيما يتعلق بالعلاقة بين علم الاجتماع والانثروبولوجيا ، وتعرض لإنجازات علم الاجتماع الامريكى قبل عام ١٩٤٠ ، ومجالات علم الاجتماع الامريكى ، وأهمية الدراسات الحقلية فى التحليل السوسيولوجى الامبريقى ، كما تعالج وضع النظرية الماركسية فى التحليـل السوسيولوجى ، وبجانب هــــذا كله فهى تعالج أهمية المعلومات الكمية فى التحليـ ـل السوسيولوجى ، كما تعالج الدراسات السوسيولوجية الحقلية وأهميتة فى تأصيـــل و « علمية » القضية السوسيولوجية .

وتعنى الدراسة الثانية والثالثة بوضع الدراســات السوسيولوجية فى ألمانيا الديموقراطية وأزمة علم الاجتماع السوفيتى فى إتجاهه إلى عدم التقوقع فى حدود إبراز الحقائق الاجتماعية التى تنطوى على بينات على صدق النظرية الماركسية وهما من هذه الناحية يبرزان أهمية الخاصية « الحقلية » - أو بقول آخر أهمية البحث الإثنوجرافى - كركيزة لامندوحة عنها فى صياغة القضية الانثرونولوجية، كما تبرزان مدى « فقـر » علم الاجتماع فى ابتعاده عن « الامبريقية » التى تسهم البحوث الانثروبولوجية الحقلية إلى حد بعيد فى تحقيقها .

أما الدراسة الرابعة بعنوان : « النقد الادبى وعلم الاجتماع » فهى تبين عن

مدى أهمية الاستعانة بالمعطيات الانثروبولوجية فى معالجة بعض القضايا السوسيولوجية ، فى هـذا الفرع الهام من فروع علم الاجتماع .. فالمادة الاثنوجرافية تعتبر من أهم روافد الادب بوجه عام وفن الرواية بوجه خاص ، ونحن نستطيع أن نستخدم المعلومات التى يزودنا بها المتخصصون فى التاريخ الاجتماعى فى اختيار أسباب انتشار قراءة مقالات مجلة معينة بين طبقة معينة تترقب بتطلع ظهور هذه المجلة ، وهو ما يبين لنا عن علاقة مثيرة للاهتمام بين ما تقرأه طبقة معينة وأسباب قراءة تلك الطبقة لموضوعات معينة ، وهى موضوعات تلقى الكثير من الاهتمام وتنطوى على معلومات مفيدة لدى المشتغلين بتاريخ الادب » .

وقد عالجت الدراسات المتخصصة فى النقد الادبى تلك العلاقة الوثيقة بين الانثروبولوجيا والنقد الادبى وسوسيولوجيا الادب مبرزة أهمية التفسير الاجتماعى لشخصيات الرواية وأحداثها . مثلا فيما يتعلق بوضع المرأة وعلاقتها بالرجل حيث تعتبر المادة الاثنوجرافية والتاريخ الاجتماعى من أهم المراجع فى التعريف بالمقومات التى تستند إليها مكانة المرأة فى أثينا وروما القديمة .. فقد ظلت مخلوقاً يحتل المرتبة الادنى بصورة جوهرية طوال حياتها كما أن المرأة فى أوربا العصور الوسطى لم يكن لها حق التملك ، كما لم يكن فى استطاعتها الطلاق بعد زواج ضد رغبتها ، وكانت تساق إلى الموت حين ترتكب جريمة الزنا فى الوقت الذى يعفى فيه الزوج الزانى . ولقد كانت المرأة حتى فى قمة عصور النهضة طبقاً للقانون العام فى انجلترا والولايات المتحدة تساق إلى السجن وتفقد معظم حقوقها المدنية حين تتزوج ، فهى لم تكن تستطيع أن توقع أوراقاً أو تسمع لها شهادة أو تتصرف فيما تملكه ولم يسمح لها بحيازة مكتسباتها أو مكتسبات أبنائها إذا اختار زوجها أن يستولى عليها . وقد

أوجز السير وليام بلاكستون المركز القانونى للمرأة فى كتـــاب بعنوان : «ملاحظات على قوانـين انجلترا عـام ١٧٦٥ — ١٧٦٩ ، فى قوله بأن الوجـود الحقيقى — أو الوجود القانونى للمرأة — معلق أو على الأقل متضمن ومندمج فى وجود الرجل . أما فى فرنسا قال جان جاك روسو أن النساء يتمتعون — أو يجب عليهم أن يتمتعوا — فقط بالقليل من الحرية. وقد كان الرجل الانجليزى إلى وقت متأخر حتى الحرب العالمية الأولى يعلن لصديقه ميلاد إبنته له بسؤاله عما إذا كان قد سمع عما حل به من إخفاق تام (١) ،

وحيث لا تبين المادة « العلمية » التى بأيدينا بشكل مؤكد عملى كيف نشأت فكرة أفضلية الذكر فان العلماء قد اتجهوا اتجاهين متمايزين فى تفسير هـــذا الوضع . . يعتمد أحدهما على حقيقة أن الذكور بصفة عامة أقوى من الإناث ويعتمـد الآخر على أن الشعور بأن النساء كن دائمـا أكثر التصاقا بالطبيعة فى مقارنتهن بالرجال .

وبناء على التفسير الأول فان الرجال قد بدأوا فى فرض سلطانهم على النساء لأن قوتهم الفيزيقية كانت ضرورية للبقاء فى المجتمعات القديمة ، مما جعل الرجال قيمة أكبر من قيمة النساء . فقد كان الرجال يستطيعون الجرى بصورة أسرع وإلى مدى أبعد ، كما أن الرجال أفضل من النساء حين التعرض لهجوم الحيوانات المفترسة أو الغارات البشرية ، كما فرضت متطلبات الحيض والحمـل والولادة أن تعتمد النساء على الرجال فى الحصول على الطعام والحمـاية الكافية ضد مخاطر الحياة

---

(١) Simone de Beauvoir, Nature of the Second Sex; The New English Library, edition, 1963, p. 11.

البدائية (١) .

وفى هذا كله تعتبر المادة الإثنوجرافية التى يأتى بها الباحثون الانثروبولوجيون الحقليون مصدراً خصيباً ومعقولا فى تفسير تلك العلاقة بكل أبعادها الجنسية والقرابية والاقتصادية والسياسيه والدينية . كما تعتبر المادة الإثنوجرافية من أهم الروافد التى تثرى الإنتاج الادبى ، وقد صدر الكثير من الاعمال الادبية العربية والاجنبية على استلهام « التقاليد الاجتماعيـة » .. فقـد كانت المعتقدات الدينيـة « الشعبية » من أهم الروافـد التى صدرت رواية قنـديل أم هاشم ، كما نجح أوسكارلويس فى كتابه بعنوان : « لافيدا أو الحياة » فى صياغة نص أدبى ينطوى على دراسة أنثروبولوجية حقليـة لتاريخ حيـاة أسرة فى ثقـافة الفقر . وقـد استهدف ذلك النص الانثروبولوجى الادبى « الإعلام » فى الدرجة الاولى فقد كان « هذا الكتاب فى جوهرة عبارة عن شريط تسجيل لحياة أسرة من الاسر محدودة الدخل التى يقيم بعض أعضائها فى أحد الاحياء الفقيرة فى مدينة سان جوان فى بورتريكو إحدى الولايات المتحدة الامريكية ، ويقيم البعض الآخر فى مدينة نيويورك ، وقد حاول أوسكار لويس فى هذا الكتاب أن ينقل صوت تلك الفئه من السكان الذين تمثلهم هذه الاسـرة إلى آذان الفئـات السكانيـة والاجتماعية الاخرى فى المجتمع الامريكى من الذين يندر أن يسمعوا بوجود مثـل هذه الاسر بظروفها الاجتماعية السيئة ، كما أراد من ناحية أخرى أن يسجل بقلمـه صورة داخلية لنوع الحياة فى كثير من المناطق والجماعات المحرومة أو الهامشية فى ذلك المجتمع والتى يجهلها الكثير من أبناء الطبقة الوسطى (٢) .

---

(١) Ibid., p. 16.

(٢) محمد عبده محجوب : « لافيدا أو الحياة » — عالم الفكر ، المجلد الاول ، العدد الثانى ، يوليو ١٩٧٠ ، ص ٢٦٨ .

ولقد عرضت الدراسة الأخيرة للتعريف بمجال الأنثروبولوجيا التطبيقية وبخاصة فى حدود تلك الاتجاهات التقليدية التى ترى الأنثروبولوجيا معنية أكثر مانكون بتغيير المجتمعات البدائية والاتجاه بها إلى التحضر والتحديث . وبقدر ماتصدق هذه الرؤية لمجـــال الأنثروبولوجيا إلى حد بعيد ، حيث نجـد أن الأنثروبولوجين مازالوا يوجهون جل اهتمامهم إلى المجتمعات التقليدية أو المجتمعات المحدودة أو الجماعات البـدوية والمناطق الصحراوية بوجـه خاص فإننا نجد « الباحثين الوطنيين » يقومون ببحوث أنثروبولوجية فى مجتمعاتهم « الحديثة المتحضرة » فلم تكن الدراسات التى تقوم فى جامعة الاسكندرية لتقييم مشروع التخطيط الاقليمى لمحافظة أسوان ولاتجاهات المجتمع المصرى نحو العمل اليدوى ومشكلات تدهور المنـــاطق الحضرية فى مدينة الاسكندرية دراسات لجماعات « بدائية » . ولكن هذه الدراسة تنطوى على بيان بأحد السمات التى تميز مانطلق عليه الاتجاه السوسيوأنثروبولوجى فى دراسة المجتمع فهى تبين عن أهمية البعد النظرى فى الدراسة الأنثروبولوجية الحقلية والتطبيقية » .

أما الجزء الثانى فى كتابنا هذا فقد كرس للتعريف لفروع الانثروبولوجيا العامة ومجالاتها والاتجاهات المختلفة فى معالجتها وبخاصة فيما يتعلق بعلم آثار ما قبل التاريخ واللغويات والانثروبولوجيا الفيزيقية والانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية . وقمت وضحت فى هذا الجزء العلاقات التى تربط بين الانثروبولوجيا وغيرها من العلوم الانسانية والطبيعية، كما أبرز بوجه خاص ما أضافته البحوث الانثروبولوجية من معطيات فى تلك العلوم .

أما الجزء الثالث فيضم فصول مترجمة من كتاب أستاذة مرموقـة فى عـلم الانسان هى لوسى مير وهنو بعنوان : مقدمه فى الانثروبولوجيا وقد عنى هذا

الفصل بالتعريف بموضوع هام فى الدراسات الانثروبولوجية المعاصرة وهو العلاقات العرقية كما عالج بكثير من الايجاز والدقة موضوع فى التفكير الاجتماعى والعلاقة بين الدين وبنية المجتمع .

وأخيراً فقد جاء الجزء الرابع ليعالج موضوعاً هاماً فى الانثروبولوجية الثقافية والاجتماعية هو الثقافات الفرعية وقد عنى بتعريف الثقافة والثقافات الفرعية والجماعات العرقية والمجتمعات والفرعية وهو أحد فصول بحث قيم واستحق مؤلفه درجة دكتوراه مع مرتبة الشرف الاولى .

ولعل الكتاب فى مجموعة يسهم فى تأصيل العديد من المفهومات الانثروبولوجية والسوسيولوجية التى تتداول فى الكتابات الاجتماعية كثيراً .

والله من وراء القصد .

الشاطبي — اسكندرية

محمد عبده محجوب

مجال علم الاجتماع

من المعروف والمقبول أن يقوم التعريف بعلم الاجتماع كعلم خاص على أنه دراسة للتجمعات والجماعات في انتظامها واتساقها في تنظيم معين ، وانه دراسة النظم والتنظيم - كما هو دراسة للأسباب ونتائج تغير النظم والتنظيم الاجتماعي. وتتكون الوحدات الرئيسية للبحث السوسيولوجي من الأنساق الاجتماعية وما يرتبط بها من أنساق فرعية ، كما تضم النظم الاجتماعية والبناء الاجتماعي ، والتجمعات والعلاقات والجماعات والتنظيمات الاجتماعية .

الوحدات السوسيولوجية :

ونجد أن أكثر الوحدات السوسيولوجية شمولا هي النسق الاجتماعي الذي يتكون بتفاعل جمع من الأشخاص الذين يشتركون في أن علاقاتهم كل منهم بالآخر تتسق في نظم معينة . أما المجتمع فهو النسق الاجتماعي الامبريقي الذي يتوطن وحدة اقليمية متمايزة والذي يتجدد كما يتجدد أعضاؤه عن طريق التوالد الجنسي في داخله، ولكنه يبقى إلى أبعد من مدى حياة أي عضو معين فيه من خلال التطبيع الاجتماعي لهؤلاء الأعضاء الجدد وانتظامه لهم . ولكل نسق اجتماعي أنساقه الفرعية التي تكون أنساقا جزئية ترتبط وظيفياً به كذلك الانساق الايكولوجية البشرية ، والأنساق الفرعية القانونية أو التشريعيه والتعليمية والأيديولوجية والدينية .

وتعتبر « النظم الاجتماعية » أنماطاً عامة من المعايير التي تحدد السلوك في العلاقات الاجتماعية ، وبقول آخر تحدد النظم الطريقة التي ينبغي على الناس أن يتصرفوا بها ، كما تحدد مشروعية الجزاءات التي يخضع لها السلوك ويعتبر التعاقد

مثالا طيبا للنظام الاجتماعى ، فهو كنظام يتكون من المعايير العامة كتلك التى تقنن التقيد بالاتفاقيات التعاقدية وما يترتب عليها ، ولكنها لا تقرر أو تحدد من سوف يدخلون فى مثل تلك الاتفاقيات ، كما لا تقرر فى حدود معروفة ومنظمة معينة ما قد تحتويه تلك الاتفاقيات . أما البناء الاجتماعى أو المورفولوجيا الاجتماعية .. فهو يعبر عن ذلك التكامل والاستقرار فى التفاعل الاجتماعى الذى يقوم من خلال تقييم المراكز والأدوار مثلا على أساس العمر أو الجنس أو الطبقة .

ويهتم علماء الاجتماع فى الدرجة الأولى بالكائنات الإنسانية كما تظهر فى مواقف التفاعل الاجتماعى التى يأخذ فيها الممثلون كل منهم الآخر فى حسابه أثناء سلوكهم ، أما تلك الأنساق أو الوحدات الرئيسية التى يهتم بها علماء الإجتماع فهى تضم الجماعات الإجتماعية مثل العائلة أو جماعة اللعب ، والعلاقات الاجتماعية والعلاقات الثنائية ، والتنظيمات الاجتماعية ابتداء من تلك التنظيمات الرسمية أو البيروقراطية والاتحادات والأنساق — إلى مثل تلك التنظيمات المحلية كالزمر أو الجماعات المحلية أو المدارس والمصانع والكنائس وغيرها من الجماعات التى تتكون من زمر عديدة — وذلك يعنى أن علماء الاجتماع وإن كانوا معنيين بصفة مبدئية بالكائنات الانسانية فى تفاعلها فهم يعنون أيضـــاً بالتجمعات الإجتماعية أو الجماعات السكانية فى تنظيمها المتسق أو المنظم .

كذلك يهتم علماء الاجتماع بالخصائص التحليليـــة لتلك الوحدات السوسيولوجية ، كما يعالجون العلاقات القائمة فيما بينها باعتبارها تكون مشكلة ، ومن ثم فهم يهتمون بخصائص تلك العمليات التى من شأنها أن تحقق الانتظام كالشرعية والتوافق والترتيب ، ويشغلون أنفسهم بعناصر العلاقات الاجتماعية

كالقوة والسيطرة ، وبعناصر التفاعل كالقسر أو التبادل ، كما يقومون بفحص خصائص الجماعات والتنظيمات وعملياتها .. مثلا فيما يتعلق بقدرتها على اتخاذ فعل جمعى لتحقيق أهدافها . كما هو الحال فى مجازاة السلوك المنحرف أو تعيين المصادر التنظيمية .

أنماط النظرية فى علم الاجتماع :

وحيث تتخذ نظريات علم الاجتماع من العلاقات بين الخصائص التحليلية مشكلة تحاول انتظامها، فإن نوع النظرية يحدد فى كل حالة المشكلات التى تكون موضوعها . ومثال ذلك ان النظرية الايكولوجية فى علم الاجتماع — تعنى بصفة أولية بالصلات المتبادلة والسببية فى المركب الايكولوجى البشرى الذى يتكون من التراكم التكنولوجى السريع واستخدام البيئه والتحول الديموجرافى والثورة التنظيمية . ونجد أن نظرية معينة فى علم الإجتماع الذى يتجه اتجاهاً شمولياً كنظرية تالكوت بارسونز Talcott Parsons تجعل أصلا من طريقة التوافق بين القيم المتنوعة من ناحية - والدوافع المستقرة لدى الأشخاص من ناحية أخرى - كما تجعل من طريقة تقولب هذا التوافق فى النظم التى تتسق فى أنساق اجتماعية موضوعاً لها . ويركز بارسونز- فى توضيحات جاء بها مؤخراً لنظريته - على الديناميات الداخلية للأنساق الإجتماعية ، وذلك على الرغم من أنه يغض النظر إلى حد بعيد عن اتخاذ العلاقات الخارجية مشكلة تعنى بها نظريته فى علم الاجتماع .

وحيث كانت كتابات علماء الاجتماع الأوائل تصدر إلى حـــد بعيد عن .. أو كانت عبارة عن انجازات فلسفية كبرى من نوع التفيق — فهى لم تعر نفسها انتباهاً إلى نمو بنية المعرفة التى كانت ذات خاصية تراكمية ، والتى اتفقت

أيضاً وقوانين أو قواعد العلم — أما بمرور الوقت فقد أصبح علماء الاجتماع يستخدمون ما أطلق عليه روبرت ميرتون Robert Merton نظـــريات المدى الاوسط .

وتتميز المدرسة الثالثة باتجاهها إلى التأويل التـاريخى فى علم الاجتماع ، كما تتميز بتأكيدها للخاصية الشمولية — وذلك على العكس من عـــلم الاجتماع الصورى الذى يؤكد الخاصية الجزئية لهذا العلم . وقد بدأت محاولات لوصف السمات العامة لتاريخ الانسان ، ولرسم الأبعاد المختلفة فى العالم التاريخى ، ولفهم الافكار المعبرة عن الفترات أو الأحداث التاريخية ، وقد أفادت الأعمال الرئيسية لماكس فيبر Max Weber . أو بقول آخر أفادت أعمـــال المدرسة التاريخية الألمانية وبوجه خاص كتابات فيبر . فى تقديم نموذج لعلم الاجتماع التاريخى المعاصر .

ونجد أن معظم الكتابات فى علم الاجتماع المعاصر تركز بطريقة أوأخرى على الخصائص العلائقية بين الأشخاص كممثلين اجتماعيين — وهو تركيز يتسم به كثير من الأعمال فى علم النفس الاجتماعى — أو تركز على العلاقة بين خصائص النظم والتنظيمات فى المجتمعات أو الأنساق الاجتماعية ، وهو تركيز يحددبوجه خاص مجال التنظيم الاجتماعى .

مجال علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى :

ولقد كانت العلاقة بين علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى موضوع مناقشات كثيرة ، وكان هنـاك تساؤل عمـــا إذا كان علم الاجتماع كما تصوره أوجست كونت هو سيد العلوم الاجتماعية ، وعن كونه العلم الاجتماعى العام فى دراسة المجتمعات ، أم هو علم اجتماعي أكثر تخصصاً يبرز الاتساق بين تلك

المشكلات التى يمكن تحديدها كمشكلات سوسيولوجية متميزة ومختلفة عن المشكلات الاقتصادية أو السيكولوجية أو الثقافية .

واجد أكثر المحاولات الحديثة اتساقاً فى معالجة ذلك التساؤل توجد فى كتابات بارسونز . وتقوم وجهة نظر بارسونز على أن النظرية السوسيولوجية إنما تكون جانباً فى نظرية الأنساق الاجتماعية ، ومن ثم فإن علم الاجتماع يحدد كعلم خاص . ويهتم علم الاجتماع بظواهر استقرار أنماط من القيم تتخذ شكل النظم فى النسق الاجتماعى ، كما يهتم أيضاً بالظروف التى يتحقق فيها ذلك الاستقرار أو تطرأ معها التغيرات فى تلك الأنماط ، ويهتم كذلك بظروف توافق تلك النظم مع بنية تلك الأنماط — وبظروف الإنحراف عنها — وبجانب هذا فهو يهتم بالعمليات الدافعية ما دامت تدخل فى هذا كله .

أما النظرية الرئيسية الأخرى فى الأنساق الاجتماعية من وجهة نظر بارسونز فهى النظرية الاقتصادية — التى تعنى بظواهر معقولية اتخاذ القرارات فى نسق منتظم من علاقات التبادل ، وفى داخل هذا الاطار ينظر إلى علم السياسة كعلم تلفيقى قبل كونه علماً اجتماعياً خاصاً يقوم على مجموعة من المتغيرات المحددة التى تعنى بالقوى السياسية .. قبل أن يقوم على خطة تحليلية متميزة علمياً .

وفضلا عما سبق فقد حدد تالكوت بارسونز نظرية النسق الاجتماعى بكونها ليست سوى واحدة من ثلاثة علوم تحليلية فى « الفعل » والاثنان الآخران هما : « نظرية الشخصية » و « نظرية الثقافة » حيث تكون نظرية الأنساق الثقافية المجال الخاص للأنثروبولوجيا ، كما تكون النظريات فى أنساق الشخصية صلب علم النفس .

ولقد اشتغل الباحثون السوسيولوجيون بالمشكلات المرتبطة بموضوع

البحث فى مباحث انسانية وعلمية أخرى ، وإن كانت تلك المشكلات تدخل إلى حد بعيد بطريقة أو أخرى فى المجالات التى تكون جانباً من علم الاجتماع والتى تلقى العناية بها من أبعاد سوسيولوجية ، وهنا نجد أنه على الرغم من أن مشكلات المعرفة قد عولجت فى الحقيقة بواسطة علم اجتماع المعرفة «سوسيولوجية المعرفة» ، ومع ان علم اجتماع المعرفة هو بمعنى هام فرع فى نظرية المعرفة ، فان هذا العلم لم يتحقق له النمو لكونه مجالا متوسطاً بين علم الاجتماع والفلسفة .. وهو ما يصدق قوله أيضاً على تلك المجالات السوسيولوجية الأخرى «كعلم الاجتماع التاريخى» و «علم الاجتماع اللغوى» اللذين أحرزا تقدماً بعيداً فى داخل علم الاجتماع .

أما من الناحية التاريخية فقد ظهرت عدة مباحث وسيطة بين أخرى هى منها فى مرتبة الابوين ، وأكثر المجالات وضوحاً فى تاريخ علم الاجتماع هى الايكولوجيا البشرية — أو الجغرافيا البشرية كما تسمى فى بعض البلدان — والديموجرافيا وعلم النفس الاجتماعى . . حيث نجد علم النفس الاجتماعى كمجال فرعى فى كل من علم النفس وعلم الاجتماع — يعنى بصفة أوليــة بالشخصيات والعمليات الدافعية فى ارتباطها واتساقها مع التنظيم الاجتماعى فى المجتمعات ، أما الديموجرافيا والايكولوجيا البشرية فهما فى وضع مختلف إلى حد ما عن علم النفس الاجتماعى .. وربما كانا غير مؤهلين بصورة تامة ليكونا مبحثين وسيطين .

ولقد كانت الايكولوجيا البشرية تقوم بشكل واسع كجانب فى نظـــرية النسق البيئى يتوسط بين علم البيئة المناخية والعلوم الاجتماعية . ومهما يكن من شيىء فإن نمو نظرية فى النسق البيئى إنما يمثل حالة أولية ، ومن ثم فإن العمل

فى الايكولوجيا البشرية قد قام فى داخل علم البيئة المناخية والعلوم الاجتماعية منفصلة قبل أن يقوم فى أى مبحث هامشى بينهما . كذلك فقد قام العمل فى الديموجرافيا بشكل واسع بواسطة علماء الاجتماع وعلماء الاقتصاد ، ثم جاء علماء الطب البيولوجى لينضموا إليهم مؤخراً فى مجال تلفيقى أخذ يعــرف بالدراسات السكانية .

مجالات علم الاجتماع :

لا يوجد هناك تقسيم معقول لعلم الاجتماع على هيئة مجالات البحث تنبع من النظرية السوسيولوجية العامة ولا يمكن الشك فى أن كلا منها يكون مبحثاً له استقلاله النسبى ، كما تمكن صياغتها كأبنية منفصلة من المعرفة . ولمــا كنا نفتقر إلى نظرية سوسيولوجية مقبولة بوجه عام تسمح بتلك القسمة المعقولة فى علم الاجتماع ، فقد انشغل علماء الاجتماع باهتمامات فى تلك الوحــدات الرئيسية للبحث السوسيولوجى التى عرضنا لهــا فيما سبق ، كما عنوا بمشكلات اجتماعية معينة كجناح الأحداث مثلا الذى أصبح يكون مجالات اهتمام ينظر إليها من آفاق سوسيولوجية .

ولقد سيطر تقسيم أوجست كونت لعلم الاجتماع بين الاستاتيكا الاجتماعية — الثبات الاجتماعى — والديناميكا الاجتماعية — التغير الاجتماعى — على أعمال هربرت سبنسر Herber Spencer ولستر وارد Lester Ward . وارتبط ظهور علم الاجتماع كبحث أكاديمى بميل — فى علم الاجتماع الأمريكى بوجه خاص — نحو تصنيفه بطريقة تتميز بالكثير من التفصيل والتقسيم فى مجالات موضوعية متمايزة .. وذلك كوسيلة لتنظيم خطة هذا العلم ، وهذا فى نفس الوقت الذى كان فيه العلماء الرواد — وبخاصة عندما كانوا مثل دوركايم

محررين المجلات العلمية — يشعرون بأنهم خليقون بتقسيم علم الإجتماع الى « مجالات » متمايزة متفقة مع ذلك التمايز القائم بين الآفاق السوسيولوجية .

ويمثل عدد عام ١٩٠٢ فى مجلة حوليات علم الإجتماع L'annee sociologique ذلك التصنيف المدرسى الذى ينصب إلى دوركايم وزملائه من محررى تلك المجلة ، حيث قاموا بتقسيم علم الإجتماع إلى مجالات متمايزة فى علم الإجتماع العام هى : علم الإجتماع الدينى ، وعلم الإجتماع القانونى ، وعلم الإجتماع الأخلاقى ، وعلم الإجتماع الجنائى ، والإحصاءات المعنوية ، وعلم الإجتماع الإقتصادى ، والمورفولوجيا الإجتماعية ، ومجموعة أخرى من الفروع المختلفة تضم علم الإجتماع الجمالى ، والتكنولوجيا ، واللغة ، والحرب .

وقد لاحظ الناشرون أن مجلة علم الإجتماع الألمانية Zeitschrift fur Socialwissenschaft ، والمجلة الإيطالية لعلم الإجتماع Rivista Italiana di Sociologia والمجلة العلمية الفصلية للفلسفة وعلم الإجتماع Vierteljahrschrift fur Wissenshaftliche Philosophie und Soziologie قد اعتمدت على مقولات أخرى فى تحديد فروع علم الإجتماع .. حيث نجد مثلا علم نفس الجماهير ، وعلم النفس الفردى والطبى ، والطب الوقائى ، والتاريخ الطبيعى ، والتشريح الإجتماعى ، وعلم النفس الإجتماعى ، والديموجرافيا — بينما تتضمن المجلة العلمية الفصلية للفلسفة ، وعلم الإجتماع ، وعلم النفس ، وعلم اللغة ، والجمال ، والتربية . ولكن يمكن القول أنه بمجىء عام ١٩٠٢ قدم علماء الإجتماع تحديداً تام الوضوح لمجالات الإهتمام المدرسى الرئيسية فى علم الإجتماع ، وهو تحديد قد استمر لخمسة عقود تلت ذلك التاريخ .

وحتى وقت قريب جداً لم تكن تلك المجالات المتنوعة فى علم الإجتماع

تحظى بعناية متساوية فى كل البلاد المختلفة . كما لم يغفل علماء الإجتماع فى أى بلد معين أكثر من توجيه العناية إلى بعض من تلك المجالات . وقد كانت هناك اختلافات مثيرة وهامة بين البلاد المختلفة فيما يتعلق بمدى الإهتمام الذى لقيته تلك المجالات المتنوعة فى علم الإجتماع ، فنجد مثلا ان بعض الفـــروع التى تقدمت فى وقت مبكر جداً فى البلاد الأوروبية — ظلت لا تلقى سوى القليل من الإهتمام فى الولايات المتحدة حتى الحرب العالمية الثانية ، حيث تقدمت بعدها بشكل سريع حقاً . ونجـد بين تلك المجـالات التى نالت قدراً أكبر من الأهمية علم الإجتماع السياسى ، وعـلم الإجتماع القـانونى — سوسيولوجية القـانون — وعـلم الإجتماع الدينى — سوسيولوجيـة الدين .. كما نجد تلك المجالات التى لا تزال لا تلقى سوى الإهتمام الطارىء فى علم الإجتماع الأمريكى مثل : سوسيولوجية الفنون التشكيلية والتعبيرية — عـلم الإجتمـاع الجمالى ، وسوسيولوجية الرياضة ، وسوسيولوجية اللغه — عـلم الإجتمـاع اللغوى . كما أنه يمكن القول دون تحديد لصورة معينه للتقدم الذى حققـه علم الأجتمـاع العام بأن علماء الإجتماع الأمريكان قد قطعوا شوطاً غير بعيد فى مجـال سوسيولوجيه المعرفه ، وذلك كله على العكس مما تناله تلك المجالات من اهتمام فى بعض البلاد الأوربية .

انجازات علم الإجتماع الأمريكى قبل عام ١٩٤٠ :

لعل ذلك النمو أو التقدم الذى تحقق مؤخراً فى علم الإجتماع الأمريكى — وبخاصه فى بعض المجالات التى أشرنا إليها فيما سبق — كان نتيجـه لمجموعـة من العوامل المتنوعه التى يحتل عاملان منها أهمية خاصة ، ويتمثل أولهما فى أن الجامعات الأمريكية قد فصلت بين علم الإجتماع وبعض المباحث الأكاديمية

الأخرى بطريقه أكثر تحديداً وذلك بالمقارنه بما فعلته الجامعات الأوربية ، ويلاحظ هذا بوجه خاص فى حالة القانون الذى يدرس فى مدارس مهنية متخصصه منفصله عن كليات الفلسفة والعلوم والإنسانيات . وفى الحقيقة كانت لعلماء الإجتماع الأمريكان حتى عام ١٩٤٠ اتصالات قليله بالمدارس المهنيه المتخصصة الأخرى ، وذلك فيما عدا مدارس الخدمة الإجتماعية والتربية . وفضلا عن هذا كله فقد كانت كل العلوم الاجتماعية فى الجامعات الأمريكية — فى اندفاعها نحو تثبيت أركانها كمباحث علمية — تدعم إنفصالها عن المباحث الانسانية والآداب والفنون . ولما كان هذا يصدق حتى الوقت الحاضر ، فإننا لا نزال نجد علماء الاجتماع الأمريكان يوجهون قليلا من أعمالهم نحو سوسيولوجية الفنون التشكيلية والتعبيرية كما سبقت الاشارة إلى ذلك ، وحيث نجد أن التاريخ يميل لأن يكون مبحثاً انسانياً — أكثر من ميله إلى عكس هذا الاتجاه — فقد كان علماء الاجتماع غير تاريخيين . ولاشك فقد كان لاتخاذ كثير من علماء الاجتماع الأمريكان العلم الطبيعى نموذجاً يحتذى به فى أبحاثهم أن يؤدى إلى فصل علم الاجتماع عن التاريخ والانسانيات متضمنة الفلسفة .

أما العامل الرئيسى الثانى الذى يمكن تبينه فى فشل علم الاجتماع الأمريكى فى أن يقطع شوطاً فى معالجه بعض المشكلات التى عنى بها علماء الاجتماع الأوربيون — كان هو الاهمال المقصود لمشكلات القيمه أو للصيغه التى تنتظم فيها القيم فى المجتمع الأمريكى أو غيره من المجتمعات . وفيما عدا بعض الاستثناءات - مثل دراسة توماس وفلوريان زنانيكى W, I. Tomas and Florian Znaniecki لجماعات المهاجرين ، فقد كان علماء الاجتماع الأمريكان يصادفون

مبدئياً على وجود القيم ، كما ضاقت الحدود التى كانوا يميلون فيها إلى اتخـــاذ القيم كمشكلات تبدأ منها بحوثهم — وذلك لأنهم اعتقدوا أن علم الاجتماع الحقيقى يجب أن يكون متحرراً عن القيمة . وفضلا عن هذا كله فهم بوجه عام لم ينظروا إلى القيم على أنها صالحة لتكون موضوعاً للفحص الامبريقى — إلا حين تتجسد فى صورة اتجاهات أو آراء شخصية ، ومن ثم فلم يكن هناك ميل إلى استقصاء الدراسات المقارنة للقيم فى أنساق المعتقدات مثل الأنساق الايديولوجية أو الدينية أو القانونية .

وبالتأكيد فقد بدأ علماء الاجتماع تدريجياً باستقصاء المشكلات فى بعض تلك المجالات ، ولكن ذلك كان إلى حد بعيد من خلال الاهتمامات الأصيلة فى علم الاجتماع كدراسة الوظائف أو المهن أو التنظيم الاجتماعى للعمل ، قبل كونه من خلال الاهتمام بالنظم أو الأنساق المقارنة .. ومن ثم فإن علم الاجتماع القانونى قد بدأ بشكل واسع بدراسات حول المحامين ، كما بدأ علم الاجتماع الطبى . سوسيولوجية الطب — بدراسات حول الأطباء والتنظيم الاجتماعى للعلاقات القائمة بين الطبيب والمريض ، وبدأ علم الاجتماع الفنى والأدبى — سوسيولوجية الفن والأدب — بدراسات حول الموسيقيين والكتاب .

ومهما يكن من شيىء فقد كان علم الاجتماع الأمريكى يكاد أن يكون وحيداً فى محاولته تنمية البحث فى المنهجية كمجال خاص فى علم الإجتماع ، ومع أن علماء الإجتماع الأمريكيين لم يخترعوا سوى القليل من طرق جمع وتحليل المادة فسرعان ما قبلت تلك الطرق كجزء من المنهاج السوسيولوجى ، كما أصبحت تمثل محكاً أو معياراً يطبق أحياناً بطريقة خاطئة فى تقييم وضع علم الاجتماع.

ولقد عمل علماء الاجتماع الأمريكان مؤخراً — وقبل أن يكون ذلك بطريقة واعية — على تنمية علم الاجتماع الرياضى ، ويبرز هذا بصورة تستحق النظر فى محاولات هذا العلم لصياغة نماذج السلوك والتنظيم بوسائل رياضية ، أكثر مما يبرز فى الاضافات النظرية أو الجوهرية التى أضافها هذا الفرع فى علم الاجتماع العـــام .

ومع أن الجغرافيا البشرية قد استمرت فى النمو والتقدم فى البلدان الأوربية — فقد نشأت بصفة أولية خارج علم الاجتماع . ولقد اتجه علماء الاجـــتماع الأمريكان بطريقة أو أخرى إلى تنمية الايكولوجيا البشرية التى تشترك فى الكثير مع الجغرافيا البشرية ، أما التقدم الوحيد القابل للمقارنة فى أوربا فقـد كان فى مجال المورفولوجيا الاجتماعية . وقد كان هذا فى فرنسا بفضل دوركايم وحواريه موريس هالفاكس Maurice Halbwacks

وحتى عام ١٩٤٠ كان علم الاجتماع الأمريكى يبدو وكأنه يضم عـــدداً جوهرياً من مجالات البحث — بالاضافة إلى النظـرية السوسيولوجية ومناهج البحث — وكانت هناك جبهة تضم دراسات « الجماعة المحليـة » ، و« الايكولوجيا البشرية » ، و« علم الاجتماع الريفى » ، و« علم الاجتماع الحضرى » كأقسام رئيسية ، كما كانت هناك جبهة أخرى تضم المشكلات الاجتماعية ، والعلاقات السلالية ، والفقر والعوز ، وجناح الأحداث كمجالات تخصصية هامة فى علم الاجتماع . ولقـــد ظهر علم النفس الاجتماعى المرضى كمجال خاص فى علم الاجتمـاع يهتم اهتمـاماً قويا بالصحة العقلية ، وإن كان لا يلقى حالياً سوى القليل من العناية كما أصبح يعتبر قسما فى علم النفس الاجتماعى .

وكانت « الديموجرافيا » و« العائلة » تكونان المجالين الرئيسيين الآخرين بين

مجالات الاهتمام خلال الفترة التى سبقت عام ١٩٤٠ . كما تضمنت خطة علم الاجتماع مقررات أو موضوعات أخرى تغطى مجالات عريضة من الاهتمام السوسيولوجى، وكانت المقررات الرئيسية التى تتمتع بهذه الخاصية هى : «النظم الاجتماعية » و « التنظيم الاجتماعى » ، و « التغير الاجتماعى » . وقد تكاملت موضوعات البحث فى تلك المقررات بعد عام ١٩٤٥ مع تلك المجالات الخاصة الجديدة التى عنى بها علم الاجتماع .

مجالات علم الاجتماع الأمريكى :

وحيث يمكن النظر إلى نمو مجالات الاهتمام فى علم الاجتماع كمشكلة فى سوسيولوجية المعرفة ، فإننا نجد أيضاً أنه بينما يكون وجود مشكلة معينة فى علم الاجتماع نتيجة انمو فى النظرية والمنهج فى هذا العلم .. فإن هناك بالضرورة ظروف اجتماعية تحتم وجود المشكلة فى المجتمع الذى يكون موضوع هذا العلم. ومثال ذلك أن مشكلات الهجرة فى المجتمع الأمريكى - وغيرها من المشكلات الأكثر حدة كمشكلات الأقلية السوداء - قد أثرت بلا شك فى نمو مجال العلاقات السلالية والعرقية فى علم الاجتماع الأمريكى ، وذلك بأكثر مما فعلت « نظرية الاتصال الثقافى » أو « نظرية العلاقات بين الجماعات » . وبالمثل فإن الاهتمام القوى بالقيم فى علم الاجتماع السياسى الأوربى - وسيطرة علم الاجتماع الماركسى فى بلدان أوربا الشرقيه والاتحاد السوفيتى — إنما يرتبط جذرياً بالتغيرات التى طرأت على الأنساق السياسية فى تلك البلدان .

أما فيما يتعلق بأهمية الظروف والأحداث التاريخية فى تحديد مجالات ومشكلات علم الاجتماع ، فقد كانت ذات تأثير أبعد مدى من أى تأثير آخر نتج عن النمو التراكمى فى العلم ذاته ، كما أن من الطبيعى أن تؤثر المصادر

المتاحة - لتقصى المشكلات فى مجالات معينة فى أى مجتمع - فى النمو النسبى بين المتخصصين فى أى علم يعنى بتلك المشكلات والمجــالات ، كذلك فإن تلك المصادر تتكون تبعاً للدلالة التاريخية لتلك المشكلات .

ولقد نما عدد مجالات البحث الخاصة فى علم الاجتماع الأمريكى نمــواً كبيراً لدرجة أن برنامجاً مثالياً للرابطة الأمريكية لعلم الاجتماع قد تضمن مقالات فى نيف وأربعين مجالا متمايزاً . وقد حصر السجل القومى للأفراد العلميين والفنيين فى الولايات المتحدة ثلاثة وخمسين تخصصاً فى علم الاجتماع - ولكن تلك التخصصات تجمع عادة فى عدد أقل من مجالات البحث الواسعة - ويمكن وصف التنظيم الشائع لعلم الاجتماع الآن فيما يلى :

١ ـــ النظرية ومناهج البحث السوسيولوجى .

٢ ـــ التنظيم الاجتماعى متضمناً : النظم المقارنة التنظيم الاجتماعى المقارن ـــ البناء الاجتماعى المقارن ، كما يعنى فى بعض الأحيــان بالمورفولوجيا الاجتماعية .

٣ ـــ الجماعات الاجتماعية ، والديموجرافيا ، والأيكولوجيا البشرية ، وعلم النفس الاجتمــاعى كمبحث وسيط رئيسى تخصصى له برامج قوية فى الأقسام الأكاديمية لعلم الاجتماع - أو كبرامج ملحقة بأقسام العلوم الأخرى - ويبقى بعد هذا كله اهتمام قوى بما يسمى الآن بوجه عام ، علم الاجتمـــاع التطبيقى ، متضمناً التخطيط الاجتماعى ، والمشكلات الاجتماعية .

ولقد كان علماء الاجتماع يميلون باستمرار الى زيادة استلهام مشكلاتهم من النظرية السوسيولوجية ، وقليلا ما كانوا يفصلون بين النظرية والمنهج .

ومن ناحيه أخرى فقد اتجه علماء الاجتماع الذين اشتغلوا بتلك المجالات الوسيطة - وبعلم الاجتماع التطبيقى - أكثر فأكثر إلى تحديد أشكال تخصصاتهم فى حدود المشكلات الجوهرية الأصليه فى الاهتمامات السوسيولوجية . ونجد اليوم أن أعمال علماء الاجتماع فى علم الاجرام مثلا لا يمكن أن تغطى المجال كله وإن كانت تركز على سوسيولوجية الجريمة التى تشمل مشكلات التفاعل بين الضحايا والجناة ، والتطبع الاجتماعى بالسلوك المنحرف أو السلوك الجنائى ، والجزاءات والتنظيمات الرسمية الأنساق الجزائية ، كما اتجه علماء الاجتماع الذين اشتغلوا بعلم النفس الاجتماعى نحو الاهتمام بالمشكلات الجوهرية التى تدخل فى صلب علم الاجتماع ، والتى تعنى بدور التطبيع الاجتماعى وعلاقه البناء الاجتماعى والتنظيم الاجتماعى بالشخصيه ، وعلاقه النظم الاجتماعية بأنساق الشخصية ، وبتفسيرات التوافق والسلوك المنحرف . أما علماء الايكولوجيا البشرية فهم يهتمون بشكل رئيسى بأنساق العلاقات المشتركة المنظمة ، وبتقسيم العمل وترتيبه ، وبنمو التكنولوجيا وتنظيمها . كما ازداد تحول علماء الاجتماع المشتغلين بالدراسات الديموجرافية إلى مواجهه أسئلة عن كيفية مساعدة النظم الاجتماعيه والبناء الاجتماعى فى تحديد العمليات الأساسية للخصوبة ونسبة الوفيات والمرض ، كما فى تحديد العمليات الثانوية كالهجرة والتمايز أو الاختلاف البنائى فى قوة العمل ، وقد ازدهرت الديموجرافيا الصوريه والديموجرافيا المقارنة كمجالين تخصصين متمايزين .

وفى حدود تلك الأقسام الرئيسية فى علم الاجتماع لم تكن مجالات النظم المقارنة ، والتنظيم الاجتماعى المقارن قد قسمت بعد إلى أقسام فرعية فى مجالات تحليلية متمايزة ، وقد كانت هناك بعض المجالات التحليلية المتمايزة التى تتجه إما عن اهتمام ببعض الخصائص التحليلية الرئيسية لوحدات التنظيم الاجتماعى أو

النظم الاجتماعية ، أو من اهتمام ببعض مجموعات من المشكلات فى النظم والتنظيم الذى تنسق فيه تلك النظم .

ولعل الاهتمام بالتغير الاجتماعى قد انعكس فى دراسة السلوك الجمعى والحركات الاجتماعية ، أو فى دراسة التنمية الاجتماعية والاقتصادية فى الدول الحديثة ، كما انتج التخصص فى مجالات الترتيب الاجتماعى والوظائف والمهن عن إهتمام أشد أصالة بالبناء الاجتماعى أو المورفولوجيا الاجتماعية كما ظهر التنظيم الرسمى والبيروقراطى كمجال تخصص فى التنظيم الاجتماعى المقـــارن .

وبعد فإن الهدف الكبير للاحاطه بالكتابات فى النظم وتنظيماتها — فضلا عن التنظيم الاجتماعى للبحث والتدريب الأكاديمى — قد دفع إلى مجموعات بكاملها من مجالات التخصص التى ترتكز على نظم معينة ، كما تعنى بانتظامها فى أنساق فرعية من المجتمعـــات . وبين أكثر تلك المجالات الخاصة شهرة كان الاقتصاد والمجتمع ، وعلم الاجتماع السياسى وعلم الاجتماع الصناعى ، وعلم النفس التعليمى أو سوسيولوجية التعليم ، وعلم الاجتماع الدينى أو سوسيولوجيـة الدين ، وعـــلم الاجتماع الطبى أو سوسيولوجية الطب ، وعلم الاجتماع القـــانونى أو سوسيولوجيـة القـــانون ، وسوسيولوجية الفراغ والرياضة ؛ وسوسيولوجية المعرفة التى تربطها جذور قوية بنظرية المعرفة وعلم الاجتماع معاً .

وبجانب هذا كله نجد هناك اهتماما متزايداً فى مجالات تلفيقية معينة وربما ظهرت تلك المجالات كمباحث وسيطة بين الفروع الرئيسية لعلم

الاجتماع ، حيث نجد علم الاجتماع اللغوى » و«سوسيولوجية الثقافة » كما نجد «دراسة الثقافة الشعبية » و«مجال الاتصالات الجماهيرية» و«الرأى العام». وقد عنى علم الاجتماع التطبيقى بالمجالات التقليدية لعلم الاجرام وجناح الأحداث ، كما كانت هناك مجالات أخرى أكثر جدة مثل الصحة العقلية والفقر والعوز ، وبعد مرور تلك الفترة التى شهدت تحولا نحو التركيز على الاصلاح الاجتماعى ظهر اهتمام خاص بالبحوث الامبريقية ذات الصلة بالمشكلات والسياسات والتنظيمات الرسمية . وترتب على ذلك ان وجدت بحوث تأخذ فى اعتبـــارها التطبيقات العملية ، وذلك فى كل المجالات الرئيسية لعلم الاجتماع تقريباً .

أصول علم الاجتماع كعلم :

ولقد ظهر علم الاجتماع كبنية متسقة من المعرفة متأخراً بشكل أو بآخر بين المباحث العلمية الأخرى . وعلى الرغم من وجود اعتقاد بأن المشكلات الرئيسية فى النظرية السوسيولوجية قد تكررت فى كتابات العلماء والمثقفين فى كل العصور ـ حيث ارتبطت تلك المشكلات بالبحث فى طبيعة الانسان فى تأثرها بالسلوك الجمعى والنظام الاجتماعى بوجه عام ـ فلم تكن هناك وحتى وقت متأخـــر فى القرن التاسع عشر محاولات لتنظيم مسائل أو مشكلات علم الاجتماع كعلم يدرس المجتمع كنسق له مبادىء محددة فى تنظيمه وتغيره .. أو بقول أكثر تحديداً فى كونه محاولة متسقة لوصف وتفسير كيفية دخول القيم والمعايير فى التنظيم الاجتماعى ، كما هو محاولة لوصف وتفسير طريقة انتظـــام النظم فى المجتمعات ، والكيفية التى تتغير بها تلك المجتمعات والتى تتغير بها أنساقها الفرعية المنظمة .

ولقد عولج علم الاجتماع بين العلوم فى ذاته كمشكلة فى علم الاجتماع، أو

بقول آخر كمشكلة فى سوسيولوجية المعرفة . ويمكن ارجاع الظروف المسبقة لظهوره إلى التيارات الفكرية التى بدأت بعصر التنوير ، كما يمكن إرجاعها أيضاً إلى التغيرات الاجتماعية التى حدثت فى القرن التاسع عشر — التى تولدت عنها مشكلات اجتماعية ، كما تولدت عنها أيضاً حركات اصلاحية . وقد وضعت تلك المظاهر من التقدم طبيعة المجتمعات وتغيرها تحت ضوء الفحص العلمى .

ويقرر ماكيفر فى معالجته الموجزة لتاريخ علم الاجتماع فى دائرة معارف العلوم الاجتماعية Encyclopaedia of Social Seiences ان ظهــور علم الاجتماع قد جاء مع ادراك انه ليس هناك نسق للظواهر الاجتماعية قادر بطريقة أو أخرى على احتواء كل النشاطات والعمليات والاتجاهات المتنوعة فى المجتمع . وقد تعمق هذا الادراك ذاته بتزايد مدى تعقد العلاقات الاجتماعية — الذى بدأ مع عصر المدنية الحديثة . وعلى هذا فإن ظهور علم الاجــتماع كمبحث متمايز لم يكن موازياً بأية صورة محددة لظهوره كمبحث علمى يقوم ليس فقط على اعتبار ان المجتمعات تكون أنساقاً لها مبادئها الخاصة فى التنظيم والتغير ، ولكنه يعتمد أيضاً على تطبيق المنهج العلمى وطرق البحث العلمى الملائمة — ان لم تكن الفريدة — فى الدراسة الامبريقية للمجتمعات .

ومع أن تلك الاهتمامات كلها كانت مقررة بطريقة عامة فى مؤلفات أوجست كونت وهى دروس فى الفلسفة الوضعية Course de philosophie positive (١٨٣٠ — ١٨٤٢) ونسق السياسية الوضعية Systeme de pelitique positive (١٨٥١ — ١٨٥٤) ، فقد كان أوجست كونت بمثابة الأب الروحى أكثر من كونه الجد الحقيقى لعلم الاجتماع ، حيث أعطانا اسمه ووضعيته كفلسفة ساعدت فى تشكيل هذا المبحث الذى نطلق عليه « علم الاجتماع » كعلم .

ولعلنا نجد الآن ان تصور أوجست كونت لعلم الاجتماع كعلم اجتماعى عام وخاص فى آن واحد — وتفريعه لمشكلاته . قد أصبح موضوعاً للاهتمامات التاريخية .. حيث عنى أوجست كونت بصـــورة رئيسية بالتنظيم السياسى والعملى للمجتمع ، كما يفهم فى كونه المجموع الكلى للخبرة الانسانية والفكر الانسانى . كما اعتقد أوجست كونت فى تطور العقل البشرى أكثر من اعتقاده بتطور الصور والعمليات المجتمعية ، ومن ثم فقد لجأ كونت للدفاع دون أثبات عن تطبيق ما أسماه بالمناهج الوصفية فى ترسيخ الاعتقاد بخضوع تطور العقـــل البشرى لقوانين محددة .

وحيث شهد القرن التاسع عشر فى اتجاهه إلى نهايته ظهور علم الاجتماع كمبحث خاص بين العلوم الاجتماعية ، فإن إرجاع ظهـوره إلى ظرف تاريخى معين — أو إلى كتابات رجل معين — يعتبر بطريقة أو أخرى أمراً اعتباطياً . ولكن المرء يستطيع بنفس الدرجة من القوة الادعاء بأن علم الاجتماع — كعلم خاص فى المجتمع — كانت جـذوره فى فرنسا ، وأن عالم الاجتماع الذى أعطى الجانب الأكبر فى ظهوره هو إميل دوركايم .

البحوث الاجتماعية كتقليد فى علم الاجتماع :

ونحن نصادر بأن ظهور علم الاجتماع كمبحث خاص بين العلوم الاجتماعية قد تحقق فى القرن التاسع عشر ، نجد أن هناك تقليدين للبحث المدرسى يتلاحمان فى أعمال دوركايم : أحدهما هو تقليد البحوث الامبريقية ، والآخر هو التوسع فى التصورات المجردة عن المجتمع . وأول ما قدر له أن يظهر من هذين التقليدين تمثل فى جمع المادة الاجتماعية وصياغتها فى صورة كمية باعتبارها ذات دلالة بالنسبة لمسائل الدولة ، وكان ذلك بمثابة بداية مبكرة لعلوم السياسة . أما

التقليد الثانى — وهو لم يبتعد عن الصياغة الكمية — فقد كان معنياً بدرجة أكبر بملاحظة الحياة الاجتماعية وبترقية طرق جمع وتحليل المادة الاجتماعية .

ولقـــد تأصل تقليد الصياغة الكمية فى البحوث الاجتماعية بجهود علماء الحساب السياسى الانجليز من أمثـال الشهيرين جـون جرونت John Graunt ووليام بتى Wiliam Petty ، ونمـو الاحصاء المعنوى فى بلجيكا وفرنسا . وكان موضوع الحساب السياسى — كما يتضمن اسمه — هو الحصول على احصاءات وصفية تستخدم فى السياسة العامة والادارة . ومهما يكن من شيىء فإن ظهور أنساق التأمين ـ والنشاطات التجارية الأخرى ـ ربما يكون قدم وجه الاهتمام نحو العناية بأهداف أخرى غير الحاجات السياسية لذلك النوع من الصياغة الكمية . وقد كان وصف سكان الجماعات المحلية والدول بين تلك الأغراض الاحصائية الأولى التى اتسمت مباشرتها ، ومن ثم فإن تقليد الحساب السياسى فى انجلترا قد ارتبط بطريقة مباشرة بنمو الديموجرافيا الحديثة — أكثر من ارتباطه بعلم الاجتماع كعلم خاص .

وكان النمو الرئيسى الثانى فى التاريخ المبكر للصياغة الكمية فيما يسمى بالاحصاء المعنوى يعزى فى العادة الى العالم البلجيكى أدولف كتيلية Adolphe Quetelet . ونجد انه على الرغم من أن أدولف كتيلية قد حظى باهتمام جمهور أكبر مما حظى رجل آخر ارتبط اسمه بالاحصاء المعنوى ، فإنه يمكن الاختلاف حول الادعاء بأنه كان الرجل الأول فى هذا المجال .. حيث نجد مصطلح الاحصاء المعنوى — كما نجد كثيراً من العمل الاحصائى ليس فقط فى مجـــال الجريمة ، ولكن فيما يتعلق أيضاً بالانتحار والقطاء والظواهر المشابهة ـ يظهر فى أعمال أندريه ديجورى شمنوف Andre de Gury Champneuf مدير قسم القضاء الجنائى فى وزارة

العدل الفرنسية فى الفترة من عام ١٨٢١ حتى عام ١٨٣٥ . وقد كانت هناك أعمال سارت فى نفس تلك الخطوط لجون باتست فوريه Jean Baptiste Fourier وأندريه ديشابرول ديكروسول Andre de Chabrol de Crousol ، وقد تمثلت مساهمات هؤلاء العلماء فى الدراسات الاحصائية خلال الفترة من عام ١٨٢١ حتى عام ١٨٢٩ فى بحوث إحصائية فى مدينة باريس ومنطقة السين Recherches statistitques sur la civille de Paris et la department de Seine كما قام العالم الطبيعى الفرنسى الآب دو شاتلية Parent-Duchatlet — فى نفس الوقت — بانجاز بحثه فى الصحة العامة ، وقد كان بحثاً رائداً لسلسلة من المنشورات من نفس النوع كان أكثرها شهرة دراسته للبغاء التى ظهرت فى عام ١٨٣٤ والتى تمثل أهمية باعتبارها إحدى الاضافات المبكرة فى الايكولوجيا البشرية كما هى إضافة فى الاحصاءات المعنوية.

وإذا تغاضينا عن محاولة حسم الادعاءات فيما يتعلق بالاولويات ، فيجب علينا أن نخلص من البينات المتاحة إلى أن أكثر الأعمال الامبريقية فى الاحصاءات المعنوية كان فى فرنسا .. وذلك بالمقارنة بما تحقق بلجيكا فى هذا المجال. ولقد أدى الاهتمام الذى اجتذبته تلك الأعمال إلى تعريف المثقفين الفرنسيين بالبحوث الامبريقية فى الحقائق الاجتماعية ، حيث ألهم الآب دو شاتلية مثلا فى إنجاز عمل أصيل فى جمع وتحليل مادة حول العلاقة بين تلك الأصول الاجتماعية لبغايا باريس واختيارهن لهذه المهنة . وربما كان من نتائج ذلك التقدم الذى تم إحرازه فى فرنسا أن يألف دوركايم تقليد البحث الكمى ممثلا فى الاحصاءات المعنوية أكثر من ألفته بانجازات الحساب السياسى .

وكان الفرع الرئيسى الثانى فى البحوث الامبريقية التى تأصلت بوضوح فى فرنسا مرتبطاً بأعمال فريدريك لبلاى Fredric le Play الذى كان مبع اهتمامه

بشكل واضح بالصياغة الكمية قد نجح فى اختراع طرق فى جمع وتحليل المادة غير الكمية . وحيث يمكن القول بأن شهرة فريدريك لبلاى ترجع إلى تركيزه على الملاحظة الامبريقية للحياة الاجتماعية المعاصرة — وبوجه خاص إلى دراساته فى ميزانيات الأسرة — فقد كان لبلاى كثير العناية بتنمية المؤشرات الاجتماعية ، وبمشكلات التصنيف التى ظهرت فى تحليل المادة الاجتماعية .

ومع ما يتمتع به لبلاى من أصالة عميقة ، فلم يكن لأعماله أثر مباشر فى نمو علم الاجتماع كعلم خاص فى فرنسا . ويبدو أن السبب الرئيسى لذلك يكمن فى حقيقة ان لبلاى كان شديد الالتصاق بحركته الاصلاحية الخاصة التى اتخذت وجهة نظر محافظة فى المجتمع ، كما كانت محافظة أيضـــاً فى البحث الاجتماعى . وقد أسس أتباع لبلاى مجـــلة تحمل ذلك الاسم المعهود « العلم الاجتماعى » Science sociale ، ولكنهم أخيراً انقسموا إلى فريقين أحدهما كانت له نزعة إصلاحية واضحة ، وكان الآخر أكثر توحداً بمنهج لبلاى . وفى غضون ذلك احتل دور كايم وضعاً مسيطراً فى علم الاجتمـــاع الفرنسى ، وقد يرجع هذا فى جانب منه إلى كون دور كايم كعضو فعال فى تلك الجماعة الناهضة من المثقفين الفرنسيين الذين حققوا نجاحاً فى مسألة دريفوس Drefus .

تقاليد النظرية السوسيولوجية :

وكان التقليد الرئيسى الآخر قبل دوركايم يتمثل فى الفكر السوسيولوجى أو بقول آخر أكثر تحديداً يتمثل فى تنمية التصورات المجردة عن المجتمع ، وقد نال البعض منها محكم الصنعة إلى حد بعيد . ويمكن هنا أن نعطى ثبتـــاً بالقائلين بالحتمية الجغرافية من أمثـــال فريدريك راتزل Friedrich Ratzel وبكل T. Buckle والداروينيين الاجتماعيين من أمثـــال هربرت سبنسر

وسمنر W.G. Sumner ،وأصحاب النظرية العضوية مثل شايفل A. Schaeffle وليلينفلد P. Lillienfeld ورينيهورمز Rene Worms ونوفيكو J Novicow كما أن هناك بعض شخصيات الاعلام الآخرين من أمثال إنجلز Engels وماركس الذين كانوا أشد التصاقاً وتوحداً طوال حياتهم بالمذاهب الشيوعية أو النظريات الاقتصادية ، وذلك بصورة أبعد من عنايتهم بتنمية علم الاجتماع فى فى ذاته . وقد جاء تأثير ماركس فى تشكيل النظرية السوسيولوجية بعد وفاته بصورة رئيسية فى وجود ماكس فيبر Max Waber الذى عنى بمجموعة من المشكلات السوسيولوجية ، كما تمثل أيضاً فى التقدم الذى حققه علم الاجتماع الماركسى الذى تطلب مقرراً واسعاً متمايزاً .

ويمكن القول بأن كل هؤلاء الكتاب الاوائل تقريباً قد فشلوا إما فى تمييز علم الاجتماع كعلم خاص فى دراسة المجتمع ، أو فى أن يتخذوا من مركزه العلمى مشكلة يبحثونها . وحتى إذا كان القرن التاسع عشر قد شهد كتاباً يدافعون عن قضية علم الاجتماع كعلم خاص فى دراسة المجتمع ، فقد بقى لدوركايم أن يقرر وأن يسجل هذه القضية بطريقة فعالة ، وذلك عن طريق إدماج العناصر العلمية واتخاذها مشكلة فى هذين التقليدين اللذين سبقت الاشارة إليهما .

دوركايم وعلم الاجتماع العلمى :

لقد نظر كثير من علماء الاجتماع إلى دوركايم على أنه قد أنشأ علم الاجتماع العلمى من خلال بحوثه الامبريقية الكمية فى الانتحار التى اتجه فيها إلى رؤية معدلات الانتحار كظواهر سوسيولوجية ، قبل كونها ظواهر سيكلوجية . ولكن فقد كان فى الامكان الادعاء بصورة أيضاً بأنه قد أنهأ علم

الاجتماع العلمي من خلال بحوثه التاريخية غير الكمية - ومثالها كتاباته في الدين . ولقد كان المنهج — وليست الصياغة الكمية — هو الذي يمثل القضية المركزية بالنسبة لدوركايم الذي عني بوجه عام ببحث المشكلات النظرية الأساسية في دراسة التنظيم الاجتماعي الانساني ، كما عني ببحث المنهج الذي لا مندوحة عنه في مثل هذا البحث . ولما كان علم الاجتماع من وجهة نظر دوركايم هو دراسة الحقائق الاجتماعية ، فلا يجب أن ننسى ان موضوع رسالته لنيل الدكتوراه التي كتبها باللغتين الفرنسية واللاتينية هو قواعد المنهج في علم الاجتماع . وقد أوضح في مقدمته لهذا العمل العلمي أنه يعتبر أسلافه قد فشلوا في التقدم إلى أبعد من تلك التعميمات الفجة في طبيعة المجتمعات أو في العلاقة بين الجوانب الاجتماعية والجوانب البيولوجية والاتجاه نحو التقدم . ويذهب دوركايم في الواقع إلى أبعد من ذلك فيقول أن علماء الاجتماع وقد قنعوا بالمقارنة بين امكانيات الاستدلال والاستقراء في محاولتهم إجراء فحص ظاهري لأكثر الوسائل والمناهج عمومية بين يدي الباحثين السوسيولوجيين ، فهم لم يحددوا نوع المحاذير التي يجب أن تؤخذ في الاعتبار حين نقوم بملاحظة الحقائق — وفي الاعتماد على طريقة معينة تصاغ بها المشكلات الرئيسية ، وفي تحديد الاتجاه الذي يجب أن يتخذه البحث والمناهج المحددة العمل .. والتي قد تساعد البحث في الوصول إلى نتائجه .

ومهما يكن من شيء فإن القول بأن دوركايم قد نجح في جعل علم الاجتماع علماً خاصاً — وذلك بغض النظر عن كونه قد اعتبره علماً اجتماعياً تلفيقياً خاصاً — مع اتخاذ مقالاته في علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية بينة على هذا القول لا يزال يعتبر قضية تقبل المناقشة والجدل . وفضلا عن هذا فلم يكن دوركايم يرضى بشكل واضح عن محاولاته الخاصة ، ويبرز هذا إلى حد بعيد

فى محتويات مجلة حوليات علم الاجتماع لتصنيف البحث فى هـذا الحقل ، ومع هذا فهو لم يكف عن تلك المحاولات سواء حين كانت تتمثل فى تصور علم الاجتماع كدراسة للمورفولوجيا الاجتماعية، أو كما تمثلت فيما بعد فى تحليل المجتمع فى حدود أنساق مشتركة من القواعد والقيم الاخلاقية . وكنتيجة لذلك فقـد أقامت كتابات دوركايم المشكلات الرئيسية فى علم الاجتماع الحديث وذلك بالمعنى النظرى والمنهجى على حد سواء .

ويخلص دوركايم إلى ان دراسته تتطلب منهجاً توليدياً أو مقارناً حيث يقول ان علم الاجتماع المقارن ليس فرعاً معيناً فى علم الاجتماع ، وانما هو يكون علم الاجتماع ذاته ، وذلك إلى الحد الذى ينكمش فيه ليبقى علماً وصفياً بحتاً يستلهم حصر الحقائق . ولكن مالم يتنبأ به دوركايم يتمثل فى أن الحوار حول المنهج كان بعيداً عن الاستقرار ، ليس فقط لأن تلك المجادلات القديمة قد استمرت ولكنها قد اتخذت صوراً جديدة ، فمنذ زمن بعيد وقد انخرط علماء الاجتماع فى مجادلات حادة حول المناهج الامبريقية الأكثر اتفاقاً مع الحاجات السوسيولوجية ، وحول مركز علم الاجتماع كعلم ، وحول دور الصياغة الكمية فى البحوث السوسيولوجية .. ولكن سرعان ماتكافأت تلك الاتجاهات — التى سارت خلالها هذه المعركة — كأوضاع جدلية .

الدراسات الامبريقية المبكرة :

قبل أن نأخذ فى اعتبارنا ذلك الجدل الكلى حول المنهج السوسيولوجى ، فقد يكون من المفيد أن نعرض بإيجاز لتاريخ البحوث الاجتماعية الكمية فى البلاد المختلفة ، حيث انها تتعلق بنمو علم الاجتماع . ومع انه لاتوجد دراسة تاريخية شاملة للبحوث الاجتماعية الكمية — سواء بوجه عام أو فيما يتعلق بعلم

الاجتماع بوجه خاص ــ فان هناك عدداً من الخصائص التى عوقت مع ظهوره ونموه فى بلاد معينة .

ألمانيـــا

لقد قال أوبرشال Oberschall بعناية فى عام ١٩٦٥ انه قد كان هناك الكثير من البحـوث الاجتماعية الكمية فى ألمانيا خلال الفترة من عام ١٨٤٨ حتى عام ١٩١٤ ، ولكن ذلك الوضع قـد افتقر إلى الاستمرارية وأخفق فى الاستقرار على صـورة نظام سواء فى الجامعات أو حتى فى تلك المنظمات مثل منظمة علم الاجتماع السياسى Verien fur Social Politik ، ومن ثم فإن البحوث الكمية وعلى الرغم من محاولات ماكس فيبر وغيره من علماء الاجتماع فى القرن العشرين لم تصبح جزءا لا ينفصـــل فى نمو علم الاجتماع فى ألمانيا . ولقد ساق أوبرشال كثيراً من الحجج على هـذا الاخفاق ووجد أن السبب الجذرى يكمن فى التراث العقـلى الألمانى حيث تسلط أو سيطرة النزعة التاريخية وتركة الفلسفة المثالية التى أثمرت اتجاهاً حدسياً وظاهراتياً تجاه الظواهر الاجتماعية .

كذلك لم ينجح علمـــاء الاجتماع الألمان أيضاً فى تنمية تقليد فى البحوث الاجتماعية الكمية إلى حـــدما لأن علم الاجتماع الألمانى لم ينتظم إطلاقاً كمبحث محدد ، كما ان علماء الاجتماع الأكاديميين الألمان من أمثـــال تونيس Tonnies وماكس فيبر قد فشلوا فى تخطى المناخ القيمى العدائى للجامعة والتغلب على جمود زملائهم والافتقـار إلى المصادر التى تتيح لهم السير بعيداً فى محاولتهم تثبيت البحوث الامبريقية كجزء فى الخطة العلمية للجامعة . وربما يكون هؤلاء العلماء قد فشلوا أيضاً لأن محاولاتهم الخاصه فى تلك البحوث الامبريقية كانت

تعتبر فاشلة بالمقارنة إلى الانجـــازات التى تحققت فى دراساتهم التاريخية والنظرية .

فرنســـا

ولقد عرض لازارزفلد Lazarsfeld للتقاليد الكمية القوية فى الديموجرافيا الفرنسية وفى مدرسة لبـلاى ، ولكن عناصر الاصلاح الاجتماعى التى تضمنتها مدرسة لبلاى قد فصلتها فى المدى الطويل عن علم الاجتماع كبحث خاص ، كما كان تلاميذ لبلاى أكثر ميلا إلى القـــد أستاذهم منهم إلى تنمية منهجه وطرقه فى البحث وفضلا عن هـذا فلم يتوحد أتباع لبلاى ومجلتهم المعروفة بمجلة العلم الاجتماعى Science Sociale أبداً وبأى معنى كلى بالنسق الجامعى الفرنسى ، وقد ساهم ذلك الوضع أيضاً فى الاتجاه إلى التخلى عن مدرسة لبلاى .

وليس من الواضح معـرفة الأسباب التى لم تجعل للبحوث الكمية التى قام بهـا دوركايم أثراً بعيـداً فى تنمية علم الاجتماع الفرنسى ، حيث كان هناك القليل فى علم الاجتماع الفرنسى الذى اتخذ صورة كمية والذى يخرج عن مجال الدراسات الديموجرافية . وقد استمر هذا الوضع سنوات بعد الحرب العالمية الثانية ، بل أننا لانجد حتى الآن جماعة ذات تأثير فى فرنسا تؤكد على الصياغة الكمية فى علم الاجتماع ، وهـذا يصدق أيضاً مع تلك التفسيرات العديدة التى لم يكن أحـدها مرضياً بصورة كليـة . وحيث من الحقيقى أن دوركايم قـد أنجز القليل من العمل الكمى الهام فى الوقت الذى كان فيه علم الاجتماع الفرنسى فى سبيل التكوين ، ولكـن خلال تلك الفترة نشرت دراسة كميـة لموريس هالفاكس Maurice Halbwachs فى « الانتحار » كانت أكثر طرافة من وجهة النظر الاحصائية — حين تقارن بدراسة دوركايم فى الموضوع ذاته ،

كما نشرت رسالة أخرى لفرانسوا سيمياند Francois Simiand تصنف فى فرع القياسات الاقتصادية ، وفضـــلا عن هذا كله فإن التقدم السريع الذى حققته الدراسات الاثنولوجية فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الفرنسية قد ساعد على تحقيق نمو فى الاتجاه الكمى .

انجلـــترا

تختلف حالة البحوث الاجتماعية الكمية فى انجلترا عنهـا فى فرنسا بشكل أو بآخر . وقد ارتبطت تلك البحوث الكمية بأواخر القرن التاسع عشر وبأعمال شارلز بوث Charles Booth وسيبوم راونترى Seebohm Rowntree ، واستمرت تلك البحوث الكمية حتى الوقت الحاضر لتتسلل ببطء وبثبات إلى قلب تقاليد البحوث الاجتماعية ، وبوجه خاص من خـلال تنمية طريقة المسح الاجتماعى . ولقد بذل كل من بياتريس وسيدنى ويب Beatrice and Sidny webb وبصورة جزئية خـلال ذلك الارتباط المبكر بين بياتريس ويب وشارلز بوث — كثيراً من الجهـــد والمثابرة فى جعل البحوث الاجتماعية فى انجلترا أساسا للسياسة العامة . وقد كتبت بياتريس وسيدنى ويب فى أوائل الثلاثينيات من هذا القرن تعريفاً لا يزال يعتبر مرجعاً فى مناهج البحث الاجتماعى ، يبرز أهمية الطرق الكمية ، كما يبرز أهمية طريقة الملاحظة فى البحوث الاجتماعية .

ولقد أثرت طرق الاحصائيين الانجليز فى الاعتماد على العينات فى البحوث الاجتماعية فى انجلترا ، قبل أن تكون لها نفس الطبيعة والفاعلية فى الولايات المتحدة . ومع هذا كله فقـــد حققت البحوث الاجتماعية فى انجلترا تقدمها بصورة أولية خارج الجامعات ، وفى استقلال تام عن علم الاجتماع . كما اننا نجد فى الواقع أن عدداً قليلا من الادارات الحكومية والمؤسسات الخاصة قد

اختص وحده تقريباً بكل البحوث الاجتماعية الامبريقية فى انجلترا بعد عام ١٩٣٠ ، كما انه لم تكن هناك أية بحـــوث اجتماعية كمية بصورة جوهرية فى الجامعات البريطانية حتى الخمسينيات من القرن الحالى ، وذلك فيما عدا مدرسة الاقتصاد فى لندن Lodon School of Economics التى احتضن فيهـــا علم الاجتماع الأكاديمى وبتأثير بياتريس وسيدنى ويب بعض البحوث الاجتماعية الكمية .

الولايات المتحدة

ولقـــد كان من الصعب حتى نهاية القرن التاسع عشر التنبؤ بكون علم الاجتماع الكمى خليق بأن يحقق أعظم تقدم له فى الولايات المتحدة . والواقع انه ليس من الواضح كلية فى الوقت الحاضر الأسباب التى كانت ستؤدى إلى هـذا الوضـع الحالى ، حيث لم تكن الظروف المسبقة التى أحاطت بهذا التقدم كلها ظروفاً مشجعة ، وذلك لأنه على الرغم من الاتجاه المبكر نحـــو إحصاءات وأنساق الحصر العام التى تمخضت عن بعض الاحصاءات ـــ فقد كان هناك تركيز أقل على البحوث الاجتماعية الكمية فى الولايات المتحدة ، وذلك فى نفس الوقت الذى اكتسب فيـه علم الاجتماع مركزه الأكاديمى بها ، وذلك قبل أن يتحقق هذا فى انجلترا أو فرنسا أو ألمانيا أو إيطاليا .

ولقـــد كان هؤلاء الرواد من علماء الاجتماع من أمثال ليستروارد Lester F. Ward ــ الذين يستندون إلى أرضية من العلوم الطبيعية ـــ يبدون قليـــلا من العناية بالبحوث الامبريقيه ، كما كان الآخرون من أمثال سمنر Sumner يهتمون بصورة أولية بمقارنات ثقافيـة أو تاريخية عامة متفقين فى ذلك مع طريقة سبنسر Spencer . وعلى الرغم من أن رسالة كولى Cooly لنيل

درجة الدكتوراه كانت بحثاً إمبريقياً رئيسياً فى موضوع النقل ، فسرعان ماحقق شهرة باهتمامه بفن الاستبطان والملاحظة المنعكسة أكثر من اهتمامه بالبحوث الامبريقية .

ولقد ظهرت خلال تلك الفترة — وبطريقة أو أخرى — بعض الدراسات الاحصائية التى يرعاها علم الاجتماع الأكاديمى ، كما تضمن برنامج تدريب تلاميذ فرانكلين جيدنجز Franklin H. Giddings فى جامعة كولومبيا مدخلا فى الاحصاء ، وكانت إحدى أوائل الرسائل العلمية إلى جامعة كولمبيا دراسة إحصائية تقدمت بها أدنا فيبر Adna F. Weber فى موضوع نمو المدن فى العالم خلال القرن التاسع عشر . وقد تضمن العدد الأول من المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع مقالا فى الاحصاءات السكانية لوالتر ويلكوكس Walter Willcox وقد كان هذا المقال فاتحة لسلاسل طويلة من المقالات فى هذا المجال .

ولكن مع هذا كله فقد كان نمو تقبل علم الاجتماع الأكاديمى فى الجامعات يعتبر أكثر أهمية من أى مؤلف معين فى تقدم علم الاجتماع الامبريقى فى الولايات المتحدة الأمريكية . وحيث كان نيل الدرجات العليا يتطلب كتابة رسائل — وذلك سواء لنيل درجة الماجستير أو الدكتوراه — فسرعان ما أصبحت تلك الرسائل التى قدمت فى علم الاجتماع تكون مضبطة للبحوث الامبريقية فى الحياة الاجتماعية المعاصرة . ومع ان تلك الدراسات التى قام بها طلاب تلك الدرجات العلمية العليا لم تكن بالضرورة دراسة كمية — كما أنها لم تكن فى بدايتها عادة ماتتضمن تحليلات كمية — فقد كانت مع ذلك دراسات إمبريقية بالمعنى الواسع للكلمة عنيت ببحوث أصيلة فى بعض جوانب الحياة الاجتماعية .

وحيث كانت هناك محاولات تبذل عادة لتأسيس تلك الدراسات على نظرية عامة فى الحياة الاجتماعية فقد كانت أكثر ميلا إلى الاستناد على الكتابات والبحوث التى أجريت بالفعل مولدة لتقليد أصيل فى البحوث الامريقية ، ولو أن ذلك لم يؤد إلى نمو تراكمى فى بنية المعرفة العلمية . كما أننا نجـــد من ناحية أخرى أنه مع أن الكثير من تلك الدراسات الامريقية المبكرة كان شديد الالتصاق بحركات الاصـــلاح الاجتماعى والتقدم الاجتماعى فى المجتمع الأمريكى .. فهى لم تكن متقولبة فى أى نموذج للبحوث المقارنة ، كما كانت غالبية تلك البحوث أكثر ميلا نحو عدم العناية إلا « بحالة » أو « جماعة » أو « تنظيم » أو « حركة اجتماعية » معينة .

وجهات نظر مختلفة حول علم الاجتماع :

يكاد انتشار علم الاجتماع فى الولايات المتحدة يصاحبه فى نفس الوقت نمو اهتمام بالغ بمركزة كعلم . وقد كان هنـاك إلى جانب من حاولوا إثبـات علمية هذا المبحث آخرون ساقوا الحجة على أنه لا يستطيع أن يكون كذلك . وحيث كانت المجادلات بنفس الحرارة فى كلا الجانبين ، فقد كانت بطريقة أو أخرى تنطوى على تنافس غير متكافىء .. وذلك لأن الجماعة التى كانت تنادى بعلمية البحوث السوسيولوجية تقوى من وضعها بتبنى اتجـــاه إمبريقى قوى حقق نجاحاً متزايداً فى صياغة المادة الاجتماعية فى صورة كمية ـــ كما نجح فى اختراع طرق ملائمة للبحث ـــ وذلك فى نفس الوقت الذى كان فيه معارضوهم من الناحية الأخرى لا يتوفر لهم من قليل ليعطوه ســـوى دعاواهم المؤيدة للتقليد الفلسفى التاريخى .

وبالتأكيد حيث لم يكن علماء الاجتماع الامريكيون وحدهم فى هذا الجدل

ولكن الخطوط كانت مرسومة بصورة أكثر وضوحاً فى الولايات المتحدة . ويرجع ذلك فى جانب منه إلى أن تلك الدولة تضم عدداً من علماء الاجتماع يزيد عن عددهم فى أى بلد آخر ، كما يرجع أيضاً إلى أن هؤلاء العلمـــاء الامريكيين كانوا منخرطين فى مزيد ومزيد من البحوث الامبريقية . وقد بدا ظاهراً لبعض الوقت ان الجدل أو الدفاع فى جانب البحوث الامبريقية المتسقة يكاد يكون أكثر أهميه من استخدام تلك البحوث فى أعمال هؤلاء المدافعين أنفسهم . ولهذا فقد دافع عالم الاجتماع الايطـــالى الشهير فيلفريدو باريتو Vilfredo Pareto فى مؤلفه بعنوان : « رساله فى علم الاجتماع العام » باقتناع فى جانب تنمية علم اجتماع ينأى عن كل الأحكام القيمية ، ويعتمد بدلا منها على المنهج المنطقى التجريبى ، وذلك فى نفس الوقت الذى ظلت فيه مناقشاته للبقايا والأصول كبواعث حية فى علم الاجتماع الايطالى ، كما كانت نظريته المشهورة فى دورة « الصفوة » التى تقوم فى الدرجة الأولى على مادة اجتماعية ذات طبيعة تصويرية وقصصية .

ومنذ العشرينيات من القرن الحالى بدأت المحاورات بين علماء الاجتماع الامريكيين — حـــول المنهجية أو المناهج وطرق البحث المناسبة للبحوث السوسيولوجية — تحجب الجدل حول وضع النظرية السوسيولوجية . وسرعان ما نما استقطاب الأوضاع والأشخاص فى تلك المحاورات التى كان المتحدثون الرئيسيون فى جانب منها هم علماء الاجتماع الذين تدربوا فى أوربا من أمثال : بتريم سوروكين P. A. Sorokin وفلوريان زنانيكى Florian Znanieki ، وكان فى الجانب الآخر علماء الاجتماع الذين تدربوا فى أمريكا وكان المتحدث الرئيسى باسمهم هما جورج لندبرج George Lundberg وستيوارت

دود Stuard Dodd يؤيدهما كل من وليام أوجبرن W. F. Ogburn — الذى كان يتمتع بصوت أكثر هدوءاً ، مع أنه كان مؤلفاً مثمراً فى الدراسات الكمية — وتلميذه صموئيل ستوفر Samuel A. Stoufer .

وقد زعم سوركين وزنانيسكى ان العلوم الاجتماعية هى علوم ثقافيـة ، كما ادعى سوروكين أن الظواهر الاجتماعية الثقافية ـ وهى تختلف بصورة جوهرية عن الظواهر الطبيعية الكيميائية أو الظواهر البيولوجية ـ إنما تقوم على ثلاثة مكونات رئيسية هى :

أ — المعايير غير المادية التى لا يحدها مكان أو زمان .

ب — الاشياء المادية التى تجسم المعانى .

جـ — الكائنات البشرية التى تنتج وتحمل وتستخدم وتضع تلك المعـــانى موضع العمل بمساعدة الاشياء المادية .

كذلك فقد زعم سوروكين أن نماذج السبب والأثر القائمة فى العـــلوم التقليدية لا تنطبق على الظواهر الاجتماعية الثقافية ، لأن أعضاء الرتبة الاجتماعية الثقافية إنما تربطهم معاً المعانى الثقافية وليست الخصائص الجوهرية .. ومن ثم فإن العلوم الاجتماعية الثقافية تتطلب منهجية خاصة تعتمد على العلية المنطقية أو المنهج التكاملى . ويزعم زنانيكى أيضاً أن العلوم الثقافية تختلف عن العـــلوم الأخرى بسبب العامل الانسانى ـ الذى يلتحم بالقيم والمعانى المحددة ثقافيا ـ كما يدعى أيضاً بأن المنهج المناسب لعلم الاجتماع هو المنهج الاستقرائى التحليلى .

ولقد شهدت هذه الفترة أيضاً حواراً بين علماء الاجتماع عن بعض المسائل الفلسفية الكلاسيكية . التى تدور حـــول الطبيعة الاسمية أو الحقيقية للحقائق

الاجتماعية ، والتى تتساءل عما إذا كان علم الاجتماع قد تخلى عن الارادة الحرة بتبنى الحتمية الاجتماعية .

ولكن فقد كان ذلك الخط الذى فصل بين الاوضاع المختلفة فى ذلك الجدل حول المنهج السوسيولوجى لا يبين كثيراً عما إذا كانت المادة الاجتماعية يجب أن تصاغ فى صورة كمية — أم أنه ليس من الضرورى أن تتخذ تلك الصورة وذلك كاختيار بين أسس منطقية متمايزة فى تعيين علاقات العلة والآثار بين المتغيرات السوسيولوجية . ومن وجهة نظر أولئك النقاد من أمثال سوروكين وماكيفر *Mc Iver* وروبرت ليند *Robert S. Lynd* فإن المدرسة الكمية مع ميلها نحو الاحصائيات — وبخاصة فيما يتعلق بمناهج الارتباط — واتجاهها إلى الاعتماد على الطريقة المختبرية أو التجارب الطبيعية التى تعقبها . ومن وجهة نظر نقدية أيضاً كان من الخطأ تطبيق منطق جون ستيوارت ميل *J. S. Mill* على الظواهر الاجتماعية . ومن ثم فلم يكن سوروكين رافضاً لصياغة المادة الاجتماعية فى صورة كمية ، ولكنه كان رافضاً لمنطق يتوقف عند نماذج معينة للتحليل الكمى .

ولقد أبدى ماكيفر شكوكاً مشابهة لشكوك سوروكين ، مدعياً أن التعليل الاجتماعى — وذلك على العكس من التعليل الطبيعى أو البيولوجى — يتضمن صلة إجتماعية نفسية . كذلك فقد هوجم أنصار الصياغة الكمية — كما أخذوا يعرفون بذلك — هجوماً يستند إلى مقومات أخرى ، حيث وجهوا مثلا بأنهم يختبرون فروضاً توتولوجية بسيطة ، أو بأنهم مشغولون ببحث مشكلات هزيلة فيما تتضمنه من مساهمة فى تكوين النظرية السوسيولوجية . ولقد كان مؤلف ليند الموسوم بالمعرفة لماذا ؟ *Knowledge for What ?* الذى صدر

عام ١٩٣٩ صرخة استنكار ضد تلك القابليات وغيرها فى العالم الاجتماعى الامريكى خلال العشرينيات والثلاثينيات من القرن الحالى .

علم الاجتماع منذ الحرب العالمية الثانية :

انقسمت أرض المعركة ابتداء من عام ١٩٤٥ بطريقة أو بأخرى إلى مجادلات حول الطبيعة الاجرائية فى علم الاجتماع ، وحول مقاييس اختيار النماذج التحليلية فى البحث الاجتماعى . ولكن تلك المجادلات لم تصبح أبداً ذات صورة استقطابية كتلك المجادلات التى شهدتها فترة ما قبل الحرب . وبينما قوبل دخول علم الاجتماع الرياضى فى المجال بالشك من كثير من علماء الاجتماع ، فقد أثار كثيراً من الجدل الحاد فى ذلك البحث ككل ، وأن كنا نجد اليوم فى الواقع كثيراً من علماء الاجتماع الذين يتكلمون عن آثار التفاعل بالمعنى الاحصائى والمعنى النظرى معا .

وربما كان المانع الهام فى استمرار ذلك الجدل خلال هذه الفترة هو تقلص الفصل بين النظرية والمنهجية فى علم الاجتماع . ويرجع هذا بصورة جزئية إلى ما قام به تالكوت بارسونز *Talcott Parsons* لدفع النظرية السوسيولوجية إلى الاستناد على الفحص السوسيولوجى . وسواء قبل علماء الاجتماع نظرية بارسونز أو لم يقبلوها ، فقد أصبحوا أكثر وعياً بمدى أهمية تلك النظرية لأبحاثهم . وقد أصبح روبرت ميرتون *Robert Merton* المعبر الرئيسى عن التكامل بين النظرية السوسيولوجية والفحص الامبريقى ، كما عمل المنادون الجدد بالصياغة الكمية فى علم الاجتماع من أمثال بول لازارزفيلد *Paul F. Lazarsfeld* ولويس جوتمان *Louis Guttman* فى اتجاه تحقيق تكامل أكبر بين نماذج التحليل الكمى والنظرية السوسيولوجية . وفضلا عن

هذا كله فإن البحوث الامبريقية فى علم الاجتماع قد نضجت بطريقة أو أخرى ومن ثم فإن عدداً متزايداً من الدراسات قد انبثق مباشرة عن مشكلات فى النظرية السوسيولوجية أكثر منه عن اهتمامات عملية آنيـــة . كما كانت تلك الدراسات أكثر استغراقاً فى إجراءاتها التكنيكية بالمقارنة عما تم من دراسات سابقة .

وقد كانت هناك بحوث امبريقية رئيسية معينة كرست لمشكلات فى النظرية السوسيولوجية ، وبالمثل فقد تركت آثاراً يجب أن تؤخذ فى الاعتبار فيما يتعلق بفترة ما بعد الحرب مباشرة — وبخاصة فيما يتعلق بدراسات توماس *Thomas* وزنانيكى *Znanieki* ، وتلك الدراسات التى قامت فى مدرســـة شيكاغو باشراف برجس *Burgess* وروبرت بارك *Robert Park* خلال العشرينيات من هذا القرن . وتعتبر دراسة « الجندى الأمريكى » التى تقع فى مجلدين — والتى أشرف عليها ستوبفر *Stoyffer* وزملائه التى صدرت عام ١٩٤٩ — والتى جاءت ثمرة لمعاناة سنوات عديدة من البحوث التى قام بها علماء اجتماعيون فى فرع الأبحاث فى جيش الولايات المتحدة — تعتبر بلاشك كنموذج رئيسى لعصرها يعبر عن كيفية إمـــكان تكامل النظرية السوسيولوجية والبحوث والتحليلات الكمية الامبريقية . كما نجد نفس هذا الطراز فى دراسات أخرى هندية للعوامل الاجتماعية والسيكلوجية المؤثره فى الخصوبة البشرية قامت باشـراف ويلبتون *P. K. Welpton* وكلايد كايزر *Clyde Kiser* ، وقـد أعادت تلك الدراسة إلى الأذهان أهمية البحوث الديموجرافية . كما كانت هناك دراسة مؤثرة إلى حد بعيد فى نفس تلك الفترة لأردورنو *Ardorno* وزملائه موضوعها الشخصية المسيطرة *The Authoritarian Personality* ، وكانت مع غيرها من الدراسات الرئيسية الأخرى فى موضوع التحامل *Prejudice*

معبرة عن تحول فى علم النفس الاجتماعى نحو الاهتمام بالدراســة الامبريقية للعلاقة بين الشخصية والبناء الاجتماعى ، وهو مجال كان قد تعرض للاهمال بعد أعمال توماس وزنانيكى . ومع أن تلك الدراسات كلها كانت فيما بعد موضوعاً قد أعيد تقييمه بطريقة سلبية ، فقد كانت بلاشك مؤثرة إلى حد بعيد فى تشكيل بحوث علماء الاجتماع الامريكيين فى فترة ما بعد الحرب .

تجاهل النظرية الماركسية :

كانت الماركسية والمذاهب الاشتراكية الأخرى ذات تأثير رئيسى فى علم الاجتماع الأوربى خلال الثلاثينيات والاربعينيات من القرن الحالى . ولعــل المادية التاريخية التى يقوم عليها الفكر الماركسى قد عاقت نمو علم الاجــتماع الامبريقى فى أوربا خلال تلك الفترة . ولكى نجيب على سؤال يتعلق بالاسباب التى تقوم وراء كون ماركس كان له تأثير محدود فى الولايات المتحدة ، نجد أن علم الاجتماع الامريكى بالتأكيد قد اتسم بسمات الألفة بمشكلات عــلم الإجتماع الماركسى ، ولكننا من ناحية أخرى نجد أنه حتى كتابات وليام أوجــبرن *Ogburn* ولينــد *Lynd* — ومؤخــراً كتــابات رايت ميلز *G. Wright Mills* التى يبدو أنها تدين بدين عقلى لماركس — بأكثر مما تدين كتابات معظم علماء الاجتماع الامريكيين الآخرين — لم تكن كتابات فى علم الاجتماع الماركسى ، ولقد استمر تأثير ماكس فيبر ودوركايم فى نمــو عــلم الاجتماع الامريكى ليبقى أعظم بكثير من تأثير ماركس فى هذا العلم .

وهناك عدد من الأسباب فى أن علم الاجتماع الماركسى لم تتوفر له أبداً فرص النمو فى الولايات المتحدة ، وربما كانت الحجة القريبة فى هــذا تتمثل فى أن المناخ الأيديولوجى والسياسى للولايات المتحدة كان مناخاً عدائياً تجــاه

مثل ذلك النمو . وبالتأكيد فإن الماركسية لم تلق أبداً فى الولايات المتحــدة التشجيع الذى احتضن نموها فى البلاد الاخرى ، ولكن هذا يفسر بصعوبة تجاهل الماركسية بين أعضاء التخصص السوسيولوجى فى أمريكا ــ الذين اعتبروا أنفسهم من المثقفين . وربما أمكن إرجاع ذلك ــ كما اقترح ميلز ــ إلى ان الأصول الاجتماعية لعلماء الاجتماع الامريكان قد حالت بينهم وبين تلك الاهتمامات . ومع ذلك فقد أصبح كثير من المشتغلين بعلم الاجتماع من جيل ميلز ذوى معرفة واسعة بماركس والأفكار الماركسية فى شبابهم . وربما كان ميل علماء الاجتماع الامريكيين منذ أوائل العشرينيات من هذا القرن نحو الانخراط فى علم الاجتماع الامبريقى ــ أكثر من ميلهم اتخاذ موقف نظــرى أيديولوجى معين ــ يعتبر أكثر أهمية بين تلك الأسباب .

وفى نهاية هذا التحليل نجد أن علماء الاجتماع الامريكيين ، وإن كانوا يوافقون على أن بعض المشكلات الرئيسية فى علم الاجتماع يمكن أن تعالج فى ضوء الفكر الماركسى ، فإن تلك الموافقة تنصرف فقط على جانب معين من تلك المشكلات دون الجوانب الأخرى ، حيث أن علم الاجتماع بالنسبة لهم هو علم يمكن أن تخضع فيه النظرية للاختبار لانها تمدهم بمشكلات ليست مغلقــة على البحث الامبريقى . وفى حدود هذا التصور فإن علم الاجتماع الماركسى وكل تقاليد المادية التاريخية تبدو بطريقة أو أخرى موضة قديمة من وجهة نظر هؤلاء العلماء .

ظهور علم الاجتماع العلمى :

قد يؤكد علماء الاجتماع أن الاجابة عن سؤال هما إذا كان علم الاجتماع قد وصل إلى مرتبة العلم الخاص تعتبر فى ذاتها مشكلة تتطلب بحثاً سوسيولوجياً

ولكن هناك أسساً يقوم عليها الادعاء بأننا فى الواقع نجد أن هــذا العلم قد اكتسب تلك المرتبة فى المجتمع الامريكى . وفضلا عن هذا فإنه يبدو واضحاً بطريقة معقولة — على الاقــل فى بعض مجالات علم الاجتماع — أن المعرفة العلمية المكتسبة من خلال البحث العلمى هى ذات خاصيــة تراكميــة . وبالمثل ، فإنه من الواضح أن تقلص مدى المشكلات المتعلقة بالاهمية النسبية للنظرية والمنهجية السوسيولوجية قد جعل من الممكن تكاملهما معاً بشكل أشد التصاقاً .

وفضلا عن هذا كله فإن علماء الاجتماع والمشتغلين بعلم النفس الاجتماعى قد قاموا — وبنجاح — بتنميــة معاهد البحوث التى يسرت التدريب على البحوث والمنح الدراسية . ومثال ذلك فقد أنشىء مركز البحوث الاجتماعية التطبيقيــة فى كولومبيا *Bureau of Applied Social Research at Columbia University* ، ومعهد البحوث الاجتماعية فى جامعة ميتشجيان *Institute for Social Research at the University of Michigan* الذى تبعه مركز البحوث المسحيــة *Survey Research Center* ، ومركز بحوث ديناميات الجماعة *Research Center for Group Dynamics* ومركز بحوث الرأى القومى فى جامعة شيكاغو *National Opinion Research Center at University of Chicago* وكل تلك المكاتب أو المعاهد أو المراكز نمت جميعها فى المراكز الرئيسية للبحوث السوسيولوجية ، وقدمت نماذج لتنمية المراكز الأصغر فى الجامعات الأخرى . وعلى الرغم من أن تكاليف إجراء البحوث قد ارتفعت بشكل حاد ، فإن توفر المخصصات أو المنح الخاصــة قد ساعد علماء الاجتماع على النهوض بأعمالهم كعلماء .

وابتداء من عام ١٩٦٠ تلقى معظم طلبة الدراسات العليــا فى الجامعات

الأمريكية دعماً مالياً يمكن مقارنته بذلك الذى يتلقاه طلبة العلوم التقليدية . وقد أصبح علم الاجتماع بعد فترة انتظار وجيزة يكون جانباً فى برنامج المؤسسة القومية للعلوم ، وقد ألحق منذ فترة طويلة بقسم العلوم السلوكية فى المجلس القومى للبحوث Behavioral Sciences Division of National Research Council ومنذ عام ١٩٦٧ أصبحت العضوية الموقرة فى الأكاديمية القومية للعلوم National Academy of Sciences تنتظر علماء الاجتماع الامريكيين ، وبذلك فقد أزيلت كل العوائق أمام احتلال المشتغلين بعلم الاجتماع لمرتبة التخصص المهنى .

وبالتأكيد فإن تأويل علم الاجتماع بعلم النفس فى ذلك المجال الذى أصبح يعرف بعلم النفس الاجتماعى قد أثر فى نمو علم الاجتماع الأمريكى كعلم . وفى الوقت ذاته فإن علم النفس أيضاً قد قام إلى حد بعيد بتشكيل علم الاجتماع الأمريكى ، وذلك لأن مناهج هذا العلم ـ علم الاجتماع ـ قد تكيفت بدراسة الممثلين الأفراد أكثر من اتساقها مع دراسة المحتوى أو المجال التنظيمى الذى تقع فيه أدوارهم . وقد جاءت النماذج الرئيسية الأخرى للصياغة الكمية من الديموجرافيا وعلم الاحصاء اللذين ساهما أيضاً فى تشكيل خصائص علم الاجتماع ، حيث كان تطبيقهما فى دراسة التجمعات الاجتماعية أكثر سهولة منه فيما يتعلق بدراسة العلاقات بين خصائص التنظيمات . وقد كانت البحوث الاستقصائية فى ميادين النظم والتنظيم الاجتماعى المقارن لهذا كله أقل إظهاراً للجدل التكميكى ، وذلك بالمقارنة بما أظهرته تلك الميـــادين الوسيطة فى الديموجرافيا وعلم النفس الاجتماعى . ولقد أصبح محور علم الاجتماع ـ وهو النظم الاجتماعية وتنظيمها ـ هو الذى يعمل على تنمية مناهج بحثه الخاصة .

علم الاجتماع كبحث أكاديمي :

لقد كانت الولايات المتحدة أول الدول التي تعطي مقرراً جامعياً رسمياً يؤدي للحصول على درجة الدكتوراه في علم الاجتماع . وكان نمو علم الاجتماع كبحث متميز بطيئاً في جامعات الدول الأخرى . كما لم يعرف بلد آخر قبل الولايات المتحدة اصاً لمقرر رسمي في علم الاجتماع في الأقسام الاكاديمية أو الكليات في نسق التعليم العالي . وفضلا عن هذا كله فإنه في الولايات المتحدة وحدها انتشر مقرر رسمي في علم الاجتماع في المناهج الدراسية في المرحلة قبل الجامعية .

وبالتأكيد فان الجامعات الأخرى خارج الولايات المتحدة قد عرضت بصورة أو أخرى مقررات في علم الاجتماع سواء من خلال النسق الذي كان شائعاً في جامعات القارة الأوروبية — والذي كان يسمح بمحاضرات يلقيها باحثون بصفتهم الخاصة المستقلة عن تلك الجامعات — أو من خلال ما كان يتحقق بالصدفة من إنشاء كرسي لعلم الاجتماع لعالم شهير . كذلك فكثيراً ما كان أستاذ في الاقتصاد أو التاريخ أو القانون أو الاقتصاد السياسي أو الفلسفة يلقي مقرراً في علم الاجتماع ، وإن كان ذلك المقرر لم يكن عادة يلقى تحت هذا الاسم . ولقد كان جورج سيمل *George Simmel* هو الوحيد الذي نال درجة الأستاذية في الفلسفة وقد ظل لفترة خمسة عشر عاماً يشغل وظيفة ليس لها مرتب ثابت من الجامعة ، كما كان قائما على أساس الاستثناء . وقد كان ماكس فيبر *Max Weber* وباريتو *Pareto* أستاذين في الاقتصاد ، أما دوركايم ـ وهو من الأوروبيين القلائل الذين حملوا لقبا أكاديمياً في علم الاجتماع طوال القرن التاسع عشر ـ فقد كان أستاذاً لعلم الاجتماع والتربية في جامعة باريس .

الولايات المتحدة

ولقد تحقق وجود أول مقرر رسمى فى منهج يسمى علـــم الاجتماع فى الولايات المتحدة عام ١٨٧٦ فى جامعة ييل ، حيث ألقى وليام جراهــام سمنر *William Graham Sumner* ذلك المقرر . ومع ذلك فإن سمنر — وحتى وفاته فى عام ١٩١٠ — كان يحتل مركزه فى جامعة ييل كأستاذ فى العلوم السياسية والاجتماعية . ولقـد قام لوثر برنارد *Luther L. Bernard* ، وألبيـون سمول *Albion W. Small* وجيسى برنارد *Jessie Bernard* — فى مناقشتهم للمقررات السوسيولوجية فى الولايات المتحدة — بعرض لخصائص المناهج الأولى فى علم الاجتماع، والاشارة إلى الأقسام الأكاديمية الرائدة التى خصصت لهذا العلم . ولقد أتت الفترة ما بين عام ١٨٨٩ وعام ١٨٩٢ بمقررات رسمية فى علم الاجتماع إلى ثمان عشرة كلية جامعية وجامعة فى الولايات المتحدة ، ولكن فقد بقى لجامعة شيكاغو عند افتتاحها فى عام ١٨٩٣ أن تنشىء أول قسم أكاديمى فى الولايات المتحدة ، يقوم فيه عمل علمى يؤدى لنيل درجة الدوكتوراه فى علم الاجتماع .

وحيث كانت المقررات فى علم الاجتماع تنشأ فى البداية غالباً فى أقســـام مشتركة أكثر من وجودها فى أقسام مكرسة بصفة كلية لهذا العلم ، كما كانت تلك المقررات ترتبط أبعد ما يكون بالاقتصاد ، ثم بالتاريخ الذى يأتى فى الدرجة الثانية وتفصله مسافة بعيدة عن الاقتصاد — الذى كانت تلك المقررات ترتبط به فى الدرجة الأولى — فإنه يمكن القول بوجه عام أنه فى الوقت الذى كان فيه علم الاجتماع غير مؤهل ليحتل مركزه كقسم علمى مستقل أو مشترك ، فقد كان هذا العلم يدرس بوجه عام فى أقسام الاقتصاد والتاريخ والفلسفة والعلوم السياسية أو الاقسام العامة للعلوم الاجتماعية .

وعلى الرغم من حقيقة أن أول قسم لعـــلم الاجتماع فى جامعة شيكاغو كان قسما مشتركا لعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا ،فإن الأنثروبولوجيا لم تكن مرتبطة بشكل عام بعلم الاجتماع فى تلك الفترة المبكرة - وإن كان علم الاجتماع فى الواقع قد أضاف الأنثروبولوجيا إلى روافده -ولهذا فقد تأسس مع مجىء العشرينيات من هذا القرن عدد محترم من أقسام علم الاجتماع والأنثروبولوجيا ، كما كان فى مجىء منتصف العقد السابع من هـذا القرن علاج بطريقة أو أخرى لكل تلك المشاركات الاكاديمية ، وقد نجحت الأنثروبولوجيا فى اكتساب مركزها كبحث أكاديمى منفصل .

ومع بداية العقد الثانى من القرن الحالى كانت غالبية الكليات والجامعات فى الولايات المتحدة تعطى مناهج فى علم الاجتماع ، ولـكن التأسيس الفعلى لاقسام منفصلة لعـلم الاجتماع قد حدث بمـعدل أكثر بطءاً . وفى عام ١٩٦٠ كانت فى غالبية الجامعات والكليات الامريكية أقسام لعلم الاجتماع - وحيث كان ٧٠ ٪ منها فقط هو الذى يمنح درجة الدكتوراه فى علم الاجتماع ، فقد كان عدد برامج الدراسات العليا فى علم الاجتماع فى الولايات المتحدة أكبر من عدد تلك البرامج فى كل الدول الأخرى مجتمعة .

ولقد ظهرت ظروف على درجة عالية من الأهميـــة أدت إلى استقرار علم الاجتماع كبحث أكاديمى فى الولايات المتحدة إلى درجة أبعد مما هى عليه فى أى بلد آخر . وكان أول هذه الظروف يتمثل فى أن علم الاجتماع فى الولايات المتحدة كان موجهاً نحـو اهتمامات عملية منفعية « براجماتيكية » ، كما كان موجهاً نحـو اهتمامات نظرية وفلسفية . وعلى الرغم من أن أواصر الصلة والاعتماد المتبادلة التى قامت بين علماء الاجتماع والمصلحين الاجتماعيين لم تكن سهلة فى بعض الأحيان،

فقد ظل علم الاجتماع الأمريكى يعنى إلى حد بعيد بتنمية علم امبريقى يعتمد على بحوث فى المشكلات الاجتماعية . ولقد كانت الأعداد الأولى من المجلة الامريكية لعلم الاجتماع *The American Journal of Sociology* — وعلى العكس تلك الأعداد فى حولية علم الاجتماع الفرنسية *L' annee Sociologique* — مكرسة إلى حد بعيد لعلم الاجتماع التطبيقى ، كما هى مكرسة لعـــلم الاجتماع النظرى أو علم الاجتماع العلمى .

ويتمثل العامل الرئيسى الثانى بلا شك فى النمو السريع الذى حققـه التعليم الجامعى العام فى الولايات المتحـــدة عقب الحرب العالمية . ومع ذلك التوسع السريع فى الجامعات الذى بدأ منذ عام ١٨٩٧ فقد قل — بلا شك — الضغط على الادارات الجامعية لكى تقصر درجات الأستاذية على المباحث المستقرة ، كما قل الضغط على الأساتذة لكى يتنافسوا على اجتذاب التلاميذ الذين توفر الكثيرون منهم . وفى الواقع بينما كان هناك بعض الكراهية بين العلوم الاجتماعية الأخرى نحو علم الاجتماع فى الجامعـات الامريكية — كما كان هـو الحال فى الجامعـات الأوروبية - فإن تنظيم الجامعات الامريكية فى صورة أقسام تتمتع بالاستقلال الذاتى إلى حد بعيد قد جعل من الممكن لتلك الاقسام أن تضيف مقررات فى علم الاجتماع إلى معطياتها الأخرى . وأيضاً فقد كان لتولى سبعة — على الأقل — من رؤساء الجامعات الامريكية أعباء المحاضرة فى مقررات رسمية لعلم الاجتماع فى تلك الجامعات نفس تلك الأهمية فى تثبيت واستقرار علم الاجتماع كبحث أكاديمى منفصل فى الولايات المتحدة .

ولعل التنظيم الإدارى للجامعات الامريكية كان له نفس الأهمية فى تلك النقطة ، حيث تتوفر لدينا بينات واضحة وغزيرة على أن فصل الادارة الجامعية

عن الرقابة المباشرة للكلية — بما تضمه من أقسام أكاديمية — فى الجامعة الامريكية قد يسر دخول موضوعات جديدة تتضمن علم الاجتماع فى الخطة العلمية لتلك الجامعة .

وفضلا عن هذا كله ربما كان هناك عامل آخر ذو دلالة فى نمو علم الاجتماع الامريكى يتمثل فيما ترتب على الصورة التى انتظم فيها ذلك العلم فى تلك الجامعات الامريكية ، والتى تضمنت الاعتماد منذ وقت مبكر تماماً فى تدريس ذلك المنهج على كتب أو مراجع مقررة ظهر أولها عام ١٨٩٤ . وقد كان كتاب سمول *Small* وفينشت *Vincent* من قسم الاجتماع فى جامعة شيكاغو وعنوانه : « مقدمة لدراسة المجتمع » *An Introduction to the Study of Society* ، وتلاه فى عام ١٨٩٦ كتاب فرانكلين جيدنجز *Franklin Giddings* وعنوانه : « مبادىء علم الاجتماع » *Principles of Sociology* وقد أثرت تلك الاعمال وغيرها فى تدريب عدد كبير من طلبة المرحلة الجامعية الأولى فى علم الاجتماع ، كما ساعدت فى تأهيل بعضهم على التدريب على الدراسات العليا فى هذا المجال . وحيث يعتبر تحديد المرجع أو الكتاب المقرر فى الواقع علامة مميزة فى المرحلة الجامعية الأولى فى الولايات المتحدة — وذلك على الرغم مما يبدو من تنوع أو تشتت بين اتجاهات المؤلفين — فإن الكتب المقررة تعتبر عنصراً هاماً فى تقنين المبحث العلمى .

وقد سجل علماء الاجتماع الأمريكان — بعناية — تقدم علم الاجتماع الأكاديمى ونموه كعلم وتخصص مهنى . ونجد بين الكتب الرئيسية التى تتضمن مسحاً لذلك التقدم تلك التى قام بنشرها سمول *Small* (١٩١٦) ، وويرث *Wirth* (١٩٤٨) وأودم *Odum* (١٩٥١) ؛ ويرنادر وبرنارد *Bernard*

Bernard and (١٩٤٣) وشيلز *Shils* (١٩٤٧) . ولكننا لانجد هناك أى عمل واحد يؤرخ لظهور وتقدم علم الاجتماع كبحث أكاديمى فى الاجزاء الأخرى من العالم سوى كتاب جورفيتش ومور *Gorvitch and Moore* — الذى صدر عام ١٩٤٥ بعنوان : علم الاجتماع فى القرن العشرين *Twentieth Century Sociology* ، والذى يعرض لبحاث مختصرة عن أصول ونمو علم الاجتماع فى البلاد الرئيسية .

إنجلــترا

ولم يكن التقدم الذى حققته المقررات الخاصة فى علم الاجتماع على صورة واحدة سواء فى القارة الأوربية أو انجلترا أو روسيـا أو الدول الشرقيـة أو أمريكا اللاتينية ، وكانت بعض الكراسى أو الوظائف تضاف من وقت لآخر فى جامعات متنوعة ، لكن حتى الحرب العالمية الثانية كان جل التركيز فى التعيينات فى وظائف المشتغلين بعلم الاجتماع الأكاديمى فى الولايات المتحدة وألمانيا .

وعلى الرغم من النجاح الباهر الذى حققه سبنسر *Spencer* فى جعـل عـلم الاجتماع مألوفاً ليس فقط فى انجلترا ، ولكن أيضـاً فى الولايات المتحـدة — — حيث كانت كتبه هى الكتب الأكثر مبيعاً بها .. وعـــلى الرغم من الانجازات العظيمة لبحوث بوث *Booth* ومايو *Mayhew* ، والتحليـــلات المقارنة الرائدة لهوبهاوس *Hobhouse* وزملائه (١٩١٥) ، فإن علم الاجتماع الأكاديمى قد تقدم بكثير من البطء فى انجلترا . وربما كان أحد الأسباب التى عاقت تقدم علم الاجتماع فيها يتمثل فى ذلك الاستقرار الناجح الذى حققتـــه الأنثروبولوجيا الاجتماعية فى الجامعات البريطانية ، وبصورة خاصة من خلال أعمال رادكليـف براون *A, R. Radcliffe-Brown* ومالينـــوفسكى

Bronislaw Malinouski ، وقد حدد الأول مجالها على أنه علم الاجتماع المقارن .

ويدعى عالم الاجتماع الأمريكي إدوارد شيلز *Edward Shils* في كتابه الذي ظهر عام ١٩٦٠ — والذي حاول فيه تقصى الأسباب التي تكمن وراء فشل علم الاجتماع في تحقيق استقراره في الجامعات البريطانية خلال النصف الأول من القرن العشرين — أن السبب الأساسي كان يكمن في رفض الصفوة الأكاديمية البريطانية إثارة أسئلة حول الحياة المعاصرة في انجلترا . وحيث كانت تلك الصفوة التي تكونت في أكسفورد وكمبريدج تتمتع بقدراتها على دعم ذاتها والانغلاق على نفسها — وحيث أن وجودها قد قام على التحيز للامتياز والطبقة — فهي لم تكن فعالة في تشجيع ظهور علم اجتماع قد يقوم ببحوث نقدية في المجتمع الذي أنبته ، هذا ولم تكن تحيط بالأنثروبولوجيين البريطانيين من الناحية الأخرى تلك المحاذير فيما يتعلق بدراساتهم للسكان البدائيين في أقاليم المستعمرات البريطانية .

فرنسا

ومع أن المبشرين بعلم الاجتماع كمونتسكيه *Montesquieu* وغيره من الموسوعيين من أمثال أوجست كونت — الذي يعتبر الأب الروحي لعلم الاجتماع — وكثير من العلماء المشهورين الأوائل من المشتغلين به مثل ألفرد إسبيناس *Alfred Espinas* وفريدريك ليلاى *Frederic le Play* كانوا من المثقفين الفرنسيين ، فإن علم الاجتماع كان غير موثوق به إلى حد بعيد في الدوائر الأكاديمية الفرنسية . ولقد بقى لدوركايم أن يحقق لعلم الاجتماع مركزه الجامعي من خلال تلك المحاضرات التي أنشئت له أولا في جامعة بوردو

University of Bordeaux عام ١٨٨٧ ، ثم بعدها فى جامعة السوربون التى دعى إليها عام ١٩٠٢ . وقد رجح هنرى بير Henry Beyre القول بأن مقاومة علم الاجتماع فى الدوائر الأكاديمية الفرنسية — كانت مركزة إلى حد أنه من المحتمل القول بأنها كانت علة ذلك الحماس الاعتقادى بكتابات دوركايم .

وقد كان علم الاجتماع الاكاديمى فى فرنسا — وكما كان هو الوضع فى بريطانيا وإلى حد ما فى الولايات المتحدة خلال العقدين الاولين من هذا القرن — وثيق الصلة بالانثروبولوجيا وقد كان هذا العلم هو الطرف المسيطر فى تلك الثنائية القائمة بين علم الاجتماع والأنثروبولوجيا فى الولايات المتحدة ، أما فى فرنسا — كما فى انجلترا — فقد كان العكس صحيحاً ، ونتج عن ذلك أن تطور علم الاجتماع الاكاديمى بصورة أشد بطءاً . ولكن مع هذا كله فقد نجح دور كايم فى إعداد أوراق الاعتماد الاكاديمى لمجالات سوسيولوجية معينة يتمثل الرئيسى منها فى علم الاجتماع التعليمى « سوسيولوجية التعليم » ، وعلم الاجتماع الدينى « سوسيولوجية الدين » ، وعلم الاجتماع القانونى « سوسيولوجية القانون » ، وعلم الاجتماع الاقتصادى « سوسيولوجية الاقتصاد » . ومع أن علم الاجتماع التاريخى والفلسفى انتشر بهذه الطريقة بين عديد من كليات الجامعات الفرنسية ، فإن علم الاجتماع الكمى قد بقى مركزاً إلى حد بعيد خارج الجامعات ، وفى عدد من المعاهد التى كان أغلبها يكون بطريقة أو أخرى قسماً من نسق التعليم العالى الفرنسى ، ولهذا كله فقد هناك بوجه عام شيىء من الاتصال والتداخل أيضاً بين علم الاجتماع الأكاديمى فى الجامعات وبين علم الاجتماع فى المعاهد الفرنسية .

ألمانيا

توحى النظرية البرانية بأن علم الاجتماع فى ألمانيا قد افتقر إلى الاعتراف التام والتأييد والدعم الذى ناله هذا العلم فى انجلترا والولايات المتحدة من خلال ارتباطه باسم سبنسر . وبينما أصبح علم الاجتماع فى وقت مبكر موضوع عناية العلماء الذين احتلوا كراسى فى الجامعات الألمانية الرئيسية ، لكنه بقى مبحثاً إنسانياً أكثر من كونه كبحث علمى ، كما لم يلق تأييداً واسعاً حتى بين المشتغلين بالانسانيات . ومع هذا فقد كانت ألمانيا — وبصورة أوسع عما هى عليه فى بلد آخر — هى التى أنجبت خلال القرنين التاسع عشر والعشرين كتاباً فى علم الاجتماع ، كان لهم تأثير رئيسى فى النظرية السوسيولوجية الحديثة من أمثال تونيس *Tonnies* ، وسيمل *Simmel* ، وماكس فيبر *Max Weber* ، وكارل مانهيم *Karl Mannheim* . ولقد كانت الاتصالات الأكاديمية بين هذه المجموعة من العلماء وبين الجامعات الألمانية — ولأسباب متنوعة — اتصالات رقيقة أو محدودة بطريقة أو أخرى. وكان ماركس هو المثقف المتجول الذى جعلته آراؤه السياسية قابلا لنصيحة العيش فى المنفى معظم حياته . ولم ينل زيمل *Simmel* مرتبة الاستاذية فى الفلسفة من جامعة برلين سوى فى أواخر حياته ، وقد يعود ذلك لأنه كان يهودياً كما كان ماركس أيضاً . وقد حاضر فيبر فى جامعة هيدلبرج *Heidelberg* بصورة متقطعة ، وكان ذلك إلى حد بعيد بسبب مرضه ؛ كما أصبح مانهايم لاجئاً من النازية وأنهى حياته العلمية فى مدرسة الاقتصاد بلندن . ونجد بين تلك المجموعة الفريدة تونيز *Tonnies* وحده الذى قضى كل حياته الأكاديمية فى جامعة بألمانيا هى جامعة كييل *University of Kiel* . ومع أنه كانت هناك فرص للعمل أمام علماء الاجتماع فى معظم

الجامعات الألمانية قبل عام ١٩٣٣ ،فقد كانوا وكأنهم يميلون إلى احتلال كراسى فى الاقتصاد السياسى أو الفلسفة ، وبنفس الصورة التى يميلون بها إلى احتـــلال كراسى فى علم الاجتماع . ولم يبرز مركز قوى للبحث السوسيولوجى فى داخل نسق الجامعات الألمانية ، ويرجع ذلك إلى ظروف متعددة ـ تتمثل فى التقاليد الجامعية ، والتنظيم الجامعى الألمانى ، وطبيعة البحث السوسيولوجى بين علماء الاجتماع الألمان ـــ وقد أنتجت تلك الظروف إلى جعل علم الاجتماع الأكاديمى محصوراً فى دائرة صغيرة تتكون من الأستاذ ومساعديه .

وبلا شك فقد عانى نمـو علم الاجتماع الأكاديمى فى ألمانيا من الاضطرابات القائمة فى داخـل المجتمع ، بأكثر مما عانى هـــذا العلم ذاته فى الدول الأوربية الأخرى . وابتداء من عام ١٩٣٣ كانت معظم الجامعات الألمانية بها مقررات تؤهل لنيل درجات علمية فى علم الاجتماع ، ومن ثم فإنه منذ ذلك الوقت أيضاً كان هناك عدد جوهرى من علماء الاجتماع الألمـان الشبان الذين تم تدريبهم ، ولكن معظمهم تقريبا قد هرب خلال سنوات قليلة بعد ظهور الحكم النازى ، ومن بين هؤلاء العلماء الشبان شخص واحد هو ليوبولدفون فيزى *Leopold von Wiese* الذى بقى فى الجامعة الألمانية ، وأصبح واحداً من علماء الاجتماع الرئيسيين فى ألمانيا خلال العشرينيات من القرن الحالى، ولكنه بدأ وكأنه متعاون بطريقة أو أخرى مع النظام النازى .

وفى خلال عشر سنوات من اندحار الحكم النازى أعاد علم الاجتماع تثبيت أركانه فى الجامعات الرئيسية فى ألمانيا الغربية .وكانت الكراسى فى تلك الجامعات يشغلها فى الغالب علماء الاجتماع الذين هربوا خـــلال الفترة النازية ، والذين كانوا يفتقرون إلى الدراية العميقة بعلم الاجتماع الكمي .. ومن ثم فقد تكيفوا

جميعاً — مع استثناءات قليلة — بارتياح مع التقاليد الفلسفية والتاريخية فى علم الاجتماع الألمانى .

اسرائيل

لم يزدهر علم الاجتماع فى دولة من الدول الصغرى فى العالم كما ازدهر فى اسرائيل ، ولقد كان نمو هذا العلم فى الحقيقة مسارقاً لنمو دولة اسرائيل . وقد قام أحد المثقفين الصاخبين الموسوعيين الذين كانت لهم جولات بين حدود المباحث العلمية وهو مارتن بوبر *Martin Buber* — بتأسيس قسم الاجتماع ، كما تولى رئاسته فى الجامعة العبرية وقد عمل تلميذ بوبر النجيب صمويل أيزنشتات *Shammuel Eisenstadt* على تنمية تقليد يقوم على المزاوجة بين الدراسات النظرية والبحوث الامبريقية فى الجامعة العبرية ، كما كانت هناك مدرسة قوية فى علم الاجتماع التطبيقى فى اسرائيل . وكان أحد علماء الاجتماع الذين تلقوا تدريبهم العلمى فى أمريكا — وهو لويس جوتمان — عضواً فعالا فى المعهد الاسرائيلى للبحوث الاجتماعية التطبيقية فى القدس. وقد كان معظم علماء الاجتماع الاسرائيليين على صلات وثيقة بالخبراء والزعماء فى الحكومة الاسرائيلية ، ومن ثم فغالباً ما كانت البحوث الاجتماعية فى اسرائيل مرتبطة بالقرارات السياسية . وبلا شك فإن بعضاً من هذا الولاء الوثيق بين علم الاجتماع والسياسة الاجتماعية فى إسرائيل إنما يرجع إلى صغر حجم هذا البلد ، ومن ثم فقد كان المثقفون فى الجامعات الاسرائيلية أكثر التصاقاً فى ارتباطهم بحكومتهم ، كما ساهمت التقاليد العبرية أيضاً فى تكوين تلك العلاقة .

روسيا

ظهر علم الاجتماع كبحث أكاديمي في روسيا مع إنشاء قسم العلوم الاجتماعية في موسكو ، الذي تضمن كرسياً في علم الاجتماع ، وقد ألغى هـــذا القسم عام ١٩٢٤ . وعلى الرغم من وجـود بعض البحوث الامبريقية التي قام بهـا بعض علماء الاجتماع الروس الشبان ، فإن علم الاجتماع كان حتى تلك الفترة معتمـداً إلى حد بعيد على الفلسفة والتاريخ ، وسرعان ما أصبح علم اجتماع ماركسي . كما لا بد من ملاحظة أن علم الاجتماع قد أصبح خـــلال الفترة السوفيتية في التاريخ الروسي واقعاً تحت الرقابة المباشرة للفرع الأيديولوجي في الحـزب الشيوعي ، وأن علم الاجتماع السوفيتي كعلم ماركسي يدرس بشكل واسع في داخل الجامعات الروسية وخارجها ، وذلك مع أنه حتى وقت قريب لم يكن يتمتع باعتراف أكاديمي أو جامعي خاص ، حيث أنه حتى عام ١٩٦٦ على الاقل كان معظم علماء الاجتماع في الاتحاد السوفيتي يحاضرون ويقومون ببحوث في كليات الفلسفة أو المعاهد الاخرى .

اليابان

ولقد دخل علم الاجتماع في مقررات الجامعة الامبراطورية في طوكيـو تقريباً في نفس الوقت المبكر الذي دخل فيه هذا العلم لائحة مقررات أية جامعة أمريكية . وقد جاء الفيلسوف الامريكي ارنست فينولوزا *Ernest Fenollesa* إلى الجامعـــة الامبراطورية بطوكيو عام ١٨٧٨ ، وألقى محاضرات في علم الاجتماع تعتمد على كتابات هربرت سبنسر . كما أنشىء كرسي لعلم الاجتماع في تلك الجامعة أيضاً في عام ١٨٩٣ . أما قبل الحرب العالمية الثانية فإن المراكز الرئيسية لعلم الاجتماع الاكاديمي في اليابان كانت في طوكيو وكيوتو ، وكانت

كل منها تمثل مدرسة متمايزة فى الفكر السوسيولوجى — فقد اعتبرت مدرسة طوكيو أكثر ميلا إلى الإتجاه الامبريقى بالمقارنة بمدرسة كيوتو التى اعتبرت مدرسة صورية وفينومينولوجية « ظاهراتية » .

الهنـــد

ولعل التأخر النسبى فى وصول علم الاجتماع إلى الجامعات الهندية يعكس الاتجاه الفلسفى الأساسى للمثقفين الهنود الذين كانوا بوجه عام لا يحترمون فكرة علم الاجتماع الامبريقى ، فقد كانت هناك مقاومة فى النسق الجامعى نحو إقامة علم الاجتماع على هذه الصورة ، كما يمكن القول بصورة قاطعة بأن تلك المقاومة قد أثارها بناء الخدمة المدنية فى الجامعات الهندية .

ولم يدخل علم الاجتماع كمنهج فى أية جامعة هندية قبل سنة ١٩١٧ ، حينما بدأ قسم الاقتصاد بجامعة كلكتا فى منح هذا المنهج . وقد ظلت تلك الجامعة — التى تضم حوالى مائة ألف طالب بما فيهم طلبة الاقسام التى تطبق نظام الانتساب — حتى وقت كتابة هذا المقال — وليس بها قسم لعلم الاجتماع . وقد انشأت جامعة بومباى أول قسم هندى فى علم الاجتماع عام ١٩١٩ . وكانت كل بحوث الدكتوراه فى علم الاجتماع عام ١٩٦٥ مركزة تقريباً فى جامعات بومباى ودلهى وآجرا *Agra* وبارودا *Baroda* ولكنو *Lucknow* ، فى نفس الوقت الذى لم تكن فيه جامعة كلكتا أو مدراس تقوم فيها برامج بحوث تمهد لنيل تلك الدرجة ، كما لا تزال غالبية الجامعات الهندية تفتقر خطتها العلمية إلى مقررات فى مستوى الدراسات العليا تؤهل لنيل درجات جامعية فى علم الاجتماع .

أمريكا الجنوبية والوسطى

ولقد كان البناء السياسي ـ كما كان المناخ السياسي في جمهوريات أمريكا الجنوبية بمثابة عوائق نحو تقدم علم الاجتماع كبحث أكاديمي، ونحن لا نزال نجد في كل تلك الجمهوريات تقريباً وحتى وقت كتابة هذا المقال أن كراسي علم الاجتماع تنشأ في كليات القانون والفلسفة أو العلوم الاجتماعية، ونادراً ما تنشأ في مدارس علم الاجتماع. ومع أن هناك كثيراً من التشابه بين الاتجاهات السوسيولوجية في جامعات تلك المنطقة، فإنه يمكن القول بأن بلاد الاطلنطى كانت أكثر ميلا نحو تنمية علم اجتماع أكاديمي يعتمد على علم الاجتماع الأوربي ـ وبوجه خاص على التقاليد والكتابات اللاتينية ـ بينما كانت دول المحيط الهادى أكثر ميلا نحو تنمية تقاليد علم الاجتماع الامبريقى. ومنذ عام ١٩٤٥ أصبحت الجمهوريات الكبرى في تلك المنطقة لدى كل منها معهد واحد على الأقل يكرس بصفة أولية للبحوث الاجتماعية، كما يبرز ذلك التمايز بوجه خاص حيث نجد أنه بينما تفسح جامعات البرازيل والمكسيك المجال لأوسع مدى من البرامج الأكاديمية التي تمثل المجالات المختلفة في علم الاجتماع، نجد أن الارجنتين التي يوجد بها أكبر عدد من الجامعات بين دول تلك القارة قد خبرت نهضة علم الاجتماع خلال الفترة بين عهد بيرون *Peron* وعهد أوجينيا *Ogenia*.

شرق أوروبا

وكان نمو علم الاجتماع في دول شرق أوروبا وثيق الصلة باستقلالها السياسي، فبينما كانت جامعات أوروبا الشرقية قبل عام ١٩٢٠ تضم بعض علماء الاجتماع لم يكن هناك اعتراف بعلم الاجتماع ذاته كبحث أكاديمي في

تلك الجامعات . وحتى الحرب العالمية الثانية كان نمو علم الاجتماع يسير ببطء في جامعات تلك الدولة ، حيث كانت بولندا وهنجاريا وحدهما اللتين نجحتا في تنمية مراكز رئيسية في علم الاجتماع . وقد أنجبت بولندا بوجه خاص وقبل الحرب العالمية الثانية عدداً من الباحثين المشهورين الذين يمثلون اتجاهات نظرية واضحة وبخاصة في مركز وارسو للبحوث الأمبريقية في علم الاجتماع القانوني . أما في فترة ما بعد الحرب فلقد أصبح علم الاجتماع في دول شرق أوروبا — وإلى وقت قريب جـــداً — واقعاً تحت سيطرة علم الاجتماع الماركسي المحافظ ، وأن كنا نجد آثاراً بينة لعلم الاجتماع الفرنسي والأمريكي في ذلك العلم ابتداء من الستينيات من هذا القرن .

جنوب أوروبا

تستطيع إيطاليا وحدها بين بلاد جنوب أوروبا أن تدعي بأن جامعاتها عرفت التقليد السوسيولوجي قبل الحرب العالمية الثانية ، ومع هذا فلم يظهر علم الاجتماع الإيطالي مستقلا في قسم أكاديمي ، ولكنه كان ملحقاً في الغالب بكليات الحقوق أو الفلسفة أو الاقتصاد ، وكما حدث في ألمانيا — بتأثير ظهور النازية فيها — خلق ظهور الفاشية في إيطاليا مناخاً غير مضياف لعلم الاجتماع الأكاديمي على نفس الصورة التي تطور بها هذا العلم في بلاد أخرى .

الدول الاسكندنافية

على الرغم من صغر حجم تلك الدول الاسكندنافية فهي ربما قد شهدت أسرع نمو في علم الاجتماع في الفترة التي تلت الحـــرب العالمية الثانية — باستثناء فنلندا — حيث كان هناك القليل من علم الاجتماع الأكاديمي في

تلك البلاد قبل ذلك الوقت . وحتى وقت كتابة هذا المقال فإنه يمكن القول بطريقة أو أخرى أنه نتيجة للضيق النسبي لمدى التعليم العالى الاسكندنافى . فقد احتل معظم علماء الاجتماع فى تلك البلاد مراكز خارج الجامعات . ولقد كان لعلم الاجتماع الاسكندنافى جذور تاريخية فى الديموجرافيا ، كما أنه يميل إلى الاتجاه الوظيفى والاتجاه الكمى نحو الظواهر الاجتماعية ، وغالباً ما كان هذا العلم مرتبطاً باهتمام عميق بالسياسة الاجتماعية والتشريع .

أسباب نمو علم الاجتماع :

لعل هذا الاستعراض الموجز لظهور ونمو علم الاجتماع يجعل من الواضح أن ظهوره ونموه كبحث عقلى وأكاديمى كان يعتمد على الظروف الاجتماعية والسياسية فى الأمم والدول المختلفة . وربما كان هذا حقيقياً بصورة خاصة فيما يتعلق بعلم الاجتماع الأكاديمى الذى خبر القسم الأعظم من نموه الكبير فى نسق التعليم العالى الاجمالى العام الذى وجد فى الديمقراطيات الصناعية الحديثة . ولا شك أن علم الاجتماع الأكاديمى لأشد ماقاسى فى البلاد التى اعتبرته حكوماتها الاستبدادية خطراً على الأرضيات الايديولوجية ، والتى كان معظم علماء الاجتماع فى الوحدات الجامعية فيها يرغمون على الخضوع لتلك الحكومات والتخلى عن الاشتغال به ، أو كانوا يجدون أنه من التبصر والفطنة أن يفعلوا ذلك . وقد صدق هذا بوجه خاص بالنسبة لألمانيا فى الفترة بين عام ١٩٣٤ وحتى عام ١٩٤٦ ، كما يصدق بالنسبة للاتحاد السوفيتى خلال فترة الاشتراكية القومية منذ عام ١٩٢٤ ، وبالنسبة لليابان خلال فترة طويلة من تاريخها ، وبالنسبة لدول شرق أوروبا منذ أواخر الثلاثينيات . كذلك فقد أثرت الحرب العالمية الأولى والثانية فى تدريب علماء الاجتماع الشبان كما أثرت فى المستقبل العلمى

للعلماء الناضجين سواء فى البلاد التى دخلتها قوات الاحتلال أو تلك التى تعرضت للحصار . ولعل أعظم علماء الاجتماع شهرة ممن أصبحوا ضحايا مباشرين لمثل تلك الاضطرابات هو العالم هاليفاكس *Halbwachs* — الذى توفى فى عام ١٩٤٥ فى بوشينوالد *Buchenwald* .

وبلا شك فقد لعب بناء نسق التعليم العالى — والجامعة فى الدول الأخرى — الدور الأعظم أهمية فى تنمية علم الاجتماع الاكاديمى بطريقة أو أخرى . وقد كانت هناك مقاومة قوية من كل الكليات التقليدية نحو دخول علم الاجتماع ونمو أى أدعاء بأنه قد يكون علماً . وحيث أن التعيينات الجامعية فى الكليات كانت فى كل الدول تقريباً تحت الرقابة المباشرة لتلك الكليات ذاتها — ولم تكن تتدخل فى تلك التعيينات إدارة منفصلة — فإن نمو علم الاجتماع الاكاديمى اصطدم بمقاومة نسبية فى كل الجامعات فيما عدا الجامعات الأمريكية.

وفضلا عن هذا كله فقد كان التعليم العالى فى معظم الدول مصمماً على أنه تعليم للصفوة وليس للجماهير ، ولم تتوفر لنسق هذا التعليم المصادر التى تمكنه من تنمية علم الاجتماع بصورة جوهرية . والواقع أنه يجب الاعتراف بأن العامل الرئيسى فى استقرار علم الاجتماع الاكاديمى — وبصورة خاصة فيما يتعلق باستقراره كعلم — قد تمثل فى نوع مصادر التمويل التى تم تكريسها كمخصصات للبحوث الإمبريقية . ومن الناحية التاريخية فقد توفرت تلك المصادر للجامعات فى الدرجة الأولى عن طريق المؤسسات الخاصة والهيئات أو المنح الحكومية . وقد لعبت المؤسسات الخاصة فى بلاد معينة — مثل انجلترا والولايات المتحدة — دوراً هاماً فى تحقيق تقدم مبكر فى علم الاجتماع كعلم إمبريقى. ولكن فقد بدأ دور الحكومة فى السنوات الأخيرة فى تدعيم البحوث بمنح

الدور الأكثر أهمية فى كل الدول بدون استثناء ، ويعنى هذا بقول آخر أن علم الاجتماع أصبح يعتمد على الدولة فى نموه باعتباره مشروعاً لمجموعة من البحوث. ومن ثم فقد أصبح علم الاجتماع يحقق تقدماً سريعاً كبحث فى إجراء البحوث الاجتماعية فى البلاد التى يتزايد فيها تدعيم الدولة لبحوثه . وحيث يعكس نمو علم الاجتماع كبحث عقلى أهمية نفس ذلك المصدر الأساسى للتمويل ، نجد أن علم الاجتماع الريفى وسوسيولوجيا المشكلات الاجتماعية بين المجـــالات الأخرى التى تنمو أيضاً مع توفر المصادر — وبوجه خاص المصادر الحكومية — لتمويل بحوثها .

وبعد فيجب أن يتضح أمامنا أن كل تلك الظروف التى سبقت الاشارة إليها — باعتبارها ظروفاً أحاطت بنمو علم الاجتماع كبحث أكاديمى وكعلم إمبريقى — هى ظروف يمكن الاقتناع بها بسهولة شديدة فقط فيما يتعلق بالمجتمع الأمريكى . ولكن تلك الظروف — التى تتلخص فى توفر حرية البحوث داخل الجامعة أو خارجها ، والتعليم العام الاجمالى ، ومرونة التنظيم واللامركزية فى النسق الجامعى ، ووفرة مصادر التدعيم المـــالى للبحوث — تبدو كظروف جوهرية لظهور علم الاجتماع وتقدمه السريع بالطريقة التى سبقت الاشارة إليها . ولما كان علم الاجتماع واحداً من تلك العلوم التى يمكن أن تصبح مصدر خطر للدولة والمجتمع ، فإن نمو أو تقدم مثل تلك العلوم كمباحث أكاديمية يرتبط بصفة نهائية بحالة المجتمع .

التدريب المهنى المتخصص لعلماء الاجتماع :

كان علماء الاجتماع فى أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين علماء تدرب معظمهم فى فروع للمعرفة غير علم الاجتماع ، فقد كان علماء الاجتماع

فى الجامعات الألمانية والفرنسية والأمريكية مثلا من خريجى كليات الحقوق والاقتصاد أو الاقتصاد السياسى والفلسفة ، ولكن مع انشاء أقسام أكاديمية وكراسى لعلم الاجتماع فى الجامعات أصبح تدريب المشتغلين بعلم الاجتماع يقع بالتدريج على عاتق العلمـــاء أو المتخصصين الذين تدربوا على الدراسات السوسيولوجية . ومع ذلك فقد خضع التخصص السوسيولوجى لفترة طويلة من تاريخه فى معاييره لشغل الوظائف أو المراكز الأكاديمية أو لمنح الدرجات العلمية لعلماء الاجتماع — خضع لتغليب الخاصية السوسيولوجية لكتابات وبحوث المرشحين لشغل تلك المراكز أو لنيل تلك الدرجات على نوع التدريب الأكاديمى كمحك فى الاختيار .

ولم يتحرك التخصص المهنى فى علم الاجتماع فى أى من الدول بنفس السرعة التى تحرك بها هذا التخصص فى الولايات المتحدة، فمع أن الرابطة السوسيولوجية الأمريكية *American Sociological Association* لا تزال تقبـــل فى عضويتها أشخاصاً لم يحصلوا على درجة علمية فى علم الاجتماع ، فإنها تشترط فى التمتع بعضوية الزمالة أو العضوية العاملة ذات حق التصويت — مع استثناءات قليلة — الحصول على درجة دكتوراه الفلسفة فى علم الاجتماع .

وقد وفرت الجامعات الأمريكية أفضل الفرص لنمو سريع فى علم الاجتماع كتخصص مهنى ، حيث قامت بنيتها على الأقسام الأكاديمية التى تؤهـــل لنيل درجة الدكتوراه ومع منتصف الستينيات من القرن الحالى كان هناك بضع وسبعين جامعة فى الولايات المتحدة تضم دراسات عليا تؤهل للحصول على درجة الدكتوراه فى علم الاجتماع تمنح سنوياً ما يزيد على ٢٦٠ درجة . ولقد كان منح الجامعات الأمريكية خلال العقد من السنوات الواقع بين عام ١٩٥٠

وعام ١٩٦٠ لتلك الدرجات مركزاً بطريقة أو أخرى إلى حد بعيد فى ثلاث جامعات منحت ربع ذلك العدد تقريباً ، فى حين منحت تسع جامعات منها النصف تماماً ، ومنحت ٢٣ جامعة أربعة أخماس هذا العدد تقريباً .

وحيث أن عدد علماء الاجتماع المدربين مهنياً قد نما بطريقة جوهرية منذ عام ١٩٥٠ فى دول القارة الأوروبية — وإنجلترا والهند واليابان وأمريكا اللاتينية — فلقد كان فى الولايات المتحدة عام ١٩٦٧ أكبر تركز مفرد لعلماء الاجتماع المدربين مهنياً ، حيث لم يكن هناك فى الواقع فى كل بلد حديث سوى عدد قليل من علماء الاجتماع مع أول السبعينيات من القرن الحالى . وقد ضم المؤتمر العالمى السادس لعلم الاجتماع — الذى عقدته الرابطة الدولية لعلم الاجتماع .. *International Sociological Association* عام ١٩٦٦ حوالى اثنين من علماء الاجتماع ، وهو المؤتمر الذى لا يسمح لأى بلد أن يشارك فيه بأكثر من عشر الحاضرين .

وقد قدمت الولايات المتحدة أكثر المعلومات تفصيلا حول علماء الاجتماع المتخصصين فيها . ومع أنه من الصعب حصر أعدادهم الاجمالية بسبب تنوع فى تعريف المتخصصين فى علم الاجتماع ، فقد كان هناك إحصاء لثلاثة آلاف شخص حاصل على درجة الدكتوراه فى علم الاجتماع فى الولايات المتحدة عام ١٩٦٦ ، كما كان هناك إحصاء لألفين وسبعمائة وثلاثة متخصصين فى علم الاجتماع يضمهم سجل المؤسسة القومية للعلوم الذى يضم الأفراد العلميين والفنيين الأمريكيين.

National Science Foundation Register of Science and Technical Personnel

وقد بلغ عـــدد الأعضاء العاملين والمتمتعين بعضوية الزمالة فى الرابطة الأمريكية لعلم الاجتماع والذين يحمل معظمهم درجة الدكتوراه فى علم الاجتماع ثلاثة آلاف وستمائة وستة وعشرين عضواً فى عام ١٩٦٥ .

ونجد أن علماء الاجتماع فى الولايات المتحدة ، على العكس من زملائهم فى بلاد كثيرة من العالم يعملون فى الدرجة الأولى فى الكليات والجامعات الأمريكية. وقـد كان ٧٧ ٪ من علماء الاجتماع المسجلين فى السجل القـومى عام ١٩٦٤ يعملون فى تلك الكليات والجامعات. وقد جاء اشتغال علماء الاجتماع فى الولايات المتحدة خارج الجامعات متأخراً نسبياً ، ولهذا فقد كان علم الاجتماع الأمريكى أكاديمى قبل أن يكون علم اجتماع المشتغلين بالادارة أو الاصلاح الاجتماعى . وكان العمل بالجامعة خلال الستينيات من القرن الحالى لايزال يعطى لعلماء الاجتماع الأمريكيين منزلة أعظم من المنزلة التى تعطيها مجالات العمل الأخرى، ولكن كانت هناك أيضـاً مؤشرات تدل على أنه كلما تزايد العدد الاجمالى لعلماء الاجتماع، كلما اضمحلت حقيقة هذه القضية بصورة تدريجية . وحيث لاتتوفر فى متناول يدنا إحصاءات مقارنة للمراكز التى يوظف بهـا علماء الاجتماع فى بلاد أخر غير الولايات المتحدة ، فإنه يبـدو ــ بطريقة أو آخرى ــ أنه فى تلك البلاد ــ فيما عـــدا كندا ــ أن أقلية جوهرية منهم هى التى تعمل فى الجامعات . وفضلا عن هذا فإن جانباً متزايداً من مجالات عمل علماء الاجتماع فى انجلترا وأوروبا والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى أصبح مكرساً للخدمة المدنية والمعاهد البحوث .

ويعتمد المدى الذى وصل اليه اشتغال علماء الاجتماع الأمريكيين بوظائف مهنية تخصصية خارج الجامعات ــ إلى حد بعيد ــ على نمو المجالات التطبيقية

فى علم الاجتماع ، ومثال ذلك أنه يعتمد مثلا على ما إذا كان هناك متخصصون فى علم الاجرام — أو فى إدارة مشروعات الرعاية الاجتماعية أو فى التخطيط الاجتماعى — ممن يتمتعون بخبرة سوسيولوجية . وحيث لم تتضمن التدريبات المهنية التخصصية للمشتغلين بعلم الاجتماع — وعلى العكس من المشتغلين بعلم النفس — برامج تدريبية علاجية متخصصة ، نجد فى الحقيقة أن الاختلاف فى حجم الروابط المهنية لكل من المتخصصين فى علم النفس والمتخصصين فى علم الاجتماع فى الولايات المتحدة ، إنما يرجع كله تقريباً إلى العدد الكبير من المتخصصين فى علم النفس العـــلاجى المنضمين إلى الرابطة الأمريكية لعلم النفس .

وقد كان علم الاجتماع فى كل من انجلترا والولايات المتحدة مرتبطاً لوقت طويل بمهنة الخدمة الاجتماعية — ولكن مع أول الخمسينيات من القرن الحالى بدأ اهتمام أقسام علم الاجتماع الكبرى فى الولايات المتحدة بتضمين خططها العلمية برامج تدريبية إعـــدادية لتلك المهنة — الخدمة الاجتماعية — فى الانحسار . ومع أنه لايزال هنـاك القليل من البرامج العلمية التى تؤهل لنيل درجة الدكتوراه فى علم الاجتماع والخدمه الاجتماعية فى الجامعات الأمريكية الرائدة حتى أواخر الستينيات ، فإنه يمكن القول بوجة عام أنه لم يعد هناك بعد أرتباط وثيق بين المتخصصين فى علم الاجتماع والمتخصصين فى الخـــدمة الاجتماعيـــة .

وفى الحقيقة لقـد أدى نمو علم الاجتماع كبحث أكاديمى إلى قليـل من التركيز فى الخطط العلمية على تلك المجالات التى صنفت من قبـل فى مقولة علم الاجتماع التطبيقى . ويمكن أن يعزى انحسار الاهتمام بتدريب متخصصين

فى علم الاجتماع التطبيق — فى جانب كبير منه — إلى المجهودات التخصصية المهنية لتثبيت مركز علم الاجتماع كعلم ، ولكنه يعزى أيضاً – فى جانب منه – إلى حقيقية أن تلك المباحث الأخرى بدأت الآن تنفرد هى الأخرى كالخدمة الاجتماعية مثلا بتدريب العاملين بها .

ولعل هـذا كله لم يكن يسمح له بأن يحجب حقيقة أن علماء الاجتماع فى معظم البلاد كانوا منخرطين بعمق فى المشكلات التى تواجه مجتمعاتهم ، وان كانت أدوارهم فى الدرجة الأولى هى أدوار الفاحص العلمى وأدوار علماء السياسية . كذلك فقد تزايت أيضاً تنمية علم الاجتماع لمجالات تخصصية فرعية مثل علم الاجتماع الطبى ، وعلم الاجتماع التعليمى « سوسيولوجية التعليم » — التى ارتبطت بالممارسة العملية فى تخصصات مهنية أخرى .

الروابط والمجلات التخصصية المهنية :

أن الاعتراف الذى تمتـع به علماء الاجتماع بالتدريج فى جامعات بلادهم لم يكن بالضرورة ليخلص علم الاجتماع من المأزق الذى وضـع فيه ، فقد كانت الغالبية العظمى من علماء الاجتماع الاكاديميين الأوائل يكتبون بغير معرفة بأعمال زملائهم من علماء الاجتماع الذين يحتلون أهمية فى داخـل بلادهم أو خارجها على السواء . ومثال ذلك أن دوركايم وقد زار ألمانيا لبعض الوقت فلا يبدو أنه أخذ فى حسبانه كتابات جورج زيمل *Simmel* . وقد أنتج عالم الاجتماع الامريكى الرائد ليستر وارد *Lester F. Ward* كثيراً من أعماله المبكرة بغير وعى حتى بوجـود العلماء الرئيسيين فى علم الاجتماع فى أمريكا ذاتها . وبقول آخر فإن الحقيقة تبدو متمثلة فى انه بينما كان معظم علماء الاجتماع الأوائل ينتمون إلى مجتمـع العلماء أو دوائر المثقفين فى بلادهم ، فإن تنوع

أصولهم العلمية — أو بقول آخر تنوع التخصصات العلمية التى كانوا ينتمون إليها فى الأصل — كان لايتيح لهم فى الغالب سوى القليل من فرص اتصال كل منهم بالآخر. ولكن فقد حذا علماء الاجتماع حذو الباحثين والعلماء الآخرين فى تأسيس جمعياتهم العلمية الخاصة التى كان البعض منها يتمتع بميل تخصصى مهنى واضح .

« وفى تقرير الولايات المتحدة عن التعليم الذى صدر عام ١٩٠٠ فى القسم الاقتصادى لمعرض باريس لعام ١٩٠٠ ، كتب ليستر وارد عن علم الاجتماع وتقدمه بطريقة إثباتية - إلى حـد ما — وذلك على الرغم من أن تلك لم تكن طريقته فى كل كتاباته الأخرى — حيث يقول أن كل بلاد العالم المتمدين تسام فى الحركة السوسيولوجية ، ولكن فاعلية مساهمة بعض تلك البلاد أكبر بالمقارنة إلى فاعلية مساهمة البعض الآخر . ولعل فاعلية تلك المساهمة هى أقل ماتكون فى انجلترا . كما ان لتلك المساهمة فى ألمانيا طبيعة خاصة مميزة تنطوى على ميل إلى تفادى اسم علم الاجتماع . أما فى الولايات المتحدة فإن تلك الفاعلية كانت مركزة إلى أبعد حد كما كانت حقيقية ومثمرة جداً . ولكن لايمكن الشك فى أن فرنسا كانت مهداً لعلم الاجتماع ، وأنها البلد الذى اتخذ فيه ذلك العلم الوضع الأعظم سيطرة بين الطبقات المفكرة ، كما أننــا فى فرنسا نجد أكبر حصيلة سنوية من الدراسات السوسيولوجية سواء إذا حصرنا اهتمامنا بالمؤلفات أو أدخلنا فى حسابنا التطبيقات العملية لعلم الاجتماع ، مثلا فيما يتعلق بتتبعنا لخطوط عملية حسابية لمدى تعليم وتنوير الناس بالمسائل الاجتماعية .

وقد كان علماء الاجتماع الامريكيون والفرنسيون أول من أنشأ جمعيات علمية ومجلات لعلم الاجتماع ، وكانوا هم أيضاً بين هؤلاء الذين عملوا مبكراً

وبصورة مستمرة تجاه تثبيت مركز علم الاجتماع كبحث علمى وكتخصص مهنى ، وهى أحداث لم تتزامن كلها فى الوقوع . وفوق هذا كله فقد تحرك علماء الاجتماع الأمريكيون بطريقة أو أخرى - بصورة أسرع من تلك التى تحرك بها زملاؤهم فى البلاد الأخرى فى تشكيل علم الاجتماع كبحث متميز ، ولهذا فقد نجح علم الاجتماع الأمريكى — وفى فترة تقل عن ستين عاماً منذ تدشينه رسمياً — فى أن يثبت مكانه ليس فقط فى داخل الجامعات ولكن أيضاً فى كل الاقسام المنظمة من المجتمع الامريكى تقريباً .

ولاشك أن التزايد السريع فى أعداد المشتغلين بعلم الاجتماع فى الولايات المتحدة قد جعل مظاهر النمو والتقدم فى علم الاجتماع الامريكى تبدو أكثر وضوحاً ، ومع هـذا فن الواضح أنه حتى فى الأيام المبكرة حينما كانت الجمعية الامريكية لعلم الاجتماع *American Sociological Society* تضم أقل من مائة عضو ، كان لعلماء الاجتماع الامريكيين السبق فى المبادأة بتنمية الاتصالات والروابط العلمية فى مبحثهم التخصصى ، وقد أنشأ سمول *Small* فى جامعة شيكاغو عام ١٨٩٥ المجلة الامريكية لعلم الاجتماع *The American Journal of Sociology* ، وقد وعد فى كلمة التحرير الافتتاحية فى تلك المجلة بأن يقوم عدد كبير من العلماء الأوربيين بمحاولة التعبير عن أعظم أفكارهم حول مبادىء العلاقات المجتمعية القابلة للاكتشاف . ولم يعن سمول فقط بنشر البحوث المبتكرة التى تصدر عن المجلس الاستشارى للتحرير الذى يضم علماء الاجتماع الأوربيين وزملائهم ، ولكنه قام هو بنفسه بترجمة أجزاء من كتاباتهم ليتفادى — كما يقول هو نفسه — تنمية علم اجتماع ذى صفة إقليمية .

وقد جاء فى تقرير لسمول فى وقت لاحق أنه قد قابل الكثيرين من حاولوا

إقناعه بالعدول حتى عن نشر العدد الأول على أساس انه لا توجـــد كتابات سوسيولوجية كافية لملء صفحات تلك المجلة ، ولم يقلل عن ذلك أهمية أن العدد الأول من تلك المجلة قد ظهر فى يوليو ١٨٩٥ ولم تكن هناك مقالات كافية لملء صفحات عـــدد ثان يظهر فى سبتمبر التالى . وكان تقـدم وارد وروس Ross بأبحاث للنشر هو نتيجة رجاء شخصى من سمول مما أدى إلى ظهور العدد الثانى من المجلة فى موعده المحدد . ومن خـلال الاعتماد بصفة رئيسية على مساهمة الكتاب الأمريكيين - والترجمة بين حـــين وآخر لكتابات علماء الاجتماع الاوربيين - سرعان مانجح سمول فى تثبيت نجـــاح المجلة الأمريكية لعلم الاجتـــماع .

وكانت أول جمعية لعلم الاجتماع فى العـالم هى جمعية المعهـد الدولى لعلم الاجتماع *Institut International de Sociologie* ، وقـد تكونت بصورة رسمية باجتماع مؤتمرها الأول بباريس فى أكتوبر ١٨٩٤ . وقد بدأ المعهد فى عام ١٨٩٥ بنشر مجـلة حــوليات المعهد الدولى لعلم الاجتماع *Annales de l'Institut Internationa de Sociologie.* التى تـولى رئاسة تحريرها رينيه ورنز *Rene Worns* وكانت أول مجلة لعلم الاجتماع فى العالم وهى المجلة النقدية الدولية لعلم الاجتماع *Revue International de Sociologie* . وقد ظهرت فى عام ١٨٩٣ وقد تولى رئاسة تحريرها رينيـــه ورنز أيضاً .

وكان المعهـد الدولى لعلم الاجتماع يكون رابطة دولية لعلماء الاجتماع ظلت تعقد مؤتمراتها حتى عام ١٩٦٠ — وقد ظهرت بعد الحـــرب العالمية الثانية اعتراضات ضد التعاطف الفاشى من قبل بعض أعضاء المعهد وموظفيه ،

كما كان هناك احتجاج على الظروف التى استمر التنظيم يعمل خلالها أثناء الحرب العالمية الثانية فى بلاد خضعت لقوات المحور . وبعد إنشاء منظمة اليونسكو قامت مجموعة من علماء الاجتماع تضم موريس جينزبرج *Moris Ginsberg* من انجلترا ، وجورج جورفيتش *George Gurvitch* وديفى *Davy* من فرنسا ، ولويس ورث *Louis Wirth* من الولايات المتحدة بإقناع المنظمة بالدعوة إلى مؤتمر تأسيسى لإنشاء تنظيم دولى جديد لعلماء الاجتماع . وقد تم تنظيم الرابطة الدوليـــة لعلم الاجتمـــاع *International Sociological Association* فى اجتماع بمدينة أوسلو عام ١٩٤٨ حضره أربعة وعشـــرون ممثلا لواحد وعشرين بلداً . أما فى عام ١٩٦٦ فقد حضر المؤتمر الدولى السادس لعلم الاجتماع فى إيفيان بفرنسا نحو ألفين تقريبـاً من علمـاء الاجتماع من كل بلاد العالم التى توجد بها أقسام أكاديمية لعلم الاجتماع ـ باستثناء الصين الشعبية .

ومع أن الأصوات التى نادت بتأسيس أول منظمة دولية لعلماء الاجتماع كانت أصوات فرنسية ، فقد فشل علماء الاجتماع الفرنسيون فى تأسيس رابطـة قومية مرموقة خاصة بهم ، وذلك على الرغم من أن أقدم مجلات علم الاجتماع وهى المجلة النقدية الدولية لعلم الاجتماع قد صدرت فى فرنســـا . كما أن عالم الاجتماع الفرنسى الشهير إميل دوركايم هو الذى أسس فى عام ١٨٩٨ مجلة حوليات علم الاجتماع *L'annee Sociologique* التى كانت لسنوات عدة تمثل الأحدث والأعظم تأثيراً فى علم الاجتماع . وقد كان علماء الاجتماع الفرنسيون خلال الخمسينيات من القرن الحالى ذوى فاعلية فى تأسيس مجلة الوثائق الأوروبية لعلم الاجتماع *Archives Eurofeens de Sociologie* ، والمجلة الأوروبية لعلم

الاجتماع European Journal of Sociology ، كما أنشأ الديموجرافيون في عام ١٩٤٦ مجلة السكان Population — وهي المجلة التي سرعان ماحظيت باهتمام عالمي بين المشتغلين في مجال الدراسات السكانية .

وكانت ثاني جمعية لعلم الاجتماع تنشأ في العالم هي جمعية علم الاجتماع في لندن Sociological Society of London التي تم تنظيمها في لقاء عام تم في نوفمبر ١٩٠٣ ، وكان أول رئيس لها هو جيمس برايس James Bryce . ولم يتجه علماء الاجتماع البريطانيون إلى تنمية تنظيم قومي يضمهم إلى أن تأسست الرابطة البريطانية لعلم الاجتماع British Sociological Association في عام ١٩٥١ ، والتي وصل عدد أعضائها في عام ١٩٦١ إلى أكثر من خمسمائة عضو . وقد ظهر في عام ١٩٥١ أيضاً العدد الأول من المجلة البريطانية لعلم الاجتماع British Journal of Sociology ، والمجلة النقدية لعلم الاجتماع Sociological Review — التي قامت مع نشرها جمعية علم الاجتماع في لندن ، ولم تلق هذه المجلة الانتباه العالمي الذي حظيت به المجلات البريطانية الأكثر تخصصاً مثل مجلة الدراسات السكانية Population Studies ، والمجلة البريطانية لجناح الأحداث British Journal of Delinquency .

وفي ديسمبر ١٩٠٥ تجمع حوالي مائة من علماء الاجتماع الأمريكيين في مدينة بالتيمور لتقرير عدم رضائهم عن الرابطة التاريخيه الأمريكية ، والرابطة الاقتصادية الأمريكية ، والرابطه الأمريكية لعلم السياسة .. وذلك لأن واحدة من هذه الروابط الشقيقة لم تستطع أن تعطي لعلماء الاجتماع الذين كانوا أعضاء فيها فرصة كبيرة لتمثيل أعمالهم في جلساتها السنوية ، وقد انتهوا في هـذا الاجتماع إلى تكوين الجمعية الامريكية لعلم لاجتماع American Sociological

Society — التى أصبحت الآن الرابطة الأمريكية لعلم الاجتماع *American Sociological Association* ، وقد انعقد أول اجتماع للجمعية فى عام ١٩٠٦ متصلا باجتماعات الجمعيات الشقيقة ، وانتخب ليستر وارد كأول رئيس لها كما انتخب كل من سمنر *Sumner* وجيدنجز *Giddings* كنواب له .

وقد أصبحت المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع *The American Journal of Sociology* هى الجريدة الرسمية لتلك الجمعية التى كان أعضاء مجلس إدارتها مستشارى تحرير لها . ولكن الجمعية عانت من علاقتها بالمجلة وأسست فى عام ١٩٣٦ المجلة النقدية الأمريكية لعلم الاجتماع *American Sociological Review* كمجلة رسمية لها . وقد ظهرت فى ذلك الوقت أيضاً مجلتان أخرتان فى علم الاجتماع هما «القوى الاجتماعية» *Social Forces* التى صدرت فى جامعة كارولينا الشمالية وأشرف على تحريرها هوارد أودم *Howard Odum* ، «ومجلة علم الاجتماع والبحوث الاجتماعية» *Sociology and Social Research* التى صدرت فى كارولينا الجنوبية وأشرف على تحريرها إمرى بوجاردس *Emory S. Bogardus* .

ولقد عانى علماء الاجتماع الريفى خلال الثلاثينيات من القرن الحالى من ارتباطهم بالجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع ، حيث كان هناك إهمال لاهتماماتهم الخاصة ، ومن ثم فقد كونوا جمعية علم الاجتماع الريفى *Rural Sociology Society* وأصدروا «مجلة علم الاجتماع الريفى» *Rural Sociology* كمجلة رسمية لهم . ولقد حذا علماء الاجتماع المهتمين بالمشكلات الاجتماعية حذوهم فى الخمسينيات وأسسوا «جمعية دراسة المشكلات الاجتماعية» *Society for the Study of Social Problems* كما أصدروا مجلة المشكلات الاجتماعية

Social Problems للتحدث باسمهم . وحيث كانت الرابطة الأمريكية لعلم الاجتماع تتوقع مزيداً من الانقطارات فقد وافقت حينئذ على تكوين أقسام متخصصة فى داخلها . وقد صدرت ثلاث مجلات رسمية إضافية ممثلة للاهتمامات الجزئية، منها : المجلة التى أشرف على تحريرها مورينو *J. L. Moreno* بعنوان « القياس الاجتماعى» *Sociometry* — والتى يرجع الفضل إلى الرابطة فى صدورها، وهى مكرسة الآن لبحوث علم النفس الاجتماعى فقط . كما أصدرت الرابطة فى وقت لاحق مجلة علم الاجتماع التعليمى *Journal of Educational Sociology* التى أطلق عليها فيما بعد مجلة سوسيولوجية التعليم *Journal of the Sociology of Education* ومجلة الصحة والسلوك الانسانى *Journal of Health and Human Behavior* ومجلة الصحة والسلوك الاجتماعى *Journal Health and Social Behavior* .

وكانت الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع تنمو كلما يشتد وعيهـا بذاتها كرابطة تخصصية مهنية ؛ كما هى جمعية تضم فئة معينة من المثقفين . وكانت المجله الرسمية للجمعية تتضمن أخباراً عن التغيرات التى تطرأ على الوظائف التى يشغلها الأعضاء ، وفرص العمل المتوفرة أمامهم ، كما أصبحت بالتدريج تضم نشرة بالتعيينات ، وكانت تضم بين غلافيها مناقشات لمشكلات التخصص المهنى فى علم الاجتماع . ولقد وصل عدد أعضاء الجمعية فى أوائل الخمسينات إلى أربعة آلاف عضو تقريباً — بما فيهم مساعدى الباحثين والطلاب — وقد أصبح من الضرورى إنشاء وظيفة سكرتير تنفيذى للجمعية التى كان لها فى أوائل الستينات مكتب قومى فى واشنطن يرأسه أحد علماء الاجتماع ، والتى أصدرت خلال عام ١٩٦٦ مجله خاصة تحمل اسم علماء الاجتماع الأمريكيين *American Sociolgist* وتكرس لمسائل التخصص المهنى .

وقد سار مع انتشار علم الاجتماع فى الولايات المتحدة انتشار للجمعيات الاقليمية ، وجمعيات الولايات وانتشار حتى للجمعيات السوسيولوجية المحلية التى قام البعض منها بإصدار مجلاته السوسيولوجية الخاصة ، فى حين قام البعض الآخر بالاضطلاع بأعباء نشر مجلات كانت قائمة فعلا .

وقد كان هناك كثير من علماء الاجتماع الأمريكيين الذين يتمتعون بعضوية جمعيات أو روابط علم الاجتماع المحلية والقومية معاً . وقد أصبحت الرابطة الأمريكية لعلم الاجتماع خلال نموها تكون كياناً يضم المتخصصين المهنيين ، كما يضم العلماء أيضاً . ولم تذهب رابطة قومية أخرى لعلم الاجتماع — خارج الولايات المتحدة — إلى نفس المدى الذى وصلت إليه الرابطة الأمريكية لعلم الاجتماع فى الاعتراف بكل من الاهتمامات التخصصية المهنية والاهتمامات العلمية الأكاديمية على السواء .. حيث كانت روابط علماء الاجتمـــاع خارج الولايات المتحدة غالباً ما تحصر نفسها فى رعاية الاجتماعات التى تعقد سنوياً أو كل سنتين ، والتى تكرس بصفة كلية تقريباً المناقشـــات والاهتمامات الأكاديمية البحتة . وكانت تلك الروابط تميل بشكل عام إلى اتخـــاذ نموذج الجمعيات العلمية أو الثقافية التقليدية ، أكثر من ميلها إلى النموذج الأمريكى الذى يتميز إلى حد بعيد بسمات التخصص المهنى .

وقد أسس علماء الاجتماع الألمـــان الرابطة الفلنكية لعلم الاجتماع *The Deutsche Gesellschaft fur Soziologie.* برئاسة ماكس فيبر ومعاصريه ، ولكن تلك الرابطة انحلت مع هجرة علماء الاجتماع أثناء سيطرة قوى الحزب الاشتراكى القومى عام ١٩٣٣ ، وقد عقدت الرابطة مؤتمرها الأخير وكان المؤتمر السابع فى برلين عام ١٩٣٠ . وكان ليوبولدفون فيزى أستاذ

علم الاجتماع فى كولون رئيساً لها عند حلها ، كما اضطلع برئاستها عندما أعيد إنشاؤها عام ١٩٤٦ .. حيث استمرت كجمعية علمية رئيسية لعلماء الاجتماع الألمان ، ولم تكن لتلك الرابطة مجلة رسمية ناطقة باسمها .

وقد كانت المجلة الرئيسية لعلم الاجتماع فى ألمانيا طوال معظم الفترة التى سبقت عام ١٩٣٠ هى :

« مجلة وثائق رابطة علم الاجتماع والسياسة الاجتماعية » *Archiv fur Sozialwissenchaft und Soziopolitik* التى تولى ماكس فيبر رئاسة تحريرها لبعض الوقت ، وبخاصه فقد قام بنشر الطبعة الأولى لكل مؤلفاته فى علم الاجتماع فى تلك المجلة . وقد كانت « مجلة كولون الفصلية لعلم الاجتماع » *Kolner Viertelgahrshefte fur Soziologie* تصدر طوال الفترة من ١٩٢١ إلى عام ١٩٣٤ . ويشرف على تحريرها فون فيزى *Von Wiese*. وقد عادت تلك المجلة إلى الظهور باشرافه أيضاً فى عام ١٩٤٨ تحت عنوان « مجلة كولون لعلم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى » *Kolner Zeitschrift fur Soziologie und Sozialpsychologie* ثم تولى رينيه كونيج *Rene Konig* رئاسه تحريرها ، وظلت على ذلك الوضع حتى أوائل الخمسينيات .

وقد بقى علم الاجتماع السوفيتى بدون أى تنظيم يضم علماء الاجتماع حتى منتصف الخمسينيات من القرن الحالى ، حينما أنشئت الرابطه السوفيتية لعلم الاجتماع . ولكن الاجتماع القومى لعلماء الاجتماع السوفيتى لم ينعقد إلا فى فبراير ١٩٦٥ ، وهو نفس العام الذى صدرت فيه أول دورية لعلم الاجتماع السوفيتى بعنوان البحوث الاجتماعيه *Sotsialnye issledovaniia*.

وحيث من الصعب إحصاء العدد الكلى لعلماء الاجتماع السوفيت فقد شارك ستمائة منهم فى اجتماع رابطتهم لعام ١٩٦٥ .

وبإنشاء جمعية علم الاجتماع *Shakai-Geky* عام ١٩٢٤ تكونت فى اليابان جمعية قومية لعلم الاجتماع . وكانت المنشورات الرسمية لتلك الجمعية هى «مجلة علم الاجتماع» *Shakaigakuzasshi* » وحولية الجمعية اليابانية لعلم الاجتماع « *Nemposeijigaku* ، وقد اضيفا فى دورية واحـــدة بعنوان : البحوث الاجتماعية *Shakaigaku Kenky* بعد نشوب الحرب العالمية الثانية . وقد كان عدد أعضاء الجمعية اليابانية لعلم الاجتماع فيما قبل الحرب العالمية الثانية حوالى سبعمائة عضو . وبسبب النمو السريع الذى حققه علم الاجتماع الأكاديمى فى فترة ما بعد الحرب فقد تزايد عدد أعضاء الجمعية .. وإن كان من الصعب تقرير عدد مؤكد للحاصلين على درجات جامعية عليـــا فى علم الاجتماع فى اليابان .

كذلك هناك بعض الصعوبة فى حصر علماء الاجتماع فى الهند وقد بلغ عدد أعضاء الجمعية الهندية لعلم الاجتماع فى عام ١٩٦٣ مائتين وثمانية وستين عضواً فقط ، أحصى كلينارد *Clinard* والدر *Elder* ١٦٪ منهم من غـــير الهنود . ومع أن معاهد الخدمة المدنية وغيرها من المعاهد الهندية ربما توظف متخصصين فى علم الاجتماع لا ينتسبون إلى تلك الجمعية الهندية ، فلاشك أن العدد الإجمالى لعلماء الاجتماع الهنود قليل جداً فى الحقيقة . وربما كانت نسبة عددهم إلى إجمالى السكان فى الهند تـــكاد تصل إلى أقل من تلك النسبة فى أية دولة أخرى تتمتع بنسق جامعى راسخ .

وقد تأسست المجلة الهندية الرئيسية لعلم الاجتماع ، وهى « نشرة علم

الاجتماع ، *Sociological Bulletin* فى عام ١٩٥٢ كجريدة رسمية ناطقة باسم جمعية بومباى لعلم الاجتماع ، *Bombay Sociological Society*. وقد ظهرت أيضاً بعض البحوث السوسيولوجية الهندية فى والمجلة الدولية لعلم الاجتماع المقارن ، *International Journal of Comparative Sociology.* التى تنشر فى ضاوار *Dhawar* .

ولم تزل الجامعات فى البلاد الاسكندنافية — فيما عدا جامعات فنلندا والدانمارك — تكاد لا تعترف بصورة رسمية بعلم الاجتماع الأكاديمى حتى عام ١٩٤٦ . ومع أن مجال علم الاجتماع لازال محدوداً فى كل البلاد الاسكندنافية فإن هناك تفاعلا خليق به أن يؤخذ فى الاعتبار بين علماء الاجتماع فى عدد من تلك الدول . وقد أنشأ علماء الاجتماع الاسكندنافيون مجلة خاصة بهم *Acta Sociologica* ، وقد صدر معظم أعدادها باللغة الانجليزية وكان من النادر أن يصدر عدد فى تلك المجلة باللغة الفرنسية أو الألمانية .

وحيث كانت إحدى أقدم المجلات التى يتضمن اسمها كلمة علم الاجتماع هى المجلة النقدية لعلم الاجتماع *Rivista di Sociologia* ، التى صدرت فى إيطاليا عام ١٨٩٧ ، فإن علم الاجتماع الايطالى مع أنه كان علماً مثمراً ، فقد أنتج البعض القليل من الشخصيات المشهورة فى القرن العشرين وقد نجح بصعوبة فى الحفاظ على كيانه منذ أيام باريتو الذى عاش فى سويسرا .

وبدون شك كان انشاء مجلات علم الاجتماع عاملا هاماً فى النمو المبكر لعلم الاجتماع العلمى الأكاديمى . وقد كانت المجلات السوسيولوجية القديمة هى فى الغالب منافذ لمنشورات مدرسة معينة فى علم الاجتماع أو لمنشورات المحرر وتلاميذه ، حيث كان من الواضح مثلا أن مجلة حوليات علم الاجتماع

الفرنسية هى مجلة دوركايم . وقد سيطر ورمز *Worms* على المجلة النقدية الدولية لعلم الاجتماع، *Revue Internationale de Sociologie* . وكان فيبر لوقت معين يشكل مجلة وثائق علم الاجتماع والسياسة الاجتماعية، واستخدم أودم *Odum* وتلاميذه مجلة القوى الاجتماعية، *Social Forces* لاحتضان علم الاجتماع إقليمى *Regional Sociology* ، وكون مورينو *Moreno* مدرسة عن طريق مجلة القياس الاجتماعى *Sociometry*، وحتى المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع *A. J. S* ومجلة البحوث السوسيولوجية *Sociological Papers* اللتين كانتا مفتوحتين لأوسع مدى لتلاقى مقالات كل علماء الاجتماع كانتا أيضاً متأثرتين بالتوالى بشخصيات واهتمامات البيون سمول *Albian Small* وفيكتور برانفورد *Victor Branford* . وبينما لا تزال هناك امكانيات قائمة لمدرسة معينة أو لمجموعة من الأفراد أو بين وقت وآخر لشخصية رائدة تلعب دوراً فى تأسيس أو نشر مجلة فى علم الاجتماع ، فإن معظم تلك المجلات اليوم — سواء كانت عامة أو متخصصة — هى أشد ميلا إلى أن تكون عالمية فى مستواها .

ملاحظات حول علم الاجتماع السوفيتى

نظرة من خلال سوسيولوجيا العلم

مقدمـــة :

تعتبر الظـروف التى ينمو خلالهـا العلم ويتقدم من المشكلات الرئيسية فى سوسيولوجيا العلم . ولعل المدهش أن النظرة إلى العلم على المدى العالمى الواسع تكشف عن تنوع فى أشكال المناخ الاجتماعى التى تنمو فيهـــا البحوث العلمية المختلفة ، مما يفرض إعادة النظر إلى حد بعيد فى تلك الافتراضات المسبقة حول حاجة العلم إلى البيئة الليبرالية .ومع أن الانجازات التى تتم فى فروع العلم المختلفة — وفى ظل نظم الحكم لا تصل فى مستواها الليبرالى إلى مستوى النظم الديمقراطية — قد أعطت للملاحظ الغربى فرصة للتأنى وإعادة النظر فى تلك الافتراضات .. إلا أنه حتى وقت قريب كانت وجهة النظر التى ترى أن النسق الديمقراطى يعتبر هو النسق الأفضل الذى يساعد العلم بالمعنى الواسع للكلمة على الظهور تتمتع بجانب كبير من الصدق، وذلك نظراً لندرة الانجازات التى حققتها العلوم الاجتماعية — وبخاصة علم الاجتماع — فى ظل مختلف نظم الحكم الاستبدادى . وقد بدا أن ليس هناك ثمة اختلاف فى أن مبحثاً مثل علم الاجتماع لا يتلاءم مع نظم الحكم الاستبدادى — وبخاصة فقد اعتبر ذلك العلم وليداً للمجتمع الغربى — مما جعل من الصعوبة بمكان توقع ظهوره فى مجتمع يفتقـر على الأقل إلى ما ينتسب إلى الثقافة والتقاليد الغربية .

ولهذا كلـه فقد كان فى عـودة علم الاجتماع السوفيتى إلى الظهور — من هذه الناحية — ما يستحق اهتماماً خاصاً ، باعتبارها تقدم لنا دراسة نميط اللثام

عن خاصية وطبيعة البحث العلمى — الذى ينمو تحت ظروف اعتبرت فى الماضى ظروفاً مستحيلة لنمو وتقدم مثل هذا العلم . ولهذا أيضاً فقد كان من الضرورى — على الأقل — إعادة النظر فى هذا الافتراض القائل بانعدام التوافق أو التضاد القائم بين العلم الموضوعى الذى يعنى بدراسة الظواهر الاجتماعية من ناحية — والنظم الاستبدادية من ناحية أخرى . وذلك فى ضوء الخبرة السوفيتية ، حيث يمكن اعتبار مظاهر النمو والتقدم فى الاتجاه السوفيتى فى علم الاجتماع بمثابة دليل للتغير فى الظروف السياسية التى تحقق خلالها هذا النمو والتقدم. كما يمكن أن يقوم حوار فيما إذا كان ظهور علم الاجتماع السوفيتى يعتبر دليلا على صدق ذلك الافتراض، وفيما إذا كان النمو والتقدم الذى حققه هذا العلم يبين تحولا عن النظام الاستبدادى ذاته . وعلى أية حال يمكن القول بأن لنمو وتقدم علم الاجتماع السوفيتى أهمية خاصة فى ضوء الظروف العامة التى تحيط به — والتى تتميز بالوضوح — تتمثل فى ارتباطه الوثيق بالسلطة السياسية والأيديولوجية المعروفة . ولهذه الأسباب بالذات يعتبر لنمو ذلك العلم وتقدمه أهمية خاصة .. لأنه إذا كان فى الامكان الادعاء بوجود تغير فى الظروف السياسية، فان الحكم بأن هذه التغيرات السياسية إنما تعبر عن تغيرات أساسية فى المجتمع — هو أمر لا يمكن الجزم به إلا من خلال النظر عن كثب الإنجازات التى يحققها علم الاجتماع.

ومهمة هذا البحث هى تقديم عرض موجز لمظاهر النمو فى الاتجاه السوفيتى فى علم الاجتماع ، باعتباره يمثل علماً جديداً على ارتباط وثيق بالبناء السياسى فى المجتمع السوفيتى. والسؤال الهام من وجهة نظر سوسيولوجية العلم يتمثل في البحث في مدي إمكان القبول بتوفر الظروف الملائمة للبحث

العلمى الموضوعى فى المجتمع السوفيتى الذى ظهر فيه هـذا الاتجاه ، أو القول بأن هذه الظروف فى سبيلها إلى الظهور . ومهما يكن من شيىء فإن القول بأن كثيرا من الملاحظين حتى فى الغرب الديمقراطى ذاته يتشككون فى إمكانية نمو أو تقدم علم اجتماع غير منحاز ، كما أن قابلية علم الاجتماع للتجريح استناداً إلى المؤثرات الخارجية المختلفة التى تحيط به — وقابلية هذا العلم للتحريف — هى من الأمور المعروفة جيداً . وفى ضوء كل هـذه الاعتبارات والصعوبات يمكن القول بأن هناك إمكانيات محـدودة تحيط بنمو وتقدم الخط السوفيتى فى علم الاجتماع .

أزمات الميلاد وآلام النمو :

يعتبر الدخـول بصورة مباشرة فى موضوع علم الاجتمـاع السوفيتى من المشكلات المثيرة للاهتمام والمتعة ، فحيث كان هذا العلم يحيطه شيىء من الاهمال والركود فى عهد ستالين ، فقد ظهرت بدايات ذلك المبحث الجديد فى منتصف الخمسينيات . وقد حالت ظروف أو أوضاع معينة دون ظهور دراسةموضوعية المجتمع السوفيتى فى العهد الستالينى وقد تمثلت تلك الظروف أو الأوضاع فى نسق الضبط الاجتماعى الذى كان يستند إلى الارهاب ، فضلا عن اعتبار الستالينية الماركسية اللينينة وحدها هى النظرية العلمية الشرعية التى يجب أن تتم من خلالها دراسة المجتمع . ونتيجة لهذا أصبح علم الاجتماع السوفيتى سجيناً بصفة رسمية فى حدود تقديم المساعدات إلى الحـــزب الشيوعى لتحقيق هدفه المعلن فى بناء المجتمع الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى . وقد حل محل ذلك الجانب الاستبدادى فى النظام الشيوعى الذى يعتبر — أو بقول أكثر دقة يعتقد — أن المعرفة السوسيولوجية أداة من أدوات الضبط الاجتماعى ، فضلا عن الاعتقاد

بأن تلك المشكلات أو التناقضات التي قامت في المجتمع السوفيتي — إنما كانت في حاجة إلى دراسة سوسيولوجية تتصف بالمادية.

وقد نجح هذا الإعلان الشرعي لمجال علم الاجتماع — ونوع الحاجة التي أوجدته في النظام السوفيتي — في تحقيق الاستقرار لتلك النغمة التي غلبت على علم الاجتماع السوفيتي والتي سادت فيما بعد . ويمكن الاستناد إلى عدد من أدوات القياس للحكم بأن الاتجاه السوفيتي في علم الاجتماع قد حقق تقدماً ملحوظاً ، وإن كانت الجوانب المختلفة في هذا الاتجاه قد أبرزت بوضوح الآثار المترتبة على إخضاع الاستقلالية أو الذاتية العلمية لضرورة السياسية . كما يمكن القول بأن تلك النهضة — التي سمح لعلم الاجتماع السوفيتي لتحقيقها — ترجع في الحقيقة إلى اعتبار حدود الماركسية اللينينية بمثابة نظرية في المجتمع ، كما ترجع من ناحية أخرى إلى تلك النظرية الجديدة بين كبار رجال الحزب الذين رأوا بوضوح أن الماركسية اللينينية لم تستطع أن تستوعب في حساباتها كل المشكلات القائمة في المجتمع السوفيتي المعاصر ، كما رأوا بنفس هذا الوضوح أنه ليس في الإمكان تجاهل تلك المشكلات أو التعامل التغافل عنها فضلا عن إلغائها نهائياً .

ولكن المشكلة التي لا تزال قائمة تتمثل فيما تهيأ لنمو تلك المنزلة الاجتماعية التي تحتلها الماركسية اللينينية باعتبارها علم اجتماع إمبريقي وحيث أصبح تحديد ما فسرته أو لم تفسره الماركسية اللينينية — كنظرية في علم الاجتماع — وبالتالي ما هي المشكلات التي يمكن أن يبحثها علم الاجتماع السوفيتي يمثل مشكلة سياسية وسوسيولوجية في الوقت ذاته . وعلى أية حال فقد ترتب على ذلك أن الوظيفة المزدوجة للماركسية اللينينية — كأيديولوجية سياسية ونظرية في علم الاجتماع — قد عاقت تحقيق إنجازات سوسيولوجية معينة ، وأن

كانت هناك بعض الخطوات الواسعة تمت على الرغم منها .

ويبين لنا علم الاجتماع السوفيتي — في تاريخه القصير — ذلك الصراع من أجل المحافظة تلك التفرقة التي نسلم بوجودها بين الصياغة الأيديولوجية والحقائق السوسيولوجية ، والتي نسلم فيها بأن تلك العملية الأولى لا تعتبر بديلا مقبولا للثانية . وإن كان التصور الماركسي للمجتمع الشيوعي يعتبر بمثابة نوع من التفسير والهدف في الوقت ذاته ، فإن افتراضاته حول مستقبل المجتمع يجب أن تفصل بوضوح عن الحقائق التي تتعلق بالواقع المعاصر . ويتصل بهذه النقطة الأخيرة أن تلك الأحكام القيمة التي ينطوى عليها علم الاجتماع السوفيتي — والتي تحبذ مثلا المجتمع اللا طبقي — يجب أيضاً أن نميز بينها وبين الملاحظات السوسيولوجية الخالصة .

ولهذا كله نجد أن مشكلة التحريف الأيديولوجي — وهي تعتبر مشكلة شائعة بالتأكيد في كل الدراسات السوسيولوجية — تبدو حدتها بصورة غير عادية في الإتجاه السوفيتي في علم الاجتماع بالذات . ونضيف إلى ما سبق أن ذلك الاتجاه السوفيتي في علم الاجتماع ولو أنه لايزال اتجاهاً أيديولوجياً — بمعنى أنه يعنى بصياغة قضايا براجية حول مجيء المجتمع الشيوعي في الاتحاد السوفيتي — فإن هذا الاتجاه يبدو ناضجاً إلى حد معين منذ سنوات ظهوره الأولى . كما أن ذلك الشعور منذ البداية بضرورة تحديد علم اجتماع ماركسي متمايز — مع تعقل الحاجة إلى تنميته — قد تيسر له القليل الوقت ليوجد علم اجتماع على نفس الصورة الغربية . كما كان الشعور بالحاجة إلى تجنب علم الاجتماع الغربي نتيجـــة نوع من التشويه السياسي .. أكثر من كونه يستند إلى دراسة سوسيولوجية .

ولاعتبارات معينة فإن الصعوبات التى تراكمت أو نمت — والتى أحاطت بظهور علم الاجتماع السوفيتى — لم تكن من نمط واحد .. ذلك لأن تحديد طبيعته ومجال هذا العلم ، وتنمية قدرته الفنية فى تصنيف فئـــات الحقائق التى يتناولها بالبحث ، ومناقشة وتنقية العمليات المنهجية التى يستند إليهـــا فى تحليلاته ، وبوجه عام إعداده لاحتلال مركزه كبحث منهجى ، كانت كل هذه المراحل تحتل دائماً جانباً من جوانب تاريخ أى علم من العلوم . وان كان من الممكن أن نعزى بعض ملامح أو سمات ذلك الاتجاه السوفيتى فى علم الاجتماع إلى نوع من النمو الذاتى قبل أن تعزى إلى عامل سياسى ، لكننا يجب أن نتنبه إلى أنه على الرغم من أن الاتجاهات المختلفة فى العلم تمر بتلك الخـــبرات التى تتصل بمشكلات النمو — بغير نظر بعين الاعتبار الى المنـــاخ السياسى المحيط بنشأتها — إلا أنه من الصعب فى حالة علم الاجتماع السوفيتى أن نفصل ذلك المتغير السياسى عن عملية النمو الطبيعى التى عاشها هذا العلم . ويترتب على ذلك أن ذلك الاتجاه السوفيتى فى علم الاجتماع .. وقد أعيدت ولادته فى بيئة معينة قد غيرت وضعه المغاير للاتجاهات الموضوعية الأخرى التى يتخذها هذا العلم فإنها قد أعطته صكاً شرعياً لا يتصف بالتأكيد أو النضج محدداً لإمكانيات نموه المحتمل .

ان علماء الاجتماع السوفيتى فى محاولاتهم إحياء مبحث بدى خاملا الى أبعـد حد ممكن قد اجتاحتهم الشوطة فى البداية نحـو ضرورة العمل داخـل الحدود المؤطرة للماركسية الليفينية كما أولتها السلطة السياسية ، وترتب على ذلك ظهور اتجاه نحو ضرورة توجيه النقد إلى علم الاجتماع الغربى ، فى نفس الوقت الذى إزداد فيه الشعور بالاعتماد عليه . وذلك لأنه مع وفرة المشكلات الاجتماعية نجد أن الماركسية قد أمدت علم الاجتماع السوفيتى بمجموعة محـــددة من

المصطلحات — وبعدد أقل من الخطوط المنهجية المعاونة — مما نتج عنه نوع من الاستعارة بالاختيار من علم الاجتماع الغربي .. وكانت هذه الاستعارة بوجه خاص في مجال طرق البحث ، مع تزايد الاعتماد على المصطلحات القائمة في هذا العلم . وهكذا فإن تلك المعضلات الوجودية المألوفة في مختلف الاتجاهات القائمة في علم الاجتماع — قد عبرت عن نفسها في مجموعة المشكلات السوفيتية التي لازالت تجد لها حلا ظاهرياً بالرجوع إلى الماركسية اللينينية ، ومهما يكن من شيء فقد استمر تزايد توجيه السوفيت لمزيد من الاستماع الى الأفكار البورجوازية الغربيـــة .

سيكون استعراضنا هذا لعلم الاجتماع السوفيتي موجزاً للغاية ، وهو لن يذهب إلى أبعد من المناظرات المدرسية حول طبيعة علم الاجتماع الماركسي . ولقد كان على علم الاجتماع السوفيتي أن يذهب إلى أبعـــد من اهتمامات بالميتاسوسيولوجي أو بقضايا مابعد علم الاجتماع والمسائل النظرية ، إذا كان يريد أن يكون شيئاً أكثر من كونه فناناً من أيديولوجية الحزب . ونجد أنه بينما تفسر الماركسية اللينينية في خطوط عريضة النمو والتحسن في مجتمع المستقبل ، فإن المجتمع السوفيتي المعاصر — وقد سلم بابتعاده قليلا عن أهدافه — فقد خبر مشكلات معنية استطاع علم الاجتماع السوفيتي أن يساعد في حلها من خلال البحوث الإمبريقية .

وفي نهاية هذا التحليل نجد أن نظرتنا إلى نمط البحوث السوفيتية .. هي التي تحدد مدى استطاعتنا الحكم بما إذا كان من الممكن — أو من غير الممكن — قيام علم الاجتماع بصورة حقيقية في الاتحاد السوفيتي في الوقت الحاضر . وفي حين نجد أنه من المعترف به إلى حد ما أن المعايير التي تحدد على أساسها ماهية علم

الاجتماع الحقيقى إنما هى معايير فجة - وتخضع للتحيز الأيديولوجى للشخص الذى يقوم بعملية الملاحظة والحكم - فقد كان من الممكن الاتفاق على إنه من الضرورى اختيار المشكلات أو الطريقة التى تتم بواسطتها معاملتها .. فى حدود البيانات المتجمعة ، والنتائج التى تنتهى إليها . وحينما نأخذ فى اعتبارنا الضغط السياسى وضرورة الالتزام الظاهرى بالنظرية الماركسية اللينينية ، فهنا نجد خطر التحيز الأيديولوجى يبلغ أقصى مداه . ولعل أعظم الاختبارات التى يمر بها علم الاجتماع السوفيتى يكمن فى قدرته على التوفيق بين الرقابة السياسية الفردية وشروط البحث العلمى الموضوعى كما نجد انه بينما تكون النتائج القابلة للتعريف مستحيلة ، فإنه بالامكان إعطاء بعض الأحكام التجريبية العينية .

البحث السوسيولوجى السوفيتى :

لقد استمر تزايد الموضوعات التى عنى بفحصها ودراستها علم الاجتماع السوفيتى خلال تاريخه القصير . وكانت المجالات الرسمية الثلاثة التى استغرقت المشكلات التى عنى بهـا علم الاجتماع السوفيتى تتضمن بناء الأساس المادى الشيوعية ، وتنمية العلاقات الشيوعية ، وتنمية المواطن السوفيتى الجديد . وفى داخل هذا الاطار الواسع عنى علماء الاجتماع السوفيت بدراسة موضوعات تراوحت بين أخلاقيات العمل الى الصور المتنوعة للسلوك المنحرف . ولقد امتد الإيمان بالفعل الانفرادى التوجيهى إلى علم الاجتماع السوفيتى ، ونتج عنه أن تمت رؤية جميع موضوعات البحث فى هذا العلم فى ضوء تطبيقاتها الاجتماعية . كما قد ترتب على الرغبة فى ربط النظرية بالتطبيق القليل من الدراسات التى تم إجراؤها فقط لأهميتها فى ذاتها — أو التى أجريت من أجل البحث العلمى — وهذا مع الشك فيما إذا كانت مثل هذه الدراسات قد أثمرت شيئاً فى علم الاجتماع السوفيتى .

ولعلنا نستطيع ان نتبين أن علم الاجتماع الغربي يتميز بصورة تقريبية بثلاثة اتجاهات رئيسية — يتمثل أولها في اتصافه « بالعلمية » كما يتميز بكونه يتمتع بدلالة معينة فضــلا عن خاصيته العلمية — وهي اتجاهات أو خصائص وإن كانت تتداخل فيما بينها إلا انها تميل إلى تحديد الهدف الذي يقوم من أجله علم الاجتماع بمصطلحات مختلفة تماماً . فالاتجـاه العلمي في علم الاجتماع الغربي يركز على تحليل المشكلات السوسيولوجية والوصول إلى المعرفة العلمية دون إعتبـار لتطبيقاتها العملية . وهــذا الاتجاه هـو بالمعنى الواسع للكلمة يهتم بطبيعـة النظام والاضطراب والتغير الاجتماعي . كما أن دلالة هذا العلم تتمثل في كونه يهتم بطريقة نقدية بما يحــدده علماء اجتماع معينون من الأمراض الرئيسية في المجتمع — مثل التهـديد الذي تتعرض له القيم ، والصور الأساسية في الصراع الاجتماعي ، أو أي من هذين الجانبين على حده — كما يتمثل الاتجاه العلمي في النظر إلى هذا العــلم باعتباره يكرس بصفة رئيسية لدراسة المشكلات الاجتماعية المباشرة والملحة في ضوء القيم الاجتماعية القائمة . ويعتبر الجناح والفقر والجريمة من الأمثلة النموذجية لهذه المشكلات .... ولكننا حين نعتمد على هــذا التصنيف الذي استخدمناه — في تحــديد الخصائص والاتجاهات المميز لعلم الاجتماع الغربي — نجد أن الاتجـاه العملي يحتل أهمية خاصة في علم الاجتماع السوفيتي .

ولقد ترتب على الاتجاه السوفيتي في علم الاجتماع أمـور متعارضة ، فنجد من ناحية أن القول بعدم «وجود» المشكلات ليعني بها علم الاجتماع السوفيتي من الأمور المعروفة جــداً ، كما أنه كانت هناك دائماً مجالات معينة

تعتبر محرمة لا يمكن التعرض لدراستها مثل توزيع وأساس القوى الاجتماعية أو التمييز العرقى . وفى الناحية الأخرى نجد أنه فى نفس الوقت الذى يشجع فيه على التوسع فى مدى المشكلات التى يتناولها هذا العلم بالدراسة .. فإن الاتجاه الإصلاحى الذى اتخذه أخذ يبدو وكأنه يمثل نوعاً من الاتفاق مع الضبط السياسى. وقد نظر الباحثون فى علم الاجتماع السوفيتى إلى الأسس التى تقوم عليها أغلب المشكلات الاجتماعية بصفة أولية .. باعتبارها موجودة فى سلوك واتجاهات الأفراد نحو بناء المجتمع السوفيتى — وليست تلك الأسس كامنة فى هذا البناء ذاته — عن تسليم بأن ليست هناك عيوب فى النسق، ولكن النقص والعيب إنما هو قائم فى الأعضاء الذين يضمهم هذا النسق . ويترتب على هذا أن البحث النقدى الذى يسبر أغوار المجتمع السوفيتى أمر لم يتم حتى الآن .

وبينما نجد أن الخاصية العملية للاتجاه السوفيتى فى علم الاجتماع هى من الأمور التى تنتشر معرفتها بين علماء الاجتماع السوفيت ، فإننا لن نتخذ من هذه الخاصية عنواناً لهذا المقال ، ولكننا سوف نحاول فقط أن نؤكد ما إذا كانت تلك الخاصية سوف تؤدى إلى معرفة سوسيولوجية ذات دلالة . وإذا كان علم الاجتماع مكرس بصفة أولية لدراسة مشكلة الضبط الاجتماعى — كما هو الشأن فى علم الاجتماع السوفيتى — فإن هذا القول يتصف بالتشويش لهذا الاعتبار ذاته إذا كانت أبحاث هذا العلم قد فشلت فى أن تختبر — عن قرب — وبطريقة نقدية الترتيبات النظمية التى يمارس من خلالها ذلك الضبط الاجتماعى . والافتراض القائم فى الحالة السوفيتية حقاً يتمثل فى بساطة فى أنه لا توجد عيوب ذات أهمية على المدى الواسع فى المجتمع السوفيتى .. لن يؤدى الوقت والعمليات الاشتراكية الجديدة إلى القضاء عليها أو انتزاعها .

ونقول ثانية إن ذلك التناقض القائم فى الوضع الذى تحتله النظرية الماركسية اللينينية يتميز بالوضوح .. وذلك لعدم قابلية النظرية الماركسية أو أية نظرية أخرى للاختبار — أو بما تنطوى عليه النظرية من عدم القابلية الفعلية للمرور بهذا الاختبار فى البحوث الإمبريقية — وينتج عنه الاتجاه إلى نوع من المحافظة على الحقائق التى يتم التوصل إليها . ولذلك نجـــد هناك نوعاً من عدم الترابط الغريب بين النظرية والبحوث ، حيث أن البحوث التى تتناول مشكلات معينة — مثل : انخفاض الانتاجية فى العمل ، أو الاختلافات الطبقية — لا تستند إلى فروض معينة يمكن اختبارها . ولما كانت الماركسية فى الحقيقة تتوقع مقدماً اختفاء تلك المشكلات فى المجتمع الشيوعى ، ففى هـذا ما يظهر بوضوح نوع المعضلة التى ينطوى عليها تحليل هذه المشكلات فى المجتمع السوفيتى فى الوقت الحاضر .

وفيما يتعلق بنمو الاتجاه السوفيتى فى علم الاجتماع ، فإن الافتقار إلى فروض متسقة وتحليل علمى يحول بصورة واضحـة دون ذلك النمو التراكمى فى الوقت الحاضر . كما نجد أنه على الرغم من وجـود نوع من التكليف الرسمى للباحثين بتفسير المشكلات التى لم تفسرها الماركسية ، فإن عـــلم الاجتماع السوفيتى لم يتوصل بعد إلى ما قد يتوقعه المرء فى مثل هذه الظروف من فروض متتابعة أو نظريات ترتبط بالبحوث القائمة . وإن كانت الماركسية تحتل الآن فى المجتمـع السوفيتى مركزاً متقهقراً فإنه لم يبلغ بوضوح بعد حد التساهل ، ونجد أن الحقائق التى يتم التوصل إليها — من خـلال الاتجاه السوفيتى فى علم الاجتماع — إنما تشبع إلى أبعد مدى وبفاعلية المتطلبات السياسية ، كما نجد أن المادة الوصفية استخدامات متعددة فى هذا الاتجاه .

ولكننا يجب أيضاً ألا نبالغ فى القـــول بالافتقار إلى نمو تراكمى فى علم

الاجتماع السوفيتى . كما أن وجود الاعتماد المتبادل بين النظرية والبحث فى علم الاجتماع الغربى ، إنما هو بالتأكيد أمر يقبل المناقشة،فضلا عن أن المرء يستطيع أن يدعى بأن الحاجة إلى مثل هذا الاعتماد المتبادل تعتبر أمراً واضحاً لعلماء الاجتماع السوفيت مثلما هو واضح بالنسبة لزملائهم الغربيين، وذلك على الرغم من خضوع هؤلاء السوفيت من الناحية اللفظية فقط للماركسية . ومع زيادة وتراكم المادة التى يقوم بجمعها علماء الاجتماع السوفيت فهم ربما يذهبون إلى أن يزعموا — كنوع من قبيل الترف العلمى وبصورة غير رسمية — بوجود فروض مثالية أو نظريات ، ولكن المشكلة تكمن فى التزام هؤلاء العلماء بالعمل داخل حدود التأويلات الماركسية .

علم الاجتماع الصناعى السوفيتى :

أن اشتغال العلماء السوفيت بعلم الاجتماع الصناعى يصور مدى الصعوبات ونوع الغرابة التى تكمن فى اتجاههم العام نحو علم الاجتماع . ومع المحافظة على البقاء داخل الحـــدود الماركسية الصارمة للبناء الاقتصادى فى المجتمع السوفيتى ، فقد كانت هناك بحوث يمكن النظر إليها بعين الاعتبار كرست لدراسة سلوك العمل — باعتبارها دراسات تساهم فى رفع الانتاجية — وذلك مع وجود افتراض مسبق بأن رفع الانتاجية إنما هو مرتبط بنمو المجتمع الشيوعى،وأن العمل على القضاء على الطبقات الاجتماعية يمثل أحد الأهداف أو المشكلات كما يمثل بصفة رسمية على الاقل الهدف المعلن للبحث السوسيولوجى . وقد انعكس هذا كله فى علاج هذه المشكلة ، كما يبدو أن الغرض من وراء هذا البحث هـو رؤية العوامل التى تقـــوم وراء الانتاجية المنخفضة ووجـود الطبقـات الاجتماعية .

ومثل تلك التناقضات التى توجد فى المجتمع السوفيتى فى الوقت الحاضر إنما هى فى الحقيقة بمثابة دليل أو شاهد على كون النظرية الماركسية نظرية محدودة ولذا فإن الورطة التى تحيط بعلم الاجتماع السوفيتى الآن تتمثل فى ضرورة تفسير مثل هذه الظواهر بدون إنكار صدق النظرية الماركسيه أو الطعن فى المبادىء التى يقوم عليها علم الاجتماع السوفيتى المعاصر .

وقد ترتب على هذا كله ان علم الاجتماع السوفيتى يقوم الآن بمعالجة مبتورة لتلك الموضوعات التى نجد فيها الاهتمام بالوصف أكثر من الاهتمام بالتحليل . وإذا كانت تلك التقارير التى تنتهى إليها البحوث السوسيولوجية تعترف بوجود الفروق الطبقية ، فهى تعنى بمثل هذه المشكلات فقط بين العمال الصناعيين .. مع ولع بتجاهل تلك التكوينات الطبقية فى المستويات العليا من المجتمع السوفيتى . كما إن هناك إتجاهاً إلى إبراز الإيجابية التى تؤكد وتدعم التقاء الطبقات ، من خلال تجاهل الفروق الأساسية التى تقوم بينها .. كما فى الدور الذى يلعبه التقدم فى التدريب المهنى الذى يؤدى إلى القضاء على الأسس المهنية للفروق الطبقية ورفع الانتاجية ، وارتباط هذا كله بالتقدم الملحوظ فى التكنولوجيا الصناعية — وهى كلها من الأمور التى عرضت بالتفصيل فى علم الاجتماع السوفيتى .

ومثل هذا الاتجاه الذى يسير فيه علم الاجتماع الصناعى فى المجتمع السوفيتى إنما يشفع فى الحقيقة لوجود حاجة إلى تحليل سوسيولوجى واسع يتضمن علاج هذه المشكلات بصورة فعلية ، فالقول بأن انخفاض الانتاجية يرجع أساساً إلى أسباب تتصل بالتكنولوجيا والتدريب العمالى ، وإعطاء هذا التعريف المسبق يجعل علم الاجتماع السوفيتى مفتقراً إلى الاستقلالية الذاتية فى صياغة

مشكلاته الخاصة ومتابعتها . ويمكن القول بسخرية بأن هذا ينطبق حتى علـى الجوانب السوسيولوجية التى تنطوى عليها النظرية الماركسية ذاتها . ولهـذا نجد أن البحوث الصناعية السوفيتية هى بحوث محدودة ، تتخذ شكل تقارير اجتماعية يتم فيها تأكيد أو إبراز أبعاد المشكلة أكثر من تأكيد أو إبراز العلل التى تقوم وراءها .

وهناك الآن ميل غير طبيعى بين الباحثين السوسيولوجيين الغربيين لإعادة تأويل المادة التى ينطوى عليهـا علم الاجتماع السوفيتى ، مما يترتب عليه سهولة تحديد كثير من نقاط الالتقاء أو التقارب بين جوانب النمو فى كل من المجتمع السوفيتى والمجتمع الغربى . والواقع أن مشكلات المجتمع السوفيتى تبدو متشابهة تماماً مع تلك المشكلات التى توجد فى أية أمة دخلت نسبياً فى طور الصناعة ، كما تتشابه أيضاً الأسس الاجتماعية التى تقوم وراء تلك المشكلات .

وبقول آخر فإن هناك خطـاً عائلا من تلك المشكلات الاجتماعيـة المرتبطة بالتصنيع قد أعلن ظهوره فى الاتحاد السوفيتى . وتلك الملابســات التى تبدو حتمية والتى تصاحب التصنيع — وهى تتضمن الانفصال الذى يطـرأ بين النشاطات النظمية ، وخدش القيم الاجتماعية ، وزيادة الحـراك الاجتماعى والجغرافى — قد ساهمت جميعها فى فقدان روابط التكامل الاجتماعى فى الاتحاد السوفيتى . كما أن العلاقات التى تقوم بين عملية التصنيع ، والمشكلات الاجتماعية المتنوعة — التى تتضمن انهيار الأسرة ، والجريمة ، والجناح والأمراض العقلية — تبدو بوضوح تام . وسواء أكانت هذه العلاقة فى المجتمع السوفيتى هى علاقة مؤقتة — كما يدعى علماء الاجتماع السوفيت — أم لم تكن كذلك ، فإن القول بهذا الادعاء لا يمكن أن يكون قائماً على الظن أو التخمين .. مع وجود

التحليل السوسيولوجى السوفيتى للمشكلات الاجتماعية وهو تحليل ضمنى وشاق للغاية فى سعيه لتدعيم هذا الادعاء .

مشكلة القيم :

طالما كانت الماركسية اللينينية تستند إلى جزاءات سياسية — أو غير سياسية — كلما تضاءلت فائدتها كنظرية سوسيولوجية إسمية . كما أن الأفكار القائمة فى هذه الماركسية اللينينية — حول الحقيقة الإمبريقية التى تعتبر فى الوقت الحاضر مسألة حكمية — تمثل الأهداف التى ينبغى بلوغها، كما تمثل أيضاً تفسيرات للظواهر الاجتماعية تجعل منها بمثابة أيديولوجية كما هى نظرية فى علم الاجتماع . ولكن الانغماس فى نزعة التقييم والإمبريقية الماركسية — كأى أية نظرية أخرى — يضعف من فاعلية هذه النظرية فى التفسير العلمى .

ولما كانت كل المجتمعات تظهر اختلافاً أو تغايراً بين المثال والواقع — أو بين ما هو مرغوب فيه وما هو موجود فى الحقيقة فعلا — فهى تنطوى على توترات أو بقول آخر أكثر بساطة مشكلات . وتفسير هذه المشكلات ممكن عن طريق المعرفة العلمية الإمبريقية والايديولوجيات ، أو بالرجوع إلى هذه الأخيرة وحدها . ولكن الفـــارق الرئيسى بين النظرية السوسيولوجية والايديولوجية يتمثـــل فى أن تلك النظرية السوسيولوجية تحاول فقط أن تفسر الحقيقة .. بينما نجد الايديولوجية تقيمها وتحدد لنا خير ما كان ينبغى أن يكون . وهذه هى المشكلة القائمة لفترة طويلة فى علم الاجتماع وهى تتمثل فى ضرورة الفصل بين القضايا القيمية — أو التقويمية — وبين الملاحظات الواقعية .. وهذه القضايا وتلك الملاحظات تميل إلى الاتصال فى الفكر الايديولوجى . وهذه هى المشكلة فى علم الاجتماع السوفيتى — حيث نجد أن ما يعتقده فى أنه سوف يوجد — أو ما كان يجب أن يوجـــد فى

مستقبل المجتمع الشيوعى — فى حدود النظرية الماركسية يمتزج بحرية بالملاحظات التى تقوم حول المجتمع السوفيتى المعاصر . كما نجد أن المشكلات — أو التوترات الرئيسية — فى المجتمع السوفيتى محدودة فى الإطار الماركسى ، فهى تتزامن مع طرق علاجها الحتمى بمجيىء الشيوعية . ويبدو أن هذا يحد من الحاجة إلى ملاحظات إمبريقيـــة معاصرة ، كما أننا فى دراسة أى حدث من الأحداث الاجتماعية نجد تلك الخاصية المستقبلية — لعلم الاجتماع الماركسى — تشتبك باتجاهه الانتقائى فى علاج المشكلات التى تتصل بالمجتمع السوفيتى المعاصر .

والواقع أن مشكلة الأيديولوجية فى علم الاجتماع تنطوى على تهديد الموضوعية ، حينما يكون هناك تباين بين ما يعتقد بوجوده فى العالم الاجتماعى ، وبين ما يمكن أن يؤسس علمياً — أو فى هذه الحـــالة ما يمكن أن يتأسس سوسيولوجيا — على أنه الصحيح . ونجـــد فى النظريات الأيديولوجية ميلا نحو ملء الثغرات أو الفجوات فى المعرفة الإمبريقية حول المشكلات المجتمعية بالاعتقادات القيمية ، وهنا يحـــل الحكم القيمى محل الحقائق الإمبريقية .

ولعل هناك صعوبة تواجـه علم الاجتماع فى اتجـــاهاته المختلفة ، وتكمن فى محاولة البعد عن الاستناد إلى الحقائق القيمية فى البحث العلمى وهو الأمر الذى يتحقق إما عن طريق خلط الحقائق بالقيم ، أوالسماح بإقحام القيم فى تقرير ماهية الحقائق . وإن كنا نجد فى جوانب معينة أنه ما زال هناك إنكار لإمكانية وجود علم اجتماع موضوعى ، فهذه المشكلة بحدها — دون مشكلة الأيديولوجية — تبدو بشكل حاد فى

موقف علم الاجتماع السوفيتى ، وذلك بسبب الأيديولوجية كخاصية جوهرية فى الفكر الماركسى الذى يقوم على مجموعة من القيم . كما أن هناك اعتقاداً فى أن الفكر الماركسى يعتبر قيمة فى حد ذاته — وبغض النظر عن المحتوى التقييمى للماركسية ذاتها — ولعل الموقف بهذه الصورة يهيىء تربة فقيرة لنمو علم اجتماع متحرر من القيم .

ومع هذا كله فليس هناك عيب فى علم الاجتماع الماركسى إذا تم استخدامه بطريقة إمبريقية ، وإذا نظرنا إلى الماركسية ذاتها باعتبارها نظرية إمبريقيـــة يمكن أن تكون موضوعاً لنفس الاختبار الإمبريقى الذى تخضع له كل النظريات الأخرى . وحتى يجيىء الوقت الذى يتحقق فيه هذا فإن علم الاجتماع السوفيتى سوف يستمر فى تميزه بخاصية الخضوع إلى حد بعيد نسبياً للتصورات المستلهمة من الماركسية وما تقدمه من أحكام قيمية باعتباره معرفة سوسيولوجية .

ولا يعنى هذا اننا نميل إلى القول بأن علماء الاجتماع السوفيتى ليسوا على وعى تام بالفرق بين الحقيقة والقيمة .. أو بمشكلة التحيز الأيديولوجى كمشكلة عامة . ولكننا نضيف إلى ذلك إشارة إلى أنواع الضغط السياسى الذى يعتمل فى علم الاجتماع السوفيتى . وفضلا عن هذا كله فإن النتائج السوسيولوجية التى تتضمنها التقارير التى تكتب فى علم الاجتماع السوفيتى سوف تستحضـــر قراءاتها باعتبارها تقارير حول التقدم الذى تم خلاله قطع بعض المســـافة فى طريق الرحلة إلى الشيوعية ، وتحديد المسافة المتبقية فى هذه الرحلة . فمثل هذه الموضوعات أو المسائل تمثل نوع الاهتمامات — كما تمثل نوع التأويلات — التى تخضع لها المادة السوسيولوجية فى علم الاجتماع السوفيتى . كما تبدو البيانات التى تتضمنها هذه المادة مهتمة أكثر ببيان هـــذا التقدم ، أكثر من اهتمامها

بتسجيل العلاقات القائمة بين المتغيرات السوسيولوجية ذاتها .

النزعة التطبيقية السوفيتية ـ مشكلة أخرى من مشكلات علم الاجتماع السوفيتى :

نلاحظ الآن ومنذ فترة تبلغ حوالى العقد من السنوات ـ ومنذ بدأ علم الاجتماع السوفيتى الجديد حتى وصل إلى تلك الدرجة العالية فى طريق نموه ـ وحتى الوقت الحالى ، وهذا العلم يعيش مرحلة مملوءة بالحرص على الالتزام بالنزعة الإمبريقية ـ أو على حد تعبير علماء الاجتماع يعيش فترة من «الإمبريقية الحذرة» ـ وهى مرحلة تلت تلك المرحلة الابتدائية التى شقها هذا العلم لتأسيس نفسه باعتباره اتجاهاً اجتماعياً أكاديمياً جدير بالاحترام كما يتمتع بالاعتراف السياسى . وبينما نجد أن النقد بالنسبة لعالم الاجتماع الغربى يعتبر أمراً يمكن ممارسته بكثير من السهولة ـ وهو ما يتسق مع الشعور بخطر التحيز فى أية تقديرات قد ينتهى إليها هذا العلم ـ ففى هذا إبراز لخاصية الموضوعية التى يتميز بها علم الاجتماع الغربى ، كما أن فيه من ناحية أخرى إبرازاً لمدى الانجازات التى حققها علم الاجتماع السوفيتى ، وتعبيراً عن طبيعة الحدود التى يقف عندها هذا العلم .

وحيث يعتبر الاتجاه الذى يسير فيه علم الاجتماع السوفيتى الآن نحو الدخول إلى حيز الفحص الإمبريقى ، بمثابة تقدم بعد تلك المرحلة الأولى التى كانت تقوم على المحاورات النظرية أو حتى المحاورات السياسية ـ وسواء أكانت هذه الحركة التى حاولنا أن نشير إليها هى الآن حركة انتقائية أو محافظة فى اتجاهها ـ فإن كلا من هذين الاتجاهين قائم فى نوع الموضوعات التى توفرت على دراستها ، والطريقة التى أمسكت بها تلك الموضوعية . ونضيف إلى ذلك كله ان تلك الرغبة القائمة فى النظر بعين الاعتبار لعدد متزايد

من الأمراض الاجتماعية فى المجتمع السوفيتى تعتبر خطوة هامة وضرورية نحو علم الاجتماع الموضوعى ، وإن كان الحذر لايزال يفرض شيئاً من الترفع بطريقة أو بأخرى فى تطبيق التحليل السوسيولوجى فى صياغة وفحص المشكلات السوسيولوجية ، فإننا نجد أن الاتحاد السوفيتى فى علم الاجتماع لم يحقق بعد نجاحاً كبيراً .

وسواء أكان من الممكن أن نصف المجتمع السوفيتى المعاصر بأنه مجتمع منفتح أو أنه ليس مجتمعاً غير مادى — فهو لم يصل بعد إلى النقطة التى يمكن معها أن يوجد فيه علم اجتماع مكتمل . ولا نعنى هنا بعلم الاجتماع المكتمل التبنى الكلى للنظريات وطرق البحث القائمة فى علم الاجتماع الغربى ، ولكننا نود أن نشير إلى أن أى اتجاه لعلم اجتماع نظرى محدود فى اتجاه واحد — مثل علم الاجتماع السوفيتى — إنما يتطلب اختباراً لنظريته ، كما يجب عليه أن يتقبل بصدر رحب وجهات النظر المختلفة فى طبيعة علم الاجتماع والمجتمع الذى يوجد فيه . وبدون مثل هذه الدرجة من المرونة فإن الإبداع السوسيولوجى يتعرض لنوع من المعاناة ، إذا كان لنا أن نحكم — فى ضوء الخبرة السوفيتية، والظاهر — بأن المناخ السياسى فى المجتمع السوفيتى لا يساعد فى الوقت الحاضر على وجود مثل هذه المرونة .

كذلك فإن الخاصية الآلية التى يتمتع بها علم الاجتماع السوفيتى تثير مشكلة جديدة أخرى فى ضوء التقليد السوفيتى الذى تحقق ظهوره ، حيث نجد أنه من الصعب تأكيد مدى الثقة فى المادة الدالة أو المثبتة التى تجمع من أعضاء المجتمع ، تلك المادة التى تحررت مؤخراً فقط من الخضوع لنسق الضبط الاجتماعى الذى يقوم على أساس الخوف . حقيقة إن سلوك أعضاء المجتمع

بمثل هذه الصورة ينظر إليه فى الوقت الحاضر على أنه « مشكلة » يجب القضاء عليها ، إلا أن ذلك لا شك يسبب مصاعب جديدة فى عملية جمع المعلومات . وهذا ينطبق بوجه خاص على دراسة تلك « البقايا » — مثل السلوك الدينى — حيث أن مثل هذا السلوك غير المرغوب فيه من جانب « النسق الرسمى » يؤدى حدساً بمن يمارسه أن يرفض فكرة قيامه كمستبر فى بحث يقوم به عالم الاجتماع بهدف القضاء عليه أو استبعاده من المجتمع .

ولقد أدى اضمحلال الماضى المنفصى والحاضر الذى يستند إلى الخبرة العملية — وإن كان أكثر استرخاء — إلى أن يصبح هدف علم الاجتماع السوفيتى هدفاً مبهماً إلى حد بعيد . فهذا العلم هو فى الجوهر محمل بأعباء دراسة السلوك بغرض تغييره .. إلا أن تباين الأهداف لدى من يخضع للملاحظة — ومن يقوم بها — وهو أمر قد يكون مبنياً فقط على شىء من التخمين .. الا أن مثل هذا التباين — إلى جانب المناخ غير الملائم الذى يتم فيه البحث السوسيولوجى — يؤدى إلى تعقيد عملية الحصول على معلومات سوسيولوجية موثوق بها . وينتهى هذا — بقول آخر — إلى أن تتشابك مشكلات الوصول إلى المعرفة السوسيولوجية الصادقة كما هى مفيدة . كذلك يجب أن نسأل أنفسنا عما إذا كان علم الاجتماع السوفيتى يمكن أن يصل إلى معرفة سوسيولوجية من وجهة نظر الابداع العلمى تحت وطأة هذه الظروف . وإن كانت تلك الدرجة العالية نسبياً من التوافق بين علم الاجتماع وموضوعات بحثه تعتبر ظرفاً لابد من توفرة لقيام البحث العلمى ، فإن ذلك التوافق فى الاتجاه السوفيتى فى علم الاجتماع يأخذ شكلا مبهماً غير محقق للغاية ، مما يؤدى إلى الحكم بأن جوهر علم الاجتماع — ومدى ما يترتب عليه من فائدة — هو أمر مشكوك فى صدقه أو وجوده .

الخلاصة :

عندما نقوم بتحديد المهمة التى يقوم بها علم الاجتماع السوفيتى ، يجب علينا فى الحقيقة ألا نأخذ هذا الأمر بصورة حرفية إلى حد بعيد . فقد كانت إقامة بناء الشيوعية تمثل الهدف المعلن لهذا العلم ، وقد شاركته فى هذا الهدف كل النشاطات الأخرى فى الاتحاد السوفيتى . ولكن ما يكون موضع الاهتمام فى مبحث أكاديمى — مثل علم الاجتماع — هو كيفية ترجمة هذا الاعلان الرسمى إلى نشاط علمى فى الواقع ، أو الحكم على ما إذا كانت هذه الترجمة قد تمت أو لم تتم بعد فعلا ، وهل ساعد هذا الاعلان الرسمى على وجود علم اجتماع حقيقى .. وذلك مع النظر بعين الاعتبار إلى تلك المذاهب أو الانتقادات التى تؤخذ على أى من العلوم المعنية بدراسة المجتمع .

أما فيما يتعلق بما يقوم به علم الاجتماع السوفيتى فى الوقت الحاضر ، فإنه من الواضح أن مثل هذا الاعلان الرسمى لا يزال حتى الآن يكون إطاراً محدوداً لنشاط ذلك العلم . وفى داخل حدود هذا الاعلان فقد حقق علم الاجتماع السوفيتى شيئاً من التقدم . وبالمعنى السوسيولوجى للكلمة فإن تلك التطبيقية الملتزمة الواعية فى ذلك العلم — قد أثمرت معلومات مسحية جوهرية حول الظروف المتنوعة فى الاتحاد السوفيتى . وإن كانت القيمة السياسية لمثل هذا البحث تعتبر أمراً واضحاً . إلا أنها تعكس المجال المحدود للحرية التى منحت لذلك العلم . وقد كان نوع الحقائق المستخلصة وتفسيرها محدوداً بالضرورة بالمطالب المستمرة من الاستبدادية السياسية الفردية وما يساندها من أيديولوجيات ، ومع ذلك فإن الرغبة فى الاعتماد على المساعدات التى يقدمها علم اجتماع محدود فيما يتعلق باتخاذ القرار السياسى كانت فى حد ذاتها نوعاً من التقدم المشجع للاتجاه السوفيتى فى علم الاجتماع .

إن تلك الصورة الجانبية غير المستوية لعلم الاجتماع السوفيتى — والتى يقع عليها نظرا علم الاجتماع الغربى — تبرز الحاجة إلى نمو سوسيولوجى متحرر ومستمر ، وإن كنا لا نستطيع أن نقول بوجود علم اجتماع ماركسى متميز .. إلا حين يسمح للباحثين السوسيولوجيين السوفيت بحرية ممارسة الشك كمعيار علمى لابد منه ، وعلى أن تنعكس تلك الحرية فى الممارســـة الفعلية وليس فى الخضوع بالاسان فقط لهذا المعيار . وبغير هذا كله فسوف يتميز هذا الاتجاه السوفيتى فى علم الاجتماع بصورة أو بأخرى ليس بإضافاته السوسيولوجية ، ولكن بوصمة تقوقعه فى ارتباطه الثقافى إن لم يوصف بالعقم . وسوف يعبر هذا الاتجاه الشكى فى علم الاجتماع السوفيتى عن وجـــوده بالتحديد فى تقديرات مختلفة حـــول المجتمع السوفيتى .. ولا نشير فى هذا الصدد إلى الرؤى — أو وجهات النظر — المختلفة التى تقوم نحو طبيعة وامكانيات علم الاجتماع ذاته ، أو فى تطبيقاته لدراسة المجتمع السوفيتى . كما سيتعين على علماء الاجتماع أن يحرروا أنفسهم تماماً من الارتباط بأوضاع المجتمع السوفيتى ، كما فعل ذلك أشقاؤهم الغربيون ، ولسوف يكون فى هذه الحالة من الممتع — ومما يثير الاهتمام — أن نلاحظ كيف أن الشكية النسبية فى علم الاجتماع السوفيتى تتصل بوجهة نظر تفاؤلية نحو المجتمع السوفيتى .

ونضيف إلى هذا كله أنه من ناحية لا يوجد علم اجتماعى محلى يستطيع أن يصادق هو نفسه على مشروعيته ما دام هذا العلم ينتمى إلى التيار الرئيسى للفكر السوسيولوجى العام ، ومن ناحية أخرى لكى يتحقق نمو علم الاجتماع العالمى فهو يحتاج إلى نتائج علم الاجتماع السوفيتى ، وليس علم الاجتماع السوفيتى أقل حاجة فى نموه إلى نتائج علم الاجتماع العالمى . وبجانب هـــذا كله فإن

الوصول إلى تعميات سوسيولوجية — ماركسية كانت أم غير ماركسية — يتطلب الأخذ والعطاء من خلال التبادل العالمى دون أن نشير فى هذا إلى ذلك التوسع فى دراسات التقاطع الثقافى . ولعله من الصعب أن ندعى سواء بوجود اختلاف أو وجود تماثل بين المجتمع السوفيتى والمجتمعات الصناعية الغربية .

ويمكن لنا أن نقرر بعد هذا كله أن الاتجاه السوفيتى فى علم الاجتماع يجتاز عقبات فى سبيل نموه . وهذه العقبات ترجع لأسباب داخلية تتعلق بوضعه الحالى فى المجتمع السوفيتى ، كما ترجع إلى أسباب خارجية تتمثل فى علاقاته بعلم الاجتماع الغربى . ولأن هذا العلم لايتجه إلى الانغلاق العرقى فهو بسبب هذه الخاصية ذاتها سوف يسير فى طريقه إلى أن يلحق بعلم الاجتماع الغربى.وبالنظر إلى تلك الامتيازات التى حققها علم الاجتماع الغربى ، فقد كان للمرء أن يتوقع مثل هذا الاختلاف بين علم الاجتماع السوفيتى وعلم الاجتماع الغربى ، كما أن ملء تلك الفجوات يعتبر مشكلة سياسية أكثر بكثير من كونه مشكلة عقلية .

ولكننا من ناحية أخرى إذا إستندنا إلى مقاييس محددة نجد أن علم الاجتماع الغربى لايستطيع — إلا بصعوبة — أن يكتسب تقريرنا بتحقيقه لمعرفة سوسيولوجية ذات دلالة وقادرة على تفسير جانب كبير من الظواهر أو التنبؤ بها . ولهذا فإننا نرى أن أسباب علو تلك المنزلة التى يحتلها علم الاجتماع الغربى كامنة فى اتساع مدى المشكلات التى توصل إلى اكتشافها — وفى سيرة الحثيث نحو المعرفة الممتعة — أكثر من كونها ترجع إلى نوع المعرفة التى تمخض عنها هذا العلم .. فهو وإن يكن لم يتوصل بعد إلى علاج مشكلات المجتمع الصناعى، لكنه قد حقق مزيداً من الاستيعاب العميق بمداها وتعقدها ، وهو بهذا يكون قد حقق ما هو أكثر مما أنتجه أو ما هو من المستحب أن ينتجه علم الاجتماع

السوفيتي في هـذا المجال ، وفي داخل تلك الحدود التي تقيده في الوقت الحاضر .

مستقبل علم الاجتماع السوفيتي :

هناك الآن بلا شك دوافع إلى اتساع علم الاجتماع السوفيتي ، ويمكن لعالم الاجتماع أن يشير إلى علامات واضحة ملموسة تدل على ملامح هذا الاتجاه .. ولكن ما يبدو مرجحاً على وجه الخصوص هو الرغبة في القيام بعدد مختار من دراسات التقاطع الثقافي ولكن لما كان هذا العلم لا يزال أسير قيود الكرملين — كما هو معروف أنه لا يزال أسير الأحكام القائمة على أساس النبوءة فيما يتعلق بجوانب المجتمع السوفيتي — فإننا لا نستطيع أن نعتمد على هذه النبوءة أيضاً في تحديد اتجاهات النمو الذي قد يحققه علم الاجتماع السوفيتي في المستقبل ، ولكن يمكن القول بأن اتجاه هذا العلم في الاتجاه الغربي يعتبر أمراً غير مستحب في ظل الظروف القائمة .

ونحن فقط نستطيع للأسف أن نحدد تلك الظروف بالنظر إلى ما يقوم بتحقيقه هذا الاتجاه السوفيتي في علم الاجتماع ، فنجد أن بحوثه الامبريقية المتواضعة نسبياً لم تضارع فيما أنجزته تلك الانجازات التي ترتبت على خاصية التراكم العلمي في الاتجاهات الأخرى في علم الاجتماع ، كما تبرز الموقف الذي يقضي على الاستقلالية العلمية ويقضي معها على احتمال قيام علم الاجتماع حقيقي كما أنه من الصعب أن نتصور وجود علم اجتماع سوفيتي يتعدى مرحلته الحالية بدون تعديلات أساسية في البناء السياسي ، حيث أن النظرية في علم الاجتماع الإمبريقي القائم في الاتحاد السوفيتي تقوم على أساس من مشروعية القرارات السياسية التي تستند إلى تأويل معين للماركسية اللينينية العلمية . ولهذا فإن

توسعاً — أو نمواً ذو دلالة — فى علم الاجتماع السوفيتى يبدو أنه يتطلب نوعاً من اختزال السلطة السياسية والمركز الذى تحتله الماركسية ، أو على الاقل يتطلب اختزال هذا المركز وحده .

وحيث أن من المفيد أن نرى الاتجاه السوفيتى فى علم الاجتماع فى حدود المراحل التى مر بها ، فإن هـــذه الرؤية ذاتها تقودنا فى طريق خاطىء عندما نحاول تحديد اتجاهات نمو هذا الاتجاه فى المستقبل . وليس وجود علم اجتماع سوفيتى كامل طبقاً للتقاليد الغربية بأمر وشيك الحدوث إذا كنا نتصور فى الحقيقة أن هذا هو الاتجاه الذى سيتجه إليه هذا العلم فى مرحلته القادمة من مراحل نموه . ومع النظر بعين الاعتبار للمعلومات التى يعمل خلالها ذلك العلم فى الوقت الحاضر ، فإن مستقبله يسرى على أحسن وجه كاستمرار متسق مع الحقائق السياسية التى تجابهه ، كأن وانتقال هذا العلم إلى مرحلة جديدة أعلى — إذا كان لها أن تأتى — يبدو أنه سيكون من خلال انتقال بطىء ومؤلم وفى غير موضعه .

ونقول فى نهاية هذا التحليل ان الدفعة التى ستؤدى إلى نمو أو تقدم أعظم فى ذلك العلم سوف تأتى من خلال النمو المستمر فى تعقد المجتمع السوفيتى ذاته . فالمشكلات التى تلزم هذا التعقد تعتبر مصدراً هاماً للضغط على نظامه السياسى — بغض النظر عن شكله ، كما أن ذلك الدافع إلى تحقيق مزيد من المعرفة العميقة بتلك المشكلات قد يفت فى قدرة تلك المعوقات السياسية على الاحتفاظ بعلم الاجتماع السوفيتى داخل حدودها .

كذلك فى نهايه هذه الدراسة التى نقوم بها فى سوسيولوجيا المعرفة

نستطيع أن نقول أن الخبرة السوفيتية تعطينا رؤية للبحث السوسيولوجى الذى يعمل فى مجال من الضغط السياسى وعدم التثبت فى أحسن الظروف الاجتماعية ، وهى تبرز لنا أيضا كيف كانت انجـــازات علم اجتماع كهذا انجازات متواضعة.ومع ما يواجهه عـلم الاجتماع السوفيتى — فى الوقت الحاضر — من مناخ اجتماعى يفتقر إلى الحدود المثالية لنمو المعرفة ، فإن هذا العلم يفتقر بالتالى إلى القـدرات الضـرورية والجوهرية للنمو الخالق .

وبعد فإن علم الاجتماع الذى تديره السياسة ويعنى بعدد مختار من المشكلات يبدو ممكناً . كما نجد فى الحالة السوفيتية بصورة أو بأخرى أن القيود المفروضة لا تتفق مع نوع الاتساع فى التفكير المنوط بعلم الاجتماع ، حتى إذا كانت تلك القيود متصلة بجانب محـدود من الموضوعات .. لأنه حتى مثل هذا النوع من علم الاجتماع المضبوط أو علم الاجتماع « الملتزم » انما يحتاج إلى تعدد وتنوع فى الاتجاهات ، وهذا يعنى بقول آخر انه إذا تحققت لعلم الاجتمـاع السوفيتى مثل تلك الظروف فمن المحتمل ألا يصبح مختلفاً من علم الاجتماع الغربى .

مدى أزمة علم الاجتماع فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية

عقد المؤتمر السابع لعلماء الاجتماع الألمان الذى نظمته الجمعية الألمانية لعلم الاجتماع فى مدينة كاسل فى الفترة من الحادى والثلاثين من أكتوبر إلى الثانى من نوفمبر سنة ألف وتسعمائة وأربعة وسبعين. وقد اجتذب هذا المؤتمر كثيراً من الاهتمام ، فحيث كان من المتوقع أن يشارك فيه ثمانمائة من علماء الاجتماع نجد أن الحضور قد بلغوا ألفاً وأربعمائة ، منهم حوالى خمسمائة من الطلاب الذين كان من بينهم مائتان وخمسون فقط أعضاء فى الجمعية . ولعل بالامكان أن نقرر أنه كان من بين هذا الجمع الكبير من الأشخاص الذين شاركوا فى أعمال المؤتمر جانب من غير المتخصصين ذوى الاهتمام بعلم الاجتماع . ولكن أرقام المشاركين فى هذا المؤتمر مطابقة فى ذاتها إلى حد معين — لوضع علم الاجتماع فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية كما أنها متفقة مع عدم ارتباط المؤتمرين — كما هو الشأن فى مثل هذه الاجتماعات — بمسألة علمية معينة ، حيث كان هذا المؤتمر يهدف إلى صياغة « كشف حساب ميدانى » لوضع علم الاجتماع فى ألمانيا خلال منتصف السبعينيات من القرن الحالى .

ولقد كان من الطبيعى أن تتمايز فى ذلك الهدف العام للمؤتمر اهتمامات بجوانب متصلة بمسائل معينة . ولهذا فقد تضمن جدول أعمال المؤتمر تخصيص اليومين الأولين فيه للمقارنة بين نظريات علم الاجتماع ، وتبع ذلك مناقشة مستفيضة للمناهج تضمنت كل العمليات التحليلية الممكنة فى الدراسات فى السوسيولوجية والمشكلات المرتبطة بها .

وقد كرست الجلسات التالية لسلسلة من الموضوعات تناولت ترتيب الفئات الاجتماعية والتنقل الاجتماعى — والتطبيع الاجتماعى — والدولة والتنظيم

السياسى — ومشكلات التعليم — ومشكلات البحوث الحقلية — والتربية والعمل — وعلم الاجتماع الطبى والمؤشرات الاجتماعية — والمدينة وتخطيط الضواحى والبحث العلمى — وعلم اجتماع التنمية — والعائلة والشباب .

ويقدم لنا ثبت الموضوعات التى تناولتها جلسات المؤتمر — بهذا الشكل ومع النظر إليها ككل — صورة معبرة بالتأكيد عن النشاطات السوسيولوجية فى الجمهورية الديمقراطية ، كما نجد أنفسنا خليق بنا أن نؤكد أن الأوراق التى قدمت للمؤتمر — قد تضمنت بعض الأعمال التى تتصف بالأصالة والجدة .

ومع هذا كله فإننا لا نستطيع أن نقول ، ونحن على درجة عالية من التقين، أن المؤتمر — على الرغم من هدفه المعلن — قد عكس فى الحقيقة وضع وموقف علم الاجتماع فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية بأية طريقة وفى أى موقع . وعلى العكس من ذلك تماماً فإن ذلك الشتات فى الموضوعات التى حددت بطريقة انتقائية — كما أن تلك المصطلحات الجافة المحايدة التى تمت فيها صياغة هذا التنوع متعدد الجوانب فى مضمون علم الاجتماع — قد أدت إلى اتسام الموضوع الرئيسى أو الحيوى للمشكلات التى يتضمنها كشف الحساب المبدئى لعلم الاجتماع فى الجمهورية الديمقراطية بهالة مهيبة من الغموض المتعمد ، وبخاصة فيما تتعلق بما إذا كان هذا الوضع يعبر عن اتجاه تقدمى أو رجعى ، وما إذا كان بالامكان مقارنة علم الاجتماع الألمانى — فى تدريسه ودارسيه وبحوثه — بما تم إنجازه فى أى مكان آخر ، وفوق هذا كله فيما يتعلق بما إذا كان من الممكن لنا فى الوقت الحاضر أن نتكلم عن علم الاجتماع الألمانى بنفس

التعبيرات الرائعة التى جاءت فى مؤلف البرت سايم الذى صدر عام ١٩٥٤ وعنوانه : علم الاجتماع الألمانى .

وإذا تساءلنا عن الأسباب التى أدت بتلك الجمعية التى تمثل علم الاجتماع فى الجمهورية الفيدرالية — وهى الجمعية التى نظمت هذا المؤتمر — إلى تجاهل تلك المشكلات الأساسية وما يترتب عليها أيما تجاهل ، فسوف نجد أن ذلك لم يكن يرجع فقط للرغبة فى استغلال الفرصة لتنظيم تجمع يمثل مؤتمراً عاماً عالمياً لعلم الاجتماع — كما أنه لا يرجع للرغبة فى إتاحة الفرصة لأكبر عدد ممكن من المدرسين الجامعيين لكى ينتهوا إلى تقديرات معينة — ولكن ذلك يرجع فى الدرجه الأولى إلى الشعور المتعمق فى قلوب كل المشاركين فى أعمال المؤتمر بهول الكارثه التى تعرض لها علماء الاجتماع فى جمهورية ألمانيا الديمقراطيه والتى إتخذت صورة المرض الخبيث الذى لايرغب أحد فى تشخيصه ، ولكنه يترك لكى يعالج نفسه بنفسه مخافة أن يؤدى ذلك بصورة مبدئية إلى إتلاف لوضعه الخاص . .

ولقد كان لجذور ذلك المرض سببان رئيسيان يتمثلان فيما يلى :

أولا : يجد من يطلع على برامج المحاضرات فى مؤسسات التعليم العالى — كالجامعات ومعاهد التعليم المتخصصه وما إليها — فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية كثيراً من الامكانيات المتاحة فى كل مكان للعمل السوسيولوجى ، كما أن الخطط الدراسية التى تقرها وزارات التعليم بشعبه المختلفة تبين من أن المتخصصين فى الاقتصاد والسياسه والفلسفه والتربية ليس هم وحدهم الذين يجب أن يقرأوا فى علم الاجتماع كمقرر

إجبارى .. ولكننا نجد المحامين والأطباء والفنانين التخطيطيين والنحاتين والموسيقيين والمدربين الرياضيين وخبراء المسرح والمعلمين فى مدارس الطب الطبيعى هم أيضا يتلقون مقررات إجبارية فى علم الاجتماع .

ولقد جاءت فكرة وضع « علم المجتمع » فى مرتبة المقرر الاجبارى أو للمقرر الثانوى فى كل فروع المعرفة مواكبة لتنوع وزارات التعليم التى نظمت على أسس فيدرالية ، كما جاءت متفقة مع الاعتقاد بوجود نوع من الانتقاء حول « التزام اجتماعى » وبالإضافة الى ذلك فهى ترجع أيضا للطريقة البدائية جداً فى التفكير فلقد بدا — بطريقة أو أخرى — أن هناك دلائل على وجود اتجاه توفيق يعمل لامتصاص ما بثورات الطلاب .

ويقول آخر فلقد كان هناك اتجاه عام — وان لم يكن محدداً — سيطرت فيه آراء تقول بأن علم الاجتماع كمقرر دراسى ربما يعتبر أفضل مقرر مناسب لتلبية القليل من مطالب الماركسية لدى الأحزاب الحاكمة — والطلاب اليساريين وذلك دون أن تظهر الماركسية ذاتها كمقرر فى خطط الدراسة .

ولقد كانت النتيجة التى ترتبت على انتماء علم الاجتماع كدراسة فى المجتمع جلية فى الوضع الراهن للأحداث — ليس فقط فيما يتعلق بغزارة المادة السوسيولوجية ولكن أيضاً لان هذا المبحث قد أنتج متخصصين يتسمون بضيق الأفق — وهو ما يعتبر أكثر الأشياء خطورة بالنسبة لهذا التخصص — حيث نجد أن طلاباً قد استمعوا إلى عدد قليل من المحاضرات فى أساسيات علم الاجتماع يعتبرون أنفسهم علماء اجتماع مدربين مما يجعلهم يكتفون بما تيسر لهم من خبرات محدودة تتيح لهم احتلال مراكز فى أجهزة الادارة والتعليم والاقتصاد والفنون .. الخ .

وفيما يتعلق بالسبب الثانى فى جذور أزمة علم الاجتماع فى الجمهورية الفيدرالية فيما يعلق بالمستوى الأكاديمى للتخصص، فلقد أصبح علم الاجتماع الألمانى ذى أهمية وتأثير وصلا إلى حد تخصيص كتب بأكملها للتعريف به ، وذلك بفضل شخصيات مثل ماكس فيبر وفريدناند توليس وجورج سيمل وألفرد فيركانت وكارل مانهيم .

ثم جاءت الفترة المظلمة للحكم النازى وفيها وصم علم الاجتماع بكونه « عدو للشعب » . وتلت هذه مرحلة جديدة هى مرحلة إعادة الانشاء التى احتل فيها كثير من علماء الاجتماع الألمان المبرزين مكانتهم . وبدأ علم الاجتماع الألمانى يخطو خطوات سريعة فى إقامة صلات جديدة بالدوائر العلمية العالمية فى محاولة ليكون له أثر محسوس فى مجتمعنا .

ولقد كان على مؤتمر كاسل — فى صياغته لكشف حساب مبدئى لوضع علم الاجتماع فى ألمانيا — أن يعنى بتوقف التساؤل فى الوقت الحاضر حول مثل هذا التأثير . كما أن علماء الاجتماع فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية لا يشاركون فى الادارة الشعبية أو فى صياغة القرارات السياسية ، كما أنهم لا يشاركون فى شئون الاقتصاد والعدل والرعاية الاجتماعية والتمويل . وفى نفس الوقت فهم قد استطاعوا أن يكونوا عمالا جيدين — بقدر عدم الرغبة فيهم — فى كل المجالات الاجتماعية . فحيث لم تتح لهم الفرصة لتطبيق ما تعلموه — إلا بصورة هامشية — فقد عملوا كصرافين فى البنوك وبائعين فى متاجر الملابس ، ومندوبين متجولين لبيع الأدوية ، ومذيعين فى محطات الإذاعة ، ومديرى دعاية ، كما عملوا كمساعدين مطيعين سياسياً فى بحوث مسح الرأى العام .

وإذا تساءلنا عن الأسباب التى أدت بالمتخصصين الألمان فى علم الاجتماع إلى وضعهم الحالى ، فإننا نجد صعوبة فى تصور أن يكون ذلك مرجعه افتقارهم للذكاء ، أو مرجعه الكسل العقلى أو عدم الاهتمام من جانب هذا الجيل من المتخصصين فى علم الاجتماع . كما أننا نعتبر — بناء على تقييم مباشر — أن ذلك الوضع المؤسف للأحوال إنما يرجع إلى ما يوضع على بساط المناقشة فى غرف المحاضرات ، ومن ثم فقد كان اضمحلال علم الاجتماع فى جمهورية ألمانيا الفيدرالية خلال السنوات القليلة الماضية متمثلا فى خوائه من المعرفة والأفكار بصورة تقريبية إلى ما يلى :

لقد أعيد بناء الكثير فى ألمانيا مرة أخرى بعد الحرب العالمية الثانية — كما سبقت الاشارة إلى ذلك — وعلى وجه الخصوص فيما يتعلق بتحقيق ذلك التوازن البراجماتيكى — النفعى — الذى تقوم عليه المدرسة الأمريكية، بجانب التبنى — إلى حد ما — للإطار المرجعى الأخلاقى الفرنسى، وذلك مع وعى كامل بإمكانيات التطبيق العملى الذى ينطوى عليها كل من الاتجاهين . ولكننا نجد أنه سرعان ما سيطرت على تلك المرحلة فى تطور علم الاجتماع الألمانى — ويمكن القول فى فترة منتصف الستينيات من القرن الحالى — نفس الاتجاهات الفلسفية فى البحث عن الحقيقة التى كانت سائدة خلال جمهورية فيمار وبين الخريجين الشبان الذين اعتقدوا بأن حماية النظرية الاجتماعية وتحقيق الأمان لها إنما يتحقق فى النهاية عن طريق الاتجاه النقدى الذى تكاد نراه يجمع بصورة جوهرية بين ماركس وفرويد فى تكوين لفلسفة علمانية قديمة سبق الاعتماد عليها .

وبعد فنحن خليقون بتوجيه الشكر إلى جماعة النقديين — المترفعين فى سلبيتهم القوية وانعزالهم التشاؤمى عن الحقائق مكونين صفوة مترفعة — وذلك

لأن الكثير جداً من البحوث الأمبريقية والدراسات الحقلية التطبيقية ، والكثير من الدراسات المسحية التى تعتمد على الحقائق المباشرة ، كما كان الكثير القيم من الافتراضات المجردة فى مسائل المجتمع مآله الانتهاء إلى سلة المهملات .. وذلك فى نفس الوقت الذى استطاع فيه هؤلاء التقديون المترفعون وطلابهم أن يعتزلوا المجال منشغلين باختيارهم إلى ما فضلوه من محاولات نظرية حول نظريات لم يكونوا فى معظم الوقت قد اتقنوا دراستها .

والمثال الحيوى الذى نضربه هنا يتمثل فى المقاونة بين نظريات علم الاجتماع التى كرست لها جلستان كاملتان فى مؤتمر كاسل — كما سبقت الاشارة إلى ذلك — وفيها أخذ خمسة من المتكلمين مكانهم فى حلقة المناقشة التى تقدم فيها أحدهم كممثل للاتجاه القائم على نظرية الاتصالات ، دون أن يشير إطلاقاً إلى الرائد الأصيل لهذا الاتجاه تشارلز هورتون كولى . كما قدم المتكلم الثانى اقتراحاً فيما أسماه بمحاولة لتحديد هوية وظيفية أى بناء قائم بنظرية وظيفية فى النسق الاجتماعى لا تختلف كثيراً أو قليلا فى خصائصها الجوهرية التى ألبسها إياها عما عرف منذ عشرات السنوات باسم النظرية البنائية الوظيفية .

كما كان هناك أيضاً متكلم آخر يمثل اتجاهاً نظرياً يقوم على مزيج من نظرية الفعل ونظرية التفاعلات والنظرية الظاهراتية « الفينومينولوجية » يتمثل فيما جاء به رايت ميلز منذ سنوات فى كتابه بعنوان « الخيال السوسيولوجى » مما هو بعيد عن الاتصال بالواقع .

أما المشارك الرابع فى مناقشة المائدة المستديرة فى هذا المؤتمر فقد كان يعبر عن الاتجاه السلوكى وقد أخذ يتلاعب بنظريات التطوريين فى التعلم وهى نظريات تعنى بالتفسير أكثر من عنايتها بالتعلم ذاته . وأخيراً فقد كان المتكلم

الخامس يمثل الاتجـــاه المادى التاريخى الذى لم يتقدم فى وقتنا الحاضر عمـــا أوجزه إنجلز ببلاغة فائقة فى خطاب كتبه منذ سنوات بعيـــدة جـــداً .

ولم يكن استعراضنا لهذا المثال بهدف تقـــديم نماذج مهلهلة للتنافس بين المتكلمين الذين تعمدنا ألا نشير إلى أسمائهم، ولكننا قصدنا بهذا المثـال فقط أن نؤكد على أن تلك الاهتمامات التى تبدت بإيجاز فى الفقرات السابقة قد وجدت لتلون وتتغلغل فى برامج تعليم علم الاجتماع فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية. كما قصدنا أن نؤكد بنفس الدرجة أيضاً على أن المشكلات الهامة فى مجتمعنا قد طويت تحت البساط فى نوع من المناقشات التى تجـرى بين المتكلمين يجلسـون على كراسى مريحة وهم بعيدون كل البعد عن الحقائق الحقلية والتى تستمر حول أفكار مثل « الوضعية » و « الاتصال المفتوح » و « تاريخ المثـل » و « أنساق المعانى فى صياغة الانسان المركبة » . أما مشكلات الفقر والحـــرب والأمية والابداع والتحامل — والمشكلات الأخرى التى تنبع من الحقيقة التى عشناها ولا نزال نعيشها تلك المشكلات المتكررة التى تؤثر فى الأفراد والجماعات — لا تزال هى وما يرتبط بها من بحوث حقلية عمليـة فى الوقت الحاضر لتكون مجال الاهتمام الرئيسى سـوى بين قلة من علماء الاجتمـاع لا يتجـاوز عددهم أصابع اليد الواحدة، وهم لا يلتفتون إليها إلا عند ما يساقون إليها بالضرورة الملحة .

وبعد فنحن فى إيجازنا لما انتهينا إليه فى هذا المقال نجد أنه لدينـا من ناحيه قدراً ما مما يطلق عليه « رايت ميلز » و « هارل هندرسـون » على

التوالى استثناءات كمية ، أما فى الناحية الأخرى فنجد عودة إلى التقليد الألمانى القديم الطيب فى التفلسف الاجتماعى مجتمعين معاً بقدر عميق من الأفكار التى صيغت فى قالب أمريكى حديث .

وفى مثل هذه الظروف هل هناك غرابة فى كون علم الاجتماع الألمانى مريضاً وأنه لا يشتهر بكونه العلم الأرقى فى وقتنا الحاضر .

النقد الأدبي وعلم الاجتماع

يسيطر فى دراسات النقد الأدبي الحديثة إتجاه لتقصى الأصول الاجتماعية للكاتب — والتعرف على الآثار التى خلفتها العوامل الاجتماعية فى أعماله — وهو اتجاه يتسع بنفس القدر الذى نجد عليه الاهتمام بالدراسات السيكلوجية للحالة العقلية للكاتب . وكثيراً ما نجد أن هذين الاتجاهين : الاتجاه السوسيولوجى والاتجاه السيكلوجى يسيران جنباً إلى جنب .

الاتجاه التطورى الوراثى فى الدراسات الأدبية :

ولقد رأينا نقاداً — من أمثال إدموند ويلسون *Edmund Wilson* — عمدوا إلى تقصى العوامل الاجتماعية المؤثرة فى اتجاهات ديكنز *Dickens* مثلا أو كبلنج *Kipling* ، وحيث كان تتبع الأسباب الاجتماعية للظواهر السيكلوجية واحداً من الاتجاهات المعروفة ، فإن الظواهر السيكلوجية ذاتها قد استخدمت فى التفسير أو التحديد — بالمعنى التطورى الوراثى — لخصائص أعمال الكاتب .

ونجد أن المشكلة التى تبرز فى أية مناقشة للعلاقة بين علم الاجتماع والنقد الأدبى إنما تتماثل — كما أنها تتوحد فى بعض الجوانب — بتلك المشكلات التى تفرض ذاتها فى معالجتنا للعلاقة بين النقد الأدبى وعلم النفس ، حيث نجد فى كل من هذين المجالين — مجال النقد الأدبى وعلم النفس — ان الاتجاه التطورى الوراثى اتجاه مسيطر ، كما نجد النقاد ينظرون إلى العمل الأدبى فى حدود أصوله سواء كانت تلك الأصول فردية أو اجتماعية أو كانت متضمنة لكلاهما معاً .

ونجد فى هذه الدراسة أن هناك ثلاثة أسئلة مبدئية تفرض نفسها وتتمثل فيما يلى :

السؤال الأول : هل تعتبر العلوم المضبوطة - أو العلوم غير المضبوطة - فى الحدود التى تفسر فيها تلك الأصول علوماً معيارية ، أم أنها مجـــرد علوم وصفية؟ وهل تساعدنا تلك العلوم لنصل إلى أحكام نسبية ذات قيمة واعتبار .. أم أن تلك العلوم تخبرنا فقط بما يجرى فى الواقع ؟

السؤال الثانى : إذا كانت تلك العلوم علوماً معيارية - وإذا كانت لدينا المحكات التى نستند إليها فى تكوين أحكام قيمية حول الحالات العقلية والأنواع المجتمعية - فهل نستطيع أن نسقط تلك الأحكام التى تمت صياغتها حـــول الظروف المحيطة بأصول العمل الأدبى على هذا العمل ذاته ؟

السؤال الثالث : وإذا كانت تلك العلوم ليست علوماً معيارية ، فمـــا هو نوع القيمة التى يمكن المادة المعنية بالأصول السيكلوجية أو السوسيولوجية للعمل الأدبى أن تحققها الناقد الأدبى فى تمايزه عن المشتغل بتاريخ الأدب ؟

وفى محاولتنا العناية بتلك الأسئلة بالرجوع إلى علم الاجتماع نعرض للنقاط التاليـــة :

ما هو علم الاجتماع ؟

لعلنا نبدأ التعريف بهذا العلم بسؤال حول مدى ما إذا كان علم الاجتماع علماً معيارياً . ونحن حين نضع هذا السؤال على هذه الصورة ، فإننا ندعى على الأقل بأنه « علم » - وإن كان هـذا يمكن أن يكون موضع مناقشة . ونحن نعلم أن مصطلح « العلم » ذاته ليس بعيداً عن عدم الغموض فى مثل هذا المجال .

ولكن هذه مسأله تدخل فى مجال المناقشة بين علماء الاجتماع .

ولعلنا نتفق على الأقل على أن دراسة بنية المجتمع فى فترة تاريخية معينة ـ كما أن دراسة أنماط السلوك التى تصدر عن تلك البنية الاجتماعية ـ إنما هى أمر واقع وموضوع لمعرفة أصيلة .. ولكننا نتساءل هل لمثل هذه المعرفة المتاحة أن تعطينا حكماً أليساً المرض والصحة الاجتماعية ؟ وهل يستطيع علماء الاجتماع فى حدود إمكانياتهم كعلماء اجتماع أن يخبرونا عن أشكال التنظيم الاجتماعى التى يرونها أفضل من أشكال أخرى؟وما هو ذلك النوع المعين من السلوك الاجتماعى الأكثر أو الأقل أفضلية بالمقارنة بالأنواع الأخرى ؟

ربما كان علماء الاجتماع أنفسهم يتجهون فى الاجابة على تلك الاسئلة بالنفى ، فهم قد يفضلون أن يتصوروا قضاياهم على أنها إنجازات وصفية بحتة ، وانها ليست فى أية درجة قضايا معيارية . ولكننا نجد أن علم الاجتماع قد لايكون فى ذاته علماً معيارياً ، ولكنه يمكن أن يمدنا بنوع من المعرفة نستطيع تجاهها ـ كأشخاص غير متخصصين ولكننا نتصف بالعقلانية والذكاء ـ أن نتجة اتجاهاً معيارياً .

ولما كان الشخص الذكى غير المتخصص هو المقصود فى هذه المعالجة فإننا نجد أن علم الاجتماع يكون علماً معيارياً ، وذلك لأن الشخص غير المتخصص الذى يتصف بالذكاء إنما يعنى بأكثر مما يعنى به الحيوان الاجتماعى ، فهو يضمن رؤيته تلك الجوانب المختلفة فى الانسان ـ كما أنه يستحضر الأفكار السياسية والأخلاقية وغيرها لكى يضفيها على تلك المعلومات التى يزوده بها علماء الاجتماع وهكذا فإنه يعتبر مشتغلا غير متخصص بالعلوم الانسانية ، وهو على هذا النحو إنما يعنى بإيجاد علاقة بين الدراسات المتخصصة لعلماء الاجتماع من ناحية،

وبين وضع الانسان وحاجاته كإنسان من ناحية أخرى ... وهو مثلا يقوم بتأويل المادة السوسيولوجية تأويلا أخلاقياً ، ويقبل تلك النظم الاجتماعية التى تحول الحاجات العدوانية إلى قنوات أخرى — أو تلك التى تساعد على تكريس الشعور بالمسئولية فى علاقة أشخاص الجماعة كل منهم بالآخر — بينما يرفض تلك النظم التى تقوم بوظائف مضادة .

ونجد أن الحك الذى يستند إليه مثل ذلك الشخص ان يكون نابعاً عن علم الاجتماع ، ولكنه سوف يستحضر فى استقلالية معايير مفهومة لما هو خير وما هو شر فى السلوك الانسانى ... حيث يجد أن مايزوده به علم الاجتماع من معلومات فورية لايمكنه بالتأكيد من مثل تلك المعالجة . ولعلنا نذهب إلى أبعد من ذلك لنقول أن المعلومات المستمدة من علماء الاجتماع سوف تضيع بمثل تلك المعالجة . وهكذا فإننا نرى ان علم الاجتماع — وإن كان فى ذاته ليس علماً معيارياً — فهو يتطلب معالجة معيارية فورية طالما انه ينبع بين أيدى المتخصصين . كما إننا نريد أن نسأل مباشرة — حينما تجمع من الأنواع المختلفة من الأبنية والأعراف الاجتماعية — عما هو الأفضل وما هو الأكثر إثماراً للحياة الطيبة كما نفهمها .

المعرفة السوسيولوجية والنقد الأدبى :

لنفترض ان الخبراء يخبروننا شيئاً عن بنية المجتمع الانجليزى فى تلك الفترة المبكرة من القرن الثامن عشر ، كما نفترض إننا نعمل فكرنا حول قيمة ودلالة تلك البنية المجتمعية — وذلك طالما كان علم الاجتماع معنياً بالأذكياء غير المتخصصين من الأشخاص — لنبين عن الكيفية التى نطبق بها هذا ، ولنقل فى نقد المقالات تلك الدورية المعروفة بالشاهد *Spectator* . إننا نستطيع حقاً

أن نربط بسهولة بين تلك المعلومات ومثل تلك الأمثلة حول الهدف الاجتماعى للمقال الدورى ، والسبب فى كون تلك الصيغة الأدبية كان عليها أن تظهر فى ذلك الوقت بالذات أكثر من أى وقت آخر ، كما أننا نستطيع أن نلقى قدراً كبيراً من الضوء على أسلوب واختيار موضوعات تلك المقالات بأن نبرز كونها تمثل بعضاً من الأعمال الأدبية المبكرة الموجهة بصفة خاصة إلى تلك الطبقة المتوسطة التى تمثل ظهورها ووضعها وتأثيرها بصورة رمزية فى ثورة عام ١٦٨٩ .. والتى تواجه الآن مشكلة القضاء على وظيفة ارستقراطية دون تقاليد ارستقراطية .

أننا نستطيع أن نستخدم المعلومات التى يزودنا بها المتخصصون فى التاريخ الاجتماعى فى اختيار أسباب انتشار قراءة مقالات مجلة المشاهد *Spectator* بين طبقة معينة تترقب بتطلع ظهور هذه المجلة ، وهو ماسوف يبقى لنا مرة أخرى عن علاقة مثيرة للاهتمام بين ماتقرأه طبقة معينة وأسباب قراءة تلك الطبقة لموضوعات معينة . ونجد أن تلك الموضوعات ومثيلها تلقى الكثير من الاهتمام والمعلومات المفيدة لدى المشتغلين بتاريخ الأدب ، وبخاصة فيما يتعلق بتتبع أصول وطبيعة الدوريات فى القرن الثامن عشر . ولكننا نتساءل كيف تساعد تلك المعلومات المشتغلين بالنقد الأدبى ؟ وهل يستطيع الناقد أن يقول عن مجموعة معينة من المقالات أنها جيدة لأنها تقوم بوظيفة اجتماعية طيبة وبطريقة مؤثرة ؟

من الواضح أن هذا سيكون تبسيطاً مبالغ فيه وغير مقبول فى معالجتنا لجانب من الأدب كالبلاغة ، وبقول آخر فإن تقييمنا للبلاغة تبعاً للقيمة الاجتماعية للموضوع سيجعلنا نضع «خزانة العم توم» *Uncle Tom's Cabin* فى مرتبة أعلى من « هاملت » ، وكذلك على الأقل فى عيون النقاد الشماليين ،

ولكننا إذا انتقلنا إلى مثال آخر — ولنفترض أننـــا مهتمون بالأصول الاجتماعية لنظريات « الفن من أجل الفن » التى انتشرت فى نهاية القرن الماضى، وهنا سنجد أنه من الصعب — وإن كانت هنـاك فى الحقيقـة محاولات تكررت كثيراً — ان نربط بين تلك النظريات وبين شعـور الفنـانين بسوء التوافق .. وهو ما نتج من ناحية أخرى عن نمو المجتمع الصناعى فى القرن التاسع عشـر ، وما نتج عنه من اتجاه اجتماعى للطبقة المتوسطة المسيطرة .

ومثل تلك الحقائق هى حقائق مستنيرة — وليس هناك من يشتغل بالأدب ولا يرغب فيها حيث أنها تؤدى إلى تقدم الفهم — ولكن كيف يمكن بالتحديد أن تستخدم فى النقد الأدبى ؟ إننا إذا كنا نقوم بتقييم للفن فإننا مشدودون إلى تلك الرؤية الضيقة للتنظيم الاجتماعى التى تبعد بالفنان بعيداً وبعيداً عن غيره من الناس ، والتى تتركه فى موضع يتسم إما بالشرعية أو الشذوذ الممجوج . ونحن نتساءل عما إذا كان مما يجب على المشتغلين بالنقـد الأدبى الادعاء بأن أية أشكال أدبيـة — أو خروج عليها — من الكتاب فى وقت ما إنما هو نتيجـــة لإعمال تلك العوامل يعتبر أمراً يستوجب الرثاء ؟

وكمثال أخير نأخذ فى الاعتبار تفسخ معتقدات الجماعة — وما يترتب عليه من نمو للعوالم الخاصة فى المجتمع الحديث — ومثل هذا التفسخ إنمـــا يترتب جزئياً على الأسباب الاجتماعية والاقتصـادية ، وهو بالتأكيد له آثار لا يمكن حصرها على الأساليب الأدبية . وبقول آخر فقد أردنا — بين أشياء أخرى — أن نعبر عن ذلك الاتساع الملحوظ لمجـال الرواية من خـلال كون الكاتب يفرض عليه الاعتماد على إحساسه الشخصى وبصيرته أكثر من اعتماده عـــلى إحساسه الاجتماعى بالقيمة . ولقـد أثرت تلك الرؤية فى الأسلوب والحبكة

القصصية والألفاظ والموضوع فى كل جانب من جوانب فن القصة .

أما إذا أخذنا فى الاعتبار مشكلات الشعر الحديث فى محاولة لايجاد اللغة والرموز التى تحل محل تلك الاساطير المجتمعية التى بدأت بها بواكير الشعر خلال قرون كثيرة — والتى لم يعد من الممكن الابقاء عليهـا حتى بدون أية مواقف أدبية — فإننا نجد أن علم الاجتماع يستطيع مساعدتنا فى رؤية الأسباب التى جعلت كتابات جويس *Joyce* على النحو الذى كانت عليه ، ولماذا نجد الكثير من الشعر الحديث الرقيق يتصف بالكآبة ؟ ولكن ماذا يستطيع علم الاجتماع أن يخبرنا عن قيمة طريقة جويس فى الكتابة أو تلك الكآبة فى الشعر الحديث الرقيق . كذلك فإننا نتساءل عما إذا كان علينا أن نرفض التوسع فى مجال الرواية باعتبارها ذات أصول اجتماعية هى فى أى مستوى من مستويات الصحة الاجتماعية إنما تثير فى الكثير منا شيئاً من الأسى ، كما أننا إذا اتجهنا إلى المماثلة بالطب فلابد لنا من التساؤل عما إذا كان من الممكن أن نعتقد — وهناك محاولات تمت بالفعل فى هذا الاتجاه — بأن شعر كيتس *Keats* العبقرى وقد ارتبط بمعاناته لمرض السل إنما هو شعر غير طيب ، أم نعتقد بأن السل كان خيراً فقد أنتج لنا شعر كيتس الجيد .

القيمة السوسيولوجية والقيمة الأدبية :

وحين ننتقل إلى إجابة السؤال الثانى الذى أثرناه فى بداية هذا المقال — والذى يدور حول مدى مشروعية تحويل أحكام القيمة حول أنواع مجتمعية معينة إلى الأعمال الأدبية التى أنتجت فيها — وتساءلنا عما اذا كان من الضرورى أن يكون موقفنا من هذا التساؤل موقفاً سلبياً فى الوقت الحاضر على الأقل ،

فإننا نجد بالتأكيد إنه ليس باستطاعتنا أن نفعل هذا بأية طريقة مباشـــرة وبسيطه .. وذلك لاننا إذا كنا نعتقد بأن « السبب » غير المرغوب فيه إنما ينتج بطريقة آلية أثراً غير مرغوب فيه أيضاً ، فإننا لابد أن نعتقد بأنه طالما كانت الأمراض الوبائية تعتبر ظروفاً غير طيبة فإن أى صورة من صـــور الضجاعة الأنسانية تستثيرها تلك الظروف يجب أن تكون أيضاً صورة غـير طيبـــة .

وبقول آخر إذا كنا نعتقد بأن تلك القيمة الكامنة فى « السبب » يمكن أن تنتقل كما هى إلى « الأثر » ، وإن أى نمو أدبى يظهر فى الظروف الاجتماعية التى نرفضها إنما يستحق رفضنا بالتبعية ـ فنحن إذاً نتبنى اتجاهـاً بسيطاً أحادى الخلية نحو الحياة وكل مشكلاتها ، وبالتالى فإننـا سنصبح لسنا فى حاجـة إلى أن نشغل أنفسنا بالقيمة الأدبية كقيمة متمايزة بجانب غـــيرها من أنواع القيم الأخـــرى .

إن النقاد الماركسيين ـــ الذين هم فى معظم الأحوال أشخـاص مستنيرون إلى حد بعيد ـــ حينما يبرزون « الاسباب » مفسرين مثلا اتجاه ديفو *Defoe* فى رواياته بكونها نابعة عن مصــــالحه الاقتصادية والطبقية ، فهم فى الحقيقة ليس لديهم ما يقولونه كنقاد أو كأشخاص يجدون أعمالا أدبيـة إستنـاداً إلى مقومات أدبية .. وذلك لأنهم ببساطة يسقطون نظرية فى الأسباب الاجتماعية فى تقييمهم « للأثر » الأدبى .

وبقول آخر فإن النقاد الماركسيين فى اعتقادهم بأن الظروف الاجتماعية التى ساعدت على ظهور الاتجاه الحالم الرقيق فى الأدب لكتاب من أمثـــال جيمس جويس كانت ظروفاً غير مرغوب فيها ، فإنهم سيدعون بالتالى أن عملا أدبياً

كأوليس *Ulysses* إنما هو عمل غير مرغوب فيه أيضاً .. وبالمثل فإن العمل الأدبي الذى ينبع عن ظروف إجتماعية طيبة أو عن اتجاهات اجتماعية طيبة سوف يكون بالتالى عملا طيباً . ولكن لعل الكثير من غير الماركسيين ربما يتفقون على أن العوامل الاجتماعية التى جعلت جويس ينظر الى الحياة بالطريقة التى فعل بها ذالك كانت عوامل يجب علينا أن نتمنى زوالها ، ولكنهم فى نفس الوقت يعترفون بالأهمية الأدبيـــة والقيمة لتلك العوامل التى دفعت جويس إلى إنتاج أعماله على هذا النحو .

ولقد أصبح الماركسيون الذين يتمتعون بكثير من الحـــرية والمسئولية راضين عن استخدام رؤيتهم الخاصة للتاريخ الاجتماعى والاقتصادى فى تفسير الأسباب التى تجعل كتاب معينين يتبنون اتجاهات معينة ، أكثر من تقييم أعمالهم وتركها على مائدة يؤمها أتباعهم الذين يحملون أحكاماً على المجتمع فى داخل المجال الأدبى .

وإذا كنا نعتقد فى النقد الأدبى أصلا كبحث متمايز مختلف عن التاريخ الأدبى — وعن مجرد التفسير والوصف — فإننا يجب علينـا أن نعتقد أيضاً بوجود محكات للامتياز الأدبى تنبع عن طبيعة الأدب ذاته . إننـــا نعرف كيف تكون المائدة الجيدة ، والمذياع الحسن ، ورغيف العيش الطيب .. ولعلنا نستطيع أن نقول الآن أن عاملا ماهراً يعمل بفردية فخوراً بمهـــارته الخاصة يستطيع أن ينتج طاولة بطريقة أفضـــل بالمقارنة بشخص يعمل فى مؤسسة كبيرة تنتج مصنوعات جاهزة السوق . إننا نصل إلى هذا الحكم لأننا نعلم ما نريده فى الطـاولة ، ولقـد اكتشفنـا بالتجربة أن الطاولة التى أنتجت فى الظروف الأولى — الانتاج أو خدمة معينة لحساب مستهلك معين — من طاولة

أفضل بناء على فكرتنا عما يجب أن تكون عليه الطاولة كأفضل مما يكون عليه حالها إذا أنتجت فى ظروف مختلفة . ونحن ربما نذهب إلى أبعد من هــذا فى رؤيتنا لماذا يكون الانتاج الجاهز للسوق سمة من سمــات الحضارة الحديثة ، ولماذا أصبح من المستحيل اقتصادياً واجتماعياً بالنسبة لنا فى الوقت الحاضر أن نحصل على طاولاتنا مصنوعة بواسطة صناع حرفيين يقومون بالعمل بمفردهم لانتاج وحدة معينة لعمل معين . ونحن قد نذهب إلى أبعد من هــذا لنفسر الظروف التى تنتج فيها الطاولات الجيدة ـــ والطاولات الرديئة ـــ ولكن هذا التفسير لا يضيف إلى فهمنــا جديداً سوى لكوننا بدأنا بمحكــات مستقلة لماهية الطاولة الجيدة ، كما أننا لا نستطيع القول بأن رداءة الطــاولة تنطوى من كونها انتاجاً جاهزاً ، ولكننا نصدر هذا الحكم لنقول ـــ إذا كان هذا ما نعتقده ـــ بأنها رديئة وذلك بسبب تصميـمها أو بسبب شكلها أو بسبب حجمهـا أو بسبب نقوشها أو بسبب كيفيات أخرى فيها كطاولة من نوع يتمايز عن غيره من الأنواع الأخرى . ولعل تلك المعلومة تتضمن أن هذا الشكل الردىء من الطاولات إنما يرتبط بظروف الانتاج الحديثة . وهكذا نجد أننـا لم نذهب إلى أبعد من نظريتنا فى الطاولات لكى نكشف ما هى الطاولة الرديئة ، ولكننا نذهب إلى أبعد منها لكى نفسر ـــ بصورة جزئية على الأقل ـــ كيف أن هذه قد جاءت رديئة على هذا النحو .

إن الناقد المتخصص فى صناعة الطاولات الذى يرى مباشرة أن طاولة مـا هى طاولة رديئة ـــ حينما يعلم أنها أنتجت فى ظروف معينة يرفضها ـــ فهو يعنى أنها رديئة ليست كطاولة . . وإنما كانتاج اجتماعى ـــ لعله قد تم فى ظروف غير مرغوب فيها اجتماعياً ـــ ولكنه لا يحكم على الطاولة كطاولة إطلاقاً . أما إذا كان ذلك الناقد المتخصص فى صناعة الطاولات يعتقــد بأنه يحكم على

الطاولة كطاولة بناء على معرفة الظروف التي تم فيها إنتاجها فهو ببساطه يكون قد اختلط عليه الأمر .

وربما كان الماركسيون ليسوا هم وحدهم فقط الذين وقعوا في واحدة أو أخرى من هاتين الفئتين ، حيث نجد أن الاتجاه النقدى الفنى لدى جون روسكين John Ruskin ينطوى باستمرار على هذا الخلط بين رجـــل مرهف الحس بالقيم الجمالية فى ذاتها ، ولكنه يبقى فى نفس الوقت على إصراره على أن الأدب الجيد هو فقط ذلك الأدب الذى ينتج فى ظروف إجتماعية وخلقية طيبة .

وثمة نقطة يمكن أن تتضح فى مماثلة أخرى حيث نجد فى السنوات التى أعقبت تولى هتلر الزعامة السياسية فى ألمانيا أن الكثيرين من الناس فى أمريكا ومناطق أخرى رفضوا أن يشتروا مثلا نبيذ الراين الألمانى ، وذلك لأنهم لم يرغبوا فى إعطاء دعم اقتصادى لنظام يناهضونه .. لقد رفضوا أن يشتروا النبيذ من ألمانيا لأنهم يرفضون بوجه عام الظروف الاجتماعية والسياسية السائدة فى ذلك الوقت ، ولكنهم ظلوا مغرمين بنبيذ الراين .

حقاً أن هذه ليست مماثلة دقيقة لأن الأعمال الفنية الأدبية نجـــدها دائماً تحمل طابع أصولها الاجتماعية فى نسيجها الداخلى بنفس الطريقة التى تنعكس فى الطاولة أو زجاجة النبيذ ، ونحن غالباً نلجأ فى الواقـــع إلى مساعدة التاريخ الاجتماعى ليفسر لنا ماذا يكون العمل الادبى فى حقيقته ، وهذا يمثل رابطة بين التاريخ — وعلم الاجتماع — والنقد الأدبى كما يمثل رابطة وبين الاتجاه الوراثى والاتجاه التقييمى . ونحن نجد فى بعض الأحيان — وفى صورة دائمة بطريقة أو أخرى — أننا إذا رأينا كيف يجيء الشيء على الصورة التى هو عليها ،

فإننا نكون فى موضع أفضل لكى نتقبله فى صورته التى هو عليها فى الواقع — ومن ثم تقييم هذا الشيىء لما خلق من أجله .

أننا نتساءل هل عنى الرسام بأن تعلق لوحته فى معــــرض ، أو لتزين بها جدران كنيسة معينة ؟ وهل عنى الشاعر الغنائى بأن يغنى شعره على العود ، أو يلقى فى حفل معـين ، أو ليكون مثالا فى قاعة الدرس ؟ وهل كانت رحـلات جاليفر *Gulliver's Travels* هى قصة مغامرات طفل ؟ أم هى هجاء للجنس البشرى ؟ وإذا كان الموضوع الأول للناقد هو رؤية العمل فى ذاته — كما هو فى الواقع — فإن عالم الاجتماع مثل المشتغل بالتاريخ يستطيع فى معظم الأحوال أن يمد له يد المساعدة ، ولـكن هـذا الناقد بمجرد أن يرى ماهية الشيىء فلا بد له من تطبيق محكات مناسبة لطبيعة الشيىء الذى يراه .

الوظيفة الوصفية للنقد السوسيولوجى :

يمكن للنقـد السوسيولوجى أن يساعدنا على تحاشى ارتكاب أخطاء حـول طبيعة صناعة الأدب الذى ورثناه عن الكتاب الذين عاشوا قبلنـــا .. وذلك بإلقاء الضوء على وظيفته — أو بالقاء ضوء على تلك الأعراف التى يمكن تفهم جوانب معينة فيه بالرجوع إليها — ومن ثم فإن للنقد السوسيولوجى وظيفة وصفية هامة . ولما كان النقد السوسيولوجى يمثل وصفاً دقيقاً فهو بالضرورة ينطوى على تقييم .. يمكن أن نطلق عليه اصطلاح للنقـــد ، وهو فى معظم الأحـوال يكون صناعة نقدية على درجة كبيرة من الأهمية . ونحن إذا قرأنا لشوسير *Chaucer* مؤلفه بعنوان ترويلوس وكريسيد *Troilus and Criseyde* مع معرفة بتقاليد الحب المجوّل — التى فى ضوئهـا تما الكثير من المواقف فى هذا العمل الأدبى — فإننا نستطيع رؤية هذا العمل بطريقة أكثر وضوحاً ...

حيث أننا نصل بطريقة أفضل مانحن معنيون به ، كما أننا نستطيع أن نشرع في تقييمه بكل ثقة .

التفسير السوسيولوجى لخصائص العصر :

وبجانب هـــذا كله لعل النقد السوسيولوجى وظيفة أكثر أهمية بما سبقت الاشارة إليه ، فهو قادر على تحقيق تقدم المعرفة إلى حد بعيد ـــ وذلك بمساعدة القارىء على رؤية أسباب وجود بعض الأخطاء كسمات مميزة لعمل معين فى فترة زمنية معينة ـــ كما يمكن للنقد السوسيولوجى أن يفسر طبيعة مثل تلك الأخطاء وذلك مع الاعتراف بأن اكتشاف تلك الاخطاء إنما يتم بالرجوع إلى المعايير الأدبية الخاصة .

إننا لانتوجه إلى علماء التاريخ الاجتماعى لنكتشف ان أنواعاً معينة من النزعات العاطفية ـــ مثل تلك التى تحوى نهاية مؤلف بارى *Barie* بعنوان : الوزير الصغير *The Little Minister* ـــ تمثل عيباً أدبياً ، ولكن عالم التاريخ الاجتماعى يستطيع بصورة أو أخرى ـــ وبواسطة توجيه اهتمامنا إلى الأسباب الاجتماعية للنزعة العاطفية ـــ أن يساعدنا على فهم أعمق لماهية النزعة العاطفية الحقيقية . وإذا كنا نواجه بإعجاز اختلاف النغمة والأسلوب فى الجزء الأول فى « رومانسية الزهرة » *The Romance of the Rose* التى كتبها غليوم ديلوريس *Guillaume de Lorris* واستمرارها لدى جـــين ديـــين *Jean de Meun* ، فإن المتخصص فى التاريخ الاجتماعى يستطيع أن يساعدنا على رؤية النغمة المسيطرة فى الجزء الأول كخاصية لطبقة معينة فى فترة معينة ، وذلك فى الوقت الذى نجد فيه الجزء الثانى قد نبع عن مؤلف يتمتع بأسلوب فكرى قد تكيف إلى حد ما بالعادات العقلية للطبقة الجديدة الناهضة . وهذا يساعدنا

على تفسير ماذا يجرى فى الواقع، وبالتالى يساعدنا على رؤيتها بطريقة أكثر وضوحاً. وسواء أكان ذلك عيباً أو فضيلة — أو شيئاً آخر بين هذا وذاك — فإن الناقد الأدبى يلاحظ نوعية أو كيفية العمل الأدبى، بينما نجد المتخصص فى التاريخ الاجتماعى — شأنه شأن المتخصص علم النفس — يستطيع أن يفسر لماذا تتوفر تلك النوعية الخاصة فى أدب كاتب معين .

النقد السوسيولوجى الفعال :

تتسم الدراسة التى تعتمد على الخلفية الاجتماعية لأعمال المؤلف — والتأثير تلك الخلفية الاجتماعية على العمل — بالضرورة بشيء من الاستطراد ، وذلك لأنها تتضمن أولا وصفاً لتلك الخلفية الاجتماعية .. ومن ثم فحص الأعمال الأدبية الفردية فى ضوء تلك الخلفية الاجتماعية . ونجد انه ليس من السهل أن نكون عادلين فى عرضنا لهذا الاتجاه النقدى فى صورة مجرد مقتطفات قليلة . وحيث يعتبر « عالم ديكنز » The Dickens world لمؤلفه همفرى هـــاوس Humphry House كمثال عجيب لمثل هذا النقد السوسيولوجى، فهو يصنع نقاطه بالتنقل بين أقسام تعطى حصراً للصورة التاريخية المتغيرة فى عصر ديكنز، كما يقوم بتوضيح نماذج لانعكاس هذه الصورة المتغيرة فى روايات ديكنز . ونجد فى النص التالى عرضاً واضحاً للغرض الخاص للمؤلف كمثال لما يأمل مثل هذا النوع من الدراسة أن يحققه .

« إن هذا الكتاب يحـــاول أن يرى بطريقة عريضة وبسيطة الارتباط بين ماكتبه ديكنز .. والأزمنة التى كتب فيها تلك المؤلفات — أو الارتباط بين اتجاهه الاصلاحى وبعض الأشياء التى أراد رؤيتها قد تم إصلاحها ، أو بين الاتجاه نحو الحياة كما يتبين فى كتبه — والمجتمع الذى عاش فيه ، وهو يعنى

إلى حد بعيد بالحقائق ، ويعتمد على التوضيح بالمقتطفات المنقولة عن مصادر متنوعة . . . لأننا فقط حينما تتوفـــر لدينا هذه التفاصيل يمكن أن نرى بنية الكاتب وأن نفهم غرضه . ونجد أن اللغة المعاصرة بالذات هي وحدها التي تنقل الإيقاع والأسلوب الأصيل اللذين يتطلبها الاقناع بالضرورة. ومـــع مؤلف هوجيم بكثير من التنوع والتعقيد في تاريخ عصره فإن إعمال خياله يمكن أن يرى على أفضل صورة في معظم الأحوال من خلال رؤية الآخرين للأحداث التي يدأها .

ولعلنا نتبين بعض الأخطار في مجال النقد السوسيولوجي الحقلي من المقتطفات التالية من الفصل السادس بعنوان المنظر المتغير *The Changing Scene* من كتاب همفري هاوس :

« عاش ديكنز خـــلال السنوات التي رأى فيها صناعة انجلـــترا الحديثة وأوليجارشية الطبقة الوسطى التي كونت حكومتها . ولقد انتهت فترة صباه بالنضال من التحرر الكاثوليكي وإعلان الاصلاح . وقد تزامنت حياته في فترة التأليف تماماً وإلى حد بعيد بحكومة العائلات ذات العشرة جنيهات . وكانت حكومة الطبقة الوسطى حينئذ تعني إصلاح الطبقة الوسطى — وبقول آخر الانقضاض على الامتيازات والأجهزة العتيقة . ولقد ناقش مستر هاوس في فصل آخر في نفس الكتاب كيف أن هـذا الانقضاض قد دخل في صلب نسيج روايات ديكنز — كما كان ذلك الاصلاح يعني القضاء على القيود المفروضة على التجارة والصناعة والتملك ،كما يعني التكوين المؤلم للنسق القانوني والإداري الذي يتفق مع الظروف التي أعطت الطبقة الوسطى قوتها » .

وقد كان للانجازات التكنولوجية التى تحققت فى السنوات الواقعة بين عام ١٨١٢ وعام ١٨٧٠ أثر بعيد المدى إلى حد كبير على هؤلاء الذين عاصروها أكثر من أية إنجازات أخرى ، فقد غيرت السكك الحديدية حياة البلاد بصورة أكثر عمقاً حين نقارن بالآثار التى ترتبت على السيارات والطائرات . ولعله من الصعب علينا — نحن الذين ألفنا هذا التغير المتزايد السرعة دائماً — أن نستعيد تلك المشاعر التى يمتزج فيها الاشباع المنفعى والانبهار العاطفى الانفعالى الذى استقبلت بها السكك الحديدية وأجهزة الاتصال السلكية واللاسلكية . ولقد افتتن آباؤنا بمثل تلك الكتب ككتاب لاندرز *Landers* عن الآلة البخارية ومتحفه للعلوم والفنون *Museum of Science and Art* الذى يضم نماذج محفورة من الخشب . ولقد استثارتهم مقاطع ذراع الإدارة — الكرنك — والصبابات إلى شيء يشبه التحمس الجمالى كما جعلتهم الاخبـــار الفلكية والجيولوجية المفرحة يفكرون بجدية — وفى معظم الأحوال يخرجون بنتائج غير متفائلة — حول خلق العالم .

ولقد أقنعتهم الفصول التى كتبت عن الاتصالات السلكية واللاسلكية بالتخلى عن مقاومة استعارة افتخار بك *Puck* ، وربما شارك منهم من هم أكثر تفكيراً كارليل *Carlyle* فى قلقة — الذى سمعناه لأول مرة فى عام ١٨٢٩ — حول ميكنة الحياة الخارجية التى ربما قصد بها ميكنة مهلكة للعقل . ولكن الجميع كانوا سواء بعد ذلك فى التردد أو المقاومة ، فقد فرض عليهم قبـــول العالم الجديد والتغيرات الاجتماعية التى جاء بها وقد كان الجميع جزءاً منها ، ولم يعد ديكنز أو أى شخص آخر غيره يستطيع أن يعمد إلى الهروب .

ولعلنا نستطيع أن نقيم بعض المقاييس لتلك التغيرات إذا لجأنا إلى المقارنة

بين « بيكويك » Pickwick و « صديقنا المشترك » OurMutualFriend ، ومن الواضح أن الكتابين هما لنفس المؤلف — ولكننا حينما نعطى كل التسهيلات لبيان الاختلافات الواضحة فى القضية الرئيسية والأسلوب والخلفية والتأثير الحياة الخاصة لديكنز على فنه أو مظاهر النمو فى هذا الفن ذاته ، فسيظل من الواضح أن الكتابين هما نتاج لمناخين مختلفين . ولقد قيل أحياناً فى مناقشة تكنيك ديكنز كروائى أن أية واحدة من شخصياته العظيمة يمكن أن تختلف من كتاب معين إلى غيره دونما إحداث اضطراب مادى فى ترتيب أى منها ، ولكننا إذا حاولنا أن نتخيل سام وللر Sam Weller فى « صديقنا المشترك » فإن حدود هذا النقد الصورى تصبح بينة فى النو .

ونجد أن السمات الفيزيقية وتعقد الشخصيات قد اختلفت تماماً فى الكتابين بنفس الدرجة التى تغيرت بها ملابسها ، حيث نجد أن خشونة قسمات الأجلاف قد كونت موضة جديدة ، كما حدث تحول فى الأخلاق لدرجة أن المرء يمكنه التنبؤ بأن بوفن Buffin سوف يصل إلى حالة من السكر كما أن جون هارمون John Harmon سوف يدخل فى مبارزة . ونحن نشعر أن الناس يستخدمون الشوكة والسكين بطريقة مختلفة ، وأن الأشخاص قد أصبحوا أكثر كبحاً لجماح أنفسهم .

ولقد كنا نجد المنحرفين والشواذ فى الكتب المبكرة يعدون فيما يكون تظاهره دون أن يلقوا انتباهاً أو انبهاراً خاصاً . أما فى الكتب المتأخرة فإننا نجدهم كما لو كانوا قد تصدروا الشوارع وقد فرض عليهم النبذ القاسى ، ولقد أصبح للانضباط معنى جديداً . وحيث كان سيلاس ويج Silas Wegg ومستر فينوس Mr Venus فى نزاع فإننا نجدهم قد انتهوا مع عالمهم وذلك على

عكس الأمر بالنسبة لدانيل كويلب *Daniel Quilp* ؛ ولقد أصبحت الطبقات المتوسطة أكثر اعتداداً بذاتها كما أصبحت الطبقات الدنيا أقل ثقة بنفسها .

وعلى الرغم من أن لندن كانت أكثر اتساعاً فى المدى إلى حد بعيد فقد كانت أصغر حجماً فى الرواية البوليسية .. حيث أصبحت مدينة مفتوحة بواسطة الشرطة . ولقد بدا المشهد كله أقل اتساعاً وأكثر ازدحاماً ، كما أصبح أكثر إضجاراً بطريقة عجيبة . ولقد بدا الجو الحقيقى وقد تغيرت نوعيته كما اتجه إلى الاصلاح التطهيرى *Sanitary Reform* إلى الحد الأقصى . ونجـــد فى بيكويك *Pickwick* أن الرائحة غير الطبيعية هى رائحة غـــير طيبة أما فى « صديقنا المشترك » فقد تكون مشكلة .

إن تلك المشكلات لا يمكن أن تعزى إلى الميكنة وحـــدها — أو إلى أى سبب وحيد آخر — ولكن الأثر التراكمى للاختلافات كان ملفتاً لدرجة أن يصبح ليس فى الامكان أن نفهم ديكنز دون أن نتتبع فى شيىء من التفصيل وطأة التغيرات الخارجية على أعماله . ولقد اقتطف مستر هاوس من الجوانب المعاصرة فى تلك التغيرات الخارجية ما يلى :

« اننا نجد التزامن العـام لأعمال دومبى وولده *Dombey and Son* يعمـل بطريقة طيبـة حقـاً ، فإذا أدعينـا بأن عقـدة الكتاب قد انتهت كتابتها فى عام ١٨٤٨ ، فقد كانت فلورنس *Florence* حينئذ أماً لولد كبير السن إلى الحد الذى يجعله يتحدث بذكاء عن عمه الصغير المسكين . وبافتراض أنها كانت حينئذ فى الواحدة أو الثـانية والعشـرين ، فإن بول *Paul* يكون قد ولد عام ١٨٢٣ تقريباً ومات عام ١٨٤٠ أو ١٨٤١— وهذا يتلاءم مع بعض الأحداث الرئيسية التى يمكن تأريخها بحوادث تاريخية

معينة ، حيث نجد أن رحلة دومبي والميجور Dombey and the Major إلى ليمنجتون قد حدثت فور موت بول ، وقد افتتحت سكك حديد لندن وبرمنجهام — التى سافرا بواسطتها تماماً فى عام ١٨٣٨ ، وقد هدم الفندق الملكى Royal Hotel الذى مكثا فيه حوالى عام ١٨٤١ أو ١٨٤٢ .

ولقد كان من الواضح أن ديكنز فى وصفه لمشهد ليمنجتون انه يعتمد فى رسمه على أجازة قضاها هناك مع هالبوت براون Halbot Browne فى خريف ١٨٣٨ ، وقد كان براون دليله فى تلك الرحلة . وكذلك فقد كان موت مستر كاركر Mr. Carker فى محطة بادوك ورد محتملا فقط بعد عام ١٨٤٤ حينما افتتح الخط الفرعى من هناك إلى ميدستون . وهكذا نجد أن الكتاب والفترة التاريخية يمكن أن يقفا معاً دونما أية مشكلات حقيقية فى مجال المفارقة التاريخية ، كما أنه يبقى هناك الكثير منذ العشرينيات من القرن التاسع عشر ، فنجد أن سول جيلز Sol Jills بأعماله المضمحلة التى لم يعد لها مكان فى عصرنا هذا — وحتى صرامة دومبى ذاتها فى تمايشه مع المبادىء الصارمة — أمور قد أسيئت ملاحظتها فى تصوير تجار القرن الثامن عشر وقد بدوا وكأنهم رواسب من عصر آخر . وبصفة إجمالية فإن الكتاب يبين عن وعى عاطفى — كما هو عملى — بالمعيشة فى عالم التغير ، كما يبين عن فهم لما تعنيه التغيرات فى تفاصيل الحيـــاة اليومية ، والنوعية الجديدة للحياه التى جاءت بها . وقد وضح فى دومبى — أكثر من أى عمل آخر من أعمال ديكنز الرئيسية — كيف استطاع المؤلف بسرعه وتأكد أن يشعر بمزاج عصره ، وأن يندمج مع الاحساسات الجديدة فى الأدب الخيالى .

ولقد تسبب هذا المزاج والمجالات الجديدة إلى حد بعيد عن السكك الحديدية ،

وقد واكبت حركة نشر الكتاب هوس السكك الحديدية فى منتصف الأربعينيات.
ولعله من الصعب أن نبرز آثار تلك السنوات فى الحياة الاجتماعية لانجلترا ، فمن الناحية العملية نجد البلاد قد انتابتها كلها حمى القروض ، وقد تحول الاتجاه الجماهيري كلية نحو الاستثمار ، وأصبح حينئذ من الواضح لأول مرة أن شركات *Joint Stock* — مهما كانت الصورة المعيبة التى أديرت بها — كانت بالتأكيد خليقة بأن تكون مظهراً ثابتاً ومؤثراً للتمويل . وقد ساعدت أعمال السكك الحديدية على امتصاص البطالة وإزاحة مخاوف الثورة ، كما تزايد نمو الاستهلاك المنزلى فى صور عديدة من خلال تحسن وسائل النقل — وبخاصة فى مجالات الأغذية والأثاث والتدفئة . وقد غيرت تلك المظاهر الفيزيقية فى الشخصية الروائية بصورة سريعة. كذلك فقد تغير الهيكل العمرانى حيث اتخذ سمة جديدة ، وربما بدأ يتخذ مستوى جديداً نتيجة لإقامة السدود والأنفاق والجسور وبجانب هذا كله فقد استثير مجال ووقع الحياة الفردية .. وذلك حتى بالنسبة للعامل فى عائلته كما هو الشأن بالنسبة للحاشية البرلمانية.

وقد اتجه مستر هاوس بعد هذا كله لملاحظة وطأة تلك التغيرات على روايات ديكنز ، مبرزاً على وجه الخصوص الآثار التى توصل إليها من خلال المفارقة بين دنيا الخطوط الحديدية الجديدة والعالم المضمحل مثلا فى عربات نقل المسافرين التى تجرها الخيول ولقد عرض هاوس أيضاً لقدرته على إعطاء صورة بانورامية لانجلترا الصناعية الجديدة ، وإبراز التناقض بين الظروف المعاشة فى المناطق الصناعية المكتظة والتجمعات السكانية المتباعدة فى بلاد ملاك الأرض ، وذلك من خلال وصف تغير أحياء المدينة كما يراه مسافر يجلس بجوار شباك فى قطار .

وإلى جانب تلك الخلفية الاجتماعية التى عرض لها هاوس بشىء من التفصيل نجده يناقش بعد هذا عدداً من الروايات التى نبعت بسماتها الجلية ، والأكثر

وضوحاً بالمقارنة بما كان عليه الحال بالنسبة للقارىء الذى لم يتوفر له هذا الاهتمام الموجه إلى العوامل الاقتصادية والاجتماعية فى عنايته باتجاهات الكاتب، وهو ما يتبين لنا فى المثال التالى :

إن « التوقعات العظيمة » *Great Expectations* هى تعبير تام عن قطاع من المجتمع الانجليزى ، وبقول آخر فهى تقرير — يؤخذ على ما هو عليه — عما يمكن للنقود أن تفعله خيراً أو شراً ، وعن الكيفية التى تغير بها الطبقات وتصنع الحدود بينها ، وكيف تستطيع أن تمنع الفضيلة والأخلاق الدمثة ،وأن تفتح مجالات جديدة للمتعة والشك . وهنا نجد أن أسلوب الكتاب ينتمى ليس إلى التاريخ الخيالى لحبكة الموضوع ، ولكنه ينتمى إلى العصر الذى كتب فيه . . . وذلك للافتراضات التى يسأل عنها حول بيب *Pip* الذى يمكن تحوله بواسطة النقود والنعم الضئيلة التى يمكن أن تضربها ، والذى يستطيع إذا خانه الحظ فى مجال معين أن يستعيض عنه بتقوية للمكاسب المتاحة متمثلة فى كلمته المسموعة ومن حوله من الأصدقاء . . . وهى كلها أمــــور كانت ممكنة فقط فى بلد آمنة فى اقتصادها الداخلى — ذات أسواق خارجية متسعة — وهو ما يصعب قوله عن انجلترا فى العشرينيات أو الثلاثينيات حينما كان الحدث من المفترض وقوعه .

ولقد كانت الثقافة التى اكتسبها بيب شيئاً بورجوازياً خالصاً ، حيث جاءت فى صورة تحسين قليلا لجهة الحديث وآداب المائدة والملابس ، وهى مجالات نجد فيها السيد المهذب فى القرية الريفية الانجليزية كما نجد مثيله فى إحدى المقاطعات المرتبطة بانجلترا ، يصبحان — حتى فى حفل تتويج الملكة فيكتوريا — أكثر شبهاً بجارهم الفلاح أكثر مما ينطوى عليه الحال بالنسبة لمعتوق فرنسى . ولقد كانت عملية انتشار ذلك النمط من الشخصية — الذى يتمثل فى الرجل المتعلم فى لندن

والمقاطعات الوطنية الانجليزية — تمثل معياراً متوقعاً من السيد المهذب «الجنتلمان» تكون بصورة أو أخرى شيئاً يبلغ حد الكمال ، ولقد كان استمرارها السريع خلال عصر ديكنز يكون جانباً جوهرياً من التوحد الاجتماعى المتزايد بين الطبقات الوسطى والعليا ، وساعد على ذلك نمو نظام التعليم العام .

ونحن نجد أن ديكنز يخبرنا أن بيب قرأ قدراً كبيراً — وأنه استمتع به — ولكننا لا نعلم ماذا قرأ ؟ وكيف أثر ما قرأ فى عقليته ، أو ماهو نوع المتعة التى تحققت له بما قرأ . لقد عرف بيب قدراً كافياً عن شكسبير وتبين تصرفاته عن أنه كان مدركاً أن تحول مستر وبصل *Mr. Wopsle* إلى ولدنجارفر *Waldengarver* كان شيئاً سخيفاً . أما عن الجوانب المضيئة التى وجدها فى المسرح الذى انتشر فى أيامه المزدهرة ، فإننا نترك لنحكم على هذا بأنفسنا . ولم يكن للرسم والموسيقى بالتأكيد نصيب كبير فى حياته ، حيث نجد أشخاصاً من أمثال بيب وهربرت بوكت *Herbert Pocket* وترادلس *Traddles* لم تكن لهم ثقافة سوى الراحة البيتية والاحتشام الخلق ، ولقد كانوا حساسين محبوبين أذكياء — ولكن نشاطاتهم العادية كانت محدودة بصورة كلية بالمهنة التى يعملون بها وبالجلوس بجانب المدفأة فى الحياة البيتية . أما حين نجد واحداً منهم يوسع نشاطه إلى ما بعد هذا الذى نجده يتجه إلى الخدمة الاجتماعية ، وفى هذا أيضاً يبدو محكوماً بمهنته فلقد كان آلان ودكورت *Allan Woodcourt* طبيباً طيباً ، كما كان مستر ميلفى *Mr. Milvey* شخصاً طيباً ، ولقد كانت نشاطات ديفيد كوبرفيلد الأخرى أن يكتب روايات مثل «التوقعات العظيمة» و «ديفيد كوبرفيلد» ، وهكذا فإننا نصل إلى دائرة مكتملة .

وهنا نجد أن الناقد السوسيولوجى يلقى الضوء على مظاهر معينة للأعمال

الأدبية ، وذلك بتوجيه اهتمامنا إلى الطريقة التى تنعكس فيها التغيرات الاجتماعية وغيرها من العوامل الاجتماعية على تلك الأعمال الأدبية . وهو لا يعين قيمة معينة ، ولكنه يلقى ضوء البحث من زوايا جديدة — مثله فى ذلك كالمشتغل بالتاريخ والناقد السيكلوجى — فهو يضع مظاهر معينة فى الأعمال التى يناقشها فى بؤرة الضوء، وذلك بأن يفسر لنا كيف جاءت تلك الأعمال على ما هى عليه. وهنا نجد إن النمط الذى يبرز تحت ضوء البحث ليس هو النمط « الحقيقى » أو « الكامل » للعمل فليس هناك مثل هذا النمط — ولكنه النمط الذى إذا وضعناه فى أذهاننا حينما ننظر إلى العمل من وجهات نظر أخرى ، فإننـــا نستطيع أن نضيف مساهمته فى زيادة إدراكنا واستمتاعنا بالعمل الأدبى . ولمـــا كانت الأعمال الفنية الأدبية أشيـاء متعددة الجوانب ذات معـانى كثيرة تنبع من كل منها ، فليس هناك من ناقد واحد — أو مدرسة نقدية معينـة — يستطيع أن يستوعب مغزاها .

كيفية تحقيق الفائدة القصوى للنقد السوسيولوجى :

يمكن الاقتناع بأن النقد السوسيولوجى يطبق بطريقة بالغـــة الفائدة فى أنواع معينة من الأعمال النثرية ، بينما نجده أقل فائدة فى مجال الشعر الغنائى . ولقد كانت الرواية النثرية الانجليزية — إلى وقت قريب — وسيلة جماهيرية إلى حد كبير تعتمد فى نمط معناها على الاتفاق بين الكاتب وجمهوره حول مغزى العقل الانسانى والطبيعة الأخلاقية(*) ، بينما كان الشعر الغنائى يميل إلى توصيل رؤية أكثر خصوصية للحقيقة . ونجد أن روبنسون كروزو حينما وجد نفســـه

(*) أنظر *Daiches, D, The Novel and the Modern World, 1939, Chapter I.*

وحيداً على أرض جزيرته لم يسع لاستخدام وحدته بوساطة العلاقة بين الفرد والعالم ، فقد كان غرضه فى عزلته البعيدة هو — على الأقل — إعادة خلق هيكل المدنية التى تركها وراءه تماماً .

وحيث كانت الرواية الانجليزية معتمدة على المجتمع والاتفاق الجماهيرى حول ما كان يستحق اقتناصه كشىء ذى مغزى بين التفاصيل المتنوعة للحياة اليومية ، فإننا نجد أن تلك الأشياء التى كانت ذات مغزى تتمثل فيما أحدث تحولاً فى العلاقة الاجتماعية للحب والزواج والخصام والصفاء والمكسب والخسارة للمال أو المركز الاجتماعى . وحيث نجد فى استطاعتنا حقاً أن ننقد مجتمعاً ما ، إلا أننا لا نفعل هذا بأن نرى كيف لم يؤد العرف الاجتماعى فى الواقع إلى تلك الأخلاقيات العملية المقبولة بوجه عام والتى يقبل هذا العرف احتضانها .

ونحن نستطيع أن نكتشف العلاقة بين تلقائية الشعور والعرف الاجتماعى كما نجدها لدى جين أوستين *Jane Austen* ، أو العلاقة بين النبالة والأخلاقيات كما نجدها عند ثاكراى *Thackeray* ، أو أثر المجتمع الصناعى على الشخصية كما هى عند ديكنز ، أو فحص إمكانيات معرفة الذات والعمل فى مجال المجتمع كما نجده عند جورج إليوت *George Eliot* ، ولكننا فى كل حالة نجد أن عقدة العمل الأدبى تتجه إلى التصاعد من خلال الرموز الجماهيرية . ونجد فى كل الحالات أن المجتمع قائم لكى يؤخذ فى الاعتبار — ويقبل كحقيقة أساسية حول الحياة الانسانية — وذلك حتى حين يرغب المؤلف فى مهاجمته أو تغييره .

وقد كانت رواية القرن الثامن عشر والتاسع عشر لهذا تمثل صيداً موفقاً — بصورة خاصة — للنقد السوسيولوجى ، ولعل القارىء يسأل نفسه عما هى

الأسئلة السوسيولوجية التي يمكن أن تكون إثارتها مثمرة حول روايات ريتشاردسون Richardson أو جين أوستن Jane Austin أو ثاكراى أو ديكنز أو جورج إليوت George Eliot ، أما مع مثل تلك الروائية إميلى برونت Emily Bronte التي اشتغلت بشيء من خيال الشاعر فإننا نجد الاتجاه السوسيولوجي ربما يكون أقل إثماراً .

وبالمثل فإننا نجد في رواية القرن العشرين أنه ربما كان في استطاعتنا أن نوجه أسئلة سوسيولوجية مثمرة حول ويلز Wells وجالسورثى Galsworthy ودوز باسوس Dos Passos أو حتى فوكنر Faulkner — على الرغم من طريقته الخاصة التي يعمل بها كشاعر — ولكننا نتساءل عما هو الموقف بالنسبة إلى فيرجينيا وولف Virginia Woolf ود. هـ. لورنس D.H Lawrence وهيمنجواى Hemingway الذى نجده على الرغم من عنايته في جانب معين بالانسان والمجتمع فهو في أفضل رواياته ينشيء أساطير بطولية تنبع بصورة جوهرية عن حساسية شعرية . إن الأصول الاجتماعية للورنس يمكن أن يتحقق لها فحص مثمر بواسطة هؤلاء الذين يتوفر لديهم الاهتمام بسيكلوجيته ، ولكن دلالة مثل هذا الفحص في فهم الطريقة التي يعمل بها خياله في رواياته هي بالتأكيد أمر مشكوك فيه . وبعد فقد كانت تلك اختلافات يفعل القارىء خيراً حين يأخذها في اعتباره . وذلك مهما كانت النتائج التي يصل إليها .

ونجد في الجانب الآخر أن الاتجاه السوسيولوجي قد جيء به ليحمل على الشعر .. ليس فقط من قبل الماركسيين الذين سعوا إلى تفسير الأعمال الأدبية بربطها بأصولها في استجابة الفرد للموقف الطبقي الذى يجد نفسه فيه ، ولكننا

نجد ناقداً مثل باتسون F.W. Bateson فى مؤلفه بعنوان : الشعر الانجليزى — مقدمة نقدية(*) ، ولقد ناقش باتسون فى الفصل العاشر من هذا الكتاب مرثية جراى Gray's Elegy التى تتناقض بصورة حادة مع تحليل كلينث بروكس Cleanth Brooks للشعر فى مؤلفه بعنوان : القدر حسنة التشكيل The Well Wrought Urn . ويبدأ باتسون من حقيقة كون المرثية مكونة من شطرين يأتى الشطر الثانى منهــا — والذى يضم الأبيات الست والخمسين الأخيرة — فى مستوى أدنى مما كان عليه الشطر الأول .

ويحاول باتسون فى القسم الثانى من المرثية أن يقنعنا بما إذا كانت محاولة غير ناجحة لإخفاء هويتها — بعد القسم الأول العبقرى الذى نجد فيه تضاداً متلاحماً بين الحياة الطبيعية التى تكاد أن تكون حيوانية للقرية من ناحية وحياة « العزة » المصطنعة التى لا جدوى منها — يمكن أن تقدم لنا جراى عام ١٧٤٢ .. كشخص يعتمد على غيره ولا صديق له ، كما هى محاكمة لجراى عام ١٧٤١ قبل موت صديقه المقرب ريتشارد وست Richard west .

وبعد تحليل مثير للاهتمام للطريقة التى تعمل بها الصور الرمزية يخلص باتسون إلى أن « المرثية هى بالاضافة إلى كل الأشياء الأخرى التى تمثلها فى كراسة المصور ، فقد كانت بينة على تفتت واسترجاع الطبقة الحاكمة التى تتصف بالتحضر الزائد لجذورها فى المجتمع الريفى معتمدة على الاستبدادية الخيرة لصاحب « العزبة » » .

(*) Bateson, F.W.: English Poetry : A Critical Introduction, 1950.

ويقسم باتسون تاريخ الشعر الانجليزى إلى ست مدارس متتالية هى المدرسة الانجلو فرنسية ، والمدرسة التى يمثلها شوسير Chaucer ، ومدرسة عصر النهضة ، والمدرسة التى تمثل عصر أوغسطس قيصر ، والمدرسة الرومانسية ، والمدرسة الحديثة . كما يميز باتسون بين ستة نظم اجتماعية ترتبط بها هى : عصر إقطاع المحامين ، وعصر يومانرى Yeomanry الذى يتسم بالديموقراطية المحلية وعصر الاستبدادية المركزية لخدم الأمير ، وعصر أوليجارشية ملاك الأراضى وعصر البلوتوقراطية أو حكومة الطبقة الثرية من رجال الأعمال ، وعصر الدولة الإدارية ، ثم يتبع هذا بأن يبين الصلة بين مجموعات معينة من الأشعار والتنظيمات الاجتماعية التى وجدت فى العصر الذى تنتمى إليه مبينـاً كيف كانت الاتجاهات والتصورات والحالة العقلية فى كل حالة من الحالات مرتبطة باستجابة الشاعر نحو العالم الاجتماعى الذى كان جزءاً منه . ولقد كانت عناوين فصول كتابه ذات خاصية تقريرية مثل : « ديمقراطية يومان وقصة ميللر الهوسين » ، و « إبن المرابين » ، و « أسرع طريق للخروج من مانشستر — أربع قصائد غنائية رومانسية » وهكذا . ونجد فيما يلى مقتطفات موجزة هى وإن كانت لا تعطينا صورة صادقة تماماً لقوة حجة وإحكام سببية باتسون ولكن ربما كانت تلك الخلاصة ينتهى إليها فى مقالته حول Waller تساعدنا فى توضيح منهجه حيث يقول :

« إن هذا التضاد المركزى إنما يمثل التفسير النهائى لذلك النوع من الهدر الوعى الفارغ الذى يكون جانباً كبيراً من الشعر فى تلك المدرسة التى تنتمى

إلى عصر أوغسطس قيصر ، حيث نجد الطبقة الحاكمة وقد افتقدت إلى الأسس الروحية أو التقليدية للسلطة من ناحية — كما افتقدت إلى الأسس العقلانية من الأخرى — وذلك فيما غدا مجال واحد يتمثل في الانجازات الزراعية للعصر .. فقد استطاعت تلك الطبقة الحاكمة فقط أن تبرز امتيازاتها في عيون الشعب بأن تتخذ الشكل الارستقراطي فتعيش في أفخم البيوت، وتأكل أطيب طعام، وتقرأ أفضل الكتب كما تناصر أحسن الشعراء . ومن ثم فقــد كانت « طقوس الضياع الرائع » كما يصورها بالاد Pallad مفرطة في الاتساع حول من يعيشها . كما كانت قصائد بنداريك Pinadric باللغة القتامة كنص يقرأ.

ولم يستطع أحد من شعراء عصر أوغسطس قيصر أن يعالج بصورة كلية ذلك التضاد ، ولهذا فليس هناك من شعراء ذلك العصر من يلقب بالشاعر العظيم. ولكننا نجد من ناحية أخرى أن هناك بعض المجيــدين الذين نجحوا في تخفيف مدى أزمة ضحالة ذلك العصر ، فقد كانت مؤلفات والرز Wallers بعنوان : « مديح في إلهي الحامي » ، ودريدن Dryden بعنوان : « القنـــاع الدينوى » وروشستر Rochester بعنوان : « أساطير الإله الإغريقي ضد الجنس البشرى» وتصوير بوب « للورد تيمون » في « المقالة الأخلاقية الرابعة » ، ومؤلف جراى العبقرى بعنوان : « مقعد مالك الارض بالقرب من مارجيت» تقوم بطريقة أو أخرى — وعلى مستوى ما — بمعالجة الضمير الاجتماعي للعصر .

وبجانب هذا كله نجد عملا حديثاً آخر حاول تفسير أسلوب النصوص الأدبية بالرجوع الى الأوضاع الاجتماعية — كما يحاول مساعدتنا على رؤية النوعية الأدبية لتلك النصوص بصورة أكثر وضوحاً ، وذلك بأن يرينا

كيف تنعكس تلك الأوضاع الاجتماعية على رؤية الكاتب العالمي — وهذا العمل هو لجون دانبي *John F. Danby* بعنوان : « شعراء جبل المصير » ، وتبين المقتطفات التالية من الفصل الافتتاحي لهذا الكتاب وجهة نظر دانبي :

« إن صورة جبل المصير — والأدب المرتبط بالنحسين إما البيت العظيم *Great House* أو المسرح الشعبي *Public Theatre* — قد جعلت فعلا المشهد الإليزابيثي اليعقوبي أقل انسجاماً عن تلك الصورة التي تخيلناها أحياناً . وحين نتابع التصور فإننا نجد التعقيدات المتزايدة تبدو جلية ، فإن للجبل مستويات وجوانب مختلفة . ونجد أن الحركة إلى أعلا وأسفل ، والالتفات الكلي أو الجزئي حوله ، كما نجد الحركات التي تجمع بين هذين الاتجاهين هي حركات ممكنة فيه ، وبالتالي فإن هناك رؤى مختلفة متوقعة من مواضع مختلفة في هذا الجبل .

وحيث نجد أن المجتمع الإليزابيثي تتضح التفرقة بينه وبين غيره من المجتمعات إلى حد بعيد ، فإن الأدب هو بالتأكيد ما يحدث « في » الانسان ، وهنا نتساءل عما يمكن أن يحدث فيه مهما كان هذا الحدوث متكيفاً بصورة جوهرية بما وقع « له » بناء على مكانه وسلوكه فوق جبل المصير ، وأخيراً لماذا كان الأدب يعنون برجل معين — في مكانه بالنسبة إلى معاصريه فوق جبل المصير والذين ينصتون له — فإننا نجد للأدب ثلاثة أبعاد مكانية كثيراً ما نجدها في الدراسات النقدية تختزل في بعدين فقط كما هو شأن الورقة التي كتب عليها .

وربما كان من الأفضل أن نحصر بعض المظاهر الفارقة بين أعمال أدبية

معينة فى حدود التموضع الاجتماعى ، حيث نجد أن « الأركاديا » تعتبر من أدب « البيت العظيم » كما يعتبر سيدنى *Sidney* المترجم لعبقرية ذلك العمل الأدبى : « البيت العظيم » . وتنتمى مسرحيات شكسبير إلى المدينة المفتوحة أو البلد الإليزابيثية المفتوحة ، أو المسرح التجارى المكشوف . أما بومونت *Beaumont* وفلتشر *Fletcher* فهما هجين متطابع حيث يمثلان أقسام الجيل الثانى من النخبة الإليزابيثية والجيل الثانى للمشتغلين بمسرح ربما لم يعد الآن مفتوحاً على السماء .

ولعل اعترافنا بالتموضع الاجتماعى لكتاب هم موضع اهتمامنا لا يساعدنا فقط فيما نظن على الاتجاه نحو رؤية أكثر وضوحاً للكيفية التى تقف بها الأمور فيما بينهم حول تلك الأسئلة المتعلقة بتأثير ووطأة النموذج وكغيره ، ولكننا نجد أن السؤال حول « التأثيرات » حينما يكون أكاديمياً فهو يبعد فى تشتت عن النص ، أما حين ترى التأثيرات فى علاقتها بالتموضع الاجتماعى — وحيث يرى المكان الاجتماعى ليتضمن كل ما هو عبقرى وفكرى ومزاجى وروحى — فإن هذا السؤال يأخذ مغزى جديداً ، فهو يأتى ليرتبط بالكيفية الجوهرية للعمل ذاته فى كونه عملا قد كتب بواسطة « إنسان » من مكانه اجتماعى ... وهو بقول آخر يصبح ذو دلالة لمجرد تقبل لما يكون عليه العمل تحت اعتبارات معينة وليس فقط لما « نبع » عنه .

وربما يقول القارىء الصورى البحث أن فحص دانبى *Mr. Danby* ربما يرينا ماذا يكون العمل تحت اعتبارات معينة ، ولكنه لا يبين عما هو بوضعه كواحد من أعمال الفن الأدبى ، ولكنا نجد القليل من الشك حول ذلك المنهج الذى ربما إذا إستخدم فإنه يساعدنا لنرى لماذا كتب شعراء معينون أو

كتاب دراميون على النحو الذى فعلوا عليه ، وما هو النمط الأخلاقى الحقيقى لعملهم ، كما أنه أيضاً يلقى الضوء على الاختلافات بين الشعراء المعاصرين، وهو ما يجعلنا نأخذ فى الاعتبار العبارة التالية مثلا :

« إن سيدنى يتموضع فى قمة جبـــل المصير حيث لا يوجد سبنسر فى ذلك الموضع مع أن شعر سبنسر يجب أن يكسبه مكانة رفيعة ، من ثم يثبته فى مكان فى بنية العالم ، فقد كان الشعر عند سيدنى هو الاخلاص الخاص الحقيقة أما بالنسبة لسبنسر فإنه خليق بإعلان جماهيرى لفرضه وفى الاعتراف به كشاعر وكدليل عن أن الشاعر كشاعر يكون مستغرقاً فى عمل له أهمية قومية . ومن ثم فإن سبنسر يتمتع بجدية فى تطويع كل المهارات الشعرية ، كما أن شعره يتطلب المناسبة الخارجية كما يتطلب وصفات النظرية والشكل والموضوع المقـــترح ، ونجد فى تجربته البالغة التطلـع الإجادة يحمل قصة رمزية تختلط فيها الرمزية بالأخلاقية والأخلاقية بالافلاطونية لتكون جمعاً كلياً لكل منجزات عصر النهضة فى مجال التعليم والفن » .

ونجد أن مثل هذا الاتجاه حين يستخدم فى مناقشة مؤلف سيدنى بعنوان : « أركاديا » باعتباره « رومانسى البيت العظيم » ، وفى مناقشة العلاقة بين أعمال سيدنى والرومانسية الشكسبيرية المتأخرة ، والجوانب الأخرى فى شكسبير وبرمونت وفلتشر لا يستطيع فقط أن يفسر لنا الأسباب التى تقوم وراء مظاهر معينة فى أعمالهم نحن نعرفها فعلا ، ولكنه أيضاً يوجه اهتمامنا إلى النوعيات الأدبية التى تتوفر فى أعمالهم والتى لم نرها بوضوح من قبل ، ومن ثم فإن النقد السوسيولوجية يمكن أن يساعدنا فى تكريس الادراك الأدبى كما يساعدنا على تفسير الأصول .

ولقد كان الاتجاه النقدى الماركسى بوجه عام أقل حساسية إلى حد بعيد ، فقد كان منكباً إما على تفسير الأدب فى حدود وضعه فى البناء الطبقى أو بإلقاء أحكام على عمل معين أو كاتب معين بناء على ما يبديه من استعداد فى التحيز للسبب السياسى أو الاقتصادى الذى يتحيز له الناقد ، وذلك بجانب تلك الرؤى الوراثية القيمة التى قدمها النقاد الماركسيون أو أشباه الماركسيين ونجد أن مؤلف كريستوفر كودويل *Christopher Caudwell* بعنوان : « الوهم والحقيقة — دراسة فى مصادر الشعر » الذى صدر عام ١٩٣٩ من بين أفضل ما قدم النقد الماركسى ، كما كان مؤلف جرانفى هيك *Granville Hick* بعنوان : « التقاليد العظيمة » الذى صدر عام١٩٣٣ ، ومؤلفه بعنوان : « صور الانتقال » الذى صدر عام ١٩٣٩ كانت دائماً كتب مستنيرة وذلك على الرغم من اتجاهها إلى التبسيط الزائد المخيف والذى يتمثل فى التحويل البسيط للأحكام السياسية والاقتصادية إلى المجال الأدبى . وهنا نجد أن الماركسية كنظرية فى التاريخ تصبح أكثر تواؤما مع التفسير الوراثى للأصول الاجتماعية للأدب أكثر من كونها أداة تقييمية فى مجال النقد الأدبى .

استخدام المنهج :

وهكذا نجد أن القارىء قد يميل إلى النظر فيما إذا كان اتجاه دانبى — كما عرضنا له فيما سبق — يمكن أن يطبق بصورة مجدية بالنسبة إلى أى عصر أدبى آخر . وهل يمكن مثلا أن القول بأن مؤلف تنيسون *Tennyson* بعنوان : « تخليد الذكرى » يصبح عملا مستنيراً حين نأخذ فى الاعتبار مكان الشاعر فوق جبل الناصين ؟ وما هى طبيعة العلاقة التى تربط بين الروائى الذى ينتمى إلى العصر الفيكتورى بجمهوره ؟ وإلى أى مدى تكون ظروف النشر ذات

دلالة فى المناقشة النقدية للرواية ، كما هو الحـــال فى مؤلف كاتلين تيلوتسون Kathleen Tillotson — بعنوان : « الرواية فى أربعينيات القرن الثامن عشر » الذى صدر عام ١٩٥٤ ، الذى يتضمن الكثير من المادة المثيرة للاهتمام حول وضع الروائى فى علاقته بجمهوره وناشر مؤلفاته، والذى يتضمن مناقشة لبعض أعمال روائية معينة — ولعل القارىء يتساءل لمعرفة إلى أى مدى وبأية صورة تلقى المناقشة الأولى الضوء على الأخيرة ؟

الإثنوجرافيا

تعتبر الملاحظة المباشرة للسلوك العرفى فى مجتمعات معينة هى المصدر الذى تعتمد عليه الأنثروبولوجيا الثقافية فى النهاية . ويعتبر القيام بصياغة هذه المادة فى تقارير — كما يعتبر تقييم تلك الملاحظات — هو الغرض الذى تسعى إلى تحقيقه الإثنوجرافيا . ومع أن النجاح فى تحقيق هذا الغرض يرتبط فى الصميم بصدق التأويلات الأنثروبولوجية الثقافيـــة والاجتماعية ، فإن الإثنوجرافيا ذاتها لم تلق سوى القليل من الاهتمام الجاد . ولكن يمكن القول — بطريقة أو أخرى — أنه مع ما أصبحت عليه العلوم الاجتماعية من اتجاه إلى مزيد من النقد لمصادر مادتها — ومزيد من الاهتمام بالطريقة التى تسجل وتحقق وتحلل بها تلك المادة — فقد بدأ الاهتمام بالمنهج الإثنوجرافى والنظرية الإثنوجرافية ، كما كان هناك اهتمام أيضاً بالجوانب التى تتميز بكثير من الخصائص الفنية والشخصية فى البحث الإثنوجرافى .

وقد كان هناك تنوع واختلاف فى الآراء حول كثير من التفصيلات — إلى حد يستحق أن يؤخذ فى الاعتبار — فى تحديد مجال الإثنوجرافيا والتعرف بها . ولكن الاستخدام المعاصر لهـــذا العلم لا يسمح سوى بقليل من التمييزات أو الاختلافات والتداخلات الاصطلاحية العامة ، فالباحث الإثنوجرافى هو باحث أنثروبولوجى يحاول — على الأقل فى جانب من عمله التخصصى — أن يسجل ويصف مظاهر السلوك ذات الدلالة الثقافية فى مجتمع معين . ومن الناحية المثالية فإن هـــذا الوصف الإثنوجرافى يتطلب قضاء فترة طويلة فى الدراسة العميقة ، كما يتطلب الإقامة فى جماعة صغيرة محددة تماماً ، ويتطلب المعرفة باللغة

التى تتكلمها تلك الجماعة والاستخدام الواسع المدى للطرق الفنية فى الملاحظة ، بما تتضمنه من اتصالات ممتدة مباشرة بأعضاء الجماعة المحلية ، والمشاركة المباشرة فى بعض نشاطاتها ، كما يتطلب الوصف الإثنوجرافى إعتماداً على العمل المركز مع الآتين بالاخبار — العارفين بأحـوال المجتمع والذين يعتبرون مصادر شخصية للمعلومات — أكثر من الاعتماد على المادة المستمدة من الوثائق أو الاعتماد على طريقة المسح .

ولقد استخدم مصطلح الإثنوجرافيا بغير تحديد للإشارة إلى ذلك المبحث الذى يعنى بالأوصاف الثقافية . وحين أخـذ هذا المصطلح « الإثنوجرافيا » إطاراً مرجعياً ذى طبيعة إقليمية — حيث عرفنا مثلا « الإثنوجرافيا البولينيزية » فقد أصبح يدل على الطريقة التى تفهم وتستخدم بها الإثنوجرافيا فى إقليم معين ، كما يبين المعالجة الجمعية — أو المقارنة — للإثنوجرافيات التى كتبت حول الشعوب التى تعيش فى ذلك الاقليم . وهذا الشكل الاخـير لاستخدام الإثنوجرافيا هو ما يرجع إليه بشىء من التواتر فى التعريف بالإثنولوجيا المقارنة أو ببساطة « الإثنولوجيا » .

تاريخ الإثنوجرافيا :

مع أن جـذور الوصف الإثنوجرافى مفقـودة لقدمها ، ومع أن معظم الملاحظات والتأويلات — أو إساءة التأويلات — للمجتمعات الانسانية قد استمرت تتناقل بطريقة شفوية ، فقد أتيحت فرصة الاحتفاظ بمدونات لبعض الأوصاف المبكرة . ولقد ازداد استمرار تسجيل تلك الملاحظات فى وثائق بصورة ملحوظة مع الرحلات الأوربيه للاستكشاف والاستقصاء . وعلى الرغم من الاختلافات التنظيمية والنمطية فبالإمكان أن تبين لنا تلك الكتابات عن

تحول من الرصد الفضولى للممارسات الأجنبية الغريبة أو الشاذة ، إلى المحاولات الحالية للوصول إلى الأوصاف الثقافية الصادقة .

وحين نقارن الخطوات الناجحة فى هذا التحول ، فإنه يجب على المرء أن يلاحظ تلك التغيرات التى طرأت ليس فقط على محتوى الإثنوجرافيا والغرض الذى تسعى إليه ، ولكن عليه أن يلاحظ كذلك التغيرات التى طرأت أيضاً على طريقة إعداد الباحثين الإثنوجرافيين ، والخلفية التى يستندون إليهـــا فى دراساتهم ، والظروف التى تجرى فيها الدراسة الإثنوجرافية الحقلية . وحيث تصعب المعـــالجة التفصيليـة لكثير من الاختـلافات الفردية والنظمية بين الأنثروبولوجيين الأمريكيين والبريطـانيين والأوربيين — فيما يتعلق بهـذا التحول — فيمكن للقارىء الرجوع مثلا إلى مقال إيجان : « المادة الإثنوجرافية فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية فى الولايات المتحدة » ، وإلى كتاب فيرث بعنوان : « الانسان والثقافة » ، وإلى مقال جلكمان وموضوعه : « المادة الإثنوجرافية فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية » ، وإلى كتاب جريول بعنوان : « منهج الإثنوجرافيا » ، وكتاب كروبر فى « التأويل الإثنوجرافى » وبخاصة الفصل الأول فيه وعنوانه : « ماهية الإثنوجرافيا » ، كما يمكن الرجوع إلى مقال لوى حول « الإثنوجرافيا والأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية » ، ومقـــال ريتشاردز حول « التقدم فى مناهج الدراسـة الحقليـة فى الأنثروبولوجيـا الاجتماعية » .

البدايات الإثنوجرافية المبكرة :

ابتداء من القرن الخامس عشر ولمدة مئات من السنين تاليـــة — كانت أوصاف الممارسات الثقافية تكتب إلى حد بعيد خـلال رحـلات الاستكشاف

والنشاطات التبشيرية ، وإنشاء الحكومات والمراكز الاستعمارية ، ويرجع فى هذا إلى كتاب هاول بعنوان : « تعليمات فى الأسفار الخارجية » ، وكتاب روى حول : « الإثنوجرافيا والإثنولوجيا فى القرن السادس عشر » . وعلى الرغم من بعض الاستثناءات مثل « ملاحظات بيجافيتا *Pigaffetta* حول نوع معين السعادين والمتضمنة يومياته فى رحلة ماجلان » ، والكتابات المكسيكية الشاملة التى سجلها ساهاجن *Sahagun* فى كتابه بعنوان : « تاريخ عام لشئون أسبانيا الجديدة » — على الرغم من هـذا كله فإن الصورة الغالبة فى التسجيلات الاكليركية والحكومية لم تكن ذات تأثير إثنوجرافى .

ومع توسع الكشوف الجغرافية فى القرن التاسع عشر بدأت كتابات علماء التاريخ الطبيعى والرحالة وجامعى المتحفيات تثرى وثائق البعثات التبشيرية والوثائق الرسمية . وبقول آخر فقد أصبحت الإثنوجرافيا أكثر تنظيماً — بطريقة أو أخرى — وكتبت عدة استبيانات وقوائم أسئلة وتعليمات وأدلة إقليمية . ويمكن للقارىء الرجوع فى هذه النقطة إلى كتاب هاول فى « تاريخ حملة بقيادة الكابتن لويس والكابتن كلارك إلى منابع نهـر الميسورى » ، والكتاب الذى صدر عن الرابطة البريطانية للتقدم العلمى وموضوعه : « دليل مختصر فى البحث الإثنولوجى » ، والذى يضم سلاسل من الأسئلة تختص بالجنس البشرى يستخدمها الرحالة وغيرهم فى دراسة مظاهر التنوع فى النوع الانسانى ، وكتاب نيومان وعنوانه : « مقدمة للملاحظات العلمية فى الرحلات » .

وقد كانت الجمعيات الأنثروبولوجية المتخصصة فى أوربا والولايات المتحدة تدعم من قبل الرحالة ورجال الحكومة وغيرهم من المهتمين ، كما تلقت فى وقت متأخر تشجيعاً من المتاحف . وقد دفع هذا التنظيم إلى ظهور سلاسل من

الكتب التى كرست بشكل واسع للأوصاف الثقافية، ويذكر هنا على سبيل المثال منشورات مكتب الإثنولوجيا الأمريكية *Bureau of American Ethnology* والجمعية الإثنولوجية الأمريكية *American Ethnological Society* ، كما كان هناك الكثير من المنشورات التى صدرت عن متاحف التاريخ الطبيعى . وقد كانت هناك بعض المؤلفات التى تعتبر علامات هامة مثل كتابات مورجان *Morgan* بعنوان « ثقافة سنيكا » *Seneca Culture* والتى اعتمدت على دراسات حقلية مثل دراسة ريفرز *Rivers* حول التودا *Toda* التى ظهرت فى عام ١٩٠٩ ، كما كان هناك القليل من الأعمال التجديدية النشطة مثل دراسة باترون *Batron* « للقانون فى إيفاجوا » *Ifagao Law* — التى ظهرت فى عام ١٩١٩ ، والتى تمت من خلالها البرهنة على قيمة الاتجاه نحو الاعتماد على منهج دراسة الحالة .

وفى نهاية الحرب العالمية الثانية تراكم الكثير من المادة الاثنوجرافية المتجمعة من مناطق عديدة ، ولكننا نجد أنه على الرغم من أن بعض الباحثين من أمثال بواس *Boas* قد بدأ العمل بعمق مع الآخرين والاخبار حول مشكلات لغوية وثقافية معينة ، فقد كانت أغلب كتابات تلك الفترة تصدر عن غير المشتغلين أصلا بالانثروبولوجيا . ومثال ذلك فقد كان مورجان يشتغل بالمحاماة ، وكان باترون *Batron* معلماً وطبيب أسنان . وقد اجتذبت هؤلاء الكتاب الموضوعات الانثروبولوجية لأسباب متنوعة ، وتكونت لديهم خلال الزيارات القصيرة أو الدراسات المسحية التى شاركوا فيها — أو من خلال ارتباطات عارضة — خبرة حقلية كانت كافية لكى يقوموا بكتابة تفصيلات مثيرة للاهتمام حول ملاحظاتهم الحقلية . وفى الاتجاه إلى نهاية تلك الفترة قدمت المتاحف

معظم ما تلقــاه البحث الحقلى من دعم مالى . ويمكن القول بوجـه عام بأن البحث الإثنوجرافى كان يسيطر عليـه التمركز حول اهتمامات موضوعيـة معينة .. كما كانت هناك نقاط مقننة تدور حولها الملاحظات التى يتم تسجيلهـا وكان هناك اعتماد مكثف على المترجمين .

الإثنوجرافيا قبيل الحرب العالمية الثانية :

ابتداء من عام ١٩٢٥ أصبحت الدراســات الإثنوجرافية تكون نشاطاً تخصصياً مستقراً ، وقد كان هناك تحول واضح عن مجرد تقبل البحث الحقلى — إلى مزيد من الانتباه التخصصى النقدى فى القيام بتلك الدراسات الإثنوجرافية كما كان هناك تحول من الاهتمام المسيطر بجمع المـادة وتراكمهـا — إلى التحليل الأكثر عمقاً لأنماط ثقافية معينة . وقد ترتب الكثير من تلك التحولات بشكل مباشــر بتأثير كتابات مالينوفسكى — وبوجه خاص كتابه عن « مجتمع الأرجنوتس فى جنوبى المحيط الهادى » الذى صدر عام ١٩٢٢ ، وكتابه عن « السحر فى جزر حدائق المرجان » الذى صــدر عام ١٩٣٥ . وقد استندت كتاباته إلى ملاحظاته التفصيلية المطولة فى جزر التروبرياند التى اعتمد فيهـــا على استخدام اللغة المحلية ، والإقامة لمدة طويلة فى الجماعة التى يقوم بدراستها وتتبع الظواهر الثقافية ذات الاتصال الوظيفى التى تكون وحدة كليـــة ذات محتوى يمكن تحديده ، وكان لهذا كله أثره فى قيــام حركة لإعادة التفكير فى كثير من جوانب البحث الإثنوجرافى . كما أدى الاهتمام المتزايد بالمضـــامين الثقافية إلى الاهتمام بدور الباحث الإثنوجرافى فى موقف البحث الحقلى ، وإلى مزيد من التقدير الواعى للطريقة التى يتم بواسطتها تسجيل المادة الحقلية .

كذلك فقد كان لمظاهر التقدم فى علم اللغات — وعلم الاجتماع وعلم النفس

— أثره فى أن يبدأ الباحثون الإثنوجرافيون بإبداء مزيد من الاهتمام بالنظرية العامة وبالمناهج الوصفية .. بغية الإفادة من اتساع مدى طرق البحث — مثلا فيما يتعلق بتسجيل تاريخ الحياة ، وتطبيق الاختبارات الاسقاطية ، والاعتماد المتزايد والمكثف على التسجيل الفوتغرافى — كما كانت البحوث الحقلية مقودة بشكل متزايد نحو الاهتمام بالمشكلات العامة للتنوع الثقافى وطبيعة العموميات الثقافية .

وقد أثمرت المحاولات التى قامت منذ عام ١٩٣٠ لتقديم المعلومات الإثنوجرافية التى تتخذ ركيزة يستند إليها فى تحليل السمات واختبار الفروض أثمرت صوراً متنوعة من التقنية التى يضمها مثلا الكتاب الذى صدر عن جامعة ييل عام ١٩٣٨ بعنوان « الخطوط العامة للمواد الثقافية » ***Outline of Cultural Materials*** ، والتى ساعدت على تنظيم تسجيل وتصنيف الملاحظات الحقلية فى فئات متمايزه ومتقابلة . وقد ساعد هذا النمو الذى تحقق فى طرق البحث الإثنوجرافى على القيام بدراسات كمية ومقارنة ، كما ساعد على التوسع بطريقةذات دلالة فى الاكتشافات القائمة حول المكونات الثقافية .

وغالباً ما كانت تلك التفصيلات فى وصف مكونات الثقافة تفتقر بطريقة أو أخرى إلى تحديد لمضامينها أومحتوياتها ، ومن ثم فقد وجهت تلك المجهودات اهتماماً نحو الضعف الموروث فى الاعتماد على المعلومات الجاهزة أو المعدة سلفاً فى القيام بالدراسات الحقلية والوظيفية . وقد ساعد النقد والتجريب لكثير من مناهج البحث وطرقه على مواجهة التطلعات الجديدة لتحقيق مستويات أعلى فى البحث ، كما أتضحت خلال تلك الفترة أهمية المنح التى تقدمها المتاحف

ومساهمات الإثنوجرافيين الهواة .. حيث كان الباحثون الاثنوجرافيون الحقليون يدربون كمتخصصين فى الانثروبولوجيا فى أقسام الدراسات العليا بالجامعات . كما كانوا يعتمدون على الدعم الذى تقدمه الصناديق الخاصة والمنح الحكومية .

الإثنوجرافيا بعد عام ١٩٥٠ :

بدأت الإثنوجرافيا بعد الحرب العالمية مباشرة تجتذب مزيداً من الاهتمام النظرى والمنهجى ، ويذكر هنا على وجه الخصوص الاهتمام المتجدد والمتسع بمشكلة التصنيف التى احتلت أهمية نقدية ، كما كان هناك تركيز متزايد على أنساق الاتصال والنماذج البنائية — مثل كتاب ليفى ستروس بعنوان : « الأنثروبولوجيا البنائية » الذى صدر عام ١٩٥٨ — وذلك من خلال التوسع فى تطبيق المبادىء التى حققها علم اللغات البنائى فى الوصف الإثنوجرافى . وهو ينعكس مثلا فى كتاب جود نف وموضوعه : « الأنثروبولوجيا الثقافية وعلم اللغات » الذى صدر عام ١٩٥٧ . كما كان هناك اهتمام بالدراسات التفصيلية للأنساق الثقافية الفرعية — ونجده ممثلا فى كتاب كونكلين بعنوان : « الزراعة فى مجتمع هانو — تقرير حول النسق المتكامل للزراعة المتنقلة فى الفلبين » — وقد صدر هذا الكتاب عام ١٩٥٧ . كما نجد هناك كتاباً آخر لفريك بعنوان : « وصف بنائى للسلوك الدينى فى مجتمع سابانان » — الذى صدر عام ١٩٦٤ ، كتاب بوسبيسيل عن « القانون فى مجتمع كاپوكا باپوان » — الذى صدر عام ١٩٥٨ . كذلك فقد كان هناك اهتمام بالتضاد والتباين القائم بين الجوانب الكمية والجوانب الكيفية فى الملاحظات الحقلية يمثله كتاب ليتش بعنوان : « بول إيليا — قرية فى سيلان — دراسة لنظم حيازة الأرض والقرابة »

وقد صدر عام ١٩٥١ . كما كان هناك اهتمام مركز بتنمية وسائل أكثر فاعلية فى حصر المتغيرات الثقافية والشخصية فى المواقف الحقلية الواقعية . ويمكن القول بأنه فى بداية هذا الطور من أطوار نمو الإثنوجرافيا كان هناك تزايد ملحوظ فى عدد الباحثين الإثنوجرافيين المتخصصين ، وفى مصادر الدعم وفرص الدراسات الحقلية .

النظرية والمنهج :

لقد بذل الباحثون الإثنوجرافيون مجهودات متصلة للذهاب إلى أبعد من الخاصية الروائية المشتتة وغير النقدية لما يسمى بالتفاصيل الثقافية . وتركزت تلك الجهود حول تحديد مكونات الوصف الثقافى من أجل الوصول إلى نظرية تسمح بتقييم عمليات الوصف المتتالية ، كما تسمح بصياغة مناهج ربما كانت أكثر فاعلية فى الوصول إلى قضايا عامة ، تعميمات ، مستمدة من تلك الملاحظات التى تم تسجيلها . وكمثال لما تمخضت عنه تلك المجهودات نجد ذلك الاقتراح بأن ينظر إلى الإثنوجرافيا بشكل مثالى على أنها تكون أجرومية ثقافية ، ونظرية تجريدية تمدنا بالقواعد التى تسمح لنا بتكوين وتوقع وتأويل السلوك الثقافى فى أوضاع معينة . وتنطوى وجهة النظر منه على أن النظرية الاثنوجرافية معنية بأن تكون معياراً تقييمياً يتصف بالإكتمال من حيث العمق والاتساع والإيجاز والدقة ، وقد تضمنت الاتجاهات الحديثة فى سبيل القيام بتحليلات حقلية يمكن الاعتماد عليها لما تتمتع به من صدق ووضوح ما يلى :

١ — المعالجة الصورية للأنســـاق الثقافية الفرعية التى تنظم الظواهر الثقافية ذات الدلالة ، أو التى تصف تلك الظواهر فى صيغ معقولة ، وفى حدود عدد قليل من الأبعاد المتضادة ، وبحيث تكون تلك التصنيفات أو التعريفات

التركيبية حين تتخذ صيغة المعادلة — وحين تجيد ترتيب حدودها طبقاً لقواعد محددة — خاضعة للتطبيق الواسع وبخاصة فى التحليل القرابى . وتبدو تلك المعالجة واضحة فى مقال لوند سيورى بعنوان : « بيـــان صورى بنمط مصطلحات القرابة فى مجتمع كرو وأوماها » .

٢ — التحليل الثقافى للتصنيفات الشعبية، وبخاصة فيما يتعلق بالظواهر الطبيعية . ولقد ساعدت دراسة العلم الشعبي على تحقيق شيىء من التقدم فى تحليل التصنيفات الشعبية للحيوانات والنباتات ، وهـــذا فضلا عن أنماط أخرى من تحليـل للتضاد والانفصال الجزئى ، وتحليل الارتباطات المتسقة فيما عرف أحياناً بعلم الأجناس .

٣ — كذلك فقـد خضعت المشكلات المتعلقة بالعمليات المنهجية المتتابعـة ، وبالتعدد القائم فى محتويات الفئات المستخدمة فى عمليـات ترميز البيانات أيضاً للاختبار . كما حملت المبادىء التى تقود الكثير من المجهودات الحديثة آثاراً من علم اللغات والمنطق والرياضيات وعلم الاحياء — لما تنطوى عليه من ترتيب واتساق . وكانت النتائج المبكرة لتطبيق هذا كلـه فى الإثنوجرافيا ذات أثر فى تحقيق شيىء من التقدم فى مجالات أخـــرى كعلم الاجتماع وعلم الآثار . وقد أصبح من المتفق عليه أنه حين تختلف وجهات النظر إلى حد بعيد حـول طبيعة البينة الصادقة — فإن النظرية والمنهج وطرق البحث يجب أن تخضع للاختبار دائماً خلال التطبيق الحقلى .

طرق البحث :

ولقد تعددت أدوات جمـع المادة الحقلية وتخزينها واسترجاعهـا وإعادة ترتيبها والتعبير عنها واستخدامها — بينما لا يزال الباحث فى حقل الدراسة —

مع مظاهر التقدم التكنولوجى ولقد كان التسجيل الصوتى والسينمائى والتصوير المساحى والخرائط الجوية — واستخدام الحاسبات الالكترونية فى تحليل محتويات النصوص والتحليل الديموجرافى — يمثل القليل فقط من مظاهر التقدم التكنولوجى المطرد فى معالجة المادة الإثنوجرافية . وكان اختيار أكثر تلك الطرق والاختراعات الكثيرة المتنوعة ملاءمة لحفظ التسجيلات الإثنوجرافية يعتبر أمراً معقداً . كما كان على الباحث الإثنوجرافى ألا يحاول الاعتماد على المنشور من المعلومات العامة التى تتخذ صورة الخطوط العريضة أو الاستبيانات ، وأن يتحاشى إجراء المقابلات مع الآتين بالاخبار فى ظروف مصطنعة كما كان عليه أن يتجنب الصياغات الكمية غير الناضجة والمقاييس التفريقية الواسعة . وكان من المرغوب فيه أن يتصف الباحث الإثنوجرافى بالمبادأة — أو المرونة على الأقل — فضلا عن حب الاستطلاع والصبر والخبرة بكثير من الطرق والتصرفات والاجراءات البديلة .

وكان على الباحث الإثنوجرافى الحقلى أن يكون خلال محاوراته اليومية مع من يأتونه بأخبار المجتمع على درجة عالية من الانتباه لتطبيق الطرق اللفظية واستخدامها ، وبخاصة فقد تحققت فائدتها وأن لم يكن نجاحها دائماً بنفس الدرجة . وتتمثل تلك الطرق فى تسجيل واستخدام الاسئلة والتعليقات التى تشجع على الادلاء بالمعلومات كما تساعد على انتقالها وصياغتها باللغة المحلية ، كما تتمثل فى ملاحظة وتسجيل واستخدام توابع الاستجابة للسؤال ومتضمناتها — والاعتماد على الفحص من خلال الإبدال العمدى للمراجع المقبولة أو المغايرة ، والرجوع إلى المواقف الافتراضية ومظاهر الاتصال أو الامتداد للمرجع ، وتحويل النماذج وأدوات الاتصال والعلاقات الرمزية ، وتحليل محتوى الرسالة

والادوار عن طريق مرجع معـــين أو عن طريق التمثيل . وبالمثل فإنه من خلال ملاحظة المترتبات غير اللفظية — يساعد التجريب المبدئى — كما تساعد المرونة — فى تحديد بؤرات وأطر الرؤى أو المشاهد والأحـــداث المترتبة والأدوار الرئيسية .

ولقد أمدت وسائل التصوير التشكيلية والتخطيطية الإثنوجرافيا بأبعاد إضافية لاستكشاف أو استقصاء المواقف الفعلية الافتراضيـــة التى لم يكن فى الامكان اختبارها بغير تلك الطرق ، وفضلا عن هذا فإن استخدام تلك الطارق قد أتاح فرصة معالجة موضوع النماذج السلالية بطريقة تيسير عمليـة ملاحظتها بعد أن كانت تلك النماذج مجهولة أو تعالج بطريقة روائية .

وحينما استقر توصيف الأنساق المحلية كانت هناك عمليات إجرائية أخرى . . وتعطى بعض الأسس التى تقوم عليها صياغة تلك الملاحظات فى صورة كميـة بواسطة أنواع مختلفة من المقاييس القائمـة بذاتها المباشرة أو غير المباشرة . وإذا كان ما توفر من طرق تكنولوجية يمكن أن يحقق مزيداً من المهارة والاتقان فى جمع المادة الإثنوجرافية ، فلعل فى الامكان توجيه مزيد من الاهتمام للتفاعل بين الباحث الاثنوجرافى والآتين بالأخبار . . وذلك ليس فقط فى حـدود الروتينيات الظاهرة ، ولكن بالرجوع أيضاً إلى التغيرات النقدية والاجتماعية فى البيئة الاجتماعية المحدودة .

الباحثون الإثنوجرافيون :

وحيث كان الباحثون الإثنوجرافيون يتفاعلون فى علاقات شخصية واجتماعية مع الآتين بالأخبار ، فإنهم يجدون أنفسم — وقد لفتوا إليهم الانظار بكونهم يمثلون نمطاً فريداً فى التاريخ الطبيعى الذى يكون الملاحظ فيه — جزءاً من

المجال الذى يقوم بملاحظته، كايشارك مشاركة فعلية فيه . ويعتمد مدى انخراط الباحث الحقلى وأهميته فى التسجيل الإثنوجرافى على عديد من الاعتبـارات الموقفية التى تتضمن شخصيات الباحث الاثنوجرافى وخبرته . ونجد فى بعض أنماط البحث الحقلى أن نجاح الباحث أو فشله الحقيقى يعتمد إلى حد بعيد على تلك الانطباعات التى يتركها فى المجتمع المحلى ، وبقدر ما يعتمد على الاحداث الثقافية التى تتوفر له فرص ملاحظتها .

وينعكس الاعتبار غير الرسمى لتلك المتغيرات بصورة مطردة فى الكتابات غير الفنية، كما ينعكس فى الخطابات الهزلية التى تدور حول الباحث بين زملائه. ويجد القارىء مزيداً من الإلمام المسبق بهذه العوامل الشخصية — والآثار المترتبة عليها — فى كتاب برمان بعنوان: « خلف أقنعة كثيرة — الإثنوجرافيا والتحكم فى الانطباعات فى إحدى قرى الهملايا » ، وأيضـاً كتاب كازاجراند بعنوان : « فى صحبة الانسان — عشرون شخصية لباحثين أنثروبولوجيين». أما حين نعنى بوجه خاص إلى حد بعيد بالعلاقات الشخصية الحميمة ، فإن أغلب الأنثروبولوجيين سوف يتفقون مع كوندميانز فى التـأكيد على ضـرورة أن تكون هنـاك إثنوجرافيـا للإثنوجرافيين ، وان كانت منـاهج تقييم مثل تلك المعلومات الجوانية لم تتقـدم بعـد ، فإن مزيداً من التسجيل الواعى والحسـاس لمثل تلك الأنواع من المعاملات التى يتم الانخراط فيها خـلال البحث الإثنواجرافى — ولمجموع أطيـاف الانخراط الاجتماعى التى تؤثر فى تلك المعلومات — ربمـا يقودنا إلى ما نرغب فيه من وعى بجميع الظروف المؤثرة فى البحث الإثنوجرافى ، وما يتأدى عن ذلك من توافق مناسب مع تلك الظروف خلال هذا البحث المستمر . ويجد القارىء صورة درامية لامكانيات الحميمية بين

تلك الحساسية والسيطرة الفنية فى التحليل الإثنوجرافى فى تلك الإضافات الحديثة لبول فريدريك ، والتى نجد عرضاً لها فى مقال تاجارى بعنوان : « تحت شجرة المانجو » ومقال لورا بوهانان وعنوانه : « شكسبير فى الغابة » .

الترجمة :

تكمن مشكلات الإثنوجرافيا إلى أبعد حد فى الترجمة حيث لابد أخيراً من ترجمة كل تلك الملاحظات فى الرموز الوصفية للباحث الإثنوجرافى ، ومن ثم فإن هناك اتساقاً خاصاً بين النظرية اللغوية ونظرية الترجمة على الخصوص من ناحية ، والإثنوجرافيا من ناحية أخرى . وبقول آخر فمع أن الإثنوجرافيا وعلم اللغات لايتطابقان ، فإن بينهما إلى حد ما بعض الاعتماد المشترك . وفضلا عن هذا كله فإنه على الرغم من حقيقة كون جانب كبير من البحث الإثنوجرافى قد عنى بمظاهر السلوك غير اللفظى ، فإن ملاحظة حتى أكثر العمليات الثقافية إبهاماً غالباً ما يتم التعرف على هويتها — أو حتى التعبير عنها — فى صيغة كمية . . عن طريق الاحكام التى يعبر عنها الآتون بالاخبار للباحث الإثنوجرافى . ومن ثم فقد كان اهتمام علم اللغات — والأنثروبولوجيا بوجه عام — بالنظرية الرمزية شديد الإيجابية فى مناقشات مشكلات الإثنوجرافيا . ونجد أمثلة توضح هذه القضية فى كتابات كوابى حول « اتجاه إثنوجرافى فى علم تطور معانى الكلمات » ، وكونكلين بعنوان : « معالجة قاموسية للتصنيفات الشعبية للحيوان » ، ورومنى وزملائه بعنوان : « دراسات تعتمد على الاتصال الثقافى فى الادراك » ، ولامب بعنوان : « فصل تكميلى فى نظرية اللغة » ، ومالينوفسكى فى كتابه عن « السحر فى جزر حدائق المرجان » . ونجد بوجه خاص أن الكثير من الاهتمام قد وجه إلى تشتت العلاقات الرمزية

وتعددية المضامين ، وما يرتبط بها من أنساق الاتصال وأهمية تحليل التضاد فى الأنساق الاصطلاحية الكاملة .

وأخيراً فإننا نجد منذ عام ١٩٥٠ أن عمليات إعادة التقييم النقدى للنظرية واستخداماتها قد قادت إلى تقدير أعظم للشكلات الفنية والانسانية التى تقوم وراء البحث الإثنوجرافى ، كما أدت تلك المناقشات — التى انتهت إلى ما يصل إلى حد الثورة العقلية — إلى تكثيف الجهود بغية اختزال ذلك التعقد الثقافى الواضح ، وإلى بيان أن لا حتمية فى توضيح تلك الروايات الجلية الفعالة والمتسقة .

الأنثروبولوجيا التطبيقية

تختص الدراسات التي أطلق عليها اسم العلوم التطبيقية بتطبيقات تقوم على أساس من التسليم بالمبادىء ، وأحسن الأمثلة المعروفة لهذه الدراسات هي : الهندسة التي تطبق مبادىء الفيزياء ، والطب الذي يطبق مبادىء الفسيولوجيا . حيث يتعلم طالب الهندسة أن يقوم بتطبيق تلك المبادىء لكي ينشىء أعمالا تنهض في مواجهة الضغوط التي قد تعرض لها ، وحيث يتعلم طالب الطب أن يقوم بتطبيق تلك المبادىء العلمية ليعمل على علاج أمراض تعرض الجسم البشري . وهنا نجد أن كلا من المهندس والطبيب معنى بتحقيق ظروف موضوعية محددة ومتفق عليها ، كما تعين لكل منهما تلك الظروف الموضوعية التي يعمل على تحقيقها فالمهندس يوظف لبناء سد أو قنطرة قد انتهى شخص آخر إلى قرار بالحاجة إلى إقامتها في مكان معين . وهو لا ينبغي له أن يتساءل عما إذا كانت إقامة بحيرة صناعية — أو إقامة اتصال بين ضفتي نهر — يعتبر أمراً مرغوباً فيه لقيمة معنية أو أخرى . وكذلك الطبيب يستشيره مريض يحسب أن به علة معنية ، ولا يجادل هذا الطبيب — كما أنه لا ينبغي له أن يجادل في الحقيقة — فيما إذا كان من الصواب أو الخطأ أن يعالج هذا المريض ليشفيه من علته ، ولكن عليه فقط أن يتبصر أفضل الطرق لتحقيق تلك الغاية .

وحيث تعنى الأنثروبولوجيا الاجتماعية بكل العلاقات الاجتماعية ، فإن المماثلة بينها وبين الهندسة سوف تؤدى بنا إلى توقع أنها يجب عليها أن تصف لنا طرق إنشاء المجتمعات المرغوب فيها بصورة أو أخرى . كما أن المماثلة بينها وبين الطب سوف تؤدى بنا الى توقع أنها يجب عليها أن تزودنا بوصفات لعلاج الحالات الباثولوجية « المرضية » التي تعرض المجتمع ، وان لم يكن

هناك مثل ذلك الاتفاق فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية الذى يماثل الاتفـــاق القائم فى الهندسة والطب حول ما يجب إعتباره حالة مرغوباً فيهـــا أو حالة باثولوجية .

تعريفات لمجال الأنثروبولوجيا التطبيقية :

لجأ بعض الأنثروبولوجيين إلى صياغة أكثر من ثبت بالظروف الصحيـة فى المجتمع المحلى . ولقد كان من المقترح أن مصطلحاً مثل المجتمع الصحى ، بوجه خاص سوف يصاغ فى حدود التوازن الأمثـــل بين عوامل المتشابكة . ونجد فى هذا السياق أن كل الكائنات البشرية المنتشرة ينظـر إلى كل منها باعتباره مرتبطاً بالآخر ، كما يرتبط بمجتمع محلى منظم ، ولعله من الممكن فى حدود هذا السياق أيضاً النظر إلى ذلك المجتمع المحلى كوحـدة كلية تستجيب لوضع يبقى متغير فعال ، ولكن تلك الصياغة تنطوى على توجيـه أسئلة وليس على تقديم إجابات لها .

ونجد أن هناك وجهات نظر مختلفة تجد كثيراً مما يدعمها تعتبر أية دراسـة للتغيير فى النظم الاجتماعية دراسة فى الأنثروبولوجيا التطبيقية . وفى هـــذا يقول إليوت د شابل *Eliot D. Chapple* : أن الأنثروبولوجيـا التطبيقيـة تعتبر جانباً من الأنثروبولوجيا يعنى بوصف التغيـيرات التى تعرض للعلاقات البشرية وبحول المبـادىء التى تحكمهـا ، كما تعنى بفحص تلك العـوامل التى تحدد إمكانية التغيير فى التنظيم البشرى .

ولقد تحدد مجال الأنثروبولوجيا التطبيقية من خلال الممارسة العملية ليصبح فى حدود ما يفيده من خلالها الناس الذين يتخذون قرارات تتعلق بالمجتمـــع المحلى ، حين يعرفون شيئاً عن السكان الذين يتولون مسئوليتهم ، ويتخذا المعنى

فقد كانت هناك مطابقة بين الانثروبولوجيا التطبيقية وبين أى نوع من البحث أو النقدى لأعراف الشعوب غير الأوربية التى تخضع للحكم الأوربى .

ولقد جاءت المحاولة الأولى للأنثروبولوجيين البريطانيين لكى يحولوا فيها معرفتهم إلى ممارسة، لتطبيق على مصاحبة للحرب فى جنوب إفريقيا خلال الفترة من عام ١٨٩٩ إلى عام ١٩٠٢ ، حيث بعث المعهد الأنثروبولوجى الملكى إلى سكرتارية الحكومة لشئون المستعمرات باقتراح لخطة عمل لتسجيل قوانين ونظم قبائل جنوب إفريقيا المختلفة ... وذلك حتى يتوفر الأساس الذى تقوم عليه سياسة مستنيرة فى الإدارة . وقد كان هناك اعتقاد بأن ذلك سيقلل من التفكك الذى نتج بشكل عام من احتكاك النظم البدائية بحضارات أكثر تقدماً . ولقد أجاب جوزيف تشمبرلين *Mr. Joseph Chamberlin* بأن المتخصصين فى مستعمرات جنوب إفريقيا الجديدة مشغولون إلى حد بعيد « بعديد من الأسئلة ذات الأهمية العلمية الملحة » .

الأنثروبولوجيا فى إدارة المستعمرات :

كانت النظرة التى سادت خلال الفترة بين الحربين العالميتين ترى أن المجال المناسب للأنثروبولوجيين لكى يطبقوا فيه معرفتهم يتمثل فى إدارة شعوب المستعمرات . وعلى الرغم من أن حكومات المستعمرات المختلفة كانت لها وجهات نظر متباينة حول مدى السرعة التى يسهم بها معدل اتجاه تلك الشعوب نحو التحول إلى الصورة الغربية — وحول درجة التحول المرغوب فيه إلى تلك الصورة — فقد وجدت جميعها أنه من الضرورى النظر بشىء من الإعتبار إلى الأعراف التقليدية التى تقوى المراكز الاجتماعية والعلاقات الشخصية المتشابكة فى تلك المجتمعات التى تخضع لإدارتهم .

ونجد بعد عام ١٩٢٦ أن برنامجاً لتدريب ضباط الإدارة العاملين بالمستعمرات البريطانية فى إفريقيا الوسطى قد تضمن دراسة فى الأنثروبولوجيا. كما خصصت نيجيريا وساحل الذهب بعض وظائف ضباط الإدارة فيها لأنثروبولوجيين حكوميين. وبالمثل فقد أنشئت بعض وظائف مماثلة فى إقليم بابوا *Papua* الأسترالى فى جنوب شرقى غينيا الجديدة وفى السودان المصرى الانجليزى. كما كانت فى تنجانيقا تجربة عمدية فى الأنثروبولوجيا التطبيقية قام فيها باحث أنثروبولوجى ببعض البحوث الموجهة للاجابة على أسئلة محددة قام بصياغتها ضابط إدارى، وقد نشرت نتائجها فى كتاب يحمل عنوان الأنثروبولوجيا فى المعركة.

أما فيما يتعلق باهتمامات الباحثين الأنثروبولوجيين الحكوميين فنجد مثلا ماير فورتس *Meyer Fortes*، وقد قام بطلب من الحكومة بإعداد مسح لقانون الزواج فى مجتمع التالنزى الذين يعيشون فى المناطق الساحلية من ساحل الذهب.

كما الدين لراترای *R. S. Rattray* الباحث الأنثروبولوجى الحكومى فى مستعمرة ساحل الذهب ببعض المجلدات القيمة فى إثنوجرافيا الاشانتى والمناطق الشمالية فيها. وندين لميك *C, K, Meek* الذى شغل مركز ضابط الاتصال فى نيجيريا بدراسة الجكن *Jukun* والإيبو *Ibo* وبعض القبائل الأصغر فى شمالى نيجيريا وقد نشر وليامز *F. E Wlliams* بعض الدراسات حول شعوب البابوان *Papuan* تضمنت إحاطة بالحركة الوطنية. ولم تصف تلك الدراسات النظم الوطنية التقليدية فقط، ولكنها لجأت إلى تفسير تلك الاضطرابات التى احتلت إهتماماً من جانب السلطات، واقترحت مقاييس علاجية لها؛ وبهذه

الطريقة فقـد اقتربت تلك الدراسات مما نعنيه بمصطلح الأنثروبولوجيـا التطبيقيـة .

ومع تلك الاستثناءات التى ألمحنا إليها فيما سبق مباشرة .. فلقد كانت أعمال هؤلاء الانثروبولوجيين محصورة فى وصف النظم الوطنية التقليدية ، وبوجه خاص النظم السياسية فى تلك المجتمعات التى توفروا فيها على دراساتها . ولعل فى الإمكان أن نطلق على تلك الأعمال دراسات فى الأنثروبولوجيا التطبيقية ، لأن الباحثين الذين قاموا بها قد استخدمتهم الحكومات التى كانت سياستها تتمثل فى المحافظة على النظم الوطنية التقليدية إلى أبعد حد ممكن .. مثلا فقد اعتقدت الحكومة البريطانية فى نيجيريا وساحل الذهب فى ذلك الوقت أن الأشخاص الذين يقبضون على السلطة بحكم مراكزهم التقليدية كانوا يمثلون أفضل الأجهزة المحلية التى توكل اليها الحكومة تنفيذ سياستها ، ومن ثم فقد كانوا فى قلق لمعرفة من هو الشخص أو من هم الأشخاص الحقيقيون الذين يحتلون مراكز السلطة الوطنية التقليدية .

وفى هذا نجد كاتباً بلجيكياً فى الأنثروبولوجيا التطبيقية قد وصف السياسة القائمة على الاعتماد على السلطات الوطنية التقليدية بأنها تستند إلى أساس محدد ، حيث يقول ان الحكم غير المباشر يحاول أن يتجنب تفكك المجتمع الوطنى التقليدى بجعله يتأثر «ويتحول» بوساطة قادته ونظمه الذاتية .

ونجد فى بلجيكا وهولندا ميلا إلى تكريس وقت أطول لدراسة الإثنوجرافيا والقانون العرفى فى الدورات التدريبية التى يجتازها المتدربون الذين يؤهلون للخدمة فى المستعمرات وهـذا بالمقارنة بالوضع فى بريطانيا ، وبوجه عام فقد كان هناك اهتمام بالنظم التقليدية يفوق الاهتمام بعمليات التغير المعاصرة ،

وقد تأسس المعهد الدولى للغات والثقافات الإفريقية المعروف حاليا بالمعهد الإفريقى الدولى عام ١٩٢٦ الكى يعمل على ترقيه البحوث الأنثروبولوجية اللغوية وقد كان مؤسسوه مدفوعين بسرعة التغير الاجتماعى فى إفريقيا ، وهو الموضوع الذى اعتبروا أنه سوف يكون موضع دراسة علمية يقوم بها ملاحظون مدربون . وحينما تلقى المعهد منحة من مؤسسة روكفلر عام ١٩٣٢ لتوسيع برنامج بحثه كان موضوع هذا البرنامج محدداً بالوصول إلى فهم أفضل لعوامل التماسك الاجتماعى فى المجتمع الإفريقى الأصيل ، وبالطرق التى تتأثر بها تلك العوامل بالتأثيرات الجديدة ، . وبوجه خاص فيما يتعلق بالقابليات نحو الاتجاه إلى أشكال جديدة للتجمع السكانى ، والاتجاه نحو تكوين روابط اجتماعية جديدة ، فضلا عن صور التعاون الذى يقوم بين المجتمعات الافريقية من ناحية والثقافة الغربية من الناحية الأخرى .

وقد تبين المعهدان تلك الاسئلة تحتل المرتبة الأولى فى الأهمية بالنسبة للشعوب الإفريقية ذاتها — ولرجال الإدارة والتعليم والبعثات التبشيرية والمستوطنين والتجار — حيث كان ذلك الفهم الذى يترتب على الاجابة عليها يساعد مثلا ضابط الادارة ليعجل من نمو المجتمع الصحى وتقدمه العضوى ، كما كان كل هؤلاء الذين تمت الإشارة إليهم سيجدون فى مثل هذا المجتمع مجتمعاً يتمتع بأفضل بيئة مرغوب فيها تتناسب مع أهـــدافهم . وبناء على ذلك فإن الأنثروبولوجيا التطبيقية فى الوقت الحالى تعنى الاعتماد على المعرفة الأنثروبولوجية فى خلق ظروف صحية للمجتمع . وقد حاول المعهد أن يضع تحت طلب كل الأشخاص ذوى الأهداف العملية المعلومات التى قد تساعدهم فى إيجاد العلاقات الصحيحة بين نظم المجتمع الإفريقى ، والانساق الأجنبيـــة للحكومة والتعليم والدين ، كما تساعد على المحافظة على ما هو حيوى فى تلك النظم الوطنية التقليدية ، وعلى التخلص من

الصراعات غير الضرورية بين تلك النظم الأجنبية والتقاليد والعرف والعقلية الإفريقية . وبقول آخرى فقد كان هناك أمل فى أن ينجح ذلك المعهد فى تقديم « وصفات » تحقق ما أطلق عليه مالينوفسكى *Malinowski* بعد سنوات قليلة « التغير الثقافى الناجح » وكانت الموضوعات التى يعنى بها ذلك المعهد يجب أن تتضمن دراسة للترتيبات الاجتماعية على طلب العمل بالأجور النقدية ، ومدى تأثر النظم السياسية « الوطنية التقليدية » بالخضوع إلى السيطرة الأجنبية ، والعلاقة بين التعليم المدرسى والقيم التقليدية .

ويمكن القول أنه على الرغم من أن المعهد الإفريقى الدولى كجهاز متمايز لم يتبين وجهة نظر تنطوى على دفاع عن سياسيات معينة ، فإن الاتجاه العام الذى اتجهت إليه منشوراته كان ينطوى على القول بأن تفهم النظم التقليدية يجب أن يمكن من دخول التغيرات الضرورية إلى تلك النظم ، دون أن يؤدى ذلك إلى تفككات غير ضرورية .

ولقد كانت إحدى التوصيات التى خلص إليها مسح تذكارى لإفريقيا قام به اللورد هايلى *Lord Hailey* تتمثل فى القول بأنه خليق بالحكومة البريطانية أن تقدم الأموال للبحوث فى كل العلوم الطبيعية والاجتماعية ذات الاهتمام بالمشكلات الإفريقية . وبعد فترة قليلة منذ نشر هايلى لكتابه بعنوان : « مسح لإفريقيا » *African Survey* — نجد تقريراً المندوب السامى فى الهند الغربية يخلص الى القول بأنه خليق بميزانية المملكة المتحدة أن تتيح بعض الأموال التى توظف فى تحريك النمو الاقتصادى ، وتقديم الخدمات الاجتماعية — مما يتطلب إمكانيات تفوق مصادر المناطق المستعمرة .

والواقع أن لوائح التنمية والرعاية الاجتماعية فى المستعمرات — والتى ظهرت

فى عام ١٩٤٠ والسنوات التالية — قد تميزت برصد أمـــوال توظف لهذين الغرضين اللذين أشرنا اليهـا فيما سبق مباشرة . ولقد تـكونت لجان من الخبراء تضم العلماء الاجتماعيين لتقديم المشورة فيما يتعلق بتوزيع مخصصات البحوث على صورة منح يتوقع من طلابهـا أن يكونوا قادرين على أن يبرهنـوا أن بحوثهم سوف تكون ذات قيمة عملية لحـكومات المناطق التى يوصون بإجـراء بحوثهم فيها . ولقـد خلص البعض بطريقة أو أخرى وبنجـاح إلى أن أية إضافة إلى المعرفة بالبناء الاجتماعى للشعوب إنما تعتبر ذات قيمة بالنسبة للحكومة التى تخضع تلك الشعوب لسلطانها . وقد كانت هناك دراسات مسحية للمناطق الجغرافيـة الرئيسية — بغرض تقييم المعرفة التى توفـــرت حولها ، وتحديد المناطق التى تحتاج المعرفة بها إلى مزيد من المعلومات السريعة والتى تدعو الحاجة اليهـا — وقد شجعت تلك الدراسات المسحية على أن تركـز لأبحاث فى اتجاهات معينة كان من المتوقع أن تلقى ضوءا على مشكلات الإدارة .

السوسيولوجيون الحكوميون :

كذلك فقد حـدثت فى تلك الفترة التى عرضنا لها فيما سبق تعيينات لبعض الأنثروبولوجيين فى حـكومات كينيا وتنجانيقا ، وسمى هؤلاء الرجال ببساطة « بالسوسيولوجيين الحكوميين » . ولم تكن التسمية تتضمن أن خبراتهم أو اهتماماتهم النظرية تختلف عن خـبرات واهتمامات غـيرهم من الأنثروبولوجيين الاجتماعيين ، ولـكنها تسمية أحدثت فى الاعتبار عدم شيوع كلمة أنثروبولوجيا التى تعنى دراسة « الشعوب البدائية » فى الدوائر الافريقية . ولقـــد كان من المتوقع بالنسبة لذلك الجيـل من الأنثروبولوجيين أن يكون قادراً على توجيه اهتمامه إلى أسئلة محـددة ، كانت هناك حاجة سريعة للإجابة عليها . ولهذا فقد قام

فيليب ماير *Philip Mayer* فى كينيا بدراسة مستفيضة لقانون الزواج فى قبائل الجوسى *Gussii* ، وبعلاج موجز للصعوبات التى تحيط بتخفيض قيمة مهر العروس ، وعرض بالمناقشة للتعاون بين جماعة المزارعين المتجاورة — واهتم بمدى اتساقها مع التكفل بنشاطات اقتصادية جديدة .. كما عمد فيليب جاليفر *Philip Gulliver* إلى اختبار آثار الهجرة العمالية والتغيرات الاجتماعية الأخرى بين شعب نيكاسا *The Ngkusa* — الذى لم يتعرض إلى حد بعيد حتى الحرب العالمية الثانية لتأثيرات الاتصال التجارى ونجد فى أستراليا إيان هوجبين مفوضاً فى حساب الخسارة التى تقاسيها شعوب غينيا الجديدة بسبب تولى اليابانيين للوظائف ، كما تم تفويض كاميلا وودجود *Camilla and Wedgwood* فى حساب حاجاتهم التعليمية .

ومن ناحية أخرى فقد كانت هناك بحوث ذات صبغة عملية أيضاً قامت بها مراكز للبحوث بتمويل أو بمساهمة من مكتب المستعمرات ، وقد وجدت تلك المراكز فى شرق وغرب إفريقيا ، وإفريقيا الاستوائية وجزر الهند الغربية وملايا *Malaya* . وحيث توفر مركز شرق إفريقيا على دراسة مايترتب على الهجرة العمالية من آثار اجتماعية — وأسباب عدم فاعلية رؤساء القرى الإفريقية للقيام بوظائف الأجهزة التى يوكل إليها تنفيذ سياسة الحكومة ، والتغيرات التى يتعرض لها وضع الزعيم الافريقى — كما كانت هناك فيما بعد دراسات على مدى واسع ، وفى خطة خمسية لدراسة موضوع التحضر . وقد قام رودس ليفنجستون *R. Livingstone* بدراسات مركزة للتحضر فى منطقة حزام الرصاص فى إفريقيا الاستوائية ، كما قام معهد غرب إفريقيا بتمويل دراسة للاختلاط السكانى بين العاملين فى المقاطعات الزراعية فى اتحاد تنمية

الكاميرون Cameroons Development Corporation والعلاقات بين المهاجرين والسكان الأصليين ، لما كان هناك ميل واضح فى معهد جزر الهند الغربية West Indian Institute نحو دراسة بناء العائلة .

أما فى الكونغو البلجيكية فقد كان هناك اهتمام مركز نحو البحوث الأنثروبولوجية التى يقوم بها البلجيكيون فى الفترة بين الحرب العالمية الثانية واستقلال الكونغو ، وقد تأسس مركز لدراسة المشكلات الاجتماعية (CEPSI) فى إليزابيثفيل عام ١٩٤٨ ركز على دراسة المشكلات المرتبطة بالتحضر ، كما أنشأ معهد سولفوى Solvay السوسيولوجى فى بروكسيل قسماً خاصاً بالكونغو وجه اهتماماً خاصاً بمشكلات تغيب القوى العاملة وعدم استقرار العمالة . كما كانت هناك دراسات للجريمة وجناح الأحداث ، وللقيادات الجديدة فى المناطق الحضرية ، والمنظمات الانتخابية الجديدة التى أنشئت للإعداد للاستقلال . كما ألحق بمعهد البحوث الاقتصادية والاجتماعية فى جامعة ليوبولدفيل الذى تأسس عام ١٩٥٦ قسم للدراسات الإثنوسوسيولوجية Ethnosociological وقد قام بتحليل مفصل لسكان مدينة ليوبولدفيل من حيث توزع معلمى المدارس الابتدائية والعمال والعاطلين فى الأقسام المختلفة من المدينة ، وخصائص الزواج والحياة العائلية والدين ونشاط الخصوبة فى كل فئة من تلك الفئات .

الأنثروبولوجيا التطبيقية فى أمريكا :

يمكن القول بأن توظيف الأنثروبولوجيين فى الولايات المتحدة يعود إلى سنة ١٩٣٤ ، حيث تم بناء على طلب من جون كوليه John Collier المفوض فى مكتب الشئون الهندية إنشاء وحدة الأنثروبولوجيا التطبيقية . وقد كان هناك اتفاق على أن الهدف الأول لهؤلاء الأنثروبولوجيين المعينين فى الولايات

المتحدة يتفق إلى حد بعيد مع ذلك الهدف الذى عين من أجله قبل سنوات قليلة سبقت هذا التاريخ باحث أنثروبولوجى فى نيجيريا ليفحص النظم السياسية الهندية من وجهة نظر استغلالها كأجهزة توكل إليها شئون الحكم المحلى . كما كان هناك بعض الأنثروبولوجيين الملحقين كمستشارين فى وحدة التعاون التكنولوجى التى يتعاون فيها قسم الزراعة فى مكتب شئون الهند *Bureau of Indian Affairs* فى مشروعات تحسين طرق استغلال الأرض .

كذلك فقد لجأت قطاعات المشروعات الخاصة أيضاً إلى توظيف أنثروبولوجيين للعمل كمستشارين بها ، وتمثلت أول تلك الخطوات فى أعمال هاورثون *Hawthorne* بشركة الكهرباء الغربية فى شيكاغو خلال الفترة من ١٩٢٧ الى ١٩٣٢ وقد صادق هؤلاء الأنثروبولوجيون على أن نمطاً من العلاقات الاجتماعية لابد أن ينمو بين جماعة من الناس الذين يعملون حقاً بانتظام ، وأن أية مقاومة غير متوقعة للاضطرابات التى تعرض فى هذا البناء يمكن أن تؤثر فى أية محاولات لزيادة مستويات المهارة والرفاهية بينهم ، وكانت هناك فى بريطانيا بعد عام ١٩٦٠ دراسة مشابهة قام بتمويلها قسم البحوث العلمية والصناعية .

ولقد تأسست جمعية للأنثروبولوجيا التطبيقية فى الولايات المتحدة عام ١٩٤١ ، وقامت بنشر دورية باسم الأنثروبولوجيا التطبيقية *Applied Anthropology* وتغير هذا الاسم عام ١٩٤٩ ليصبح التنظيم البشرى *Human Organization* ولقد وصفت الجمعية بأن موضوعها الأول هو : ترقية البحث العلمى فى المبادىء التى تحكم العلاقات القائمة بين الكائنات البشرية ، وتشجيع التطبيق الواسع للمعرفة بهذه المبادىء فى مواجهة المشكلات العملية .

ولقد كانت اهتمامات تلك الجمعية تتمثل فى ثلاث مجالات رئيسية هى : الصحة العقلية ودراسة التنظيم الصناعى والعلاقة بين التنمية الاقتصادية والتغير الثقافى وكانت هناك دورية اتخذت عنوانها من هذا الموضوع الأخير *Economic Dvelopment and Cultural Change* تأسست عام ١٩٥١ .

كذلك فقد ارتبط توظيف عدد من الأنثروبولوجيين خلال الحرب العالمية الثانية فى حكومة الولايات المتحدة بإعادة توزيع الجماعات السكانية اليابانية ، كما حاول هؤلاء الأنثروبولوجيين أن يفسروا ثقافة المناطق المأهـــولة لرجال القوات المسلحة الذين رغبوا فى تعـــاون مواطنى تلك المناطق كعمال أو مبعوثين .. إلخ . وفى أمريكا أيضاً كما هو الشأن فى استراليا — وعلى اختلاف عما هو عليه الحال فى بريطانيا — تضمنت الدورات التدريبية التى يختارها الضباط الذين يقومون بشئون الحكم العسكرى فى المنـاطق المأهولة بعض التثقيف فى الأنثروبولوجيا ، كما استعملت الولايات المتحدة منـذ عام ١٩٥١ سبعة من الأنثروبولوجيين فى إقليم ترست *Trust Territory* فى جزر المحيط الهادى ، وقد تولى أحدهم مركز القيادة بينما توزع الستة الآخرون ليعنى كل منهم بمنطقة إدارية معينة فى هذا الاقليم . وكان عمل هؤلاء أن يقدموا المشورة فيما يتعلق بإنجاز المشروعات الحكومية ، والطرق التى تساعد على تفهم السـكان الوطنيين لتلك المشروعات — فضلا عن الأسس التى يعتمد عليها تقييم التقدم الذى تحققه تلك المشروعات التى تضمنت برامج لتحسين الصحة . وسياسة العمالة ، التعليم ، والمقاييس التشريعية ، والاجراءات القضائية ، كما كان من المتوقع من هؤلاء الأنثروبولوجيين أن يقوموا أيضاً بالبحوث المتعمقة التى تستند إليها مشورتهم في النهـاية .

الانثروبولوجيا التطبيقية منذ الحرب العالمية الثانية :

ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية فإن توازن القوى الجديد والذى تمخض عن اضمحلال حكومات المستعمرات كلية على وجه التقريب — قد ترتب عليه نوع من التغيير فى التركيز على الانثروبولوجيا التطبيقية فيما يعرف بالبلاد التى تمر بمرحلة النمو الاقتصادى . ولقد اهتمت القوى الاستعمارية كما اهتم كثير من الانثروبولوجيين من الذين لا ينتمون إلى تلك القوى بصلة الجنسية بصفة أولية بالثبات والتغير التدريجى ، ومن ثم بالمحافظة على النظم الوطنية التقليدية فى حين اهتم حلفاؤهم بالتغيير السريع ، وكان وراء هؤلاء « المحدثين » سند من القوى العالمية التى مهما اختلفت أيديولوجياتها فهى تعطى للتقدم التكنولوجى قيمة أكبر من القيمة التى تعطى للثبات .

كذلك فقد وجد الانثروبولوجيون غير المتورطين سياسياً أنفسهم مدفوعين إلى النظر بعين الاعتبار إلى المشكلات الملحة التى خلقتها زيادة السكان فى المناطق ذات الموارد الاقتصادية المحدودة والانتاجية المنخفضة. ولقد طلبت نصيحة المتخصصين الفنيين فى الفروع المختلفة لمعرفة الطرق التى تعمل على رفع مستويات المعيشة ، وحينما طلبت مساهمة الانثروبولوجيين — فى هذا المجال — كانت أمامهم الفرصة للتعريف بأنه كلما عملنا على تنمية القيم كلما ارتفعت القدرة على التقدم .

ولقد تم توظيف أنثروبولوجيين فى عدد من مشروعات المساعدة الفنية التى تقدمها الامم المتحدة . وتجدر الاشارة هنا إلى منظمة الصحة العالمية — حيث

يتوفر لدى هؤلاء الانثروبولوجيين الكثير مما يعطونه لمشروعات الصحة العامة والتوسع الزراعى وتنمية المجتمع .

وفى الولايات المتحدة الامريكية والمملكة المتحدة اطردت زيادة التعاون بين الانثروبولوجيين والمتخصصين فى فروع الطب منذ الحرب العالمية الثانية ، وعلى سبيل المثال فقد قامت مدرسة هارفارد للصحة العالمية بدراسة الآثار الاجتماعية لخطط مقترحة لإضافة مادة الفلورين إلى المياه الجارية . أما فى بريطانيـــا فقـد انضم باحث أنثروبولوجى إلى فريق لدراسة وبائية الأمراض العقلية فى جنوبى مقاطعة ويلز .

أهداف الانثروبولوجيا التطبيقية :

ولقد ترتب على ذلك التغير الذى طرأ على الاتجاهات التطبيقية فى الانثروبولوجيا بعض التأثير فى تأويل الانثروبولوجيين لماهية الدور الذى يقومون به ، حيث نجد مثلا أن هؤلاء الذين ترددوا فى أن يحملوا أنفسهم مسئولية تحديد ماهية المجتمع المثالى كانوا أقل تردداً فى تقديم اقتراح لتحديد الاتجاه الذى يحقق فرصاً أكبر لنجاح برامج الصحة العامة ، كما أن هؤلاء الذين تبنوا وجهة نظر ترى أن أية مساعدة يقدمونها للحكومات الاستعمارية إنما تنطوى بالضرورة على نوع من الخداع لتلك الشعوب الخاضعة لها — لم يجدوا تلك المحاذير فيما يتعلق بالمناطق المستقلة .

ولكن فقـــد كانت هناك مناقشات كثيرة حول السؤال عما اذا كان الانثروبولوجيون يجب عليهم أن ينضموا إلى مشروعات التنمية ، أو كان عليهم ببساطة أن يقدموا نصائحهم ويتركوا السلطات الادارية تفعل بها ما تريد ، وفى

هذا الاتجاه الذى ينطوى على نوع من المغالاة تسفيه لكل المحاولات التى تبذل لتطبيق المعرفة الأنثروبولوجية — حيث أن الدراسات النظرية التى يقوم بها الباحثون الأنثروبولوجيون لاتتركز حـــول المشكلات الادارية ، كما أن تطبيقاتها فى أفعال معينة ان تكون إلا حين تأخذها جماعات من المتخصصين الآخرين فى اعتبارها . أما وجهة النظر المقابلة فهى تقوم على أن الأنثروبولوجيين يجب أن يقوموا بأنفسهم بصياغة التوصيات السياسية ، وهذا مايعبر عنه ميثاق الجمعية الأمريكية للأنثروبولوجيا التطبيقية *American Society for Applied Anthropology* الذى ينص على أن الباحث الأنثروبولوجى مدين تجاه أفراد المجتمع باحترام كرامتهم ، كما ينبغى عليه أن يحافظ على سعادتهم ورفاهيتهم ، وهو لا ينبغى له أن يوصى بتصرفات معينة تحقق مصالح أو تشبع اهتمامات عملائه حينما يكون تحقيق تلك المصالح والاهتمامات مايؤثر على حياة أو رفاهية أو كرامة أشخاص آخرين . أو على احترام هؤلاء الأشخاص لأنفسهم دون أن يكون هذا التأثر فى أدنى حـد ممكن وأن تكون المحصلة النهائية لتلك التصرفات تحقق فائدة أكبر مما يحققه عدم اتخاذ أية اجراءات على الاطلاق . كما يجب على هذا الباحث الأنثروبولوجى أن يوجه بالغ اهتمامه لحماية من يأتون بالأخبار *Informants* وبخاصة فيما يتعلق بتلك الجوانب السرية التى قـد لايستطيع هؤلاء المخبرون تحمل مسئولية إفشائهم لها أمام الباحث .

ويجب على الباحث الأنثروبولوجى أيضاً الا يقدم وعوداً معينة إلى عملائه والا يشجع أية توقعات لايستطيع لأسباب معقولة أن يحققها ، كما يجب عليه أن يقدم لهم أفضل مالديه من المعرفة العلمية والمهارة ، وأن ينظر بعين الاعتبار إلى أهدافهم المحددة فى ضوء ميولهم واهتماماتهم العامة وفى ضوء ما يحقق رفاهيتهم

وأن يعمل على استقرار واضح بينه وبين كل عميل من عملائه طبقاً لمسئولياته تجاه هذا العميل وتجاه العلم وتجاه زملائه .

وبجانب هذا كله نجد نادل *Nadel* يلح فى تأكيد انه إذا كان الانثروبولوجيون لا يدعون بحقهم فى المساهمة المباشرة فى تشكيل السياسة، فإن المادة التى يقدمونها يمكن أن تستخدم بطرق لا يحددها هو فى « تدمير المجتمعات التى يقوم هؤلاء الباحثون الانثروبولوجيون بوصفها » . وتنطوى عبارة بارنت *Barnett* على هذا الاتجاه ذاته — حيث يقول ان الانثروبولوجيا تقوم بتعرية شعب لا يستطيع هو ذاته ان يقوم بعرض قضيته الخاصة كما يؤكد بيلز *Beals* أيضاً ان الانثروبولوجيا التطبيقية تعنى بتكشف ما يريده شعب غير محدد القسمات ثم مساعدته على تحقيق تلك الارادة وقد كانت هناك أيضا محاولة أخرى فى نفس هذا الاتجاه لسول تاكس *Sol Tax* .

ولكن كل هذه التأويلات لدور الباحث الانثروبولوجى ترفض فكرة إمكان الاستفادة الفنية من النصائح التى ينتهى إليها ، ومن ثم فهى تنكر فيه تلك النصائح . حقاً أن هناك شعوراً بأنه لا يمكن إنكار قيمة أى طالب للمعرفة إذا كان الناس يهدفون إلى استخدام تلك المعرفة لتحقيق أهداف ذات قيمة فى نظرهم ، ولكن السؤال عن القيمة فى الانثروبولوجيا التطبيقية كان له مغزى خاص بالنسبة لشئون المستعمرات بسبب طبيعة الموقف الذى كانت تطلب فيه نصائح الباحثين الانثروبولوجيين ، أو تقدم فيه تلك النصائح أحياناً . ولقد أولت حكومات المستعمرات بعثات التمدين التى تمثلها باعتبارها تعنى بين مجموعة من الأشياء عملية للتقدم الأخلاقى . ولم يجد الانثروبولوجيون دائماً أن نوع التغير الذى تتجه تلك الحكومات الى تحقيقه يعتبر تقدماً أخلاقياً . ومن

ناحية أخرى فقد اهتم الباحثون الانثروبولوجيون من جانبهم بتبصير أن عمليات التغيير الاجتماعى التى تقوم بها تلك الحكومات هى لفائدة مواطنيها أكثر من كونها ضارة بهم ، وينطوى هذا الاهتمام على هدف يرتبط بدخول أحكام قيمية فى كل اتجاه للمعرفة . ولم يكن هؤلاء الذين يعتقدون بأن التغييرات التى تفرض على المجتمعات التى تتمتع بالبساطة النسبية سوف تكون بالضرورة ضارة بها ، يتوقعون من الحكومات أن تشاركهم وجهة نظرهم ، وان كانوا مع هذا يأملون أن تستمع تلك الحكومات الى هذه الآراء . وبعد فن الواضح ان الاختلاف بين قيم هؤلاء الباحثين الانثربولوجيين من ناحية ، وقيم تلك الحكومات من ناحية أخرى انما يخلق صعوبات بالغة فى سبيل تقديم هؤلاء الباحثين لنوع من النصيحة التى تسير تنفيذ تلك الحكومات لسياسة معينة .

وأخيراً فلم يكن من قبيل الحادث المفاجىء أن يحدث تحول فى بؤرة الانثروبولوجيا التطبيقية ، باضمحلال الحكم الاستعمارى . ولقد رأت الحكومات المستقلة أن وظائفها تتمثل فى اللحاق بالدول التى سبقتها فى الاستقلال حيث لا تعنى تلك الحكومات بتقديم هبات الى مجتمعات أجنبية ، ولكنها معنية برفع مستويات المعيشة وبنشر الرفاهية فى مجتمعات تنتمى هى اليها . وقد كانت تلك الحكومات المستقلة الحديثة متأكدة تماماً فيما يتعلق بنوع المجتمع الذى تريد انشائه ، ولم تكن بحاجة الى نصيحة أحد حول هذا المجتمع . وحينما كانت تلك الحكومات تتجه إلى سؤال هذه النصيحة فقد كان ذلك يتعلق بمجالات فيها إجماع حول القيم المتعلقة بها . فالكل يتفق على أن الصحة أمر حسن وأن مطلب الراحة الفيزيقية والثروة المادية من الامور المسموح بها لمن يريدها من

الناس ، ولا يزال الأنثروبولوجيون غير مطالبين بإصدار أحكام حول جدوى المشروعات التى يطلب تعاونهم فيهـــا . كما أنهم لا يهتمون بإصدار أحكام قيمية حول النظم الاخلاقيه السـائدة ولا يسعون إلى توجيه نصائح حول العملية الكلية للتغـــير الاجتماعى حيث يبقى دورهم محدوداً بحدود مجرد التنبيه حين تكون الأبنيـة الاجتماعيه القائمة أو الانساق القيمية المستقرة هى فى ذاتها بمثابة عوائق فى مواجهة مشروعات معينـــة .

دكتور محمد عبده محجوب

الجزء الثانى(*)

فروع الأنثروبولوجيا العامة

(*) للدكتور مجدى حميدة المشرف على قسم الاجتماع - جامعة المنصورة

الفصل الأول

تعريف بالانثربولوجيا

- مفهوم الانثربولوجيا ومجالها
- الجذور التاريخية للانثربولوجيا
- طبيعة الانثربولوجيا
- الخصائص المميزة للانثربولوجيا كتخصص علمى
- استخدامات الانثربولوجيا وفائدتها
- المخصصات الفرعية للانثربولوجيا
  - الانثربولوجيا الفيزيقية
  - الانثربولوجيا الثقافية
    - الاركيولوجى
    - الاثنوجرافيا
    - الاثنولوجيا
    - الانثربولوجيا الاجتماعية
    - اللغويات
    - المخصصات الفرعية الأخرى
- مجالات التخصص الاقليمى
- علاقة الانثربولوجيا بالعلوم الاجتماعية الاخرى
  - بعلم الاجتماع
  - بعلم النفس
  - بالتاريخ
  - بعلوم اجتماعية اخرى

مفهوم الانثربولوجيا ومجـالها :

الأنثربولوجيا هى علم الإنسان أو علم دراسة الإنسان حسب المعنى الاشتقاقى أو الأصل اللغوى Elymology لهـذا الاصطـــلاح الذى يتألف من الكلمتين اليونانيتين : (١)

أنثروبوس Anthzopos ومعناها الانسان .

لوعونس logos أو Iogia ومعناها علم أو دراسة أو موضوع .

وترجمة هذا الاصطـــلاح إلى اللغة العربية ، علم الانسان ، ولكن اصطـلاح (أنثربولوجيا) المعرب عن الاصطلاح الانجليزى Anthropology والاصطلاح الفرنسى I'Anthropology أكثر استخداما فى الكتابات العربية . وقد شاع مؤخرا فى الكتابات العربية استخدام اصطـــلاح غـلم الانسان أو علم الانسان الاجتماعى للاشارة إلى الأنثربولوجيا.(*)

ومنذ نشأة هذا الفرع من المعـــرفة العلمية ارتبط مجـال دراسته واهتمامه بالمعنى الاشتقاقى لهذا الاصطلاح الذى يشير إلى ذلك الفرع من العلم الذى يعد من أكثر النظم العلمية الأكاديمية التى تعنى بدراسة الانسان شمولا .

---

(١) Joseph M. greenberg, The Field of Anthropology, in Internaticonal Encyclopedia of The Sociol Sciences, Vol,. 1 The Macmillan Co NY. 1972 p.p. 304—313

* انظر عنوان كتاب الانثربولوجيا الاجتماعيه لايفانز رتشارد ترجمة د. احمد ابوزيدط٢ منشأة المعارف بالاسكندرية وتجدر الاشارة الى ان الباحثين الجغرافيين العرب قد درجو منذ ما يزيد على نصف قرن على تسمية هذا العلم باسم (الدراسات البشرية)

ويتمثل ذلك الشمول فى إهتمامه بدراسة الانسان فى المناطق والبيئات المختلفة فى العالم ، وفى شموله بالدراسة المجتمعات المعاصرة والتاريخية ، وفى إمتداده لمجالات متعددة مثل البناء الاجتماعى والتعبيرات الجمالية ونظم المعتقدات الدينية واللغويات . . الخ . وهو بذلك يدخل فى مجال نظم علمية أخرى هى العلوم الانسانية Human Sciences أو الانسانيات مثل التاريخ والجغرافيا البشرية وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلوم الحضارات والتى تعد علوما إنسانية لأنها تتناول الانسان من أحد جوانبه ، الا أن الأنثربولوجيا هى النظام العلمى الوحيد بين العلوم الانسانية الذى يعالج الجوانب الفيزيقية والثقافية الاجتماعية للإنسان معاً . وبالرغم من هذا الشمول إلا أن الأنثربولوجيا تظل فى الحقيقة أحد النظم العلمية التى تتناول الانسان بالدراسة .

وقد أدى هذا التنوع والوفرة فى الموضوعات ومجالات أهتمام عالم الانثروبولوجى إلى انقسامه إلى عدد من العلوم الفرعية ، ومن الناحية العملية فان هذه العلوم الفرعية تتداخل مع بعض النظم العلمية الأخرى المستقلة والتى سبقت هذا العلم إلى مرحلة النضج وتشاركها فى موضوعات إهتمامها . ولكن هذا التداخل يعالج فى اطار الموضوعات والمناهج حيث توجد ثيمات Themes أساسية تمثل بؤره من الاهتمامات المتميزة التى تميز الأنثروبولوجيا عن غيرها من النظم العلمية الأخرى .

وقد استطاع العالم الانجليزى هادون Haddon أن يتتبع تاريخ إستخدام اصطلاح الأنثربولوجيا فى الثقافات القديمة للاغريق والرومان . ويشير إلى ان أرسطو Aristotle قد استخدم هذا الاصطلاح للاشارة إلى « الشخص الذى يتحدث عن نفسه » ، وبالطبع فان هذا المعنى يختلف عن المعنى المعاصر لهذا

الاصطلاح . كما ظهر اصطلاح الأنثربولوجيا كعنوان لكتاب ظهر سنة ١٥٠١ م للكاتب Hundt تناول فيه خصائص جسم الانسان من الناحية التشريحية ، وظهر هذا الاصطلاح أيضا فى كتاب « L'Anthropologia » للمفكر Copella سنة ١٥٣٣م ويتناول بالدراسة الصفات الشخصية الفردية للانسان كما ظهر اصطلاح أنثروبولوجيا سنة ١٦٥٥ فى كتاب غير معروف مؤلفة وعنوانه Anthropology Abstracted وموضوعه الطبيعة البشرية ، وقد انقسمت موضوعاته إلى قسمين رئيسين أحدهما خاص بعلم النفس والثانى خاص بعلم التشريح (١) .

وقد أخذ استخدام هذا الاصطلاح ينتشر بعد ذلك بصفة تدريجية الى أن أصبح له مفهوم واضح فى القرن التاسع عشر (٢).

وقد تردد اصطلاح الأنثربولوجيا الاجتماعية أو علم الانسان الاجتماعى لتعطى هذه التسمية الدلالة عن موضوع اهتمام هذا الفرع عن المعرفة العلمية بين المهتمين بالدراسات الاجتماعية فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر بين أساتذة الجامعات البريطانية حيث ظهرت الأنثربولوجيا الاجتماعية بمعناها المتعارف عليه الآن فى أول الأمر ثم انتشرت منها الى باقى بلدان ومجتمعات العالم (٣).

---

(١) Haddon, A. History of Anthropology, London (Rev, ed. 1924, p.p. 20—25

(٢) عاطف وصفى ، الانثربولوجيا الاجتماعية ط ٢ دار المعارف بمصر ١٩٧٥ ص ١٠

(٣) احمد ابوزيد تايلور رقم ٩ من سلسلة نوابغ الفكر العربى ، دار المعارف ، ١٩٥٧ ، ص ٧

ولقد كان العالم الأنثربولوجى سير جيمس فريزر Sir James Frayzer وهو أول من شغل كرسى أستاذية الأنثربولوجيا فى العالم حيث منحته جامعة ليفربول Liverpool درجة الأستاذية الشرفية سنة ١٩٠٨ (١) أول من استخدم هذا الاصطلاح الجديد فى الدراسات الاجتماعية وبخاصة فى محاضرته المشهورة التى ألقاها فى جامعة ليفربول فى ١٩٠٨/٥/١٤ حيث أشار الى أن دراسة الأنثربولوجيا تعد بمثابة دراسة سوسيولوجية للأشكال البدائية من المجتمعات وقد حدد فريزر Frayzer فى تلك المحاضرة أهداف دراسه الأنثربولوجيا الاجتماعية بأنها « المحاولة العلمية للكشف عن القوانين العامة التى تحكم الظواهر وتفسر ماضى مجتمعات الانسان حتى يمكن التنبؤ بمستقبل البشرية استنادا الى تلك القوانين السوسيولوجية العامة التى تنظم تاريخ الانسان حيث أن الطبيعة البشرية تتسم بأنها واحدة بعينها فى كل مكان وزمان » (٢).

ولقد كان من أهداف الدراسات الأنثروبولوحية المبكرة النزول الى المجتمعات لمعرفة كيف يعيش الناس ومحاولة تفسير الحياة الاجتماعية الجارية للوصول الى فهم أعمق للحياة اليومية للشعوب التى يدرسونها أكثر من فهمها عن طريق التقارير الرسمية ، كما كانت تستهدف الكشف عن أصول الشعوب وهجراتها وقد اتجه الباحثون منذ البدايات المبكرة لنشأة هذا العلم فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الى دراسة الحياة الاجتماعية لنوع معين من المجتمعات أطلق عليها

---

(١) A.R. Radclffe-Brown Method in Anthropology Chicago, 1958 p. 133

(٢) A. R. Radcliffe-Brown, Method on Sociol Anthropology cep. cit., p. 133

وصف بدائى Primitive ثم استبدل بلفظ أمى أو جاهل على اعتبار أن اللفظ يؤدى عمل وظيفى فى التعريف بتلك المجتمعات من وجهة نظر هؤلاء العلماء(١) .

وقد كانت الغالبية العظمى لدراسات الباحثين الانثربولوجيين فى ذلك النوع من المجتمعات الأمر الذى دعا الى وصف هذا العلم بأنه « علم اجتماع المجتمعات البدائية » (٢) .

وتمتلىء الكتابات عن هذه المجتمعات بمجموعة من الأوصاف تحمل طابعاً تقويمياً وتعكس وجهة نظر الكاتب أو الثقافة التى ينتمى اليها نحو تلك المجتمعات فنجد أن تلك المجتمعات يطلق عليها اسم متوحش وبدائى وقبلى وتقليدى وغير متعلم Illitrate أو قبل مرحل التعليم Preliterate أو قبل تاريخية Pre-History.

ويشير العلامة الانجليزى سير ايفانز بريتشارد Sir E.E.Evans-Pritchard الى تلك الشعوب أحيانا باسم الشعوب المتوحشة كما يشير الى أن الباحثين الأنثربولوجيين يطلق البعض عليهم اسم علماء الشعوب المتبربرة (٣) وتتوافر فى تلك المجتمعات سمات معينه تتيح دراسة النظم الاجتماعية

---

(١) سيريل بلشو : الانثروبولوجيا علم الانسان ـ مقاله مترجمة بمعرفة د. فضيله عمر فتوح ، المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية ، مجلة رسالة اليونسكو ـ مركز مطبوعات اليونسكو العدد العاشر السنة الثالثة ــ يناير ــ مارس سنة ١٩٧٣ ص ٦٦و٨١

(٢) عاطف وصفى : الانثروبولوجيا الاجتماعية ، مرجع سابق ص ٥٨

(٣) على اسلام للفار : الانثربولوجيا الاجتماعية دراسة المجتمعات البدائية، ط ١ الشركة القومية للتوزيع ١٩٦٨ ص ٣

جميعها والعلاقات المتبادلة بينها ولذلك فان هذه المجتمعات تتميز بأنها صغيرة الحجم ذات نسيج اجتماعى متكامل ومحدود ، وتمتاز ببساطة الفنون الآلية والاقتصاد وقلة التخصص فى الوظيفة الاجتماعية بالنسبة للمجتمعات المتقدمة ، وتتباين وجهات نظر العلماء نحو ضرورة وجود أو عدم وجود سمات أخرى لتحديد تلك الأنواع من المجتمعات من ذلك ضرورة اعتماد اقتصادها على الصيد أو الرعى أوهما معا وعدم التخصص فى الزراعة أو الصناعة وكذلك عدم معرفة القراءة والكتابة وعدم وجود علم بالمعنى الصحيح .

وقد أفاض العلامة إيفانز بريتشارد فى تحديد خصائص تلك الشعوب وتمييزها عن غيرها من المجتمعات الأخرى ونقتبس من ذلك ما ورد بكتابة «الانثروبولوجيا الاجتماعية» من وصف لتلك المجتمعات ، حيث أشار الى أنها لا تعرف الأديان السماوية المنزلة ولا اللغات المكتوبة ولا المعرفة العلمية المضبوطة، وأن أفرادها يعيشون فى الغالب فى حاله من العرى التام ولا يستخدمون الا أبسط أنواع الآلات كما يسكنون مساكن بسيطة ساذجة للغاية ويقول انها شعوب خام اذا صح هذا التعبير تتميز بقلة ما تستعين به فى معركتها ضد الطبيعة والاقدار وليس لديهم من أسباب المدنية مايدرأ عنها أو يلطف عليها وقع المصاعب والآلام .

ويقول العلامة ايفانز بريتشارد أن البحث الدقيق قد يكشف عن وجود أبنية اجتماعية معقدة أو ثقافات خصبة تكمن وراء تلك البساطة السطحية التى تميز حياتهم ، فهم يؤمنون بالدين وهذا الإيمان يتمثل فى شكل معتقدات يقينية وشعائر . وهم يعرفون الزوج والذى يتم عن طريق مراسيم وطقوس معينة . كما يعرفون الحياة العائلية التى تتركز فى البيت . ولهم جمعا نظم قرابية تفوق فى

تعقيدها واتساع نطاقها كل نظم القرابة المعروفة فى المجتمع الاوروبى .

كما أن لهم منتديات وجمعيات خاصة تخدم أغراض محدودة مرسومة . وقواعد جديدة محكمة ترسى أصـــول اللياقة وآداب السلوك . ولهم تشريعات تضع أسس القانون المدنى والقانون الجنائى التى تطبقها محاكمهم . ولهم لغات تبلغ كثير من الأحيان درجة عالية من التعقيد سواء من ناحية الأصوات أو القواعد التى تشتمل على ذخيرة وفيرة من الألفاظ ولهم آداب وطنية تتألف من الشعـر الذى يعكس كثيرا من الرمزية ، وكذلك من الأخبـــار التاريخية والأساطير والقصص الشعبى والحكم والأمثال وفنون تشكيلية خاصة بهم ونظم للفــلاحة والزراعة تتطلب معرفة واسعة باختلافات الفصول وأنواع التربة والحياة النباتية والحيوانية . ولهم خبرة خاصة بصيد السمك وقنص الحيوان والملاحة فى البحـر والسياحة فى الأرض ، كما ان لديهم جميعا رصيدا هائلا من المعرفة بشئون السحر والعين الشريرة والعرافة والتنبؤ (١).

ولقد ساد مفهوم اختصاص المجال الجغرافى للأنثربولوجيا بدراسة الشعوب البدائية بشكل رئيسى وحتى عهد قريب حتى أن العالم الأنثربولوجى الأمريكى M. White يشير فى كتابه « الأنثربولوجيا » الصادر فى لندن سنة ١٩٥٤ إلى أن الانثربولوجيا تختص بدراسة المجتمعات الفطرية أو التى لازالت أقرب إلى الفطرة وان دراسة الانسان المتطور المعقد فى المجتمعات المتطورة أو المتحضرة ليست من مهمة علم الأنثربولوجيا بل هو مهمة علم الاجتماع .

---

(١) ايفانز برتشارد : الانثربولوجيا الاجتماعية ترجمة ا. د. احمد ابوزيد ط ٥ الهيئة المصرية العامة ١٩٧٥ ص ١٦٢

بل ان العلامة الانثروبولوجى الأمريكى A. Kroeber يشير فى سنة ١٩٥٩ الى أن الاهتمام بالمجتمعات البدائية يعد أهم ما يميز الأنثروبولوجيا عن العلوم الاجتماعية الأخرى (١) .

ويشير إيفانز بريتشارد إلى أن السبب فى اتجاه الأنثروبولوجيا الاجتماعية لدراسة هذا النوع من المجتمعات يرجع الى أنها كانت أخذه فى الزوال بالتدريج لزيادة اتصالها بالعالم الخارجى وغزو الثقافة الاوروبية المتحضرة للثقافات الوطنية المتوطنه مما آثار الحاجة الى تسجيل ملامح حياة هذه المجتمعات وحفظها للأجيال التالية فى شكل دراسات وافية قبل أن تزول تماما ، فضلا عن سهولة العادات الغريبة غير المألوفة فى هذه المجتمعات وسهولة رؤية المجتمع البدائى كوحدة كلية وسهولة ملاحظة تداخل النظم الإجتماعية وتفاعلها أحدها مع الاخر فى المجتمعات البدائية البسيطة عن ملاحظة ذلك فى المجتمعات المتحضرة المعقده .

وقد استمر اهتمام الانثربولوجيا الاجتماعية بدراسةهذا النوع من المجتمعات منذ نشأتها وحتى الآن ، غير أنه قد حدثت بعض التطورات أو التغيرات تتمثل فى امتداد الدراسات الانثربولوجية إلى نوعيات أخرى من المجتمعات حيث اتجهت اهتمامات علماء الانثربولوجيا المحدثين إلى دراسة المجتمعات الأكثر تقدما وتعقداً فقاموا بدراسة القرى فى المجتمعات الحديثة والمراكز الحضرية والمدن وخاصة فى افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية بل أن هناك اتجاهات حديثة تهتم بدراسة المشروعات الصناعية والتنظيمات والمؤسسات والمحلات التجارية الكبرى

---

(١) عاطف وصفى : الانثروبولوجيا الاجتماعية مرجع سابق ص ١١

ذاتها . غير أن الطابع المميز لتلك الدراسات أن مجتمعات أو وحدات الدراسة تتميز بصفة عامة بأنهـا صغيرة الحجم .

أو ذات مجال صغير وهى اكثر بساطه أو على الأقل اكثر تجانساً من المجتمعات الكبيرة

وبالنسبة للمجال الزمنى للدراسات الانثربولوجية فاننا نجد أنها تهتم بدراسة المجتمعات المعاصرة القائمة ووسيلتها فى ذلك الملاحظة المباشرة، كما أنها تهتم أيضا بالمجتمعات القديمة الغابرة ووسيلتها فى ذلك الاثار والمخلفات الى تركتها

ويمكن تحـديد الموضوع الرئيسى أو مجال الاهتمام الاساسى للانثربولوجيا الاجتماعية بدراسة السلوك الاجتماعى الذى يتمثل فى نظم اجتماعية مثل نظام القرابه والعائلة ومثـــل النظام الاقتصادى والسياسى والدينى والعبادات والاجراءات القانونية والعادات والتقاليد أى دراسه النظم الاجتماعية ووظائفها فى إطار البناء الاجتماعى لمجتمع ما وتحديد العلاقات والتأثير المتبادل بين تلك النظم .

وهناك اتجاهين مختلفين فى تحديد الموضوع الرئيسى لهذه العلم ، وهذا الخلاف ليس مجرد خلاف لفظى بسيط وإنما هو خـ لاف جوهرى تترتب عليه فروق ونتائج اساسية (١)

ويرى الاتجاه الأول أن هـــذا العلم يهتم فى المقام الأول بدراسة الثقافة وليس المجتمع وترجع جذورهذا الاتجاه إلى كتابات وأفكار أبو الانثربولوجيا البريطانية The father of British Anthropology العلامة سير ادوارد تايلور Sir Edward Tylor

---

(١) احمد أبوزيد ـ تايلور مرجع سابق ص ٥٠

ويشايع هذا الاتجاه كثير من العلماء فى الولايات المتحدة الان (١)

أما الاتجاه الثانى فيسود بين المدارس الانثربولوجية الحديثة فى بريطانيا وخاصة اتباع الاتجاه الوظيفى ويقوم على تصور أن الانثربولوجيا هى العلم الذى يدرس المجتمع والنظم الاجتماعية .

ومن الموضوعات التى تميز النظرة الانثربولوجية للمجتمعات دراسة المجتمع كنسق من الاتصالات ومتابعة فكرة البناء وتحليل الطريقة التى ينظم ويصف بها الانسان خبرته الكلية عن العالم (٢) .

الجذور التاريخية للانثربولوجيا :

يمكن القول بان ظهور الانثربولوجيا الاجتماعية كعلم منهجى متميز لايرجع إلى أبعد من النصف الثانى من القرن التاسع عشر ولوان مشكلات وموضوعات هذا العلم كانت تدرس فى جامعات أوروبا قبل ذلك بوقت طويل فالاهتمام بالبحث فى شئون الانسان والمجتمعات الانسانية قديم قدم الانسان نفسه وسابق على ظهور الانثربولوجيا كعلم اكاديمى معترف به . وكل مجتمع من المجتمعات الانسانية كان يولى اهتماما بمعرفه كيف نشأت العادات والتقاليد لديه ومعرفة الفروق بين ثقافته الخاصة وثقافه المجتمعات المجاورة له . وعلى هذا فانهم جميعا قد اقاموا انثربولوجيا خاصة بهم بصوره ما ولكن التفسيرات التى توصلوا اليها وحتى ما استند منها جزئيا على الملاحظة الدقيقة ظل بصفة عامة فى مستوى الاساطير..

---

(١) احمد أبوزيد ـ تايلور مرجع سابق ص ٤٩

(٢) 1 — The New Encyclopedia Britannica, Anthropology p. 987.

ونذكر أن المؤرخ الاغريقى هيرودوت الذى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد قد قدم وصفا لحياة الشعوب المتبربرة وللحياة الاجتماعية فى مصر وقد بدأ التفكير العلمى فى الظهور فى عدد محدود من مراكز الحضارة الانسانية فى العالم ، فى عالم البحر المتوسط وفى الصين وفى المنطقة العربية بالشرق الأوسط وفى الحضارة الغربية الحديثة . ومن الملامح المميزة لكل تلك المراكز الحضارية السيطرة التى تمارسها على مناطق شاسعة والفرص التى اتيحت لهـا عن طريق جنودهم وتجارهم وحجاجهم ومبشريهم ومبعوثيهم لجمع الملاحظات عن مجموعات عريضة من الشعوب . ولقد كان جمع تلك المعلومات والملاحظات ضروريا لبداية ادراك كيف يتكيف الناس لبيئاتهم وكيف يستخدمون النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المختلفة وكيف تحـول الجنس البشرى من المجتمعات البسيطة إلى المجتمعات المركبة .

ولقد وجه المؤرخون والفلاسفة عند قدماء الاغريق والصين والعرب مثل تلك التساؤلات . وإذا اخذنا أوروبا الغربية على سبيل المثال فان كثير من التساؤلات اثارها الفلاسفة الفرنسيين من أمثال جان بودان Jean Bodin وميشيل دى مونتانى MIchel De Montaigne الذى خصص جانب كبير من مقالاته لما يمكن تسمية الان بالمعلومات الأثنوجرافية فى أوائل القرن السادس عشر ومن الفلاسفة الانجليز توماس هوبز Thomas Hobbos وجون لوك Johnc Lockc فى القرن السابع عشر ومن الفلاسفة الفرنسيين مونتسكيو Montesquieu وروسو Rousseau وفوليتر Voltaire فى القرن الثامن عشر حتى نصل إلى سان سيمون Saint-Simon الذى كان أول من أقترح بصراحة ضرورة إنشاء علم للمجتمع وكل هؤلاء يوصفون انهم من بين المؤسسين للانثربولوجيا الحديثة .

ولقد بدأت البدايات المبكرة للانثربولوجيا الحديثة تتشكل قبل منتصف القرن التاسع عشر بسبب ظهور سلسلة من المستحدثات في العالم الغربي فلقد بدأت المرحلة الأخيرة والعظيمة من عهد الكشوف الجغرافية ومعرفه المجتمعات التي ظلت خارج دائرة معرفة العالم الغربي والحضارة التكنولوجية له في نهاية القرن الثامن عشر ، وفي نفس الوقت فان الثورات الثقافية والسياسية قد يسرت اخضاع مبادىء دينية معينة للتساؤلات .

وبذلك فتحت الطريق لمناقشة موضوعات ومسائل كانت في السابق ممنوعة . ولذلك سرعان ما شاهد القرن التاسع عشر احياء الاهتمام بدراسة أصل الانسان ووحدة ار تعدد الاجناس البشرية وثبات أو تبادلية الأنواع الحيوانية . وهكذا فإن علم الانثربولوجيا قد نما وتطور باعتباره نتاج للدراسات المعاصرة لتصنيف الاجناس البشرية والملامح المميزة لتشريح الانسان وتاريخ المستوطنات البشرية وتصنيف اللغات ومقارنة القواعد اللغوية والمقارنة بين المجتمعات البدائية والقديمة والتطور التاريخي للاقتصاد والصناعة عند الانسان .

واخيراً في سنة ١٨٤٠ وضع مبدأ هام لدراسة الحقائق الانسانيه وهو مبدأ التطور ، وقد كان ذلك قبل أن ينشر سير تشارلز داروين Sir Charles Darwin كتابه المشهور عن أصل الأنواع سنة ١٨٥٩ وهذا المبدأ الذي آثار محاولات قوية يعتبر نقطة البدء للانثربولوجيا (١)

وأن كان ايفانز ريتشارد يرى أنه لا يمكن تحديد نقطة معينة بالذات بدأت عندها الانثربولوجيا الاجتماعية.

(١) دائرة المعارف البريطانية

The New Encyclopeadia Britannica. Anthropology, p. p. 968—975

وهو يعتبر أن القرن الثامن عشر يمثل فترة النشوء الأولى لهـذا العلم وأن الانثربولوجيا وليده عصر التنوير وأنها ظلت تحمل كثيراً من الملامح المميزة لذلك الاصل خلال كل تاريخها حتى اليوم (١) .

ومع نهاية القرن التاسع عشر فان النظرة التطورية evolutionary قد حددت مهمـة العلم الجديد وكان يعتقد أن المهمة الرئيسية للانثربولوجية هي تصنيف مختلف المجتمعات والثقافات وتحديد المراحل والحالات التي مرت بها كل الجماعات الانسانية .

ويمكن أن نلمس الفرق الهائل بين الانثربولوجيا الاجتماعية كما هي عليه الان وبين ما كانت عليه في أواخر القرن التاسع عشر من مقـارنة الدراسات العديدةالتي يخرجها العلماء المحدثون : فلقد كانتمعظم الدراسات الانثربولوجية المبكرة تسيطر عليها النزعة النظرية وتهتم بوجه خاص بالبحث عن اصول النظم مثل اصول الدين والنظام الطوطمي وما إلى ذلك . أما الان فان الغالبية العظمى من الدراسات تتجه اتجاه حقلي تجريبي تمتزج فيه الملاحظة بالتحليل (٢)

طبيعة الانثربولوجيا :

من القضايا الهامة التي تثير الجدل والمناقشات بين علماء الانثربولوجيا منذ النشأه الاولى لهذا العلم في القرن الماضي وحتى الآن القضية القديمة المتجددة عن طبيعة هذا الفرع من فروع المعرفة وهل هي علم كالعلوم الطبيعية ام انها أحـد العلوم الانسانية ويرتبط بهذه القضية اعتبارات أخرى عديدة مثل تحديد الهدف

---

(١) ايفانز برتيشارد الانثروبولوجيا الاجتماعية ـ مرجع سابق ص٤٤،٤٥

(٢) احمد أبوزيد : تايلور ، مرجع سابق ص ١٠

من اجراء الدراسات الانثربولوجية وتأثير ذلك فى توجيه تلك الدراسات وتكوين المدارس الفكرية الانثربولوجية المختلفة وكذلك علاقة هذا العلم بالمعارف العلمية الاخرى والمناهج التى يتبعها فى الدراسة والمفهومات المستخدمة كاداه تحليليه واطار تصورى لهذا العلم .

ويمكن ان نميز بين اتجاهين رئيسين فى هذا المجال ، الاتجاه الاول يعتبر الانثربولوجيا علما كالعلوم الطبيعية ولذلك فانه يجب ان يتبع فى دراسته المناهج الاستقرائية مثل باقى العلوم الطبيعية ويستتبع ذلك أن يتحدد الهدف من الدراسات الانثربولوجية اسوه بهدف العلوم الطبيعية وهو التوصل الى اكتشاف القوانين الكلية وتحليل الوقائع الجزئية بردها الى قواعد عامة (١)

ويشيع هذا الاتجاه بصفة خاصة فى بريطانيا . ومن زعماء هذا الاتجاه العلامة رادكليف براون Radcliff-Brown الذى كان يعتبر الانثربولوجيا الاجتماعية موضوعا علميا أو فرع من العلم الطبيعى ، والعلم الطبيعى عنده هو البحث المنهجى فى بناء الكون كما تظهره لنا الحواس ، ويتفرع العلم الى عدد من العلوم الهامة المنفصلة التى يعالج كل منها نوع معين من الابنية بقصد اكتشاف الخصائص المميزة لكل الابنية المندرجة تحت هذا النوع ، وكان يرى ان هناك مكاناً لنوع آخر من العلم الطبيعى سوف توجه الى اكتشاف الخصائص العامة للابنية الاجتماعية التى تتألف من الكائنات الانسانية وكان تصوره لتكون الابنية الاجتماعية من الكائنات الانسانية يعد امتداداً لتصور العلامه سبنسر Spencer للمجتمع على أنه جزء من النظام الطبيعى للكون ويدخل فى تركيبه ولذلك يشبه

---

(١) احمد أبوزيد - تايلور : مرجع سابق ص ١٨٨

المجتمع بالكائن العضوى اى يشبهه بالجسم الحى فى كل نواحيـــه وخصائصه ومقوماته ووظائفه وانه يتطور كما تتطور الكائنات العضوية أو الكائنات الحية الاخرى (١)

وكان راد كليف براون يرى انه يجب أتباع الطريقة العلمية فى دراسة الابنية الاجتماعية اى الطريقة الاستقرائية التى تعتمد على الملاحظة والمقارنة والتصنيف والتعميم والتى تستخدم فى العلوم الاخرى كعلم الحيوان مثلا بقصد الوصول الى قوانين عامة كلية .

اما الاتجاه الثانى ويشيع فى الولايات المتحدة الامريكية ،فيرى اصحابه ان الانثربولوجيا اقرب فى طبيعتها الى الدراسات الانسانية Humanities ويتبع انصار هذا الاتجاه فى دراساتهم الطريقة التاريخية التى تقوم على تعليل احدى الوقائع او الظواهر الجزئية المعينة بواقعه او ظاهرة جزئية معينة اخرى وترتب الوقائع كلها فى تسلسل تاريخى او محـــاوله تمييز وتحديد اصولها الاولى.

ومن اتباع هذا الاتجاه علماء الاثنولوجيا بحيث يمكن اعتبار اتباع احد هذين الاتجاهين مدخلا للتمييز بين علماء الانثربولوجيا وعلماء الاثنولوجيا.

ويناصر العلامة ايفانز بريتشارد هذا الاتجاه الثانى صراحة حيث اشار فى محـــاضرة ماريت التذكارية Marett Memorial Lecture الى ان الانثربولوجيا اقرب فى طبيعتها الى التاريخ مثلا والعلوم الانسانية على العموم وانه بالتالى يجب استخدام المناهج والطرق التى يستخدمها علماء التاريخ فى

---

(١) ايفانز بريتشارد.، الانثروبولوجيا الاجتماعية مرجع سابق ص ١٧

دراساتهم اى ان الانثربولوجيــــا الاجتماعية فن وليست علم وان مهمة الانثربولوجى الاجتماعى هى دراسة النسق الاجتماعى الذى هو نسق اخـلاقى وليس نسق طبيعى (١)

ويشير ا.د. احمد ابوزيد الى ان نوع التعليم او التدريب الذى تلقاه العلامه ايفانز بريتشارد قد يكون هو المسئول عن اتباعه لهذا الاتجاه اذا انه كان قد درس التاريخ فى اول الامر فى جامعـــة اكسفورد وحصل فيه عـلى درجته الجامعية الاولى قبـــل ان يذهب الى لندن ليتخصص فى الانثربولوجيا الاجتماعية .

ويمكن تصنيف علماء الانثربولوجيا من حيث اتباعهم لاحـــد هذين الاتجاهين فى دراساتهم وابحاثهم ، وان كان بعض العلماء يستعين بالمنـاهج المستخدمة فى كلا هذين الاتجاهين ومن ذلك العلامه تايلور E.B. Tylor

---

(١) ايفانز برتيشارد : الانثروبولوجيا الاجتماعية مرجع سابق ص ٦

الخصائص المميزة للانثربولوجيا كتخصص علمي اكاديمي :

إذا ما تكلمنا عن السمات والخصائص المميزة للانثربولوجيا كتخصص علمى أكاديمى فإننا نحاول معرفة ما الذى يميز الانثربولوجيا كفرع من فروع المعرفة عن الفروع الأخرى للمعرفة العلمية ، وبعبارة أخرى نحاول الاجابة على التساؤل عن الشيء المميز للانثربولوجيا الذى يجعلنا نطلق عليها اسم علم الإنسان رغم وجود الكثير من العلوم والنظم العلمية التى تختص بجانب أو أكثر من الانسان وأعماله .

ويتوقف هذا إلى حد كبير على الإتجاه الذى نتبعه فى النظر إلى علم الأنثربولوجيا وهل هو علم إنسانى أم أنه علم طبيعى وبالتالى فإنه ينظر إلى الإنسان كجزء من الطبيعة ومن الكون بكل ظواهره وعلى ذلك تجرى دراسة الإنسان طبقا لمبادىء ومناهج العلم الطبيعى . ومن هذا المنظور نجد أن هناك أحد فروع الأنثربولوجيا يختص بالبناء الفيزيقى وبالعمليات الفسيولوجية للجنس البشرى وبالأصل التطورى له . ويعرف هذا الفرع باسم الأنثربولوجيا الفيزيقية وأحيانا يطلق عليها اسم البيولوجيا البشرية (١) ولكن الإنثربولوجيا تتضمن قدرا أكبر بكثير من مجرد دراسة الطبيعة الفيزيقية للانسان أو التاريخ الطبيعى له . انها تهتم بأنماط السلوك المختلفة للانسان ومنتجاته الثقافية بحيث يمكن القول انها تهتم بالجوانب الفيزيقية وبالجوانب الثقافية والاجتماعية للانسان أيضا . أى أن الأنثربولوجيا هى علم الإنسان والثقافة أى أنها إلى جانب كونها علم طبيعى فهى علم اجتماعى وسلوكى بصفه رئيسية أيضا وبالإضافة إلى

---

(١) E. A. Hoebel. E. L. Frost Culticral and sociol anthropology Mcgnow - Mill Co M.Y 1976, p. 5

ذلك فإنها تهتم بالفنون وتتجه جهود الباحثين الأنثربولوجيين لمعرفة الطرق الكلية للحياة لنوعيات مختلفة من الشعوب فهى علم انسانى أيضا .

ويدرس الانثربولوجيون الكائنات البشرية حيثما يجدونهم سواء فى ثلوج القارة الجنوبية القطبية أو فى فيافى الصحراء أو فى البرارى والاحراش والغابات أو فى المناطق المعتدلة وهم يبحثون عن مخلفاتهم وأثارهم فى مواقع وحفريات ما قبل التاريخ ويقومون بدراسات حقلية فى قرى الشعوب البدائية وفى المراكز الحضرية فى الحضارات الحديثة . فالأنثربولوجيا تختص بكل من الإنسان الحضرى وبالشعوب القائمة الآن . وكما يقول Clyde Klukhohn أن الأنثربولوجيا تمسك بمرآة كبيرة للانسان وتدعة ينظر إلى نفسه فى تنوعه اللانهائى » . (١) وعلى مدى سنوات عديدة فإن الاهتمامات الفكرية للانثربولوجين الاوروبين كان اكتشاف المجتمعات والعادات الغريبة بالنسبة للمعايير والمستويات الغربية وكان الأنثربولوجيون مشغولين بجمع بيانات على مستوى العالم عن المنتجات الاجتماعية والثقافية للانسان لكى يستكملوا صورة الكائن الإنسانى التى يمكن أن تنعكس فى المرآه . وقد تم انجاز قدر كبير من ذلك العمل الآن ولم يتبقى إلا قدر قليل جداً من المجتمعات التى لم يتم الكشف عنها وتسجيل أنماط حياتها وبالرغم من ذلك فما زال هناك الكثير من التساؤلات والمشكلات التى تنتظر الحل .

كما أن حدود وأبعاد الأنثربولوجيا قد أخذت تنتقل من التقارير المسحيه والبيانات الاثنوجرافية إلى التحليل المتعمق لما هو كامن وراء الصورة وإلى التساؤلات الخاصة بالتطور الإنسانى ودوافعه والى البناء الاجتماعى والوظيفة .

---

(١) Clyde Kluckhohn : Mirror of Man. p. 11

واصبحت الاوصاف الخاصة بتنوع أنماط الحياة التى لوحظت فى المجتمعات المختلفة تستخدم كمادة أساسية فى تقـديم الحقائق لتفسير السلوك الاجتماعى للانسان الذى يمثل موضوع الاهتمام الرئيسى للانثربولوجيا الآن .

وسوف نعرض فيما يلى مجموعة السمات الاساسية الرئيسية التى تمـيز هذا الفرع من فروع المعرفة العلمية منذ نشأتة وحتى الان .

أولا : الدراسة الحقلية فى مقابل التجارب العملية :

ما يميز الأنثربولوجيا عن غيرها من فروع العلم الاجتماعى منذ نشأة هذا العلم وحتى الان هو اعتمادها على الدراسة الحقلية للحصول على بياناتها واختيار فروضها .

ولقد كان الاتجاه العام فى الدراسات الانثربولوجية فى القرن الماضى ينحو نحو الدراسة النظرية الوصفية البحتة، وكانت معظم هذه الدراسات يقوم بها علماء لم يتح لهم القيـام هم أنفسهم بملاحظة الوقائع التى يقيمون عليها تأمـلاتهم ونظرياتهم ، وكانوا يعتمدون على كتابات الرحالة والمبشرين والحكام الاداريين فى المستعمرات لتزويدهم بالمعلومات والحقائق المطلوبة ، ومن أمثـال هؤلاء العلماء سير جيمس فريزر .

ثم ساد الشعور بأن هذا العلم الناشىء لن يتقدم الا اذا قام العلماء بأنفسهم بالدراسات الحقلية واعتمدوا على أنفسهم فى جمع الحقائق والوقائع اللازمة وقد أسفر هذا الشعور المتزايد عن ارسال بعثة جامعة كمبردج لدراسة جزر مضايق توريس Torres Straits الواقعة بين غينيا الجديدة وشمال استراليـا والتى قضت هناك عاما واحداً فقط ١٨٩٨/١٨٩٩ وتعتبر أول بعثة علمية للقيام بدراسة حقلية صحيحة . ولم يكن بين أعضاء هذه البعثة أحد علماء الانثربولوجيا

المتخصصين فقد كان هادون A. C. Haddon رئيس البعثة من علماء الحيوان وكانت البعثة تضم ريفرز W. H. Rivers وهو طبيب وعالم نفسى وسلجمان C. G. Seligman وكان متخصصا فى الباثولوجيا والامراض المتوطنة وماكدوجال W. Mcdougall وميرز G. S. Myers وسيدنى راى S. Ray وويلكنز A. Wilkins .

ويعتبر ايفانز برتشارد هذه البعثة نقطة تحول فى تاريخ الانثربولوجيا الإجتماعية فى بريطانيا . وان الخبرة الحقلية اصبحت تعتبر جزءا رئيسياً من تمرين طلاب هذا العلم وبرزت أهمية التفرغ والتخصص الكاملين(١).

وقد قام العلماء الأنثربولوجيون بعد ذلك بارساء قواعد الدراسة الحقلية الصحيحة المركزة ، ومن أبرز هؤلاء العلماء العلامة راد كليف براون الذى قام بدراسة فى جزر الاندمان Andaman Islands لمدة عامين ما بين ١٩٠٦/١٩٠٨ والعلامة مالينوسكى الذى امضى أربعة أعوام كاملة مابين ١٩١٤/١٩١٨ فى دراسة سكان جزر التروبرياند فى ميلانيزيا Trobriand Islanders

وأصبحت الدراسة الحقلية هى المصدر الرئيسى للحصول على البيانات والحقائق اللازمة للبحث الأنثربولوجى . فى مقابل اعتماد الباحثين فى بعض التخصصات العلمية اخرى على التجارب العملية للتعرف على الحقائق فحين يواجه العلماء وعلى سبيل المثال علماء الكيمياء مشكلة ما فإنهم يقومون بإجراء تجارب مصممه لذلك لاختبار مدى صدق الفروض الخاصة بهم . ومنهج الفحص والاختبار المعملى يقوم على التحكم فى مقدار وفى فعل عوامل معينة معروفة لكى نحدد كيف تؤثر فى بعضها

---

(١) على اسلام الفار : الانثروبولوجيا الاجتماعية مرجع سابق ص ٧

البعض أو فى عامل أو عنصر مجهول ، وهـــذه الاداة الأساسية للعلوم الفيزيقية ليست متاحة فى العلوم الإجتماعية ولذا فإنها ينبغى أن تقصر نفسها إلى حد بعيد على ملاحظة المواقف القائمة أكثر من الاعتماد على تصميم التجارب الملائمـة متطلباتهم .

ولقد اقام الأنثربولوجيون بديلا ملائما بدرجة كبيرة يقوم على الجمع بين الدراسة الحقلية والمنهج المقارن وعندما يواجهون مشكلة تتطلب الحـــل فإن الأنثربولوجيين المحدثين يبحثون عن مجتمع أو سلسلة من المجتمعات التى تتضمن مسبقا مجموعة العوامل الضرورية اختيار النظرية أو الفرض موضوع البحث ، أو قد يبحثون عن البيانات فى التقارير الحقليـــة السابق وجودها فى المكتبات الأنثربولوجية أو يخططون للقيام ببعثة علمية لدراسة قبيلة أو مجتمع مناسب .

وتعتبر الدراسة المشهورة التى قامت بها العالمـــة الأنثربولوجية الأمريكية مارجريت ميد Margart mead عن المراهقة فى جزيرة ساموا Samoa من الأمثلة الكلاسيكية لهذا الإجراء ، ولقد كان ما يعتبره الراشدون حالة عاطفية من الهياج وميـل إلى العصيان عند الصغار دون العشرين من اختصاص التربويين وعلماء النفس لفترة طويلة . وفى العشرينـات وفى الولايات المتحدة الأمريكية كانت ثورة وضغوط المراهقه تقبل بصفة عامة باعتبارها مظاهر طبيعية لعملية النمو ، ولـكن الباحثة الأنثربولوجية ميد M.Mead كانت تشك فى ذلك وفى النظرة التى كانت تعتمد على أعمال العالم السيكولوجى G. Stanley Nall وكان لدى ميد فروض بديلة تقوم على انالاضطرابات العاطفيةالتى يعانىمنها المراهقون فى مجتمعات أمريكا وأوروبا الغربية هى رد فعـل سيكولوجى لضغوط نوعيـة قائمة فى الثقافات الأمريكية والاوروبية ؛ وإنه إذا كان يمكن أن يوجد مجتمع

لا توجد فيه تلك الضغوط الحاكة ولا تكون فيه متغيرات مستترة يمكن أن تنتج القلق العاطفى فإن ذلك المجتمع سوف لا تبدو فيه اضطرابات المراهقة وأن التحول من الطفولة إلى حياة المراهقة سيتم بسهولة ومثل هذا الإستنتاج سوف يشير إلى المحددات الثقافيـــه لسلوك المراهقة . ونظراً لانها كانت على دراية بالكتابات الاثنوجرافية عن بولينزيا Polynesia والبحار الجنوبيـــة ، فقد اعتقدت ميـد أن التنظيم الثقافى والإجتماعى فى Samoa من المحتمل إنه سوف يقدم الظروف الاساسية الواقعـــة تحت الضبط ، ولذلك فقد اختارت ساموا لتكون معمل اختبارها الاول .

وقد أظهـــرت ملاحظتهـــا الحقليـــة كما وردت فى كتابهـــا Coming of age in samoa سنة ١٩٢٨ صدق توقعاتهـا وتنبؤاتها وعدم صدق نظرية J. S. Nall (١).

ثانيا : النظرة التكاملية الكلية الشاملة :

وباعتبارات هذه النظرة التى ينظر بها العالم الانثربولوجى الى المجتمع ويحاول تحقيقها فى دراسة تقوم على أن أى ثقافة تؤلف نسق متكامل ، وأن مهمة العالم الانثربولوجى تنحصر فى دراسة النظم الإجتماعية المختلفة على إنها أجزاء من هذا النسق ، ولذلك فإن من مميزات الانثربولوجيا النظرة الشمولية أو الكليـة الشاملة Holistic method أو إستخدام المنهج الكلى التكاملى . ويمكن أن يرجع السبب فى هذه النظرة واهتمام الانثربولوجيون الرواد وإتجاههم لدراسة المجتمعات شبه البدائية لانها تتميز بانها ذات مدى صغير بسيط وانها أكثر تجانسا من المجتمعات الحديثة كما أنهـا تتغير ببطء ولذلك يسهل على الباحث

---

(١) Hoebel Frost. op. cit p. 7

الانثربولوجى رؤيتها ككل وأن يلم بكل جوانب الثقافة فى المجتمع مستخدما فى ذلك المنهج التكاملى الكلى .

ورؤية المجتمع البدائى كوحدة كلية يسهل ملاحظة تداخل النظم الإجتماعية وتفاعلها أحدها مع الآخر فى المجتمعات البدائية البسيطة عن ملاحظة ذلك فى المجتمعات المعقدة .

وعن النظرة الكلية وتكامل الدراسة يقول هوبل Hoebel أن الانثربولوجيا قد حددت لنفسها قبل كل شئ هدفا رئيسيا هو دراسة الجنس البشرى ككل ، فالعلوم السياسية تدرس الحكومات ونظم الحكم عند الجماعات الإنسانية ، وعلم الاقتصاد يدرس إنتـــاج الإنسان وتوزيع السلع المنتجة وعلم فسيولوجيا أو وظائف الأعصاب Neuro Physiology تدرس نظامه العصبى ، وعلم الهندسة يدرس مساكنه ومبانيه وعلم الموسيقى Musicology يدرس موسيقاه وعلم الإجتماع يدرس مجتمعه ، ولكن لا يوجد علم من تلك العلوم أو العلوم المتخصصة الأخرى مثل الجغرافيا أو التاريخ تقـــوم بالبحث بطريقة منهجية فى كل مظاهر الكائن الانسانى وأنشطته بطريقة موحدة . والكائن البشرى كائن مرتبط بالثقافة كما أنه خالق للثقافة ، وككائنات متطورة فإن اشباه الانسان Hominids قد وصلت إلى مستوى من تطور النظام العصبى مكنتهم من اختراع كثير من الطرق الجديدة للسلوك لم تكن موجودة من قبل فى الدليـل الوراثى له ، ولقد بدأ هـذا يظهر منذ خمسة ملايـــين سنة أو أكثر (١) ومنـذ ذلك الوقت فإن السلوك الإنسانى كله قد أصبح بيولوجيا وثقافيا فى وقت واحـــد . والغرض الأساسى المترتب على هذه الحقيقة قد صاغه بطريقة جيده العالم المتخصص فى علم

---

(١) Hoebel Frcest. cop. cit, p. 5

الوراثة geneticist ذو التوجيه الأنثروبولوجى Theodosius Dobzhansky فى قوله أن « التطور الانسانى يمكن فهمه فقط كنتاج للتفاعل بين هذين التطورين » وهنا تكمن الوحدة الاجتماعية والبيولوجية للجنس البشرى ومن القضايا الأساسية للأنثربولوجيا أنه لا يوجد جـــزء يمكن فهمه بالكامل وبدقه بمعزل عن الكل ، وقياساً على ذلك فإن الكل لا يمكن ادراكه بدقه بدون المعرفة المتخصصة الدقيقة للأجزاء . ولفهم أى جانب من السلوك الجنسى للانسان مثلا فإنه ينبغى أن نبحث ذلك فى إطار خصائص التركيب الوراثى والفسيولوجى له ونسق القيم والابنيه الاقتصادية والقرابية والدينية والسياسية لـــكل مجتمع إنسانى . وتقتبس الانثربولوجيا وتضيف إلى أى حقل من حقول المعرفة العلمية وينبغى أن تكون مهارات البـــاحث الأنثربولوجى متنوعة بدرجة كبيرة ولكن وحدة العلم تقوم على التركيز على الطابع الكلى للانسان والثقافة .

ويشير مندلبوم O. J. Mandelbaum إلى أن النظرة الـكلية تقوم عـلى افتراض أن الباحث حر فى دراسة نوع السلوك الانسانى الملائم للمشكلة أو الموضوع الذى يبحثه وعلى سبيل المثال فإن الباحث الأنثربولوجى الذى يقوم بدراسة النمو الاقتصادى فى مجتمع افريقى معين قد يجد أن عليه أن يدرس دورة المراسم وكذلك العلاقات الاسرية إذا كان عليه ان يتعمق فى دراسة عمليات التغير الاقتصادى فى ذلك المجتمع ، كما أنه ينبغى عليه أن يأخذ فى الاعتبار متابعة تطور ونمو الثقافات القديمة وكذلك انماط التجمعات السكانية وطرق التجارة وأساليب المعيشة وكذلك أشياء متعددة مثـــل أنماط الاوانى الخزفية .. الخ .

وقد يصعب على باحث انثربولوجى واحد أن يتناول كل جوانب الثقافةفى

التجمع حتى ولو كان التجمع بسيطا وصغيرا ، ولكن من خلال الجهود المشتركة للأنثربولوجين فإنه يتم الكشف عن كثير من الجوانب الثقافية فى التجمع موضوع البحث .

ثالثا : استخدام المنهج المقارنة :

السمة الثالثة المميزة للانثربولوجيا هو ذلك الالتزام القديم العميق الجذور والذى ما زال قائما حتى الآن بالمنهج المقارن(١) ويرفض الباحثون الانثربولوجيون قبول أى تعميم عن الطبيعة الإنسانية يكون مستندا إلى خبراتهم مع مجتمعاتهم الخاصة وحدها أو حتى مع مجتمعين أو ثلاثة فقط وخاصة إذا كانت تلك التجمعات تنتمى إلى نفس المنطقة الثقافية ذات التقاليد الواحدة والتى قد شبوا فى ظلها . وإذا كان على الباحث أن يتحدث عن الجنس البشرى وعن الطبيعة الانسانية فإنه يحتاج للمعرفة الفعلية بالمدى الكلى للبيولوجيا البشرية ولسلوك الجنس البشرى والاشكال الاجتماعية الانسانية . ولاكتساب تلك المعرفة فإن الانثربولوجين الفيزيقين يدرسون ويقارنون اوسع مدى ممكن من الشعوب الانسانية القديمة والحديثة ليحددوا ما هو عام وما هو خاص وفريد من السمات

---

(١) ويبرز الطابع المقارن فى الدراسات الانثربولوجية المبكره جدا ومن ذلك ماكتبه المبشر الفرنسى الجزويتى Joseph Francois Lafitau عن المقارنة بين ثقافات هنود Jroquois و Huron وبين ثقافات الاغريق والرومان وتقوم على الدراسة الحقلية التى قام بها Lafitau حين كان مبشرا فى نيويورك القرين من ١٧١٢ — ١٧١٧ وعنوانها «عادات الامريكان المتوحشين ومقارنتها بعادات الازمان الغابره» Moeurs des Sauvages Ameriquains Comparées aux moeurs des premiers Temps.

البيولوجية للجنس البشرى ، كما يدرس الانثربولوجيون أوسع مدى ممكن من المجتمعات الانسانية سواء بدائية أو متحضرة فى كل أنحاء العالم ليحددوا ماهو عام وشائع وما هو خاص وفريد من السمات الاجتماعية والثقافية للسلوك الانسانى ويحاولوا إيجاد الارتباط بين المظاهر الفيزيقية والثقافية المتنوعة .

وتبرز أهمية استخدام البحث الثقافى المقارن فى واحد من العلوم السلوكية الأخرى فيما أعلنه مؤخرا أحد علماء النفس البارزين وهو D. T. Campbell فى مقال له حيث يقول ولقد قامت الشواهد الانثربولوجية ويمكن أن تستمر فى ذلك باداء خدمة ذات قيمة كبرى تتمثل فى كونها بمثابة بوتقة يمكن أن تضع فيها للاختبار الدقيق جـــدا النظريات السيكولوجية الاولية ، وتتيح للمرء أن يحذف منها وأن يختار من بين البدائل طرق حين لايمكن أن يتاح لنا فى إطار ثقافتنا الخاصة إجراء فحوص معملية ودراسات ارتباطية .

ويدخل المنظور المقارن فى كل مستوى من مستويات التحليل الانثربولوجى ويضرب دافيد مندلبوم مثالا لتوضيح مستويات النظرة المقارنة مستمد من الهند فيقول أنه حين يدرس الباحث الانثربولوجى التنظيم الاجتماعى فى إحـــدى القرى بالهند فإنه يكشف عن طريقة تنظيم أهل القرية لأنفسهم ثم يجرى مقارنة بين الجماعات المختلفة فى القرية ليتعرف على أوجه التشابه والتمايز بينها ، ولما كان القرويون يرتبون أنفسهم فى تدرج هرمى متسلسل من الجماعات الطبقية فإن من مهام الباحث الانثربولوجى الذى يقـــوم باجـراء المقارنة أن يلاحظ انماط السلوك المتشابهه والمتمايزة فى كل مستوى من المستويات الطبقية وأن تتوافر لديه القدرة على إدراك الجوانب المتشابهه وكذلك الجوانب المتمايزة ومن ثم فان الباحث الانثربولوجى يمكنه أن يقارن تنظيم القرية ككل بنظيره فى القرى

الأخرى فى نفس المقاطعة ، وسوف يتمكن باجراء مثل تلك المقارنة مرة ثانية من تحديد أوجه التشابه والتمايز بين الانماط المختلفة للقرى ، وهكذا يتسنى أيضا تفسير بعض أنماط السلوك القديم للقرويين وكذلك التنبؤ باستجاباتهم المحتملة تجاه بعض المواقف فى المستقبل ، وفضلا عن ذلك فان المقارنة بين تنظيم القرى فى عدة مناطق مختلفة فى الهند قد يؤدى إلى صياغة بعض الملامح العامة المشتركة فى الثقافة الهندية ككل . وهذا بدوره قد يسمح بالمقارنة الثقافية للترتيب الطبقى فى قرى الهند التى بها أنماط من التدرج الطبقى الاجتماعى مع مناطق أخــرى مماثلة فى اليابان أو الولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال وعلى المــدى الواسع لتحليل تلك المقارنات فان قضية التدرج الطبقى قد تناقش كسمة عامة للثقافة والمجتمع الانسانى .

رابعا : استخدام مفهوم الثقافة كمفهوم اساسى :

يشير هوبل إلى أن من السمات الاساسية المميزة للانثربولوجيا هو تطويرها وتنميتها لمفهوم الثقافة وأهمية هذا المفهوم فى الفكر الانثربولوجى . « والثقافة هى النسق المتكامل من انماط السلوك المتعلمية التى تميز أعضاء مجتمع ما والتى تنتج عن الميراث اليولوجى ، والثقافة لم تتحدد من قبل وراثيا فهى ليست غريزية وانما هى نتيجة اختراع اجتماعى ينتقل ويستمر من خلال عمليات الاتصال والتعلم فقط» .

وتلك هى المكونات الاساسية لمفهوم الثقافة كما يستخدم هــذا الاصطلاح حاليا معظم الانثربولوجيين . ويوجد بالطبع صياغات نفطية أخرى عديده ، ومع ذلك فإن Krocber & Kluckhohn بعد مراجعة وتقديم ما يقرب من خمسمائة صياغة واستخدام لهذا المفهوم قدموا التعريف التالى :—

« تتكون الثقافة من انمـاط ظاهرة ومستترة من السلوك المكتسب والذى

ينتقل عن طريق الرموز ويشكل الانجازات المميزة للجماعات الانسانية والمتضمنه والمحددة فى المنتجات الانسانية . ولب الثقافة يتكون من الافكار التقليدية (لأى المشتقة والمختارة تاريخيا) والقيم المرتبطة بها بصفة خاصة ويمكن اعتبار انساق الثقافة نتاج للفعل من جهة وعامل مثير لحدوث الفعل من جهة أخرى ».

ولكل مجتمع على حدة ثقافته المتميزة ويستتبع ذلك أن يكون السلوك المميز لأعضاء مجتمع ما فى بعض جوانبه . مختلفا بطريقـــة ذات مغزى عن السلوك المميز لأعضاء كل المجتمعات الأخرى . وقد أظهرت الدراسات الانثربولوجية أن السلوك المتميز للجماعات الانسانية المختلفة هو بصوره حاسمة نتاج الخبرة الثقافية أكثر منه نتاجا للميراث التكوينى .

ويتميز عمل الانثربولوجيين باستخدام طريقة خاصة لتنمية وتطوير مفهوماتهم وبناء نظرياتهم . فهم يبدؤن فى التعميم والتنظير من واقع الشواهد الامبريقية ، وإلى بناء وتطوير مفهوماتهم عما يلاحظونه . ولا يبدأ الباحث الانثربولوجى عمـله مثل الباحثين فى العلوم الاجتماعية الأخرى أى بنموذج معين أو بمجموعة من الفروض المجردة ويوجه عمله الحقلى لاختبار ذلك النموذج أو تلك الفروض بل هو يميل للاتجاه لصياغة مفاهمية بالاتجـاه من أسفل إلى أعـلى أكثر من ميلة للقيام باتخاذ صيغ مجردة يتجه من أعلى إلى أسفل .

استخدامات الانثربولوجيا وفائدتها :

يتميز الانسان عن سائر الكائنات الحية برغبته الملحة فى معرفة نفسه ، فدراسة الانسان لذاته واشباع رغبته فى معرفة نفسه قد يـــكون فى حد ذاته هدفا لأى فرع من فروع المعرفة المنهجية العلميـ ـة . ووصول الانسان إلى مزيد من الفهم لنفسه وبنفسه سوف يترتب عليه زيادة قدرته عـلى توجيه مستقبلة بمزيد من

الذكاء فيما يختص بما يسعى لتحقيقه ووسائل تحقيق ذلك وسوف يتيح له ذلك مزيد من الفهم لمشكلاته وكيفية معالجتها بفاعليه .

والانثربولوجيا من التخصصات العلمية التي تساعد في القاء الضوء على كثير من الحقائق وعلى طبيعة المسائل الاجتماعية العامة لاشباع فضول الإنسان لمعرفة أسباب كثير من الموضوعات والتساؤلات الملحة التي ترد على ذهن الإنسان وتجدر الاشارة إلى أن الانثربولوجيا لم تتوصل بعد إلا إلى القليل من الاجابات الحاسمة او النهائيـــة لكثير من الموضوعات التي تعالجها ، ومن أمثلة تلك الموضوعات التساؤل عن أسباب ذلك التنوع الكبير في السلوك الانساني وتفسيره والتساؤل عما إذا كان هناك عموميات أو جوانب عامة عند كل البشر في بعض جوانب معينة من سلوكهم . وهل وجود النظام الأسرى ضروري وهل هناك ما هو أفضل منه . يعني هل توجد طرق أفضل لانجاب وتربية الأطفال أكثر مما تقدمه الأسرة النووية الحديثة ، وهل توجد طرق أفضل لاستخدام المصادر الطبيعية وموارد البيئة مما نشاهده الآن ونحن قرب نهاية القرن العشرين . وهل هناك مؤشرات عامة في النظم الاجتماعية والقيم الانسانية للضبط الاجتماعي تجعل فكرة إقامة قانون عالمي ممكنه ؟ أم أن هناك بعض الغرائز العدوانية الأساسية والعوامل الأخرى المغروسة في الطبيعة البشرية تجعل أن تحقيق مثل هذا الهدف مستحيل ؟ وهل العنف شيء حتمي لا يمكن تفاديه وهل الحروب بالتالي ضرورة حتمية لا يمكن تجنبها ؟ .

وإذا كان الانسان بدأ في ارتياد آفاق وعوالم جديدة في الفضاء فهل هناك نظم وقيم معينة منحدرة من الماضي البعيد منذ العصر الجليدي مثلا وعبر الخمس ملايين سنة للحياة وقيام التجربة الانسانية على ظهر الارض ينبغي على الانسان

أن يحملها معه إلى تلك العوالم الجديدة وإذا صح ذلك فما هى تلك القيم والنظم

ومن التساؤلات التى تطرح فى الآونه الاخيرة ما إذا كان من الحكمة ادخال اساليب زراعية أكثر تقدما وترتيبات واجراءات صحية وأساليب تكنولوجية أكثر تقدما ونظم للتعليم العالى وتنظيم الزواج والاسرة والانجاب فى المجتمعات والمناطق التى عاشت دهوراً طويـــلة بدون ذلك أم أن تلك المجتمعات تتمتع بالتكامل والاستقرار بدون ذلك .

وهل من المتوقع أن يحفل المستقبل بتغيرات راد يكالية فى تكوين الانسان وقدراته العقلية ، أم أن الانسان قد وصل الى مرحلـــة الكمال من الزاوية البيولوجية أى أنه قد وصل إلى قمة تطوره إذا كنا نعالج الموضوع من منظور تطورى واخيرا ما هو الإنسان؟وهل هو ذلك القرد العارى The Naked ape كما أطلق عليه احد علماء الحيوان ، Dr. morris وما الذى يجعله مختلفاً عن باقى عالم الحيوان ، هل هو استخدام الادوات ام تطور اللغـــة أو العقيدة الدينيـة أو الفضول الـــذاتى والرغبـة فى المعرفة . ولقـــد توصل الانثربولوجيون الآن إلى معرفة محددة تماما لمـا كان عليه الانسان الأول وإلى معرفة قدر من عمليات الفكر عندهم وأنتاجهم وعقيدتهم .

ولا يمكن القول بأن الانثربولوجيا وحدها هى التخصص العلمى الوحيد الذى يعالج مثل تلك التساؤلات إذ أنها تقدم اجابات محددة لكل تلك الاسئلة إلا انه يمكن القول أن كثير من تلك التساؤلات يدخـــل فى صميم الاهتمامات الاساسية للانثربولوجيا ، بل وزيادة على ذلك فان التخصصات العلمية الأخرى التى تعالج بعض تلك التساؤلات لا يمكنها أن تصل إلى حلول أو اجابات مرضية لها بدون قدر من الفهم والأدراك لما توصلت اليه الأنثربولوجيا .

ولم تعد اصطلاحات مثل الثقافة البدائية والنسبية الثقافية والمنهج المقارن والصدمة الثقافية يقتصر استخدامها على الأنثربولوجيا فقط بل أصبح للمفهومات والمناهج الأنثربولوجية تأثير ملحوظ على التخصصات العلمية الأخرى . من علوم اجتماعية وطبيعة .

ويعتبر النمو السريع للانثربولوجيا كعلم اكاديمى وتشعبها إلى مجموعة من العلوم الفرعيه مؤشراً ملموساً لمدى نجاح الانثربولوجيا فى الاسهام فى نمو البحث عن المعرفة المتعمقة بالطبيعة البشرية والسلوك الانسانى، ويشير العلامة Hoebel & Frost إلى أنه قبل الحرب العالمية الثانية كان هناك عدد محدود من الجامعات والكليات الجامعية فى الولايات المتحدة الأمريكية بهـا أقسام علمية للانثربولوجيا وكان هناك عدد محدود من المعاهد العلمية الأخرى يقتصر على تقديم برنامج دراسى أو أثنين فى الأنثربولوجيا ، أما فى سنة ١٩٧٥ فقد كان هناك ما يزيد عن ٢٥٠ قسم متخصص للأنثربولوجيا يمنح الدارسين فيه درجات علميـة متخصصة فى الأنثربولوجيا تدرس بدرجة متزايدة فى المدارس الثانوية والعليا بل فى المدارس العادية وبرامج تعليم الكبار .

وتشير بعض الكتابات إلى أن الدراسات الانثربولوجية المبكرة كانت تستهدف أساساً تقديم العون والإرشاد للحكومات الأستعمارية فى رسم سياستها ازاء مستعمراتها وينوه د. أحمد أبوزيد أن ذلك لا يعنى أبدا أن الانثربولوجيا الاجتماعية كعلم كان من أهدافهـا الرئيسية فى يوم من الأيام تسهيل حكم تلك الشعوب المستعمرة أو إيجـاد حلول لمشكلاتهـا ويشير إلى أن الجانب التطبيقى للانثربولوجيا الإجتماعية وأستخدام نتائج ابحاثها فى أغراض عملية يأتى فى الواقع فى المقام الثانى بينما تأتى المعرفة باحوال الأنسان والمجتمع البشرى فى حد ذاتها

بغض النظر عن مدى فائدة تلك المعرفة فى الحياةالعملية فى المقام الأول . ويقول العلامة ايفانز برتيشارد (ليس هناك معرفة اشرف ولااسمى من معرفة الانسان بالانسان من حيث هو كائن اجتماعى) .

ولقد كان من أهداف الدراسات الانثربولوجية منذ بدايتها محاولة التعميم Generalization عن انماط السلوك الانسانى التى تشاهد فى كل ابعادهـــا للوصول الى وصف كلى للظواهر الإجتماعية أو الثقافية وصياغة أو تشكيل وجهة نظر نوعية خاصة بالنسبة للعلوم الأخرى .

وللمعرفة العلمية التى تتوصل اليهـا الدراسات الانثربولوجية أهميـة نظرية قصوى بالنسبة لعلم الإجتماع العام كما أن لها قدرا من الاهمية والفائدة بالنسبة لعلوم أخرى كالاقتصاد والدين وعلم اللغة وعلم السياسة . فقـد اسهمت تلك الدراسات الانثربولوجية فى توجية الباحثين الىأستخدام النظرة الـكلية وتكوين صورة عن مدى تساند العناصر والمـكونات فى المجتمع وتأثيرهـا فى التفاعل الأجتماعى .

ويمكن النظر الى الفائدة التى تتحقق من الدراسات الانثربولوجية من منظور تطور مجالات الدراسة فى هـذا الفرع من فروع المعرفة العلمية ، فعند بداية نشأة هذا العلم وحين كان يختص بدراسةاشكال الحياة الإجتماعية فى المجتمعات البدائيـة ، فإن تلك الدراسات كانت تزود المشتغلين بالدراسات الإجتماعيـة بالمعرفة بانماط من السلوك وأشكال من التنظيم الاجتماعى الموجودة فى مجتمعات قائمة ، الأمر الذى يوجههم الى الحذر فىأصدار الأحكام العامة أو التعميم الواسع النطاق واقامة مبادىء أو قواعد تشمل الجنس البشرى كله ، كلما شاهدوا مظهراً من مظاهر السلوك الشاذ فيردوه الى العوامل الفطرية ، لأن السلوك قد يكون

مرتبطا بظروف الثقافة التى يعيش فيها الأفراد ، وعلى سبيل المثال فان العلامة مكدوجل Mcdoagall قد تأثر باشتراكه فى البعثة التى نظمها هادون ١٨٩٨ وأشترك فيها مع العلامة ريفرز ، وقد اتاح له ذلك التنبه الى ضرورة أخذ المجتمعات البدائية فى الأعتبار اذا كان على الباحث أن يصل الى قوانين عامة للتفاعل الاجتماعى . وفى الربع الأول من القرن الحالى دار جدل بين العلامة الانثرولوجى مالينوفسكى وبين العالم النفسى فرويد واتباعه حول مدى عمومية مفهوم عقده أوديب وارتباط ذلك بالمجتمع الامومى على ضوء الدراسات التى اجراها ومالينوفسكى فى جزر التروبريائد .

وبصفة أساسية فان هدف الانثربولوجيا الكشف عن طبيعة الانسان ككائن مرتبط بالثقافة ومندمج فيها ويعيش فى مجتمعات منظمة كل واحد منها يختلف عن الآخر بالرغم من تشابهها فى كثير من الجوانب وتخبرنا الانثربولوجيا بالحدود العلوية للمدى العريض للخبرات الانسانية حتى الآن . بماهية مؤشرات الجنس البشرى أو الانسانية وبعبارة أخرى الاشياء المشتركه بين جميع أفراد الجنس البشرى .

ومع ظهور المجتمعات النامية حديثة الاستقلال بعد تفكك الامبراطوريات القديمة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية فان الخبراء من تخصصات علميـــة مختلفة مثل القانون والسياسة والاقتصاد أصبحـــوا يهتمون بدرجة متزايده بثقافات شعوب العالم الثالث .

وبرامج المعونه الفنية (التكنولوجية) للنمـــو الاقتصادى والمشروعات الزراعية والبعثات التعليمية وحتى الانشطه التبشيرية يمكنها أن تحقق نجاحاً اذا ما استعانت فى أعمالها بالمعرفه الاساسية لثقافات الشعوب والمجتمعات التى تتعامل

معها . بل ان المخططين وكبار الاداريين ورجال الاعمال سواء من ابناء تلك المجتمعات النامية الحديثة الاستقلال أو من الذين يستقدمونهم من بلدان أخرى اكثر تقدماً وخبره للعمل كمستشارين أو منظمين ورجال أعمال فانهم أصبحوا يعتمدون بدرجة متزايده على الدراسات الانثربولوجية التى تبرز دورها فى تقديم الارشادات لهؤلاء الذين يعملون على ادخال تغيرات مقصوده وتحسينات فى اجزاء كثيرة من العالم . ويمكن القول بان الانثربولوجيا قد أصبحت مقبولة الآن على مدى واسع على أنها فرع من المعرفة العلمية لايمكن الاستغناء عنه فى اعداد المتخصصين والمهنيين فى مجالات مختلفة ومن ذلك مجال الصحة العامة وقد اعترفت منظمة الصحة العالمية بهيئة الامم المتحدة مؤخرة بانها علم يتصل بالعلاج بصفة أساسية .

وفى موضوعات هامة مثل تغـــير أساليب انتاج الطعام وعادات الاكل والممارسات الصحية والحجم الامثل للاسرة وطول العمر وتقليل المعاناه والآلام الجسدية والتمتع بصحة جيدة فان للأنثربولوجيا اسهامات أساسية حيث ساعدت دراساتها فى تبصير الباحثين بمدى قابلية السلوك البشرى للتشكيل باستقراء الثقافات المتعددة والمختلفة .

وتتجلى أهمية الدراسات الانثربولوجية فى مجال التربية والتنشئة الاجتماعية من منظور ان جوانب الثقافة فى مجتمع مالايمكن أن تستمر عبر الاجيـــال الابنقلها من الآباء الى الابناء أى من جيل الى الجيل التالى له . ومايرتبط بذلك من قضية نقل التراث الثقافى كله بجميع العناصر المكونه له كما هى أو انتقاء بعض العناصر التى يتم تعديلها ، والقواعد المنظمة والمحددة لعملية انتقاء تلك العناصر التى يتم تغييرها .

وللدراسات الانثربولوجية أهمية قصوى فى ظروف الحرب وفى تشكيل نتائجها ، ولقد كان للدراسات التى أجرتها العالمه الانثربولوجيه روث بنديكت Ruth Benedict عن الشخصية والثقافة اليابانية خلال زمن الحرب العالمية الثانية أثر كبير فى الوصول الى نتائج مفيدة فى نجاح سياسة الولايات المتحدة الامريكية فى علاقتها مع اليابان عند نهاية الحرب العالمية الثانية .

التخصصات الفرعية للانثربولوجيا :

منذ البداية ينبغى أن نذكر أن الدراسات الانثربولوجية تستهدف بالدرجة الاولى دراسة الانسان ككل من منظور عام وبهذا فهى تتميز عن التخصصات العلمية الاخرى التى تتناول الانسان من منظورات متخصصة فرعية . دون أن ترقى الى المعالجة الكلية الشاملة للانسان . فعلى سبيل المثال اذا كانت الدراسات السياسية توجه اهتمامها لدراسة نظم الحكم والحكومات باعتبارها أحد مجالات النشاط الانسانى والدراسات الاقتصادية تتابع نشاط الانسان فى مجـــال تدبير معاشه وانتاج وتوزيع وتبادل السلع والخدمات.ولا يوجد واحد من تلك التخصصات العلمية يأخذ على عاتقه بصورة منهجية دراسة جميع مظاهر الحيـــاة الانسانية باسلوب موحد فالانثربولوجيا أكثر النظم العلمية الاكاديمية التى تتناول الجنس البشرى بالدراسة شمولا سواء فى الامتداد الجغرافى أو التعاقب التاريخى .

ولقد أصبحت الانثربولوجيا بدرجة متزايده تخصصا علميا مركبا ووفره وتعدد مجالات اهتمامها قد أدى الى انقسامها الى عدد من العلوم أو الميادين الفرعية ومن الناحية الواقعية فانها تشترك فى موضوعات دراستها مع ميادين أخرى مستقلة الدراسة . ومع ذلك فان هناك موضوعات أساسية معينة تمثل بؤرة اهتمام الانثربولوجيا وتميزها عن غيرها من العلوم الاخص . وحين تتداخل

موضوعاتها مع موضوع دراسة تخصصات علم أخرى فانها تعالج موضوعاتها وتتعامل مع البيانات النوعية الخاصة بها بطريقة مختلفة الى حد ما وفى اطار المشكلات المثارة فى الاطار العام للنظرية الانثربولوجية .

غير أن هناك مجموعة من الموضوعات النوعية المترابطة التى يمكن أن نتناولها من منظور تاريخى على أنها تمثل بؤرة اهتمام الدراسات الانثربولوجية ويتمثل ذلك فى وصف وتفسير أوجه الشبه والاختلاف بين الجماعات العرقية الانسانية ولما كانت الجماعات العرقيه تختلف فى السمات الفيزيقة والاجتماعية والثقافية المميزة فان الانثربولوجيا بفروعها المختلفة تهتم بذلك (1) .

ولكى يمكن الوصول الى مستوى مناسب من الدقة فى المعرفة العلمية فانه ينبغى أن يتخصص الباحث الانثربولوجى بالضرورة فى واحد أو اثنين فقط من الحالات الفرعية للانثربولوجيا ، ولقد أصبح من النادر وجود الباحث الانثربولوجى العام وفى مقابل ذلك أصبح هناك الباحثون الانثربولوجيون المتخصصون الذين يتعاونون فى عدة مجالات ، مع ملاحظة أن الميادين أو الحالات ليست منعزله عن بعضها البعض تماما .

وقد انقسم مجال الدراسة العريض لانثربولوجيا القرن التاسع عشر الى أقسام فرعية والى سلسلة من العلوم المتخصصة التى تستخدم مناهجها وأدواتها الخاصة والتى أطلق عليها مسميات مختلفة وتختلف آراء الباحثين فى تحديد المتخصصات الفرعية أو أقسام الانثربولوجيا، ولكن معظم العلماء المعاصرين

---

1) Joseph M. Gneenberg : The Field of Anthropology, in The Intenational Encyclopedia of the Social Sciences, The MaGmillan Co. N.Y. 1972. p. 305

يتفقون على أن الانثربولوجيا حين تدرس الانسان فانها تتناوله من زاويتين تعتبران فى نفس الوقت المجالين الاساسين لهذا الفــرع من فروع المعرفة العلمية .

(ا) الزاوية الاولى أو المجال الاول من حيث كون الانسان جزءاً من الطبيعة أو الظواهر الطبيعية التى تسود الكون وهذه النــاحية هى موضوع الانثربولوجيا الفيزيقية أو الطبيعية Physical Anthropology وتختص بدراسة الملامح البيولوجية المميزه للانسان .

(ب) والزاوية الثانية تتناول الانسان من حيث كونه كائنا حيا ذا ادراك وثقافة ، وهذه النــاحية هى موضوع الانثربولوجيا الاجتماعية Social Anthropology أو الانثربولوجيا الثقافية Cultural Anthropology وتختص بدراسة الملامح الثقافة المميزه للانسان .

وينبغى أن نشير الى التقاليد العلمية القومية والاصطلاحات التى تطلق على العلم وتقسيماته الفرعية . والفـروق فى تلك الاصطـلاحات بين كل من امريكا الشمالية والقارة الاوروبية وعلى سبيل المثال يستخدم اصطلاح الانثربولوجيا الاجتماعية فى بريطانيا أما كبديل أو مرادف لاصطلاح الانثربولوجيا الثقافية أو الاثنولوجيا .

كما يوجد حاليا اتجاه فى فرنسا على سبيل المثال لاستخدام تلك المصطلحات الثلاثة لوصف مستـويات البحث التى تكون نفسها بالتد يج فى استخـدامات الولايات المتحدة الامريكية مثل اصطلاح اثنوجرافى . أما فى أوروبا الشرقية والوسطى فان اصطلاح اثنوجرافى يستخدم غالبا بالمعنى الضيق للاثنولوجيا .

---

(1) The New Encyclopeadia Britannica, op. cit., p. 970.

ويشير العلامة راد كليف براون A. R. Radcliffe-Brown إلى وجود إختلافات منهجية بين المدرسة الامريكية والمدرسة الانجليزية فى تحديد مفهوم ومكانه الانثربولوجيا الاجتماعية .

ففى جامعة شيكاغو تتكون دراسات الانثربولوجيا الثقافية من :

١ — علم آثار ما قبل التاريخ

٢ — اللغويات

٣ — الانثربولوجيا

٤ — الانثربولوجيا الاجتماعية

ويضيف بعض الكتاب إلى تلك الكونات النظرية الثقافية على اعتبار انه - ا تتداخل فى الكونات السابقة . وقد استقل علم الاثار (الاركيولوجى) وكذلك علم اللغويات الذى انقسم بدوره إلى علم اللغويات الوصفى Descripitive linguistic وعلم أصول اللغويات Glottochronology وعلى ذلك يصبح الكونان الحاليان للانثربولوجيا الثقافية هما الاثنولوجيا والانثربولوجيا الاجتماعية من وجهة نظر المدرسة الامريكية .

وإذا كان هناك تباين فى وجهات النظر بين المدرسة الامريكية والمدرسة الانجليزية حول وضع ومكان كل من الانثربولوجيا الاجتماعية والثقافية والقلاقة بينهما فإن هناك خلافا كبيرا حول رسم الحدود الفاصلة بين الانثربولوجيا من جهة ومن ميادين أخرى للدراسة أو فروع للانثروبولوجيا حسب رؤية بعض المدارس . ويتبقى تعريف تلك الميادين ومجالات دراسات وعلاقتها بالدرجات الانثربولوجية على الوجه التالى .

أولا : الانثربولوجيا الفيزيقية Physical Anthropology

الكائن البشرى قبل كل شىء كائن بيولوجى ثم بعد ذلك حيوان اجتماعى ، ودراسة طبيعة الكائن البشرى عن طريق الانثربولوجيا الفيزيقية تعتبر اساسية لفهم طبيعة الكائنات البشرية والانثربولوجيا الفيزيقية هى الدراسات التى تتناول الانسان بوصفه كائناً حياً للطبيعة الانسانية واثر هذه العوامل الحيوية فى مختلف مظاهر سلوكه الفردى والجمعى وتتناول كذلك دراسة اعضاء جسم الانسان وتطورها وتطور ووظائفها واثر هذا التطور فى اعمال الانسان وفى النشاط الاجتماعى

ويقول نيقولا تيما شيف أن الانثربولوجيا الفيزيقية تهتم بتغاير البناء الجسدى للكائنات الانسانية وتصف اختلافاتها وتغيراتها وتقسيم جماعات اسميه احصائية من البشر الذين تبرز عندهم سمات وراثية متشابهة أو سمات خارجية واضحة .

ويقول العلامة هوبل Hoebel أن الانثربولوجيا الفيزيقية تستهدف تنمية كيان دقيق من المعرفة المتعلقة بالميزات البيولوجية للجماعات الانسانية سواء فى ذلك المعاصرون والغابرون .

ومن أهم فروع هذا العلم علم الانثربومترى Anthropometny أو السوماتولوجى Somatology وهو الذى يختص بدراسة مقاييس الأجسام

---

(١) نيقولا تيماشيف : نظرية علم الاجتماع طبيعتها وتطورها ، ترجمة محمد الجوهرى وآخرون مراجعة عاطف غيث ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف بمصر ١٩٧٥ ص ٢٩٠ .

(2) Moebel & Fnost : op. cit., pp. 7,8.

والخصائص الفيزيقة والطبيعة للسلالات والعائلات البشرية على أساس اللون وطول القامة وشكل الرأس أو الجمجمة والدليل الانفى أو النسبة المئوية لعرض الانف بالنسبة إلى طوله وبروز الفك الاسفل وسعة الجمجمة ووزن الخ ... الخ ...

وما يميز الانثربولوجيا الفيزيقة ويجعل ميدان دراستها جزءاً متصلا بميدان دراسة الانثربولوجيا العامة هو اهتمامها بالتنوع البشرى والتكيف وبظاهرة الثقافة بالذات .

ويلعب موضوع التنوع البشرى دورا بالغ الاهمية فى فهم عملية التكيف الانسانى ويمثل موضوعا اساسيا فى كل من الانثربولوجيا الفيزيقية والانثربولوجيا الثقافية على السواء .

ولقد تعرضت المجالات أو الموضوعات التى تهتم الانثربولوجيا الفيزيقية بدراستها بقدر كبير من التغير والتمحيص خلال السنوات الأخيرة أكثر من أى فرع من فروع الانثربولوجيا . ففى السابق كانت تهتم بدراسة الهياكل العظيمة ... وتركز اهتمامها على تاريخ السمات الفيزيقية للانسان ودراسة العمليات التى من خلالها تطور الانسان من أسلافه غير البشريين ، وعمليات التغير المستمرة التى ما زالت تعمل على تغيير شكله الفيزيقى بالتدريج ، وكيف أصبح الانسان تدريجيا مختلفا عن سائر الحيوانات وكيف اكتسب السمات الفيزيقية التى تميزه اليوم ، وكيف يتباين الناس فيما بينهم ومحاوله الوقوف على العوامل المسئولة عن التنوع غير المحدود فى الاشكال البشرية مع اجراء مقارنات وثيقة مع بعض الأشكال الأولى للانسان وبعضها من ناحية وبينها وبين الانسان الحديث من ناحية أخرى ، وعن طريق هذه المقارنات يمكن تعقب سمه بنائيه معينه أو مجموعة باكملها من السمات منذ أقدم الجماعات البشرية التى ظهرت فيها حتى الجماعات

المعاصرة ، أى أنها تركز على البناء الفيزيقى للانسان والتغيرات التى يتعرض لها ومدى تأثر ذلك بالتفاعلات التى تحدث بين الجماعات البشرية ، فالشعوب التى تعيش منعزلة عن بعضها البعض نسبياً تتميز بالبطء الشديد فى تطور شكلها الفيزيقى فى حين ان الجماعات التى تتصل مع شعوب متعددة متباينه فيزيقياً يمكن أن تطرأ عليها تغيرات جذرية فى البناء الفيزيقى فى خلال فترة زمنية قصيرة نسبيا .

أما عن الحالات الحديثة للانثربولوجيا الفيزيقية فيمكن القول بانه قد تطورت انثربولوجيا فيزيقية جديدة منذ الحرب العالمية الثانية ومميزها الرئيسى هو انتقال التركيز من قياس وتصنيف الانماط البشرية الى التركيز بدرجة كبيرة على تأثير الجينات على ثبات أو تغير الجماعات الانسانية ، والدراسات التجريبية والحقلية المرتبطة بالدراسات الايكولوجية التى تتناول العلاقات بين بعض العوامل مثل المؤثرات المناخية والارتفاع وتوزيع الموارد وتوزيع السكان وكثافتهم وتأثير العوامل التكيفية والانتخابية التى تتدخل فى تشكيل الوعاء الوراثى العام للسكان.. وتتداخل هذه العوامل بدورها تداخلا معقدا مع الظواهر الثقافية والاجتماعية . فالبشر لا يعيشون فى فراغ وانما هم فى تفاعل مستمر مع البيئة التى يعيشون فيها ولذلك فان أى دراسة للانسان لا يمكن أن تستكمل مقوماتها اذا هى اغفلت العلاقة بين الانسان والبيئة فى كل مكان وزمان و كيف أثرت البيئة وما زالت تؤثر فى البناء الفيزيقى للانسان ويرتبط بهذا الموضوع موضوع التكيف مع الحياه فى الارتفاعات العالية ، وتمس بعض نواحى مشكله انعدام الوزن فى الفضاء الخارجى ، وتتضمن بعض جوانب الدراسة فى ميدان الانثربولوجيا الطبية التى تتناول دور العوامل البيئة والوراثة فى التاثير فى المرض وعلاجه .

ولقد أصبح الانثربولوجيون الفيزيقيون منذ سنة ١٩٦٠ مرتبطين بدرجة متزايدة بحمل دراسات سلوك الأوليات وبصفة خاصة البابون Baboons والشمبانزى Chimpanzees والغوريلا Gorillas فى محاولة وكتساب معرفة عن السلوك الاجتماعى لاشباه الانسان Protohuman كجانب من التطور .

ومن موضوعات الاهتمام المتصلة بهذا الميدان موضوع انماط النمو عند الصغار وآثار التغذية والعلاقة بين شكل الجسم وشكل الاداء الوظيفى البيولوجى والثقافى على السواء . وكذلك دراسة العمليات العقلية التى عن طريقها تحدث التغيرات البيولوجية فى الانسان (*) وفى البداية كانت الدراسة تتضمن نمو الانسان من الحمل إلى البلوغ وتاثير الظروف البيئة المختلفة على هذا النمو أما الاتجاه الحديث فى هذه الدراسة فيقوم على دراسة الوراثة البشرية . . . .

أى ميكانيزمات الوراثة وأساليب تعديل الصفات الوراثية واساليب تكييف الكائنات البشرية بيولوجيا مع الظروف الجديدة سواء على مستوى الفرد الواحد أو على مستوى النوع باكملة .

وتنقسم البحوث العديدة المتنوعة فى الانثربولوجيا الفيزيقية إلى ميدانين

(*) وقد ظهر مؤخرا نظرية جديدة لعالم بريطانى «روبرت شيلوديك» نشرها فى كتابه «علم جديد للحياه» وتقوم على القول بأن الكائنات الحية بما فيها الانسان تواصل التطور حتى الآن على المستوى العصبي أساسا وليس على المستوى الفسيولوجى وأن تطور الجهاز العصبى هو اساس التطور الفسيولوجى . وان الجهاز العصبى فى مراكزه العليا أى المخ وفى بقية شبكة الاعصاب يتطور بسبب التعليم الذى يؤثر فى خلايا حاملات الخصائص الوراثية تأثيرا مباشرا ودائما (الاهرام ٨٣/٧/٢٢)

رئيسين هما :

(ا) دراسة الانسان كنتاج لعملية التطور .

(ب) دراسة وتحليل الجماعات البشرية .

ورغم أن المناهج المستخدمة فى هذين الميدانين تتباين اشد التباين فى أغلب الأحوال إلا أن النتائج ترتبط ببعضها البعض أوثق الارتباط وكثيرا ما تسهم المعلومات المحصلة من أحد فرعى الدراسة فى القاء الضوء المشكلات القائمة فى الفرع الآخر .

وكلا الاتجاهين يركز على موضوع مشترك هو التنوع البشرى وهذا الموضوع بدوره ذو أهمية جوهرية لفهم عملية التكيف الانسانى التى تمثل موضوعا اساسيا فى كل من الانثربولوجيا الفيزيقية والثقافية على السواء .

ويحظى موضوع التطور الانسانى باهتمام خاص فى الانثربولوجيا الفيزيقية ويثير هذا الموضوع تساؤلين عما حدث ؟ وكيف حدث ؟ وتتم الاجابة على التساؤل الاول بدرجة كبيرة من خلال نتائج الدراسات المقارنة للحفريات بما فى ذلك القرود والكائنات البشرية والدراسات المعروفة باسم Paleontology أى دراسة الكائنات الحية القديمة .

أما الاجابة على التساؤل الثانى فسنجد بدرجة كبيرة من دراسة التركيب الوراثى البشرى أو الوراثات الانسانية ودراسات التكيف البيولوجى للبيئة وكلاهما يدخل فى نطاق الانثربولوجيا الفيزيقية .

وقد يجد الباحث المختص فى الانثربولوجيا الفيزيقية نفسه مطالبا بالاجابة على بعض التساؤلات مثل الاجابة على الفائدة التطبيقية لهذا الفرع من فروع

المعرفة العملية ومن جهة أخرى فان تلك التساؤلات تساعدعلى تحديد الموضوعات التى يتناولها هذا العلم بالدراسة ، وتدور تلك التساؤلات حول :

١ — النتائج المترتبة على تزادوج جماعات مختلفة عن بعضها البعض .

٢ — مدى صحة الاعاء بان هناك بعض انواع او جماعات انسانية أو فى الناحية الفطرية عن جماعات أو انواع أخرى .

٣ — العلاقة بين المخطط الفيزيقى للانسان وبين مزاجه أو ذكائه أو اتجاهاته الخاصة أو سلوكه بوجه عام .

٤ — مدى تأثير العوامل البيئية والوراثة الفيزيقية على التعرض لامراض معينة على العلاج ويرتبط ذلك فرع الانثربولوجيا الطبية .

٥ — إمكانيات الجسم البشرى فى التكيف مع الحياه فى الارتفاعات العالية ويرتبط ذلك بالجوانب الحديثة المتعلقة بدراسة مشكلات انعدام الوزن فى الفضاء الخارجى .

وتتناول الانثربولوجيا الفيزيقية بالدراسة موضوعات يتوافر على دراستها متخصصون فى فروع أخرى من المعرفة العلمية مثل الحفريات البشرية والتشريح والوراثة وبالتالى فان التقدم الذى يحدث فى تلك المخصصات العلمية الاخرى ينعكس اثره على تقوم الدراسات الانثربولوجية الفيزيقة .

ولقد تعرضت اساليب البحث المستخدمه فى هذا النوع من فروع الانثربولوجيا بقدر كبير من التغير خلال السنوات الاخيرة ولقد كان الاعتماد فى الماضى على الملاحظات المورفولوجية والقياسية الموحدة عن الهياكل العظيمة وكذلك عن الشعوب المعاصرة واقارب الاقربين من العالم الحيوانى . بالاضافة

إلى الاستعانة بمجموعه كبيرة من المقاييس التى يتم معالجتها ببعض التحليلات الاحصائيـــة .

ولقد كانت دراسة اطوال قامات الافرادواحجام الجمجمةوالابعاد الجسمية المختلفة تقوم على قياس وتضيف الشعوب طبقا لمعـايير واضحـة واستنادا الى المتوسطات التى كانت توضح مدى التنوع القائم ثم اجراء الدراسات المقارنة كما كانت العلومات الاضافية اللازمة مقصورة على الدراسات التشريحية والفسيولوجية المقارنة وعلى معرفة محددة بعلم الحفريات البشريات وعلى تصور مبسط لنظرية مندل فى الوراثة . وقد طور الباحثون الانثربولوجون الفيزيقون فى هذا الشأن ادوات واساليب خاصـة لاجراء القياس الدقيق للعديد من المعدلات عن حجـم تكوين الجسم وانمـــاط الاسنان وشكل الشعر ولونه ولون الجلد وضغط الدم وفصائل الدم ومجموعه العمليات الاساسية بالتغيرات الكيمائية فى الخلايا الجسم وما إلى ذلك .

وقد استتبع التغير فى مجالات الدراسة فى هذا النوع من المعرفة تغير وتطور فى مناهج الدراسة فاتجهت إلى الاعتماد الكبير على البيولوجيا الجزئية وعلى بعض الاساليب الحدثية مثل الهجرة الكهربيـة للدقائق المعلقـة Electro Proresis دراسة هيموجلوبين الدم بالاضافة إلى المعالجة الرياضية المعقدة لعلم الوراثة .

مع الاهتمام الشديد بالمناهج المقارنة فى مجال دراسة تطور السلوك عنـــد الرئيسيات (السعادين والقردة العليا) وهى المجموعة التى ينتمى اليها الانسان من الناحية البيولوجية وذلك لمحاولة القـاء الضوء على اصول الحياه الاجتماعيـة عند الانسان والبدايات الاولى لنشأة الثقافة التى تعتبر ابرز السمات المميزة للانسان

وان كانت الدراسات الحديثة قد أشارت إلى وجود نوع من السلوك الثقافى الشديد البساط عند الرئيسيات وعند بعض الحيوانات الأخرى .

ثانيا : الانثربولوجيا الثقافية :

يعرف ذلك الفرع من الانثربولوجيا الذى يعالج السمات المميزة للسلوك المتعلم للتجمعات الانسانية فى الماضى والحاضر والمستقبل باسم الانثربولوجيا الثقافية وهى تنقسم بدورها إلى تقسيمات فرعية كثيرة ابرزها الاركيوبوجى والاثنوجرافيا والاثنولوجيا والانثربولوجيا الاجتماعية واللغويات وسوف نقدم عرضاً موجزاً للتعريف فرع من تلك الفروع فيما يلى :

الاركيولوجى : Archaeology

الاشتقاق اللفظى لاصطلاح اركيولوجى مستمد من كله Archaios بمعنى قديم و logia يعنى دراسة أى الدراسة التى تختص بملأ الفراغ فى السجل الانسانى طريق نزع القشرة الأرضية عن البقايا المدفونة للثقافات القديمة والهياكل العظمية للكائنات البشرية وما يرتبط بها من نبات وحيوانات ومظاهر الحياة المختلفة وهى تمدنا بكل ما نعرف عن الشعوب القبلتاريخيه ، واهمية اركيولوجى ما قبل التاريخ للباحث الانثربولوجى تتمثل فى حقيقه ان معظم البيانات المعروفة عن النمو التطورى للانسانية والثقافة مستمد من أعمالى الاركيولوجين عن فترة ما قبل التاريخ .

وقد اسهمت الدراسات الاركيولوجية فى تكوين اللبنا الاولى للانثربولوجيا وما زالت تلك الدراسات لازمة وضرورية فى تغطية ماضى الجماعات منذ كان من المهام الاولى للانثربولوجيا الكشف عن ماضى الجماعات موضوع الملاحظة .

وفى كثير من الأحوال حين يكون الموضوع متعلق بتفسير استخدام الادوات أو مظاهرة دينيه أولية مبنة فان عالم ما قبل التاريخ والانثربولوجيا يكون لهما فائدة .

وقد بدأت الحضارة بعد استئناس النباتات والحيوانات وقيام المدن منذ حوالى تسعة الاف سنة تقريباً أما التاريخ فقد بدأ بأختراع الكتابة بعد انبثاق فجر الحضارة . والحضارة التى تعنى ثقافة المدن هى نوع أو درجة من تعقد الحضارة فالثقافات المتحضرة أكثر تعقدا من الثقافات البدائية ولكنها ليست بالضرورة احسن أو انها اخلاقية اكثر. وتعنى الانثربولوجيا باصطلاح بدائى تلك الشعوب والثقافات أو التجمعات التى لم تتوصل إلى الكتابة ولذلك يطلق عليها احيانا اسم أمية Preliterate أو غير متعلمه وكل الحضـــارات التى وجدت قبل اختراع الكتابة كانت غير متعلمه قبل التاريخ وانتشار التعليم وبهاجه من نمط حفرى للحياه تواضح ثابتاً وراسخاً ولكنه بالرغم من ذلك بطىء ومنذ خمسمائة سنة فقط فإن الغالبية من الثقافات الانسانية كانت بدون كتابة وعلى ذلك فإنها حتى لحظة اكتشافها بواسطة الرحالة والمكتشفين من الحضارات الشرقية والغربية قد ظلوا غير متعلمين ومتناريخين .

ويعرف الاركيولوجيون الكلاسيكيون الذين يركزون على الكشف عن الآثار واعادة بناء الحضارات الكلاسيكية مثل سومر Sumer ومصر Egypt واليونان Greece والهند India والصين China باسم علماء الكلاسيكيات Classiciets أكثر منهم علماء فى الانثربولوجيا ، ويرجع هذا الاصطلاح إلى حقيقة أن الدراسات الكلاسيكية كانت من الدراسات الاساسية فى الجامعات الأوربية قبل ظهور علم الانثربولوجيا بزمن طويل وكانت اهتماماتها معروفة وكانت

الاركيولوجيا الكلاسيكية بقاع الحضارات المتعلمه وتعمل على مـلأ السجل التاريخى المبكر ، وهى أقل ارتباطاً بما قبل التاريخ من الاركيولوجى الانثربولوجية . وعلى ذلك فإن الاهداف والوظائف لكل الاركيولوجى الكلاسيكية وما قبل التاريخ متماثلة وتمثل فى تقديم شواهد قوية وصلبة وملموسة عن الانسانية وما فيها .

وبالرغم من أن الاركيولوجين الحالبين لديهم اساليبهم الفنية لشق الأرض والتعمق فى مايحويه باطنها الا أن مهمتهم الكبرى هى اعطاء معنى لما اكتشفوه وهم فى ذلك لايختلفون عن الانثروبولوجيين الآخرين الذين يختصون بالتاريخ الثقافى وبالعمليات التطورية ومهمتهم فى ربط الحقائق بالمبادىء العامة التى تفسر بكفاءه ماكان يجرى فى الازمان السابقة . ودارس ماقبل التاريخ يجب أن يفهم الثقافات والعمليات الثقافية لكى يعطى معنى وحياة فى عظام الموتى والاحجار الصامته المنحدرة من الماضى البعيد.

وليس على الباحث الاركيولوجى الحديث فى مراحل ماقبل التاريخ أن يكون متمكنا فى الانثربولوجيا العامة فقط ولكنه يجب ان يكون متمكنا بالمثل فى الجيولوجيا ودراسة الانسان القديم Paloentology بالاضافة الى امتلاك المهارات اللازمة لاستخدام الاساليب الفنية الاركيولوجية . فالاركيولوجى تخصص دقيق لمقابلة تحديات العلم الحديث ولكن الاركيولوجى قبل كل شىء انثربولوجيا . ومما هو جدير بالذكر أن الجامعات الامريكية تعطى تدريبا فى الاركيولوجى ولكن لاتوجد واحدة منها تعطى درجات علمية فى هذا التخصص العلمى .

الاثنوجرافيا Ethnography

ويتكون هذا الاصطلاح من مقطعين ، الاول Ethnos يعنى جنس أو شعب والثانى Grapho أو Graphein يعنى يكتب أو يرسم ، فيكون المعنى اللفظى لهذا الاصطلاح عند ترجمته الى اللغة العربيه (وصف الشعوب) ولكن اللفظ العربى « اثنوجرافيا » اكثر استخداما ، ويستخدم هذا الاصطلاح للاشارة الى الدراسة الوصفية للمجتمعات الانسانية وبصفة خاصة المجتمعات البدائية والمتخلفة .

ويعنى هذا العلم بجمع المعلومات وشرحها بطريقة وصفية اكثر من اهتمامه بتحليلها واستخلاص بعض الفروض والنظريات منها وقد استطاع هذا العلم أن يزود علم الانثربولوجيا بابحاث نظرية .

والدراسات الاثنوجرافية المبكرة كانت مشتقة بالكامل من تقارير المكتشفين ورجال البعثات التبشيرية والتجار والجنود ، والرحاله العرب منذ عهد بعيد اسهامات ملموسة فى هذا الفرع من المعرفة وفى الكشف عن معالم المجتمعات المختلفة ومن أشهرهم الرحالة ابن بطوطه والمسعودى والقوسى والادريسى والبيرونى(*)

(*) ابن بطوطه قام بثلاث رحلات من ١٣٢٥-١٣٥٢م وقد شملت معظم بلدان العالم المعروفة فى ذلك الوقت ودونها فى كتابه تحفة الأنظار فى عجائب الاسفار والمسعودى ٩٥٦م وله كتاب اسمه مروج الذهب ومعادن الجوهر والفرس ٩٨٥م وله كتاب اسمه حسن التقاسيم والادريسى ١١٥٣م وله كتاب نزهة الشقاق فى اختراق الآفاق والبيرونى وكتابه من اوائل الكتب الانثربولوجية العربية ويعطى صورة واضحة ومتكاملة عن الهند ونظمها الاجتماعية والعادات والتقاليد مع الفهم العميق لسلوك افراد الجمع والقيم السائدة فيه .

وقد توسع الرحالة الاوروبيون فى ذلك فيما بعد فى العصور الوسطى وخاصة بعد الكشف عن العالم الجديد والحروب الصليبية وماقام به المحاربون والحجاج والمبشرون والتجار من رحلات وقد ظهرت كتابات عديدة عن تلك الاسفار والرحلات نذكر منهم الرحاله ماركو بولو Marco Polo ١٢٥٤-١٣٢٣ الذى سافر الى الصين واشتغل بالتجارة معها وقدم وصفاً لعادات تلك البلاد ،ويلاحظ ان تلك الكتابات كانت تتسم بقدر كبير من السطحية وان كان البعض منهـــا متسم بالدقة والامانه , ومن أفضل الدراسات التى ظهرت فى النصف الاول من القـرن التـاسع عشر كتـــاب كودرنجتون Codrington الميلانيزيون The Melanecsians سنة ١٨٩١ ، وكتاب ادوار لين Edwardw Lane المصريون الحدثون The Modem Egyptian ، وقـــد اعتمد علماء الانثربولوجيا فى القرن التاسع عشر على كتابات المبشرين والرحاله والتجار وحكـــام المستعمرات لتزويدهم بالمعلومات اللازمة والتى اقاموا عليها نظـرياتهم ، ولقـد قامت الجمعيـة البريطـانية لتقـدم العـــلوم The Broitish Association for the Advancement of Science بنشر كتاب سنة ١٨٧٤ تحت عنوان Notes and Oueries On Anthropology وكان الغرض منه مساعدة الرحالة والمبشرين على القيام بملاحظة المجتمعات البدائية بطريقة سليمة ، وجمع المعلومات الى تلزم للدراسات الانثربولوجية التى يقوم بها العلماء فى بريطانيا .

ولم يدخل الباحثون الذين تم اعدادهم من أمثال العالم الانثربولوجى الامريكى Franz Boas ميدان دراسة المجتمعات الانسانية مباشرة إلاقرب نهـاية القرن التاسع عشر فقط .

أما الآن فان أغلب العمل الاثنوجرافى يقوم به انثربولوجيون مدربون

بدقة على الأساليب الفنية للملاحظة بالمشاركة للوصول الى الملاحظة المتعمقة فى الموضوع واجراء المقابلات واقامة علاقات ودية مع الناس الذين يبحثونهم والوصول الى تقارير دقيقة . ولايتم اجازة الباحثين كانثربولوجين دون أن يحققوا تقدما ويكتسبوا خبرة من العمل الاثنوجرافى الحقلى .

ولجميع الدراسات الاثنوجرافية اطار نظـرى متضمن فى تنظيمها ولكن تلك الدراسات لاتعالج بصراحة المشكلات النظرية وهى تقوم أساسا على التقارير الوصفية ولاتهتم الاقليلا بالمقارنات والفروض النظرية .وتقوم الاثنوجرافيا احجار البناء للباحث الانثربولوجى .

ويرى العلامة كلكهون C. Kluckhohn ان الاثنوجرافيا هى الدراسة الوصفية للمجموعات الحضارية باستعمال الاساليب العلمية فى جمع المعلومات عن المجتمعات والحضارات القائمة وتسجيلها وهذا النوع من الدراسات لاينطوى على استنتاجات نظرية أو استنباط قواعد وتعميمات - بل هى تسبق التعميمات وتكون المادة الاولية لها .

والباحث الاثنوجرافى ماهو الا باحث انثربولوجى يحاول أن يسجل ويصف مظاهر السلوك ذات الدلاله الثقافية فى مجتمع معين ، ويتطلب الاثنوجرافى قضاء فترة طويلة فى الدراسة التعمقية كلما يتطلب الاقامة فى جماعة صغيرة محدده تماما ويتطلب المعرفة باللغة التى تتكلمها تلك الجماعة مع الاستخدام الواسع للطرق الفنية فى الملاحظة بما تتضمنه من اتصالات ممتدة مباشرة باعضاء الجماعة المحلية والمشاركة المباشرة فى بعض نشاطاتها والاعتماد على العمل المركز مع الاخباريين العارفين بأحوال المجتمع والذين يعتبرون مصادر شخصية للمعلومات اكثر من

الاثنولوجيا Ethnology

ويتكون هذا الاصطـــلاح من مقطعين ، الاول Ethnos بمعنى شعب او جنس والثانى Logos بمعنى علم أو دراسة ، وترجمة هذا الاصطلاح الى اللغة العربية « علم الاجناس » .

ويعرف العلامة الانثربولوجى رادكليف براون مفهوم هذا الاصطلاح بأنه يعنى علم دراسة الشعوب ويعرفه قاموس اكسفورد بانه ذلك العلم الذى يعالج الشعوب ويدرس الاجناس فى علاقاتها وسماتها وخصائصها المميزه .

ومعنى ذلك أن دراسة الاثنولوجيا هى دراسة الشعوب لمعرفة أوجه الشبه والاختلاف بينها من حيث العنصر والجنس ومن حيث اللغة والثقافة ويقـــوم الباحث الاثنولوجى بتصنيف الشعوب على أساس تلك الاختلافات أوالمشابهات والمقارنة بينها ولذلك فهو يهتم بدراسة التصنيفات العنصرية والثقافية واللغوية. ويحاول الاثنولوجى أيضا أن يتوصل باستخدام مختلف المنـــاهج الى دراسة هجرات الشعوب والاجناس ويحاول أن يكشف عن التطورات التى حدثت فى الماضى بين الشعوب ومايدور بينها من اتصالات ثقافية وتفاعلات أى أنه يعنى بدراسة الثقافة عن طريق المنهج التاريخى وذلك لاعادة تركيب عناصر تلك الثقافة .

ويعرف العلامة الانثربولوجى ايفانز برتشارد هذا الفرع من المعرفة العلمية بانه علم تصنيف الشعوب على أساس خصائصها ومميزاتها السلالية والثقافية ، وتفسير توزعها فى الماضى والحـــاضر نتيجة لتحركها واختلاطها وانتشار الثقافـات .

[illegible] ... الشرية وتاريخ حياة الجماعات فى ...

نشأتها والخصائص المميزة لها ونموها وتطورها وانقسامها والعوامل المؤدية لهذا الانقسام ، وتتضمن هذه الدراسة اقامة الفروض وبناء النظريات الخاصة بتصنيف الشعوب على اساس الخصائص السلالية والثقافية كما يعالج أيضا موضوع رد الانسانية الى جنس واحد أو اجناس متعددة وبالمثل موضوع وجود جنس أو سلاله متفوقه على باقي الاجناس واثر الفروق العنصرية على التنظيم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

وعملية تصنيف السلالات البشرية هامة جدا سواء فى الاثنولوجيا او فى مباحث الانثربولوجيا الاجتماعية وذلك لعقد مقارنات بين المجتمعات الغابره والوقوف على أوجه التباين والتشابه بينها ومحاولة اعادة تركيب تاريخ بعض الشعوب التى لاتتوفر فيها الوثائق والمستندات التاريخية والآثار التى يمكن تحليلها .

واذا كانت الاثنولوجيا تختص بتاريخ وماضى الشعوب البدائية وثقافاتها فان الاثنوجرافيا تختص بتحليل حاضر الثقافات الحالية والمعاصره ، أى أنها العلم الذى يصف ويسجل معطيات الثقافات البدائية الحالية دون الرجوع الى ماضيها وتتبع تاريخها ، أى انه اذا كانت الاثنولوجيا دراسة رأسية فى الزمان فان الاثنوجرافيا دراسة أفقية فى المكان .

ويشير بعض الكتاب الى أن معظم العلماء قد اتفقوا على اطلاق اصطلاح اثنوجرافيا على الدراسة التى تقتصر على وصف حضارة مجتمع ما ، واطلاق اصطلاح اثنولوجيا على الدراسات التى تجمع بين الوصف والمقارنة .

وأن هدف الباحث الاثنولوجى من المقارنة بين الثقافات الوصول الى قوانين عامة للعادات الانسانية ولظاهرة التغير الحضارى وآثار الاتصال بين

الحضارات المختلفة كما يهدف الى تصنيف الحضارات الى مجموعات أو أشكال على أساس مقاييس معينة .

ويشير Hoebel & Frost الى أن الاثنولوجيا تختلف عن الاثنوجرافية فى أن الاثنولوجيا علم الشعوب وثقافاتها وتواريخ حياتها كجماعات أى أنها العلم الذى يبحث فى العلاقات المتبادلة بين الشعوب وبيئاتها وبين بنى الانسان ككائنات وثقافاتهم وبين الثقافات المختلفة وبين الجوانب المختلفة للثقافات(١)

ويميز J. Beattie بين الاثنولوجيا والانثربولوجيا فيشير الى تطور هذين العلمين ويقول أن الاثنولوجيا كانت فى السابق تستخدم كاصطلاح عام يشير فى الغالب الى كل الدراسات الانثربولوجية . بما فى ذلك الانثربولوجيا الفيزيقية ودراسات ماقبل التاريخ ، ومازال هذا الاصطلاح يستخدم فى بعض الاحيان فى أمريكا وأوروبا طبقا لهذا المفهوم القديم . ولكن علماء الانثربولوجيا الاجتماعية فى بريطانيا وجدوا أن من المفيد تحديد هذا الاصطلاح ليقتصر على دراسة الشعوب الأمية (غير المتعلمة) Pre-Literate وثقافاتهم ويسعى لتفسير حاضرهم فى اطار ماضيهم البعيد . وبهذا المعنى فان الاثنولوجيا تصبح هى العلم الذى يعالج تصنيف الشعوب فى اطار مميزاتهم السلالية والثقافية ويحاول تفسير ذلك بالاشارة الى تاريخهم أو ما قبل التاريخ .

ولكى نوضح ذلك فإن البحث فى أصل نوع معين من القوارب Canoe يعتبر دراسة اثنولوجية ، بينما البحث عن الاستخدام المعاصر لها وعن مغزاها الرمزى والعملى عند الشعوب التى تستخدمها يدخل فى مجال الانثربولوجيا الاجتماعية .

---

(1) Hoebel & Frost : op. cit., p. 11

وتعتبر الاثنولوجيا فى الحقيقة الوريث المباشر لانثربولوجيا العهد الفيكتورى Victorian فى بريطانيا وهى مثلهـا نوع من التاريخ وأن كان يختلف عن التاريخ فى أن الباحث الاثنولوجى ينقصه فى العادة السجلات المكتوبة التى يقيم عليها نظرياته ، كما ان الاثنولوجيين يهتمون فى الغالب بعناصر منفصله من الثقافة سواء فى الاشياء المادية التى يصفها أو يستخدمها الناس (الثقافة المادية) أو بموضوعات معينة مثل الاساطير والفلكلور ، وهم أقل اهتماما بالنظم الاجتماعية والقيم ولعل ذلك يرجع الى أنه يصعب فى العادة تتبع تاريخهم .

وقد يكون الانثربولوجيون الاجتماعيون فى بعض الاحيان اثنولوجيون ايضا حين تكون المعلومات الخاصة باصول عناصر الثقافة التى يهتمون بها متاحه وحين تلقى تلك المعلومات الضوء على المغزى أو الاستخدام المعاصر لها .

ولكن بصفة عامة فان الانثربولوجيا الاجتماعية والاثنولوجيا يعتبران علمان متمايزان الآن ، ومع التطور الذى حدث فى نصف القرن الماضى أوما يقرب من ذلك فى الانثربولوجيا الاجتماعية كعلم متميز فان كل من موضوع ونوع الاسئلة التى يعالجها كل من العلمين يختلف بدرجة كبيرة ويحدث الخلط فقط حين نعتبرهما شيئاً واحداً .

وقد اهتمت المجتمعات الاوروبية بمباحث الاثنولوجيا أما بسبب طبيعة تكوين تلك المجتمعات مثل الولايات المتحدة الامريكية وأما بسبب سياستها الاستعمارية مثل بريطانيا .

فالولايات المتحدة الامريكية تتكون من سلالات عنصرية كثيرة وفدت اليها من كل قارات العالم وانصهرت تلك العناصر البشرية معا ولذلك يشبه

المجتمع الامريكى لكل الدراسات والتجارب المتصله بالاثنولوجيا ، وقد أنشأت الولايات المتحدة الامريكية « الفريق الاثنولوجى الامريكى » الذى يضم نخبة من علماء الرعيل فى الاثنولوجيا والانثربولوجيا والاجتماع لتعميق وتأصيل الدراسة فى هذا الميدان .

والمسألة الرئيسية فى الاثنولوجيا الامريكية هى دراسة كيف وصل الهنود الحمر امريكا وكيف تطوروا من حيث العنصر واللغة والثقافة بعد دخول العناصر الاوروبية وقيام الاتصال والاحتكاك الثقافى بين مختلف العناصر الهندية والاوروبية فى القارة الامريكية .

أما فى انجلترا فقد أولت الدراسات الاثنولوجية اهتماما خاصا وأنشأت لها عدة أقسام فى جامعاتها وأفادت منها فى سياستها التطبيقية والعلمية .

أما فى فرنسا فقد أنشأت معهدا للدراسات الاثنولوجية ملحق بجامعة باريس (Institute D. Ethnologie De L'Universite De Paris.) وكان من ابرز مديريه العلامه الفرنسى ليفى برول Levy Bruhl

ويختلف مفهوم اصطلاح « الاثنولوجيا » بدرجة كبيرة فى بعض المجتمعات الأوروبية التى نشأ وانتشر استخدامه فيها ويرجع هذا الاختلاف الى تداخل موضوعه مع موضوعات تخصصات علمية أخرى تأخذ مسميات أخرى .

فاصطلاح الاثنولوجيا يستخدمه علماء الانثربولوجيا الامريكان ليرادف اصطلاح الانثربولوجيا الاجتماعية فى بريطانيا ويرى رالف بدنجتون Ralph Piddington أن اصطلاح الانثربولوجيا الاجتماعية المستخدم فى بريطانيا اكثر دقة من اصطلاح الاثنولوجيا الامريكى ، وهذا الاصطلاح يعنى فى الولايات المتحدة العلم الذى يهتم بالتحليل التاريخى لانتشار الثقافة وذلك

بقصد اعادة التركيب التاريخي بتشييد أو بناء ماضي الثقافة .

وتنقسم الانثولوجيا إلى عدد من الاقسام الفرعية حسب التخصص ، وعلى ذلك فهناك متخصصين ودراسات متخصصة في القرابة والحياة الاسرية البدائية والانشطة الاقتصادية والقانون والحكومة والعقيدة والثقافة المادية والتكنولوجيا واللغة وفنون الرسم والنحت والموسيقى والرقص والفلكلور والاساطير وفى الغالب في أي جانب رئيسي من مظاهر الثقافة الانسانية قد يفكر فيه الانسان

وحيث ان كل ثقافة ماهي الا متصل متغير خلال الزمن فان الانثولوجيا تختص بدرجة كبيرة بالخلفية التاريخية للثقافات ويطلق على هذا الجانب من الانثولوجيا احيانا اسم التاريخ الثقافي Cultural History أما حين يكون الاهتمام موجها الى المبادىء العامة للتطور الثقافي فانه يطلق عليها اسم Cultural Evolution sm .

ويعتمد الباحث الانثولوجي في دراسة على علوم أخرى كعلوم اللغويات والانثربولوجيـــا الاجتماعية ويستطيع عن طريق دراسة لعلم التشريح والانثربولوجيا الفيزيقية ان يتعرف على الشكل المعقد للجمجمة ان كانت لحيوان ام لانسان لذكر ام لأنثى .

ويمكن اعتبار علم آثار ماقبل التاريخ Poehistoric Archaeology نوعاً هاماً من الدراسات الانثولوجية يتعلق بدراسة Palaeo Ethnology منصب على دراسة الشعوب التي ظهرت في الماضي ثم انقرضت تلك الشعوب التي عاشت فيما قبل التاريخ ويمكن دراستها عن طريق مخلفاتها Survivals وبقاياها Remains من عظام وأدوات في الكهوف .

ومكتشفات علمي الانثربولوجيا الفيزيقية ودراسات ماقبل التاريخ التي قد

لاتناسب الانثربولوجيا الاجتماعية قد تصبح بالغة الاهمية للباحثين الاثنولوجين الذين يهتمون باعادة بناء الماضى أكثر من اهتمامهم بتفسير الحاضر .

الانثربولوجيا الاجتماعية Social Anthropology

استخدم اصطلاح الانثربولوجيا الاجتماعية فى بريطانيا فى أول الامر فى أواخر القرن التاسع عشر ليشير الى العلم الذى يهـــدف الى تطبيق الطريقة الاستقرائية المستخدمة فى العلوم الطبيعية على دراسة المجتمـــع الانسانى ونظمه الاجتماعية ولتمييز موضوع هذا العلم بالتالى عن الاثنولوجيا التى تهدف الى دراسة تاريخ الشعوب البدائية وثقافاتها .

ويشير هويل الى ان الباحثين الانثولوجيين الذين يركزون على العلاقات الاجتماعية مثل نظم الاسرة والقرابة وجماعات العمد والمنظمات السياسية وانشطة الاقتصاد والقانون وباختصار كل مايتضمن اصطلاح البناء الاجتماعى يفضلون ان يطلق عليهم اسم الانثربولوجين الاجتماعيين .

أما الانثربولوجيون الانجليز الذين قبلوا وجهة نظر العلامة رادكلف براون A.R. Radcliff-Brown وينكرون فائدة الدراسات التاريخية فى الانثربولوجيا ويرغبون فى فصل الانثربولوجيا الثقافية عن التاريخ فقد اقاموا تقسيم فرعى مستقل للانثربولوجيا الثقافية تحت مسمى الانثربولوجيا الاجتماعية التى يطلق عليها احيانا اسم علم الاجتماع المقارن ، ومن وجهة نظر هؤلاء الباحثين فان دراسات الانثربولوجيا الاجتماعية ليست دراسات تاريخية بينما الدراسات الاثنولوجية دراسات تاريخية .

اللغويات Linguistics

اللغويات هى علم اللغه ، وينظر كثير من اللغوين الى علمهم على أنه علم كامل مستقل يعتمد على نفسه ومن جهة أخرى فانه يمكن النظر الى اللغات على انها تمثل جانب من جوانب الثقافة تتفاعل بدرجة وثيقة مع كل المظاهر والجوانب الأخرى للثقافة وعلى ذلك فاننا نصل الى ادراك وفهم أفضل للغة فى السياق الثقافى . وبالتالى بين العلوم الاجتماعية . والدراسة العلمية للغات تعمق من الاقتناع بانها فرع من الانثربولوجيا الثقافية .

ولقد كانت الدراسات التقليدية للغات القديمة مثل اللاتينية والسانسكريتين واللغات الهندية والأوروبية الحديثة جزء من انشطة الجامعة لعدة قرون فى مجالات خارج الانثربولوجيا .

وما أن بدأ الانثربولوجيون فى اقامة دراساتهم على الدراسة الحقلية الموضوعة حتىوجدوا أنفسهم مضطرين الى أن يتعلموا كثير من اللغاتالبدائية دون وجود أى كتب فى القواعد اللغوية لارشادهم . وقد ظهر نظام عالمى عام لكتابة الصوتيات بحيث يمكن الاحتفاظ بتسجيلات عما يقوله الاخباريون من الاهالى بلغتهم الخاصة عن الاشياء التى لايوجد عنها نظام للكتابة . وقد أدى هذا الى التحقق من أن بعض الثقافات تنظم الكلام بالاتفاق مع قواعد لغوية مختلفة تماما عن تلك التى تحكم اللغات المألوفة القديمة الاوروبية والهندية .

وبعض الانثربولوجيين الذين اعجبوا باكتشافهم الجديد بدوا فى تركيز جهودهم على تسجيل وتحليل اللغات البدائية والقواعد اللغوية .

والعلاقة بين اللغويات والانثربولوجيا عديدة وعلى المستوى العلمى فان من المهام الأولى للباحث الانثربولوجى ان يقوم بدراسات لغوية لمعرفة لغة الاهالى

فى المجتمعات التى يدرسها وجمع الصيغ والاشكال المختلفة للتعبيرات اللفظية الشفوية بما فى ذلك الاساطير والخرافات والفلكلور والقصص والآداب الشعبية والامثال الشعبية وماالى ذلك ويرتبط بذلك دراسة المجتمع كنسق منالاتصالات وقد حققت دراسة اللغويات كنوع متخصص من الانثربولوجيا تطوراً بطريقة احدثت ثورة فى كل دراسات اللغة .

التخصصات الفرعية الاخرى للانثربولوجيا الثقافية :

يمكن اعتبار كل مجال رئيسى من مجالات النشاط الانسانى بمثابة مجال فرعى خاص من الدراسات الانثربولوجية فتكيف الكائنات البشرية لبيئتهم الكلية يدخل فى اختصاص الايكولوجيا السلالية Ethroecology ، فالثقافة المادية هى مجال التخصص فى التكنولوجيا البدائية والفن البدائى والموسيقى السلالية Ethnomusicology والرقص والسلام. ومنذ عهد العلامة تايلور ١٨٣٢–١٩١٧ فان الدين البدائى كان من الموضوعات التى تتركز حولها اهتمامات الباحثين الانثربولوجين . بينما ركز المتخصصون فى التنظيم الاجتماعى على موضوعات الاسره والقرابة . والانثربولوجيا السياسية أو دراسة النظم السياسية البدائية والاستعمارية قد أصبحت من مجالات التخصص وكذلك الانثربولوجياالقانونية والاقتصاديات البدائية ويعالج علماء الفلكلور التقاليد الشفوية ، والانثربولوجيون الرمزيون يحاولون الوصول الى الفن الاجتماعى والوظائف الثقافية التى يعبر عنها بطريق غير مباشر فى الاساطير والشعائر والفنون .

كما يوجد أيضا الانثربولوجيا الطبية التى تحاول ان تفسر نظم الممارسة الطبية بالنسبة لرجال الطب الغربيين وتوجد فئة قليلة من Ethnobotonist الذين تخصصوا فى مواد الخضروات والأعشاب البدائية وبالرغم من أن بعض

الباحثين الانثربولوجين قد درسوا الجماعات العرقية فى المواقع الحضرية منذ أوائل القرن الحالى فان الظروف التى مرت بها المـــدن فى الولايات المتحدة الأمريكية فى سنة ١٩٦٧ قد انتجت سلاله جديدة من المتخصصين يطلق عليهم اسم الانثربولوجيين الحضريين الذين يجاهدوا للتوصل الى السمات الفريدة للانثربولوجيا لدراسة الثقافات الفرعية فى المدن المعاصرة . وبالاضافة الى ذلك يوجد الانثربولوجيون التطبيقيون الذين يعملون كمستشارين للحكومات والصناعات وهيئات العلاقات الانسانية فى محاولة للاستفادة من الانثربولوجيا الآن .

مجال التخصص الاقليمى :

يميل كل الانثربولوجين الى التخصص فى مناطق جغرافية محددة . ويمكن على سبيل المثال للباحث أن يكون باحث انثربولوجى ثقافى أو اركيولوجى لامريكا الشمالية أو أمريكا الجنوبية أو فى قارة أفريقيا أو جزر المحيط الباسفيكى أو آسيا الشرقية أو الجنوبية أو منطقة البحر المتوسط أو المنطقة العربية حسب مقتضيات الحال . ومن المفروض ان الانثربولوجيين لديهم معرفة بكل الشعوب فى كل انحاء العالم ولكن المتخصصين فى مناطق اقليمية معينة يركزون دراساتهم الحقلية على منطقة واحده أو منطقتين يختارونهـا ويستتبع ذلك أن يلمون بكل التراث الانثربولوجى المنشور عن تلك المنطقـــة وبدرجة عالية من التعمق .

علاقة الانثربولوجيا بالعلوم الاجتماعية الاخرى :

تحتفظ الانثربولوجيا بعلاقات مع عدد كبير من العلوم الاخرى وهناك روابط ومبادلات مثمرة مع نظم علمية متمايزة تمامـا عن الانثربولوجيا بالاضافة الى مجموعة العلوم التى تتناول الانسان بالوصف ومحاولة تفسيره على

أسس بيولوجية أو ثقافية نظراً للطبيعة الشمولية لهذا الفرع من المعرفة بحيث تتناول كافة جوانب ونشاط الانسان فى الماضى والحاضر والمستقبل ويقول العلامة أدموندليش Edmund Leach (1) بان الانثربولوجيا كعلم دراسة الانسان تمثل صيغة عامة من البحث لاتكفى جميع الكتب فى العالم لتغطيته ولكن اذا كانت الانثربولوجيا تميل الى شمول المعرفة وتوجدها فان هذا لايعنى أن الانثربولوجيا تتبع النظم العلمية الأخرى .

وقد جرت عادة بعض الجامعات وبصفة خاصة الجامعات الأمريكية على اعتبار الانثربولوجيا علما اجتماعيا رغم أن من الواضح أن الانثربولوجيا اكثر من ذلك بدرجة كبيرة . ومع ذلك فان تحديد هويتها بين العلوم الاجتماعية يقوم على أن معظم العمل الانثربولوجى يتمركز حول الثقافة ومن خلال الثقافة على المنظمات الاجتماعية ، وهذا يدعونا الى التساؤل عن علاقة الانثربولوجيا بالعلوم الشقيقة لها أو التساؤل عن الروابط التى تربط الانثربولوجيا بعلوم مثل التاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس مثلا .وسوف نعالج الاجابة على هذا التساؤل بصورة تفصيلية فيما يلى :

الانثربولوجيا وعلم الاجتماع :

تماثل علاقة علم الاجتماع بعلم الانثربولوجيا العلاقة بين الشقيقين التوأمين بالنسبة لعلاقتها بالعلوم الاجتماعية الأخرى . ولذلك تجدهما متلازمين فى نفس الأقسام العلمية فى أغلب الجامعات وبصفة خاصة فى الجامعات الأمريكية ويأتى تشابهها من اهتمامها بالسلوك الاجتماعى والتنظيم الاجتماعى .

---

(1) Edmund Leach : Social Anthropology, Oxford Univ Press, 1982, p. 13

وفى تلك الحالات فان المداخل النظـــرية الأساسية تكوى مشتركة إلى حد كبير ،وفى الحقيقة فانه فى كثير من الواقع لا يمكن التمييز بينهما . ولكن الاهتمامات النوعية للسيسولوجين والانثربولوجين وطرقهم فى القيام بعملهم قد تكون مختلفة بدرجة كبيرة .

ويميل الباحثون فى نوعية الروابط بين هذين الفرعين من فروع المعرفة العلمية إلى معالجة هذا الموضوع من منظورين ويتمثل المنظور الأول فى التفرقة بينهما طبقا لمجالات أو موضوع دراسة كل منهما باعتبار أن موضوع الأنثروبولوجيا الاجتماعية هو دراسة وتحليل البناء الاجتماعى للمجتمعات الإنسانية وموضوع علم الاجتماع هو دراسة المجتمع والسلوك الاجتماعى غير أن هذين الموضوعين متداخلان لأن العنصر الأساسى للبناء الاجتماعى هو السلوك الاجتماعى الذى تصل اليه عن طريق ملاحظة العلاقات الاجتماعية الواقعية.

ولكن ينبغى العودة إلى نشأة هذين العلمين للتعرف على جذور التمايز وتطوره . فمنذ بداية ظهور الأنثربولوجيا الاجتماعية كان مجالها يقتصر على دراسة المجتمعات البدائية والتقليدية بينما اتجه علم الاجتماع منذ نشأته إلى دراسة المجتمعات الحديثة بهدف التعرف على القوانين التى تنظم الحياة الاجتماعية والاستفادة من ذلك فى رسم سياسة لإصلاح المجتمع والتغلب على المشكلات الاجتماعيـــة التى تؤدى إلى عدم الاستقرار الاجتماعى .

غير أن هذا التمايز الذى كان مفترضا فى البداية سرعان ماتغير وبدأت مجالات لقاء وتداخل كبير مبين العلمية فلقد بدأت الأنثروبولوجيا تدخل بصورة متزايده فى المجالات الحضرية والصناعية التى كانت تقليديا من مجالات علم الاجتماع . كما أن علماء الأنثربولوجيا كثيرا مااستفادوا من دراسات علم الاجتماع فى تحديد اطارهم

النظرى عند دراسات المجتمعات البدائية. ويقول د. أحمد أبو زيد أن مايعرف الآن باسم الأنثربولوجيا الاجتماعية . والتى يسميها البعض علم الاجتماع المقارن هى فى الحقيقة امتداد لعلم الاجتماع الفرنسى . وان من الصعب فهم المشكلات النظرية التى تظهر فى كتابات الأنثربولوجية الحديثة بدون الرجوع إلى مدرسة اميل دوركايم وإلى بعض علماء الاجتماع الصورى فى المانيا وبصفة خاصة زيمل ويقول ان دوركايم نفسه يمكن أن نسلكه بسهوله ضمن زمرة علماء الأنثربولوجيا الاجتماعية بالمعنى الذى نفهمه الآن من هذا العلم وهذا يعنى أن المشكلات التى تعالجها الأنثربولوجيا الاجتماعية هى نفس المشكلات التى يعالجها علم الاجتماع الفرنسى وعلم الاجتماع الصورى وان كانت المعالجة تختلف ففى حين اتجه علماء الاجتماع منذ بداية هذا العلم وبخاصة فى فرنسا والمانيا إلى مناقشة الظواهر الاجتماعية بطريقة نظرية تصطبغ بصفة فلسفية كثيرا ما كانت تبعدها عن واقع الحياة الاجتماعية نفسها إلا فى الأحوال القليلة التى كانوا يستشهدون فيها ببعض أحداث الحياة لتأييد نظرياتهم وتأملاتهم . فان الدراسات الأنثربولوجية كانت تفضل مواجهة الوقائع البيئية المحسوسة بل ان الدراسات الحقلية كانت شرطا جوهريا للدراسات الأنثربولوجية.

ويركز المنظور الثانى للتمييز بين الدراسات السيسولوجية والدراسات الأنثربولوجية على طرق البحث والمناهج المستخدمة فى كل منها . فمما لاشك فيه أن جميع العلوم الاجتماعية المعاصرة تشترك وتتفق فى تطبيق المنهج العلمى ولكن مع وجود هذا الاتفاق حول المفهوم العام للمنهج العلمى فاننا نجد تمايزا بين المفاهيم الفرعية . فاذا كان علماء الاجتماع يميلون إلى التحليلات النظريه والفلسفية فان جيل الرواد من علماء الأنثربولوجيا الذين أعقبوا الجيل الذى كان يعتمد على كتابات

وتقارير الرحالة والبشرين عن الشعوب البدائية . اتجهـــوا إلى دراسة القبائل والمجتمعات البدائية دراسة حقلية بالاعتماد المحل الأول على الملاحظة المباشرة بالمشاركة فى المجتمعات الصغيرة مع المعايشة المكثفة يوما بعـــد يوم وفى مواجهة شخصية فى الممارسات الثقافية وتأكيدهم على الناس فى الثقافة ، أما علماء الاجتماع فيعملون فى العادة مع عينات أكثر من البشر وفى جوانب أكثر تحديدا من المجتمع ولذلك فان تأكيدهم الكبير يوجه إلى البيانات والإجراءات الاحصائية والاعتماد على تقارير التعدادت وصحائف الاستبيان بصفة أساسية .

وفضلا عن ذلك فان علم الاجتماع الأمريكى يكرس قدراً كبيرا من الاهتمام لموضوعات الانحرافات الاجتماعية والخدمات الاجتماعية مثل انحراف الأحداث والجريمة والفقر والمرض العقلى والأسر المفككة والطلاق بهدف الوصول إلى حلول لهذه المشكلات بينما تعتمد النظرة الانثربولوجية لدراسة المجتمع على النظرة التكاملية الكلية الشاملة للمجتمع واعتبار أى ثقافة من الثقافات بمثابة نسق متكامل وان على الباحث الأنثربولوجى أن يسعى لتحقيق هذه النظـرة فى دراسة بحيث يدرس النظم الاجتماعية المختلفة على انهاء أجزاء من هذا النسق .

ومازالت هذه النظرة التى تسعى لاظهار الناحية التكاملية فى المجتمع تمثل الخاصية الأساسية المشتركه بين كل الدراسات الأنثربولوجية الحالية أيا كان المجتمع الذى تدرسه وذلك بهدف فهم المجتمع الإنسانى فى عمومه .

ويرى بعض الكتاب(١) أن هنـــاك فوارق أساسية بين الأنثربولوجية وعلم

---

(١) أحمد أبو زيد : الطريقة الانثربولوجية فى دراسة المجتمع ، المجلد العاشر من مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، ١٩٥٦ ص ٨٥ – ٩٩ .

الاجتماع كما يفهم فى انجلترا وأمريكا وأنه يمكن تلخيص هذه الفـــوارق فيما يلى : —

١ — يهتم علم الاجتماع بدراسة مشكلات قائمة بذاتها مثل مشكلة الطلاق أو البطالة أما الانثربولوجيا فتهتم فى المقـــام الأول بالبنــاء الإجتماعى كله كوحدة متماسكة .

٢ — تعتمد الدراسة الاجتماعية فى الأغلب على الوثائق التقارير والاحصائيات بعكس الدراسة الأنثربولوجية التى تفضل الاعتماد على ملاحظة الباحث مباشرة وتنفر من الإحصائيات .

٣ — النزعة العلمية والإتجاه نحو الإصلاح تبدو واضحة فى الدراسة الإجتماعية بعكس الدراسات الأنثربولوجية . التى تتوخى التحليل العلمى النظرى .

وبالرغم من ذلك فان هناك اعتمادا متبادلا إلى حد كبير بين هذين العلمين ، فعلماء الانثربولوجيا يزودون علم الإجتماع بالوقائع والمعلومات التى يستخدمها هؤلاء فى صياغة نظرياتهم التى يختبرها الأنثربولوجيون . بدورهم حين يقومون بدراساتهم الحقلية .

الأنثربولوجيا وعلم النفس :

يختص كل من الانثربولوجيا وعلم النفس بدراسة السلوك الإنسانى ولذلك فان هناك قدرا كبيرا مشتركا بينهما بينما تهتم الأنثربولوجية بالدرجة الأولى بتنظيم الجماعة الإنسانية لسلوك أعضائها وبالتنميط الثقافى للسلوك فان علم النفس يختص بدرجة اكبر بسلوك الكائنات كأفراد وكيفية استجابتها لمثيرات نوعية وعلماء النفس موجهين أكثر لاستخدام التجارب العملية والاختبارات والمقاييس وللتعبير الاحصائى عن مكتشفاتهم لإظهار مدى التقدم فى الدقة العلمية فى ميدانهم

وتميل المواقف السلوكية التي يدرسها السيكولوجيون التجريبيون لأن تكون مبسطة بمعنى أنها تجارب مضبوطه صممت لاستبعاد أي متغيرات دخيلة . وتقـــوم الأنثربولوجيا بربط المكتشفات البسيطة والمتنوعة لعلم النفس لمواقف الحياة المعقدة الحقيقية التي يواجهونها في المجتمعات القائمة .

ويهتم الأنثربولوجيون بدراسة أشباه الإنسان في الغالب لنـوع خاص بينما يتجه علماء النفس التجريبي إلى التخلي عن الكائن الإنساني ومايلابسه من تعقيدات إلى د اسات أكثر سهوله على الفرد والفئران والحمام .

وبينما يتجه السيكولوجيون الاجتماعيون المعاصرون بدرجة كبيرة نحو التجارب العملية فان السيكولوجين الاكلينكين والمحللين النفسيين يلتزمون بحكم طبيعة مهمتهم إلى معالجة أشخاص كاملين في سياق موقعهم الاجتماعي العلمي والبحث المتعمق للتحليل النفسي عن العمليات النفسية المستترة قد ولد عدد من المفهومات التي أثبتت فائدتها العظمى للأنثربولوجين في تفسير النظم الثقافية وعلاقاتهـــا بانماط الشخصية القبلية .

وميدان الثقافة والشخصية من أكثر الحالات فاعلية وانتاجية في الأنثربولوجيا من الثلاثينات إلى الستينات ولنظرية التعلم كما تطورت في علم النفس أهمية عظمى في الأنثربولوجية ، فالثقافة يتم اكتسابها فقط من خلال التعلم ، وعلم النفس يسبر غور العمليات التي تتعلم بها كافة الحيـــوانات وكيف تتعلم أن تتعلم ، الأنثربولوجيا بدورها تعلمنا ما الذي يتعلم في مختلف المجتمعات وكيف يتم تعلمه ، وما هي المكافآت والعقوبات التي يقدمها كل مجتمع للتعلم الصحيح وللاخفاق في

التعلم ، والثقافة كما يراها Niller & Dollare (١) هي حالة من تصميم الحيره البشرية عن نمط المكافأة المرتبطة بها وتحديد ماهية الاستجابات التي تكافأ عنها وبهذا المعنى فإنما هي وصفه للتعلم . ونظراً لأن الثقافات تتباين بدرجة كبيرة فان شروط التعلم البشري والسلوك البشري تتمايز بدرجة كبيرة . وتقـــدم الأنثربوجيا لعلم النفس قاعدة حقيقية عريضة لاختيار نظرياته وفروضه ، وقد أشار إلى هذا العالم السيكولوجي Donald Compbell فى قوله (من الواضح أن الباحث السيكولوجي العملي مازال يفترض أن زميله الذي مازال طالبا يتزود بقاعدة ملائمة من علم النفس العام للانسان ، وبالنسبة لعلم النفس الاجتماعي فان هذه الاتجاهات قد تم كبحها أساسيا بدرجة كبيرة من خلال مقابلتها بالتراث الأنثربولوجي .

وقد قدمت الأنثربولوجيا لعلم النفس أسسا جديدة لتنعكس عليها مفاهيم الشخصية وتكوين الشخصية واتاحت لعلم النفس أن يطور نسق أو نظام من علم النفس المرضي والدراسات النفسية الثقافية المقارنة. أو مايسمى Ethnopoyohiatry أو علم النفسى السلالى .

ومن جهة أخرى فان العلوم السيكولوجيـة وبصفة خاصة التحليل النفسى قد قدمت للانثربولوجيا فروضا جديدة لتفسير مفهوم الثقافة(٢) .

الانثربولوجيا والتاريخ :

الأنثربولوجيا تدرس الإنسان فى كل أنحاء العـالم أى فى كل مكان ولا يتقيد هذا

---

1) E. Adomson Hoebel Anthropology; The study of man, 3rd ed., Mcgnaw Hill Book Co. N.y, 1966. p. 15.

(2 The New Eneyclopeadia Britannica, op. cit., p. 987

العلم بتغيرات الزمان أو بحواجز المكان ولكنه يتقيد ويلتزم ببحث موضوع واحد لا يخرج عنه وهو الإنسان .

وقد حظى موضوع العلاقة بين الأنثربولوجيا باعتباره من العلوم الحديثة وبين علم التاريخ وهو من العلوم العريقة التى وصلت إلى مرحلة النضج باهتمام عدد كبير من علماء الأنثربولوجيا منـــذ نشأة هذا العلم وحتى الآن . وعلاقة الانثربولوجيا بالتاريخ حيوية لأن الأنثربولوجيا كانت ولفترة طويلة تقوم على وجهة نظر تطورية وقد جاهدت الأنثربولوجيا لإعادة بناء التاريخ الثقافى للمجتمعات التى بسبب نقص المستندات أو الوثائق المدونة أو عدم وجودها لا يمكن تحديد تسجيل تاريخى لها .

وفى بداية القرن الحالى أعلن الانثربولوجى البريطانى ماريت R.R. Marrett (١٨٦٦ - ١٩٤٣) إن الانثربولوجيا إما أن تكون تاريخا أو لاتكون شيئا ، وهو لم يكن يقصد أنها تاريخ بالمعنى الرسمى وإنما كان يؤكد على أن الزمن يعتبر بعد أساسيا فى كل التجارب الإنسانية فنهر الحياة تيار متدفق . ويعتقد معظم الأنثربولوجين فى هذه الحقيقة ولكنهم يختلفون حول مقدار أو قيم فائدة الانثربولوجيا فى التاريخ والبحث التاريخى . وبالطبع فان الاركيولوجين يقرون بقيمة المكون التاريخى ، ومن جهة أخرى فان هناك كثيرا الانثروبولوجين الاجتماعيين الذين يرون الاكتفاء بالتركيز فى بحوثهم على فهم المجتمعات التى تعيش حاليا أى الأنثربولوجيا المعاصرة الآن واليوم وذلك من منطلق أن البيانات التاريخية وما قبل التاريخ لا يمكن أبدا الحصول عليه بدرجة من الثقة أو بتفصيلات كافية لتفى بمطالب العلم بكفاءة .

والنظرة المتوازنة للعلاقة بين الانثربولوجيا والتاريخ سوف تتوصل إلى أن المقارنة بين المجتمعات التى تجرى عليها الملاحظة المباشرة سوف تضع دراسة الجنس البشرى على قاعدة علمية أمتن فى إطار تغيرات ونتائج موثوق بها ويجدر بنا أن نتفق على أن من المهم من المنظور العلمى أن ندرس عمليات نمو وتغير الثقافات باعتبار أن الثقافة والمجتمع ليست أشياء موقوته . بل أنها قد انحدرا من الماضى وسوف يستمران فى المستقبل. وان ماعليه المجتمع والثقافة الآن إنما هو نتاج لما كان عليه من قبل بعد أن جد عليه ظروف ومؤثرات، وان ماسوف يكون عليه فى المستقبل إنما هو نتاج لما هو عليه الآن بعد أن يدخل عليه ظروف ومؤثرات. وعلى ذلك فانه لايمكن فهم الحاضر والمستقبل فهما صحيحا كاملا بدون معرفة الماضى بصوره سليم .

وبالطبع فان هناك الكثير من الدراسات التاريخية ومن المؤرخين ولكن المؤرخين يصبحون علماء اجتماعيين حين يقومون باشتقاق قوانين عامة للتغير الاجتماعى أو يفسرون أحداث معينة نوعية عن طريق ملاحظة جوانب الاضطراد والتكرار المنتظم والتى تلاحظ عبر الزمن . أو قد يصبحوا فلاسفة تاريخ إذا ما جاهدوا لشرح أو تفسير ما قد حدث فى أزمنة معينة من التاريخ أما إذا كان أهتمامهم مقصوراً على متابعة أو معرفة حقيقة معينة . فانهم يكونون ببساطة مؤرخين , ليسوا علماء اجتماعيين أو فلاسفة . ويكون تأكيدهم فى هذه الحالة على تفرد الموقف أو كما يقولون إن التاريخ لايعيد نفسه على الاطلاق وأن ذكر مايحدث فى الزمان والمكان بطريقة دقيقة ومحددة هو الذى يمثل بؤرة الاهتمام لديهم كمؤرخين .

ويحدد العلامة الأنثربولوجى البريطانى نادل S. f. Nadel موقف الانثربولوجيا

الاجتماعية من التاريخ فى عبارة مفصلة بقوله « عن علاقة الانثربولوجيا بالتاريخ فانى أعتقد أن العالم الانثربولوجى الاجتماعى ليس مؤرخاً ولكن من هو ذلك العالم الانثربولوجى الذى لايعد مؤرخاً ؟ ان جميع المؤرخين يدرسون الوقائع والاتصال فى الماضى ولكن الانثروبولوجيين يدرسون ويصفون المجتمع القبلى كما هو موجود هنا والآن وعلى ذلك يقع الاختلاف فى التطور الذى يعالج من خلال الباحثون بياناتهم ، فالمؤرخون يعالجون الاحداث من منظور الماضى، بينما يعالج الانثربولوجيون الحقائق من منظور الحاضر مع التأكيد على الصلات الثابتة هنا والآن .

وعلى ذلك فان موقف الباحث الانثربولوجى يختلف اختلافاً كبيرا عن موقف الباحث التاريخى عند دراستهما لظاهرة من الظواهر ، فبينما يوجه الباحث الانثربولوجى اهتمامه إلى الاحداث والافعال الجارية أو المعاصرة خلال زمن معين بالذات أى أنه يعد بمثابة مؤرخ للحاضر فان الباحث التاريخى يركز اهتمامه على الأحداث السابقة والظواهر الماضية ولايدخل فى اعتباره الحاضر .

وتختلف أساليب الانثربولوجيون فى تنظيم معارفهم عن أساليب المؤرخين ومناهجهم فى البحث تختلف أيضا بدرجة أساسية . فبالنسبة للمؤرخ فانه المكتبة هى الميدان أو حقل العمل ووحدة العمل لديهم هى المستند أو الوثيقة ويسرهم أن يتوصلوا إلى اكتشاف حافظة من الرسائل أو التقارير المفقودة منذ أمد طويل أما بالنسبة للانثربولوجى فان ميدان العمل هو جماعة قبيلة منعزلة أو سكان أحد الاحياء أو المراكز الحضرية . أو موقع اركيولوجى للبحث ووحدة العمل عندهم هو الفرد أو الجماعة ويسرهم أن يتوصلوا لاكتشاف نمط جديد من العلاقات الاجتماعية أو مجموعة من المنتجات اليدوية أو عظام إنسان حضرى .

علاقة الانثربولوجيا بعلوم اجتماعية اخرى مثل القانون وعلم السياسة والاقتصاد والصحة العامة :

ينبغى أن يكون من الواضح حاليا أن الأنثربولوجيا فى كثير من جوانبها تشارك بفعالية فى المركب الدينامى للعلوم الاجتماعية ، وتوجد علاقات متبادلة ومثمره مع علوم أخرى متمايزة تماما عن الأنثربولوجيا . فالقانون مثلا هو أحد جوانب ثقافة أى مجتمع وهو هام بدرجة متزايده لأنه يعمل على تشكيل الثقافات حيث يعمل على تشجيع أنواع معينة من السلوك وعلى عدم مساندة أنواع أخرى. وتهتم الانثربولوجيا بدراسة العلاقات الاجتماعية أى أنماط السلوك الاجتماعى .

ويقول العلامة بوهنان Bohannen أن دراسة القانون هو أحد التخصصات الفرعية للانثربولوجيا. التى درست على أفضل درجة وأنه،إذا كانت الكتابات فيه قليلة إلا أنها ذات مستوى عالى .

كما أن الانثربولوجيا قد عملت على دعم مفهـــومات الحكومة والدولة ومناقشتها مع ظاهرة السلطة وعلاقات البيئة والقيادة وهى موضوعات أساسية فى علم السياسة .

وبعد الحرب العالمية الثانية وظهور عدد من البلدان التى حصلت على استقلالها وتعمل على تنمية فنها ، والتى كانت من قبل من المستعمرات ، فى أسيا وأفريقيا فلقد اتجهت الدراسات العلمية للاقتصاد والسياسة للاهتمام فى الولايات المتحدة الامريكية بتلك الثقافات فى الاجزاء النائية من العالم كما أن حكومات تلك البلدان ذاتها قد بدأت تولى الجوانب الاقتصادية أقصى أهميـــة بالإضافة إلى الجوانب السياسة . كما أن التوسع فى برامج الصحة كان فى مختلف مناطق العالم له تأثر مماثل فى خلق تعاون وثيق بين الانثربولوجيا وممارسة النشاط الطبى .

وهناك روابط وثيقة بين الانثربولوجيا الثقافية والجغرافيا البشرية فكلاهما يعطى أهمية كبرى للانسان سواء لدى استخدامه للمكان أو عمله فى تحويل البيئة الطبيعية . ولذا فانه مما له مغزى أن الانثربولوجين الأوائل كانوا فى الاصل من الجغرافيين(٠) .

---

(٠) من أوائل كتب الانثربولوجيا التى ظهرت فى مصر كتاب(الانثربولوجيا) للدكتور ابراهيم زرقانه وهو من علماء الجغرافيا .

الجزء الثالث *

- العــلاقات الدرقية
- التغـير الاجتماعى
- الدين والمجتمع

---

* ترجمة الدكتور حيدر ابراهيم أستاذ مساعد بقسم الاجتماع كليةالآداب جامعة الامارات العربية المتحدة

العلاقات العرقية

من المواضيع الهامة بالنسبة لكل الشعوب المفكرة هو طبيعة العلاقات بين السكان المنحدرين من « أجناس » Races مختلفة — أى يتميزون أو يفترض أنهم يتميزون — بخصائص فيزيقية مختلفة . فهم يتساءلون : هل حقيقة انهذه الفوارق الفيزيقية لها مدلالات فارقية فيما يتعلق بالخصائص الفكرية والاخلاقية؟ وما هو السبب الخفى الذى يجعل هناك صعوبة فى أن تعيش هذه الاجناش فى ود مع بعضها البعض . لو كان على الانثربولوجيين الاجتماعيين أن يبحثوا هذا الموضوع فهذا يرجع إلى سبب بسيط هو أن غالبية الشعوب التى عملوا بينها ذات سكان سود أو سمر البشرة . وتثار مثل هذه الاسئلة من قبل الذين يتوقون إلى علاقات أكثر وداً وتقاربا بين الشعوب المختلفة الالوان بصورة أحسن مما هو موجود الآن فى غالبية الاقطار . يهتم مثل هؤلاء فى بريطانيا بالمعاملة السيئة وغير المتساوية التى يجد مهاجرو أفكار الكومونويلث أنفسهم مواجهين بها ، والعنف الذى يندلع أحيانا بينهم وبين جيرانهم . ويهتمون فى الولايات المتحدة بالسياسات التى تهدف لتكامل السكان الزنوج والبيض والمقاومة التى تواجهها هذه السياسات .

هناك بعض أسئلة عملية لاتطرح من أجل المعرفة البحتة . وهذا لن يكون سببا فى ألا يجيب عليها الانثروبولوجيون ولكن فى الحقيقة فان مدى نوعية الاسئلة الواسع يجعلها تنتمى إلىعلوم مختلفة وهناك عدد قليلمنها يتطلب معرفته الخاصة . هل صحيح أن الإنسانية مقسمة إلى أجناس ؟ هل حقيقة أن بعض هذه

الأجنـــاس متفوق بطبيعته ؟ هل حقيقة أنه يوجد شعور طبيعي بالنفور بين الشعوب مختلفة الاجنـاس ؟ ان لم يكن كذلك فلماذا يصادفنا كثيراً مثل هذا الشعور ؟

تنتمي فكرة العـلاقة بين الوراثة الطبيعية والخصائص العقلية أو الاخلاقية تماما إلى ميدان الأنثروبولوجيا الطبيعية . ولكن عندما نتوجه مباشرة إلى أوضاع الصراع العرقي الذي يبرز المشاكل الحالية فليس هناك ما هو غريب عن المواجهة التي تحدث بين شعوب مختلفة الخصائص الفيزيقيـة . فهي كلها مواقف « تبرز » تقسيم الجماعة إلى نحن والآخر وردود فعل الآخر في المقـــابل . بعض مشاكل الصراع العرقي هي تحدث بمجيء المهاجر إلى بيئة جديدة ، وبعضها يتعلق بالحراك الاجتماعي في مجتمعات متراتبة ومقسمة اجتماعيا ــ وفي هذه الحالة تندرج ضمن مجال السوسولوجي الاوسع ، أما السؤال حول لماذا يعبر عن الخصـــومات الاجتماعية في شكل كراهيه جماعة تتميز بخصائص فيزيقية معينة ــ فهو مهمة عالم النفس الاجتماعي .

علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية غـير مطالبين الآن ــ كما أوضحنا في بداية الكتاب ــ بالتمكن من الانثروبولوجيا الفيزيقيـة ، ولكن هناك عدد منهم قد يهتم بذلك الجانب منها المرتبط بالجدل حول الخصائص العـرقية . وهذا الفصل سيعطي لمحة مختصرة عن الموضوع ولكن لن يحاول متابعة الجوانب الاجتماعية في المواقف التي تشتمل على علاقات عرقية .

الفكرة الشائعة حول العرق أو الجنس رغم أنها مهمة ولكن كحقيقة اجتماعية فهي ذات صلة ضعيفة بالمعرفة القائمة على البحث . والنقطة التي ستوجب أن يتوقف عندها الدارس هي أن التصنيف الشائع يقـوم تماماً على خصائص تظهر عند ما

يكون الانسان مرتديا ملابسه أى مظاهر مثل لون الجلد وشكل الوجه والرأس . فلماذا اعتبرت هذه المظاهر فقط هى الاكثر أهمية من بين خصائص أخرى كثيرة تثير اهتمام علماء الاحياء . وما الشاهد فى أنه حين يكون لأجناس صفات عقلية وأخلاقية مختلفة فان عمليات العقل والفكر ترتبط بطريقة ما بلون الجلد مثلا ؟ وهل هذا مقبول حتى حين توضح كيف تعمل الصلة — ذلك لا يساهم فى أى معلومة جديدة . للحقيقة فان الانثروبولوجيين الفيزيقين حين بحثوا وقاسوا سمات الشعوب المختلفة اهتموا بمعلومات لا يمكن الوصول اليها بواسطة الملاحظة العابرة مثل توزع مواد معينة فى الدم ، ومعدل التنفس أو ضغط الدم .

علينا أن نلاحظ أنه حين توصل الانثروبولوجيون الفيزيقيون إلى مقاييسهم لم يكن الهدف تصنيف الشعوب إلى مجموعات متباينة تماما . فالاقزام قصار كما نعلم جميعا ، وقد سمع أغلبنا برعاة جبال رونزورى Ruwensori طوال القامة (ارستقراطية « التسوسى » Tusi الذين طردتهم ثورة فلاحية قبل سنوات) . النمط الشائع يرينا أحد الاقزام بالمقارنة مع التسوسى طوال القامة ، وتظهر المقاييس أن متوسط طول الاقزام أقل كثيراً من التسوسى ومع ذلك يمكن أن نجد قزما طويلا أطول من تسوى قصير . بمعنى آخر فالمتوسط لأى صفة أو خصيصة يختلف بين الشعوب ولكن الحدى يتداخل — كما أوضح المثال السابق .

لأن الانثروبولوجيين الاجتماعيين مهتمون بدراسة السلوك يبقى الموضوع المهم لنا هو الوضوح حول الصلة — ان وجدت — بين الخصائص الفيزيقية والعقلية . فى التصنيفات الشائعة ينسب عادة لشعوب أخرى غريبة عن الشعب المصنف — كل أنواع العيوب الأخلاقية (كما يفعلون ذلك أيضا لشعوب لها

افــــه وثقافة مختلفة حتى وان لم يعتبروهم منتمين إلى أجناس مختلفة) لا يظهر الفحص الدقيق هذه الصلة المتبادلة . بعض الدراسات عن الجريمة بين مجموعات المهاجرين فى أمريكا فشلت فى إيجاد فوارق هامة بينهم أو بينهم وبين الامريكيين الموجودين منــــذ تاريخ أقدم ، كما أنه ثبت أن الجريمة تتناقص بين المهاجرين خلال الأجيال كلما تمت تنشئتهم حسب معايير المجتمع الامريكى أظهرت دراسة حول شيكاغو ان المدينة يمكن أن تقسم إلى مناطق حسب بعدها من المركز وتقل الجريمة كلما بعدنا عن هذا المركز . بقيت هذه الحقيقة ثابتة لسنوات طويلة بينما سكان هذه المناطق يتغيرون باستمرار . والواقع أن المهاجرين الجدد هم الذين يشغلون وظائف دنيا وعليهم أن يعيشوا فى أحياء فقــيرة تعتبر بؤراً للجريمة . تحسن وضع أبنائهم وخرجوا تدريجياً من هذه الدائرة . ولكن لو كانت الجريمة فى « دمهم » لتحركت نسبة الجريمة معهم(١) .

ذكرنا سابقا أنه غير دقيق أن نتحدث عن قرابة « الدم » كما لو أن الوراثة السيسولوجية للفرد يمكن أن يحملها الدم . فالوراثة تأتى من جينات – الوالدين – الحيوان المنوى للأب والبويضة للأم . وهنا تتحدد الخصائص الوراثية كلها فهو لا يستطيع أن يكتسب نوع عيون لم تمنحه له الجينات المناسبة مثلاً . ولكن المرء لا يستطيع أن نناقش فقط حسب الجينات والإنسان الذى نراه ، لأن الجينات تعدل بعضها كما أن البيئة تبدأ فى التأثير على نمو الفرد حتى وهو فى الرحم ، فور ولادته تبدأ التأثيرات الثقافية فى العمل عليه .

ليس من الممكن تحديد شبه الطفل المتوقع بأى من الوالدين، وذلك للاسباب السابقة بالاضافة إلى أن الطفل يرث نصف الجينات من كل واحد منهما وهى مسألة

---

(1) O. Klineberg, Race Differences, 1935, pp. 235—6

تخضع للصدفة — أى الصفات تأخذ من كل واحد . من العبث تصور وجود تشكيله جينات لانجاب انسان له مواصفات معينة . لأن التكوين الوراثى لكل من إنسان هو فريد ومتميز ، وهذه حجة ضد نسب صفات معينة أو تفسيرها — حسب الاصول العرقية .

يتفق علماء الجينات حول عدم وجود جينات للصفات الأخلاقية وما يظهره الفرد هو نتيجة لقيم المجتمع الذى يتربى فيه ومدى نجاح المجتمع فى غرسها أى التأثيرات الاجتماعية التى يمر بها الإنسان خلال حياته . لكن الذكاء — هو نتيجة وظيفة المخ والجهاز العصبى — موروث واتفق على وجود صلة متبادلة بين ذكاء الوالدين . ما هو غريزى فى الذكاء (كحالة خام فى معنى الكلمة) — هو احتمال أن يكون سريع التعلم فى مهارة تثير اهتمام الطفل أكثر (هى مسألة صدفة) وليس أن يكون رياضيا أو أديبا أو موسيقيا فى توجيه حسب المهارة . وحين نضع فى الاعتبار شعوب كبيرة يعتقد أنها أجناس نجد داخلها مجال اختلاف واسع للذكاء مثل اختلاف الاحجام ، لذلك ليس هناك فائدة من ترتيب هذه الشعوب حسب ذكائها . بالاضافة لذلك فانه بينما لاتوجد صعوبة فى قياس القامة لانجد اختباراً لقياس الذكاء ليس منحازاً ومتأثراً بالثقافة التى صمم ضمنها وقد تعطى اختبارات الذكاء مؤشرات بأن الطفل قد يكون صالحاً فى نظام تعليمى معين ولكنها لا تبين كثيراً أن طفلا من البيرو الصين يمكن أن يتكيف بصورة أحسن فى بيئة عربية أم لا .

الشعوب ذات الزواج الداخلى الصارم قد يقال عنها أنهـــا صاحبة « وعاء للجينات » به عدد من الجينات المحدودة التى يكسب أفرادها خصائصهم الفيزيقية منها — ولنعط مثالا مبسطا — هو أنه يستحيل على فرد منهم أن يكون ذا عيون

زرقاء . لكن فى واقع الأمر مثل هذا النظام للزواج الداخلى الصارم لا يوجد إلا بين شعوب منعزلة فيزيقيا ، ولم يوجد كثيراً منهم خلال التاريخ . ومنذ رحلات الاكتشافات الكبرى صار من المستحيل — فى السنوات الاربعمائة الأخيرة — أن نجد عدم تداخل واندماج للجينات بحيث نجزم بوجود شعب له خصائص وراثية مثالية صافية — ما عدا احتمال بعض سكان الجزر الصغيرة . لا يمكن اعتبار الزواج الداخلى الصارم دليلا على النقاء العرقى ، لأنه حتى الجماعات التى تحرم الزواج من بين الجماعات الأخرى التى تعتبرها مختلفة لا تستطيع السيطرة على العلاقات الجنسية المحرمة . وكل الذى يمكن فعله هو عدم الاعتراف بالمواليد الذين جاءوا نتيجة تلك العلاقات ولا تعتبرهم أعضاء فى الجماعة .

من الواضح أن هذا الموضوع ليس ميدانا تمكن الانثروبولوجيون فيه من تطوير نظرية شاملة لها صلة بمجالات أخرى فى دراساتهم . ويمكن مواصلته بالقراءة فى اتجاهات عديدة مختلفة ولكن ليس موضوعا يمكن معالجته منفصلا فى سياق علم بعينه .

قـراءات مقـترحة

O. Klineberg, Rece Differences (5)

يناقش توزيع الخصائص الفيزيقية بين الشعوب التى تعتبر أجناساً ، والصلة المتبادلة أو انعدامها بين هذه الخصائص وبين الذكاء وبين الخصال الأخلاقية

هناك مقالة قصيرة قيمة :

P. E. Vernon 'Race and Intelligence' in P. Mason (ed) Race and Darwin, 1960

ويغطى كتاب : J. S. Huxley and A. C. Haddon we Europeans (1935)
زاوية متقاربة حيث يناقش المدلول الاجتماعى للوراثة البيولوجيــة وتوصل إلى استحالة تحديد الجنس النوردى

كتب D. G. Mac Rae, 'Race and Sociology"

فى كتابه Ideology and Society (1961) وناقش نظرية مبكرة عن الأجناس كانت من محاولات اليونسكو الرائدة نشر المعلومات حول المعـــرفة الحالية فيما يخص الأهمية الاجتماعية للخصائص البيولوجية . وقد نجم هذا النشاط نتيجة فظائع هتلر بالاضافة للاصرار المتزايد للشعوب السوداء على المساواة فى المعاملة . وأصدرت عدداً من الكتيبات ذات القيمة المتفاوتة . أكثرها فائدة

G. M. Morant, The Significance of Racid Differences.
L. C. Dunn, Race and Biology (1952)

وهى تقارير مختصرة لحقائق حول الموضوع كما يراها الأنثروبولوجيون الفيزيقيون .

توجد كتب فى انجلترا عن المهاجرين من جزر الهند الغربية وباكستان . ومن أحسن الكتب حول علاقات البيض والسود فى الولايات المتحدة كتاب :

G. Myrdal, An American Dilemma (1944) J. Dollard, Caste and Class in Southerntown (1937) O. C. cox, "Caste, clasy and Race (1948)

التغير الاجتماعى

يقع موضوع التغير الاجتماعى ضمن فئة تختلف عن الموضوعات التى نوقشت حتى الآن . اهتم الكتاب فى غالبية الأحيان بوصف أنواع المؤسسات والنظم التى يتوقع وجودها فى المجتمعات البسيطة تقنياً ، وقد توصلوا إلى افتراض أن هذه النظم ظلت دون تحول لفترة طويلة كما لاحظها ووصفها الانثروبولوجيون من قبل . هذا افتراض معقول طالما يرى هؤلاء الناس الذين يعيشون فى مجتمعات صغيره نظامهم الخاصة « كما كانت دوما » حسب صنع جدهم الاسطورى الاول . بالتأكيد ليست النظم « كما كانت دوما » نفسها لان النظم الإنسانية جاءت إلى الوجود تدريجياً ولكن الافتراض يسمح بالقول أنها تغيرت ببطء شديد لفترات طويلة من الزمن . عندما يرجع أنثروبولوجيون القرن العشرين إلى كتابات وسجلات المكتشفين من القرن التاسع عشر أو القرون السابقة ـ قد تكون هذه السجلات دقيقة لدرجة تجعلها مفيده ـ فهم يرجعون إلى نظم لاتزال موجودة أو مازالوا يذكرونها . ويمكن القول باختصار أن سبب ذلك كونها تغيرت قليلا لأن المجتمعات البسيطة تقنيا مازالت صغيرة الحجم .

يعتقد علماء الانسان فى القرن التاسع عشر ـ كما ذكر سابقا ـ ان هذه المجتمعات قد تعرضت لتغييرات درامية فى الماضى والتاريخ غير المكتوب ، وكردة فعل تجاه الميل نحو تفسير النظم القائمة على أنها بقايا دون معنى لاحوال سابقة لا نملك دليلا على وجودها ـ لهذا يصر مالينوفسكى أن ينظر للثقافة على

أنها قضية أو هم مستمر « going concern » لكل الاستعمالات فيه معنى هنا والآن . هذه الوصفة مثمرة عمليا ، لذلك عندما وجد علماء الإنسان الفرصة حاولوا غرسها فى الناس الذين يذهبون للمجتمعات الصغيرة بقصد تطوير الاشكال المختلفة للتغير الاجتماعى(١) .

تطورت نظرية مالنوفسكى الوظيفية من مصطلح مجازى استعمله سبنسر ودرر كايم مقارنا مكان النظم فى حياة المجتمع بالاعضاء فى حياة الجسم . وقد بدأت من منطلق ان كل الدارسين للمجتمع سيقبلون بأنه لوجود أى انتظام اجتماعى لابد من نظم معينة تنظم وتضبط العلاقات الإنسانية ورغم أنها تأخذ أشكالا مختلفة ولكنها تحقق نفس الوظائف فى كل مكان . أكد كذلك التداخل الترابطى اللصيق بين النظم المختلفة وعبء ذلك على السياسات الاستعمارية التى تهدف إلى استئصال الممارسات « غير الحضارية» . يجب التنوية بان مالينوفسكى حين كتب عن التغير الإجتماعى، كان يفكر دائما فى التغييرات التىأحدثها الضغط الخارجى للحكم الاستعمارى ، حقيقة لم يكن مهتماً بالتخمينات غير المسنودة عن الماضى ، ولكن فى نفس الوقت لم يهتم أيضا بما يمكن أن تخبرنا به الواقعة التاريخية . وحدد بصورة صحيحة انالتغير المقصود الذى أدخل على جانب ماقد يكون له تأثير أو صدى على جوانب أخرى لم يكن يتوقعها مخططو السياسة رغم أن — حسب مالينوفسكى — وجود دراسة كافية للمجتمع المعنى يفترض فيها أن تعلمهم ماذا يجب أن يتوقعوا . المثالالنموذجى للتأثيرات أو الارتدادات غير المتوقعة هو منع حملات الحرب فى غينيا الجديدة ؟ هذا قلل من أهمية بناء

---

(١) راجع الفصل التالى عن الانثروبولوجيا التطبيقية .

القوارب البحرية وبالتالى لم تعد هناك ضرورة لإنتاج طعام لتزويد العاملين فى بناء هذه القوارب والنتيجة توقف الناس عن انتاج طعام فائض .

مازلنا نحث العاملين فى الرعاية الاجتماعية وتنمية المجتمع أن يضعـــوا فى الاعتبار المصالح الثابتة التى يمكن أن تفسر بها مشاريعهم ، والتعديلات ـ خارج الجانب الفنى للمشروعات نفسها ـ التى يتوجب تبينها واختيارها . عند ما نفعل هذا نكون قد استعملنا مبدأ مالينوفسكى فى تساند النظم بطريقة متبادلة التأثير ، رغم اننا لن نذهب بعيدا مثلما يميل اليه ـ لدرجة القول بأن أى محاولة لتحسين أحوال المجتمعات الصغيرة فهى عرضة لاحداث الضرر أكثر من الفائدة . هذا الاتجاه هو نتيجة اشمئزازه الخاص من آلة الحضارة اكثر منه تداعى أو تسلسل منطق لنظريته عن المجتمع .

حقيقة — كما يقول مالينوفسكى أحيانا — انه ليس فقط للعادات أهمية وتأثير على الذين يمارسونها ولكن وظيفتها لا (غنى عنها) فى المجتمع الذى وجدت فيه ويتوصل فى الواقع إلى أن كل تغير اجتماعى هو نحو الاسوأ ، ويبـــدو أنه تبعا لذلك — رغم ان مالينوفسكى لم يفصح عن ذلك بالتحديد — يستحيل على نظام ان يتغير حسب افعال افراده الذى ينتسب لنسقهم الاجتماعى (أى النظام جزء من النسق الاجتماعى الذى يوجد فيه هؤلاء الافراد) .

ربما هذا هو السبب الذى جعل عدد من الكتاب يفترضون ان الوظيفة لاتفسر التغير ، ولو كان هذا صحيحاً — للمبالغة فى نظـــرية مالينوفسكى — فهى ليست كذلك بالنسبة للوظيفية الرصينة ولا هى حتى من آرائه فى المراحل المبكرة . يمكن القـول ان بعض التجهيز أو ادخال نظم ضرورى لأى مجتمع وفى نفس الوقت يمكن ملاحظة ان بعض النظم لها مساوىء فى مواقف معينة . يفكر المرء احيانا

بأنه من المهم ان يفهم لماذا يثمن الناس عاداتهم الخاصة ،وفى نفس الوقت يلاحظ بانهم قد يكونون أحسن قدرة فى تحقيق أهدافهم التى يرغبون فيها لو عدلوا أو حتى تركوا بعض هذه العادات . قد يقر المرء مع دور كايم وراد كليف براون بان المجتمع يحافظ على النظام الاجتماعى من خلال ردود الفعل المناوئه من اكثرية المجتمع تجاه الافعال التى تخرج عن القوانين والقواعد ، وفى نفس الوقت عندما يتكرر هذا الخروج وتعدى القوانين ويصبح عاما ، تصبح ردود الفعل المناوئه ضعيفة . على دارسى المجتمع أن يتعرفوا على العناصر المحافظة التى يرتكز عليها النظام الاجتماعى ولكن هذا لايعنى ان يكونوا دوما مع الجانب المحافظ (وعلى كل حال عليهم ان يقروا بان الثورات اقل حدوثا مما يتوقع البعض) .

من مظاهر قوة علماء الانسان فى القرن العشرين هو أن تعميماتهم تستند على الملاحظة المباشرة لعمليات التفاعل الاجتماعى بين الناس المدروسين ، قد يحاولون ان يوسعوا هذه التعميمات لميادين خارج الملاحظة المباشرة ولكنها معروفة فقط فى المحفوظات التاريخية (الارشيف) . طالما كانت طبيعة التغير الذى يدرسونها هى التى تحدث الآن وفى المجتمعات التى ظلت صغيرة حتى ادخال التكنولوجيا والآلات من الخارج ،وفى حالات كثيرة فرضت عليهم من قبل الحكم الاستعمارى الملاحظ ان عدداً كبيراً من نظريات التغير الاجتماعى قام على تجربة المجتمعات الغربية وركزت أيضا على حقبة الثورة الصناعية . فى كلا الحالتين فى حالة المجتمعات التى اخترعت فيها التقنيات فى تلك الفترة ، وفى المجتمعات التى ادخلت هذه التقنيات جاهزة فان التغييرات التى حدثت كانت سريعة جداً بصورة لم تخبرها المجتمعات فى القرون السابقة .

هذا وقد درست العملية لفترة طويلة من خلال مدخلين مختلفين من قبل

الاجتماعيين فى المجتمع الغربى وعلماء الانسان فى المناطق الاستوائية (١) . هذا نتيجة لما يمكن ان نسميه صدفة تاريخية ، ليس المهم ان التقنيات الجديدة ادخلت على الاستوائيين من الخارج ، لان هذا حدث للسكان الريفيين فى المجتمعات الغربية وعملوا فى الصناعات الحضرية ، لكن فى حالة الاستوائيين فقد جاءت من غرباء ينتمون إلى ثقافة مختلفة أساساً عنهم . هذا يوحى بان النتيجة يمكن ان تدرس بفائدة اكثر ضمن مفاهيم القـــدرة أو عدم القدرة على اقتباس عناصر ثقافية من الثقافة الجديدة ، بنفس الطريقة التى درس بها بواش Boas واتباعه فى أمريكا بعض المجتمعات وذلك بتتبع عناصر ثقافية أو سمات ثقافية من قبيلة هندية إلى أخرى وكيف انتشرت بين القبائل الهندية ، وحتى حوالى عام ١٩٤٠ كانت عملية « تطور » وتغير المجتمعات الصغيرة المحدودة تسمى الاحتكاك أو الاتصال الثقافى Culture Contact وطرحت النظريات حول مجــالات الثقافه التى تعتبر اكثر أو اقل مقاومة للتغير ونوع العلاقات بين الثقافتين التى يمكن ان تقـــود للتثاقف acculturation . ومن الجدير بالذكر ان الوحدات التى رجعت اليها الدراسات هى مجموعات لطرق السلوك وليس الناس انفسهم . هل هناك معنى ان نتحدث عن علاقات مثل تلك الوحدات أم مقاومتهم لأى شىء ؟

بينما ابقى مالينوفسكى على فكرة الثقافات فى حالة الاحتكاك والاتصال ، رفض فى نفس الوقت المدخل السابق لعدة أسباب . منها انه من غير الممكن فهم ما يحدث بتصور عناصر من ثقافة أخرى وكأنها مصنفة فى حزم منفصلة

---

(١) لانعنى سكان خط الاستواء بل تشمل السكان بين خـــط الاستواء والمدارين (م)

من القش(١) . فقد اصر دائما على أن الوحدات المدروسة هى نظم وليست بمجرد اشياء أو اعراف ، ويقول بان النظم تتفاعل مع بعضها الآخر وتنتج شيئا مختلفا تماما وليس من الممكن ان يجزأ إلى عناصر أو سمات تأخــذ من جانب دون الآخر . وقد توصل علماء الانسان البريطانيون إلى انه من المفيد تتبع تطـور النظم بدلا عن تتبع انتشار السمات والعناصر الثقافية ولكنهم وجدوا نظرية التأثير المتبادل والمشترك بين النظم أقل جدوى . واقراراً لحقيقة تاريخية فقـد مكن التفوق التقنى الهائل الثقافات الصناعية من فرض ارادتها على المجتمعات الصغيرة بينما لم يجروا تعديلا واضحاً على ثقافاتهم . يضاف إلى ذلك أنه حتى فى الاماكن التى حدث فيها تأثير متبادل فلم تكن هناك مواجهة حقيقية بين اشخاص يمثلون ثقافات مختلفة . اقام مالينوفسكى نظريتـه على دراسة اقطار افريقية بهـا سكان مستوطنون اوربيون من الدول المستعمرة ، ولكنها ليست هى فقط التى تعرضت لتغييرات نتجت عن الثورة الصناعية .

اعطى فورتش دفعـة من المعقولية للنقاش بقوله ان الشعوب والناس وليس العادات هم الذين يتفاعلون مع الاحتكاك والاتصال . وهذه الجملة تبدو انها تلخص الحركة بابعادها عن التركيز السابق على التغييرات فى العادات باعتبارها وحدات منفصلة ومستقلة إلى الاهتمام بالتغييرات فى العلاقات الاجتماعية .

رغم انه لايعنى كثيرا القول بان الوظيفية لاتفسر التغير ، ولكن حقيقة ان التركيز الذى تتبناه النظـرية قائم على فرضيات خاطئة لاتوصل إلى نتائج غير مضطربة ومشوشة . اهتم البحث الذى رعته مؤسسة روكفلر والمعهد الافريقى

(١) التعبير استعمله فورتش تلميذ مالينوفسكى .

العالمى - حسب أسسه المرجعية - « بالافريقى المتغير » ولكن نتائجه ذكرت الكثير عن الافريقيين الذين فقدوا توجههم ومسارهم فى عالم يتغير بسرعة اكثر من التركيز على أولئك الذين يتوقون إلى مواقع فى شكل جديد من المجتمع .

أسباب ذلك واضحة وعموما يمكن فهمها وتقديرها فقد لاحظ علماء الانسان انه فى بعض النظم - بالذات الزواج - تحول الناس عن بعض القواعد القديمة والراسخة دون ان تحل محلها مقاييس أو معايير أخرى مقبولة . لاحظوا ان المناطق الريفية جردت من شبابها القادرين على العمل ويعيش أغلبهم فى المدن كعمال اجراء فى أحوال لا يقبلونها هم أنفسهم ، وكذلك ذوو المعايير الاوربية الغربية فى الرفاهية الاجتماعية لا يقبلون هذه الظروف لهم . هذا موقف يستحيل وصفه ضمن إطار خال من القيمية أى اصدار الأحكام الاخلاقية أو المتحازة . ويتمائل العلماء أنفسهم مع عدم رضاء أصدقائهم الافارقة بمحاولتهم الشعور بنفس شعورهم فيضطرون للتأسف على ذلك الوضع . ولكن يفترض أن تكون دراساتهم مرشداً للعمل وهذا ما حدث بمؤسسة روكفلر أن تدعم المعهد الافريقى العالمى .

كان الفعل الذى أوحت به الدراسات لكثير منهم هو معارضة استمرار تصنيع افريقيا والذى يرون انه لن يفيد منه أحد سوى الرأسماليين الاوربيين ، كذلك عارضوا محاولات استبدال النظم الافريقية - خاصة فى مجال القرابة والزواج - باخرى تعتبر متفوقة أخلاقياً . يظن بعض الكتاب الساخطين ان نشاطات الاوربيين فى افريقيا لم تسبب غير الضرر فقط ، وان هذا الضرر يمكن أن يخفف لو قللوا كثيراً من هذه النشاطات . لم يستعمل أحدهم الحجج العاطفية عن « الابقاء على

تعددية الثقافات » ، أما الاتهام بان علماء الانسان يريدون « الاحتفاظ بهؤلاء الناس فى حديقة حيون - بشرية » فهو افتراء سخيف .

كان المثال لعلماء الانسان فى ذلك الوقت ، ربما المثال والرغبة عندنا كلنا - هو المجتمع المتسق المتناغم الذى لا يخضع لتوتر الصراعات التى لها يمكن حلها . وبالتاكيد فقد قادتهم النظرية الوظيفية حقيقة إلى الافتراض بانانجاز هذا المثال ممكن . بدأ السؤال حينئذ - هل صراع المصالح ضمن المجتمعات الافريقية وبين الافارقة والاوربيين يحل بصورة أحسن بواسطة الاسراع أو الابطاء فى ادخال افريقيا فى النظام الاقتصادى العالمى . هذا وقد فضل مالينوفسكى - قبل ذهابه إلى افريقيا - سياسة عدم التدخل ، ثم غير رأيه بعد مشاهدة مراكز المناجم فى جنوب افريقيا وروديسيا . ورغم انه كان يكتب ضمن سياق التثاقف، فهو يرى تفضيل العطاء الانتقائى Selective giuing من قبل الاوربيين المسيطرين لانه على الاقل مؤثر مثل الأخذ أو الاقتباس الانتقائى لعناصر من الثقافة من قبل الافارقة . رأى ان على الافارقة والاوربيين الاعتراف بهوية مصالحهم المشتركة تاريخياً . ولكن هذه المصلحة المشتركة طويلة المـــدى ليست اكثر من المحافظة وصيانة النظام ، فهى مثل المصلحة المشتركة فى مضاعفة الدخل القومى والتى تقدم احيانا كبرهان وسبب ضد تعطيل الانتاج بسبب الاضرابات .

اهتم فودفرى ومونيكا ويلسكون - عملوا فى روديسيا الشمالية وقدموا عملا عن التغير الاجتماعى(١) بالصراع والوسائل الكفيلة بحله . استعملوا الكلمة فى

---

(١) كتاب تحليل التغير الاجتماعى عام ١٩٤٥ بعد وفاة ويلسون عام ١٩٤٤ وأعيدت طباعته عام ١٩٦٨ فى جامعة كمبردج تحت : التحليل للتغير الاجتماعى على ضوء ملاحظات فى وسط افريقيا (م)

عدد من المعانى والمفاهيم ، فى بعض الأحيــان تعنى صراعاً مكشوفا ومباشراً للمصالح ، يطالب الافارقة باجور عالية اكثر مما يرغب الاوربيون فى منحة ، أو رغبتهم فى الدخول إلى نوع من الوظائف يحتكرها الاوربيون . وتعنى احيانا امتعاض الافارقة من منع الاوربيين لنشاطات يعتبرونها مسموح بها مثل صنع البيرة أو اتهامهم لبعضهم الآخر بالسحر . وقد تعنى احيانا المنافسة حول المصادر النادرة وبالذات نقل ملكية الأرض للافارقة .

زعم ويلسون - متتبعين خطى رادكليف براون - ان القوى الاجتماعية تتجه نحو التوازن ، وهى كلمة تعنى اكثر قليلا من كلمة رادكليف براون المفضلة - الابتهاج والاغتباط euphoria - حالة يكون فيها أغلب الناس راضين ومقتنعين علينا ان نلاحظ انهم استشهدوا بهذه النظرية لشرح عملية التغير الاجتماعى التى لاحظوا أنها تجرى فى كل العالم . يرون انه عندما تبــدأ العملية فى الحركة فان العملية تستمر حتى تصــل إلى توازن جديد وهذا يعنى دخول شعوب المناطق الاستوائية خلالها إلى المجتمع الصناعى .

كان كتابهم الصغيرة يحاول طموحات كبيرة وندين لهما بتوضيحهم للنظرية القائلة بأن التغير هو مسألة مدى امتداد نطاق العلاقات الاجتماعية نفسه مرتبط بمسألة تقنيات التواصل والاتصال . قدموا مشروعا لتحليل جميع المجتمعات ، ومقارنة لخصائص نموذجية للمجتمعات الصغيرة والكبيرة . ولكن لانهم اهتموا أساساً بالمشكلات التى خلقت للمجتمعات الصغيرة بسبب الاندماج الجــزئى فى المجتمعات الكبرى لذلك لم يبحثوا اكثر لمتابعة عملية امتداد النطاق .

وجهة النظر التى طورها ردفيلد تقول بأن التوسع المتقدم فى العلاقات الاجتماعية كان سمة لتاريخ العالم ، يمكن قبوله عند عدد كبير من علماء الانسان والاجتماعيين

يتوجب أن نفهم عدم وجود خطأ فى نظرية مبنية على مراحل التطور التى تقوم على حقائق معروفة . كما وضحها راد كليف براون حين ناقش اعادة تشكيلات القرن التاسع عشر لمجتمعات ماقبل التاريخ بقصد الدراسة والوصول إلى نظريات، الاعتراض لم يكن بسبب أنها تاريخية ولكن لانها ظنية وحدسية . على كل حال علينا اعتبارها مزيه ان الفكتوريين لم يفكروا فى التغير الاجتماعى كمشكلة ماتحتاج للتوضيح .

عندما قدم ردفيلد محاضراته التى طبعت عام ١٩٥٣ تحت عنوان « العالم البدائى و تحولاته » قال « ان التاريخ يفهم هنا كحكاية سيرة واحدة ، هى سيرة الجنس البشرى » كان اهتمام عمله الأساسى حول الأفكار الاخلاقيـة ولكنه قدم فكرته الأساسية باعتبار العلاقات الاجتماعية المتزايدة النطاق . وحدة النطاق الصغير هى المجتمع الشعبى Folk Society كما يسميها البعض جماعة علاقة الوجه لوجه أو المواجهـة وهى صغيرة لدرجة أن كل واحد يعرف الآخرين . يضمن بعض علماء الانسان بين المجتمعات الشعبية تلك التى لاتستعمل النقود ، رغم ان كثيراً منها كبيرة فى النطاق واكثر من جماعة مواجهة ، ويسميها آخرون المجتمعات القبلية . وعند ما ظهرت المدن - حسب ردفيلد فهى عملية حتمية لاهتمامه بتوسع العلاقات فى المجتمع الشعبى - تصبح تلك المجتمعات « مجتمعات فلاحيـــة » تتضمن أناساً قريبين تحمل أعمالهم فيسام المدينة ممكنا (أى نوع الاعمال التى يمارسونها ذات صلة بالمدينة) فسكان الحضر يعيشون على فائض الطعام الذى ينتجه الفلاحون، ومجتمع الفلاحين مرتبط بالمدينة لأنه يجد سوقا هناك ولخضوعه للسلطة السياسيه الموجودة هناك ، ولكنه يحتفظ بنظام علاقاته الاجتماعية ومعاييره الأخلاقية . تأتى بعد ذلك المرحلة التى تؤثر فيها القوى المنبثقة من المدينة مباشرة

على المجتمع الفلاحى ، تجذبهم اليها كمال اجراء وتعـلم أعضاءه (المجتمع الفلاحى) القراءة والمهارات الميكانيكية ، وتسن القوانين التى تغير العلاقات الاجتماعية على أية حال هذه العملية هى التى فى أوربا لم تكتمل بصورة نهائية وهذه العملية يركز عليها علماء الانسان حين يلاحظون المجتمعات الشعبية والفلاحية المعاصرة .

من الطرق التى ينظر اليها للتغير الاجتماعى السؤال عن : ما الذى يسبب التغير؟ هذه هى نظرية للتغير الاجتماعى ، وتشير إلى اننا نسأل عن : لماذا يجب أن يحدث التغير ؟ طريقة أخرى وهى متابعة تاريخ التغير الاجتماعى بتحديد خاصية عامة للاتجاهات أو النزعات فى اجزاء مختلفة فى العالم . يرى الاجتماعيون بشباكهم فى دائرة أوسع مما يفعل أغلب علماء الانسان ، فقد حاولوا الإجابة على السؤالين ولكنهم لم يبدأوا الحكاية من مراحل بعيدة بصورة كافية لتشمل المجتمعات الشعبية . مفهوم ماكس فيبر عن تاريخ التغير الاجتماعى كعملية لازدياد العقلانية ورفض الأفكار السحرية مع زيادة فهمنا للعالم ، فهى واحدة من النظريات التى وجدها عدد من علماء الإنسان كاشفه .

رغم أنه تسرع فى القول بعدم وجود تغير اجتماعى إلا كاستجابة المخترعات التقنية ، فهو تكرار لقول الأحكام عن التغيرات التى تعنى توسعاً فى نطاق العلاقات الاجتماعية . فالاختراعات التقنية هى التى تجعل اتساع النطاق ممكنا ـ لو استعملت للصالح ، ومهما كانت التغيرات التى حدثت فى الماضى وقد تحدث فى الحاضر ، فان مفهوم اتساع النطاق أكثر فائدة فى التحليل وجذب اهتمام علماء الانسان .

رغم أن كثيراً من المؤرخين غير مهتمين بتحليل العلاقات الاجتماعية ولكنهم

يرون فيما لايدعى مجالا للشك — منذ الفى سنة خلت « أن الازمنـــة تتغير » ، عند ما يتعرف مؤرخ الانثروبولوجيا الاجتماعية لأول مرة فهو قد يتسائل : لماذا كل هذا الجدل والنقاش ؟ واحدة من بين الاجابات التى قد يتلقاها هى أنه فى فترة ما من تاريخ الانثروبولوجيا افترض أن أعضاء المجتمعات الصغيرة يسيطر عليهم تماما ثقل العادة بحيث لا يستطيعون الفكاك من معايير السلوك التى تم تنشئتهم عليها هناك اجابة أخرى مرتبطة بهذه وهى أن عمل كثير من السيكولوجيين الاجتماعيين اهتم بتكيف سلوك هذه الشعوب بواسطة التنشئة ، والذين يعملون على ضوء مثل هذه الخطوط يحتاجون لنظريات خاصة لمتابعة الابتكار والتجديد .

يقترح كبديل النظريات مثل هذا النوع الانطلاق فى القول بأن قوى التغيير موجودة فى كل المجتمعات . كان يمكن أن يكون هذا القول مسلما به ان لم تأخذ نظريات الخضوع للعادة مثل هذا المدى والانتشار والقوة ، حتى أمثلة دوركايم ورادكليف براون عن رد فعل المجتمع تجاه الخروج عن قوانينه وقواعده — كان يمكن أن تؤثر على جو الفكرة — رغم أنهم على الاقل اعترفوا بان الشعوب أو الجماعات تخرج عن القواعد والقوانين التى تعلموها .

الواقع انه لايوجد مجتمع يحدد ويصف مقدما مايجب فعله فى كل المواقف . هذه دائما منطقة نجد فيها مجالا لحرية الاختيار . فى نقـــاش الاقتصاد اهتممنا بالاختيار فى تخصيص وتقسيم الموارد . وهناك مجالات أخرى للاختيار بجانب التى درج على اعتبارها تنتسب للاقتصادى . هناك مجال للاختيار فى العـــلاقات الاجتماعية الشخصية غير تلك التى فرضها الوضع الموروث . يقرر الناس مع من يتحالفون أو يتحدون زواجيا — ربما يضعون فى الاعتبار فوائد حليف قوى ، وقد يوزنون الصهر الذى يقبل نسبة أقل من المهر لأنه يسكن بالقرب ويمكن أن

يراقبك مقابل فوائد آخر يطلب كل المهر ولكنه بعيد لا يطالبك باستمرار أن أن تقوم بأعمال اضافية كثيرة . يختار أصحاب الماشية من التركانا أولئك الذين يمكن الارتباط بهم من خلال الرعى المشترك . ويختار سكان جزر البحر الجنوبى رفقاء الكولا . يقرر الشبان أما العيش مع عصبتهم — كما يجب — أو مع أقرباء آخرين يفترض انهم مساندون لهم قد يفضل البعض ترك كل مجموعتهم القرابية ويقدمون خدماتهم لزعيم . قد تدخل العلاقات المعترف بها المرء فى التزامات متناقضة لابد من عدم تنفيذ احداها عند ما تضغط رابطة صداقة وقريب من أجل متطلبات فى نفس الوقت من مصادر محدودة . هناك من يختارون تخطى القوانين وتحمل النتائج ، كما يوجد أيضا من يعتبرون أن القبول والرضى المكتسب من الخضوع والتماثل له قيمة عليا . ان الاختيارات التى يقوم بها الذين يرفعون قيم أخرى (جديدة وغير سائدة) أعلى من الخضوع والتماثل ، وذلك يقود الى التغير الاجتماعى .

تظهر اختيارات جديدة عند ما تقدم فرصاً جديدة ، وفى المجتمعات الصغيرة اليوم جاءت فرص جديدة من الخارج بدخولها فى النظام الاقتصادى العالمى . ومن الممكن تتبع التغييرات الحاصلة فى كل ميادين العلاقات الاجتماعية — التى سبق مناقشتها . لكن قبل أن نفعل ذلك لابد من ذكر ان الهجوم الأول لانثروبولوجى يستعمل مادته الاثنوغرافية يبدأ على نظرية ان المجتمعات البدائية ذات طبيعة استاتيكية . هذه دراسة ليتش للكاشنيين فى المرتفعات البورمية . بينما قرى الكاشنيين ذات ثقافة متشابهة ، فانه يمكن تنظيمها حسب أسس سياسية مختلفة — بعضهم محكوم ذاتيا ويخضع لرئيسه الخاص . البعض يدفع جزية لرؤساء ويعتبر زعماءهم تابعين . مثل هذا الزعيم هو رئيس قريته . فى بعض الاحيان يرفض

الزعماء التابعين الادعاءات المفترضه عليهم ، حتى عند ما يقبلون فهم يقولون بانهم لم يكونوا أبداً تابعين . فى بعض الأحيان ينجح أحـد الرؤساء فى فرض الجزية واستلامها . كما أنه فى كثير من المجتمعات ، تسند هذه الادعاءات باساطير وقصص يفترض أنها تعطيها سنداً تاريخيا ،ولكن الاساطير البديلة تدعم الادعاءات المتنافسة . كما أول ليتش السجلات التى احتفظ بهـا الاداريون البريطانيون ، فالتاريخ الحقيقى للكاشنيين سائل باستمرار لأن الرؤساء يقيمون سلطتهم أولا ثم يجدون أنهم لا يستطيعون الاحتفاظ بها . لكن يجب أن نلاحظ أنه حتمى هنـا يوجد أثر خارجى . امراء شان المجاورون يدعون ضريبـة من الكاشيين ، معطين مثالا للكاشيين الطموحين لتقليده .

فى نقاش المجتمعات غـير المستعلمة وغير النقدية فى اقتصادها — لاحظنا كيف أنه عندما تنشأ السلطة السياسية المركزية يظهر مبدأ تنظيمى يكمل ويحـل تدريجيا — يحل محل نظام القرابة . تستمر القرابة فى كونها أساس ادعاء الملكية، ولكن الناس يتجهون الآن إلى سلطة خارج مجموعة القرابة للدفاع عن ادعاءاتهم وينظرون إلى نفع القيادات السياسية والأقارب أيضا من أجل بنـاء ثرواتهم . وعند ما يدخلون فى مجال التجارة الكبيرة ، فهم يبدأون فى الاعتماد اقتصاديا على علاقات خارج مجموعة القرابة . إذا كانوا مزارعين فقد يستمرون فى الاحتفاظ بابنائهم معهم كفريق عمل ، ولكن العـلاقة الجديدة الهامة ستكون مع مشترى المحصول . وإذا دخلوا (الميـدان) التجارى كعاملين فسيكونون علاقتهم مع المخدم وفى نفس الوقت يصبحون جزءاً من مجموعة اجتماعيـة جديدة ، ومخدمو ذلك العمل المعين بتقسيماته الفرعية إلى عمال على درجات مختلفة وامكانية امتداده إلى نقابة . هنـا ليس للقـرابة أى تأثير وأهمية على الاطلاق لأن العمل المأجور

يفصل العامل ماديا أوفيزيقيا عن عائلته لو كان عليه أن يذهب إلى المدينـة التى تبعد عن منزله . تبرز مؤسسات ونظم جديدة لتقـوم بنشاطات كانت مقصورة على الأسرة الممتدة . تقوم المدرسة بالتعليم والتزويد بمهارة فنية جديدة لا يستغنى عنها فى المجتمع الجديد — الكتابة ، والآن بعد أن أصبح التعليم حقيقة مفروغا منها — صار السؤال هل يكون التعليم فنيا ام عاما . وتتحمل المستشفى مسئولية المريض التى كان يقوم بها رئيس العائلة فى بحثه عن العراف أو الساحر .

هكذا أصبح الشعب مستقلا عن روابط القـرابة واكثر استعداد التخلى عنها حين تصير مرهقه. لاحظ الانثروبولوجيون كثيراً كيف ان المجتمعات غير النقدية ترغب فى أن تكون لها سيطرة كاملة على نصيب الفـرد فى ميراث عصبه النسب وهذا يتعارض مع الهدف المثالى فى أن تحقق العصبة وحدتها خلال الأجيال . والحافز القـوى للبحث عن الاستقلاليـة هو عدم المساواة فى الثروة . هذا وقد تطـــورت اللامساواه حتى بين شعوب تملك مواشى وتعيش فى مستوى مادى منخفض، فقد تجد ماشية تخص ما مرعى أحسن، أو قد تكون قادرة على مقاومة وباء يفتك بماشية آخر ، أو قد ينهب أحدهم ، وآخر قد تكون له اخوات أكثر من اخوان ذكور وبالتـالى يبنى ثروته من المهر الذى يدفع له . والمحظوظون ليسوا على استعداد للاعتراف بالتزام يوجب عليهم تقسيم الثــــروة خارج دائرة محدودة .

هذه هى الأسباب التى توجب على الأسرة النووية أن تلغى الأسرة الممتدة كمجموعة قرابة أساسية . فى كثير من الأحوال اختفت العصبة كتنظيم ، وطالما على الناس أن يختاروا السكنى جوار قريب فهـو قد يكون أى قريب . لأنه لم يعد هناك ميراث حسب العصبة القرابية لذلك تفقد عضوية العصبة أهميتها بلازم

اختفاء العصبة فقدان الاهتمام بشكليات الزواج المهمة فى تأسيس الانتماء لعضوية العصبة . وقد فسر هذا على أنه رفض للكوابح الجنسية ومسؤولية العائلة عامة . هذا يفتح المجال للافتراض بان الشريكين الذين لم يمرا بطقوس الزواج المتبعة هم بالضرورة متورطون فى انتهاكات عرضية أو مؤقته — وهذه ليست بحال من الأحوال الحقيقة . النقونى Ngoni فى زامبيا مثلا لهم مصطلح لما يسمى «الزواج ضعيف الرابطة» ، وهو رابطة تكونت بدون الشكليات الرسمية ويعتقدون أنها لن تدوم طويلا . ولكن لو دامت — وهذا مايحدث كثيراً — يتوقف الناس عن تسميتها رابطة ضعيفة ويسمونها فقط زواجاً .

وفى جزر الهند الغربية هناك نسبة عالية من الأطفال غير الشرعيين بمعنى أن الوالدين لم يتزوجا عند ميلادهم . ولكن دراسة عن غانا البريطانية أظهرت أن أغلب الأطفال ينشئون فى أسر بمعنى أن الامهات خلال الفترة التى يرعون فيها أطفالهن يكن معتمدات على رجل فى الاعاشة (ليس دائما هو الأب) .

هذا يقود إلى أهمية الابوة الشرعية التى تقام بواسطة الزواج . والاجابة التى ظهرت فى الدراسات الأخيرة هى أن الرابطة القانونية ليست مهمة كضمان للمساندة أو الاعالة الاقتصادية للام وأطفالها ؛ من جانب آخر تطلب قوانين بعض الدول الأب أن يعول أطفاله حتى وان لم يكن متزوجا شرعيا من الأم ؛ كما أنه فى بعض المجتمعات يمكن أن يعيش القرينان غير المتزوجين فى منزل عائلى . والسؤال الحاسم هو وضعية الابناء تعتمد على علاقتهم الشرعية بوالدهم . هذا هو الوضع فى المجتمعات التى يقوم البناء الاجتماعى على التسلسل الابوى ، وهذا هو الحال فى المجتمعات المعقدة التراتب حيث يتربى الطفل فى طبقة والده وهو — أى الطفل — لو ارتفع مستقبلا إلى فئة أعلى فهو يضم أطفاله له . فى الكاريبى وفى

بعض مدن جنوب أفريقيا لا يوجد نظام عصبة قرابية وبالنسبة لطبقة العمال غير المهرة هنـاك أمل ضئيل للحراك الاجتماعى . لذلك تصبح الجوانب الشرعيـة فى الزواج ذات قيمة ضئيله .

صار للعمل المأجور والانتـــاج التجارى للحصول النقدى نفس الآثار على التزامات العصبة القرابية . فقـد خلق الاثنان — من خلال ظهور مصادر دخل خارجية — وضعا من اللامساواة بين شعوب كانت تقليديا تشترك فى ميراث أبوى جماعى . ففى الهند يقتضى مبدأ نظام الأسرة المشتركة ان يعمل الابنـاء فى أرض الأب ويصب المنتوج معـا حيث يديره الأب حسب المنفعة المشتركة للجماعة . لا يستمر مثل هذا النظام دون تناقض واحتكاكات فى كل الأوقات. فقد يتهم الآباء بالمحاباة وتفضيل البعض ، والا بناء بتجنب القيام بنصيب عادل فى العمل ، وجزء من أهل البيت قد يعتقدون انهم أحق بمعاملة خاصة لا يتقبلها الآخرون . عند ما يبدأ بعض الافراد فى كسب دخولهم من العمل المأجور —وهذا يتكرر فى القرى الهندية اكثر من الافريقية — يصبحون غير راغبين فى المساهمة بدخولهم فى المال المشترك أو الملـكية المشتركة ويؤكدون استقلاليتهم بالمطالبة بالتقسيم العـاجل للملك المشترك .

قاد ادخال المحصول النقدى أيضا إلى تاكيد الأفراد السيطرة المستقلة لنصيبهم فى موارد العصبة القـرابية . أهم النتائج هنـا هو التغيير فى الاتجاهات نحو ملكية العصبة الجماعية للارض . صار للارض قيمة نقدية لأنها مصدر لمحصول نقدى ، والناس الذين توصلوا لتلك الفائدة التى يكسبونها بالايجار أو البيع لم يعـــدوا قادرين على احتمال الالتزامات التقليدية مثل استشارة رفقائهم المشتركين فى الملكية فى حالة رغبتهم فى التخلص من الأرض أو التصرف فيها . بدأ البعض التعامل مع

الأرض بهذه الطريقة بينما ما زال الآخرون يتمسكون بالتقليد القائل بضرورة بقاء الأرض فى يد العصبة القرابية .

حين تم تتجير Commercialized النشاطات الاقتصادية فقد كون الناس علاقات مباشرة خارج المجتمع الصغير المحدود ـ علاقات البائع والمشترى حدثت التغييرات الهامة حين أصبحت الموارد الموجودة فى المجتمعات الصغيرة سلعا مطلوبة فى عالم أوسع . ويمكن عرضها وتقديمها بواسطة القرويين المستقلين — كما هو الحال بالنسبة للكاكاو فى غانا والأرز فى الملايو — أو يمكن تنظيم الانتـــاج فى المزارع الكبيرة التى تجذب قوة العمل من مناطق بعيدة . ولو تطلب انتاج الموارد تطوراً — مثل المعادن الخام — فلابد من تنظيم العمل على صعيد أوسع لأسباب فنية .

جذب العمل المأجور فى المزارع والمناجم الناس إلى تجمعات جديدة فصلتهم عن أقرب الاقربين وأعادت تجميعهم ثانيــة قد يكون بالاختيار الحر بينهم أو بفعل سلطة أعلى يحدد مديروا المناجم ومستخدمو البلديات للناس أين يجب عليهم السكنى ومع من يكونون زمرات وجماعات العمل . ويبنى الناس أيضا جمعيات جديدة خاصة بهم ، ويكونون فى العمل نقابات وبالنسبة لنشاطات الفراغ قد نجد تنظيمات لاناس يسكنون فى شارع واحد أولهم خلفية مشتركة غير مكان المنشأ الاول (مثل طلاب المدرسة الثانوية الواحدة) . أظهرت الدراسات التى أجريت فى حزام النحاس الافريقى (روديسيا) كيف يربط الناس أنفسهم معــاً حسب أهداف تتمشى مع مصالحهم الجديدة ، والآخرين حسب ولاءاتهم القـــديمة . فالاحتجاجات ضد سياسات المخدمين أو سلطات المدينة تقـوم بها تنظيمات تمثل أصحاب المصلحة فى ذلك ، ولكن فى مثـــل هذه التجمعات قد يوجد تنافس بين

أجناس من خلفيات اثنية مختلفة،وقد يعتبر اختيار الممثلين كشكل من التنافس القبلي من بين أوجه التسلية في أوقات الفراغ مشاهدة مجموعات رقص تغني اغنيات لتمجيد قبيلتهم والاستهزاء بالآخرين .

انتشر مصطلح تفكيك والغاء القبلية detribalization من خلال معالجة التجمعات السكانية الحضرية ـ في النقاشات عن افريقيا . وهو يرجع إلى نقل ساكن الحضر من بيئته الأولى ، على افتراض أن النقلة تخلصه من كل ضوابط السلوك التي نشأ ضمنها . يميز هذا الافتراض المراقبين الساذجين والذين لايخلون من التحيز . هذا وقد اعترض بعضهم على أي تأثير قد يقود الافريقين إلى رفض سيطرة الاوربيين والتعليم من بين هذه التأثيرات . وبعضهم مثاليون من النوع الذي يمجد الفضائل البسيطة لحياة الريف ويدين فساد المدينة . ولكنهم لو وعوا وجود مشكلات رفاهية اجتماعية واخلاقيـة بالنسبة للمهاجرين الجدد للمدن في كل انحاء العالم ، لما بحثوا لتفسير لذلك في الغاء القبلية .

على كل حال لايزال السؤال هل يستطيع المصطلح وصف عملية خلافا لاصدار أحكام قيمية على وضع ما . قد يرجع المصطلح إلى التخلي عن قوانين القـــرية السلوكية وعاداتها دون أن يعني التخلي عن كل قوانين وقواعد القرية ، وبديهي أن بعض ممارسات القرية لابد من التخلي عنها في حالة الإنتقال والعكس في المدينة ولكن هل يعني هذا أن الممارسات والقـوانين قد رفضت إلى الأبد ؟ هل هذه عملية تثاقف acculturation ، تحل خصائص ثقافيـة جديدة كبديلة لعناصر تقليـــدية .

رفض فلوكمان Gluckman هذا التفسير كما رفض صورة مالينوفسكي بظهور نظم ومؤسسات هجنية ، قائلا بان سلوك الشعوب هي استجابة للموقف الذي تجد

نفسها فيه . فلو تعلم العامل المهاجر وهذا مايجب — أن يتبع طرق سلوك المدينة فهذه مسألة اختيار السلوك الذى يتطلبه الموقف؛ وفى مسقط رأسه بالقرية سوف يكون اختياره مختلفا ولكن بدون شك لن يكون اختياره بالضبط كما هو وكأنه لم يغادر القرية مطلقا .

وقد لوحظ أن الناس يحاولون عن قصد الاحتفاظ بمقاييس القرية على قدر الإمكان عندما يكونون فى المدينة . وهذا يجر إلى الارتباط حصراً مع الآخرين ذوى الخلفية القروية المشتركة ، وهذا ربما يكون ممكنا فقط للذين يترددون على القرية . وفى هذه الأحوال فان العقوبات المضادة للخارجين عن معايير القرية تكون فى ذروتها . وهذا الوضع حادث بين xhosa فى جنوب أفريقيا بمدينة ايست لندن والتى يأتيها معظم العمال من المناطق الفلاحية الداخلية القريبه منها .

يعتبر امتداد العلاقات السياسية واتساعها واحداً من أهم مظاهر التغييرات الاجتماعية فى هذا القرن . خضعت الوحدات السياسية الصغيرة لحكم القوى الاستعمارية وتطلبت السيطرة على مساحات واسعة بهدف ضمان التطور الاقتصادى ولم يرجعها انتهاء الاستعمار إلى حكم ذاتى مستقل كوحدات. على العكس اتحدت فى دول مستقلة لها حكومات موحدة وتنظيم خدمة مدنية وادارة انشأتها الدول الاستعمارية السابقة ولها دساتير نجد أسسها فى الأمم القديمة . وجدت الدول نفسها حينئذ تقوم على بناء سياسى يتكون من مناصب ووظائف لابد من ملئها ، ومجموعة من القواعد تحدد طريقة ملئها وحدود السلطة التى تمنح للوظيفة. انسحبت الدول الاستعمارية وكأن رفع أعلام الاستقلال هو صفارة بدء لعبة جديدة . تلعب اللعبة بصورة مختلفة فى بعض النواحى عما افترض أن يكون النموذج

النموذج وبالذات تحول سريعاً عن النمط الذى ظنه الحزب ديمقراطية برلمانية مثالية .

حاول بعض الانثروبولوجيين تفسير ذلك بالرجوع إلى القيم التقليدية التى تحملها تلك الشعوب . فقد لاحظوا ان المجتمعات الصغيرة لها نظم سياسية لا تعطى فرصة للتنافس حول القيادة . لاحظ كتاب انجليز ان اللغات المتحدثة فى مستعمراتهم السابقة لا تحتوى على مصطلح « معارضة » سوى كلمة « عدو » . بالتاكيد تختلف النظم السياسية للدول حديثة الاستقلال عن أى أمثلة يمكن أن يظهرها تاريخها الماضى . لكن من الخطأ أنهم يبحثون عن طريقهم فى اللعبة بالنظر إلى ماضيهم بحثا عن النماذج ، رغم أنهم أحيانا يقولون أنهم يفعلون ذلك .

التفسير المقترح فى هذا الصدد يركز على العلاقات الجديدة التى يجد الساسة الجدد أنفسهم ضمنها . وهى علاقات لم تتبلور قواعدها بعد ، فالقواعد الاجتماعية هى مسألة توقعات مرتبطة بالأدوار ، وفى النظم السياسية الجديدة نجد ان الناس عامة لم يقرروا بعد ماذا يتوقعون ، مع ذلك من المشكوك فيه أن يتوقع كثير من الناس أن يتصرف الوزراء ورجال الخدمة المدينة مثل الزعماء التقليديين وتوابعهم ؛ أو هل يرى أعضاء المجلس الوطنى فى تنزانيا أنفسهم حقيقة يعيدون انتاج لمجمع كبار القرية تحت شجرة كما قارنها نيريزى .

بالأخرى فهم جعلوا لانفسهم أهدافا توحى بانهم يتبنون — عن قصد — طرقا جديده لتسيير عمل الجماعة ، وهم يعون — مثل الملاحظين من الخارج — ان العلاقة بين الحاكم والمحكوم الآن تختلف عن الأيام الماضية ، عند ما يشجبون القبلية فهم يعنون باختصار علاقات الولاء لأفراد ذرية سلف يستمرون

قدسية سلطتهم من العقيدة الدينية ـ وهذا حسب رأيهم يفرق الشعوب التي يقودونها والسلطة التي يمارسونها تجد شرعيتها في الادعاء الشعبي بان الانتخابات جاء لكي ترمز . بالتأكيد تحفظ السلطة بوسائل يعتبرها الغرب غير ديمقراطية ، ولكن هذه الوسائل ليس لها جذور في واقع التقاليد القبلية . وفي حالات كثيرة تعلموها أو نقلوها ببساطة عن الأنظمة الاستعمارية . وهي تبرر بالحاجة إلى التحرك سريعا بعيداً عن الماضي التقليدي .

يمكن للمرء أن يرى الأسباب السلبية التي تجيب عن لماذا أثبتت الديمقراطية صعوبتها في ان تطبق كما تمنى المثاليون الغربيون ذلك ؟

قد يجيب البعض قائلا بعدم وجود تقاليد تستوجب الحل السلمي للصراعات حول السلطة — ببساطة لان المتنافسين حول السلطة ينتمون لوحدات لا تقاليد لها في التعاون سلميا ، ولكن لا يمكن التوقف هنا . فقد يسأل الإنسان من أين أتت هذه التقاليد للمجتمعات التي تمتها الآن أكثر الاجابات اقناعا جاءت من المؤرخين والمنظرين السياسيين والاجتماعيين أكثر من الأنثروبولوجيين . يجب البحث بالاجابة عن السؤال ما هو الذي تمتلكه المجتمعات الكبيرة وليس من خصائص المجتمعات الصغيرة ، وعدم البدء من المجتمعات الصغيرة بالقول أن ما ضيها يحدد مستقبلها مطلقا : فالسؤال عما يدعو الحكومات لقبول قيود على سلطتها لا نجد اجابته — ببساطة — في المجتمعات الصغيرة وحدها ، حتى عندما نفعل ذلك فعندما نفحص نظمها السياسية الخاصة نبحث عن هذه القيود المتضمنة فيها . يمكن أن نفترض أنه لا يوجد شخص يمتلك سلطة وينتحى أو يمتنع طواعيه عن ممارستها . بعد ذلك نتسائل كيف نشأت التوقعات التي تجعل من الممكن لمواطنين حكومة ما أن يطلبوا . حقوق الإنسان والحريات الأساسية ،

وما هو الضغط الاجتماعى الذى يعمل من أجل مساندة تلك التوقعات .

هناك اجابات توضيحية ذكرها الاجتماعى الامريكى شيلز (١) تقول بأنه فى الدول الحديثة الاستقلال نجد أن الصفوة الحاكمة تتكون من اناس اختاروا أن يرفضوا القيم التقليدية ويبحثون عن وعى مقصود عن طريقة تحديث مجتمعاتهم ولكن غالبية السكان لم تدخل فى العـــلاقات التى تميز المجتمعات الصناعية ، وهذا أكثر صدقا على الهند مقـارنة مع الدول الافريقية الحـديثة . هذه الأغلبية قد تحتفظ بتوقعات تقليدية لدور الحاكم ، بينما الحكام الجـدد غير مكترثين بتلبية تلك التوقعات . والناس ذوو الصلة والمعرفة بالديمقراطية فى هذه الدول هم أما فى الحكومة أو فى المنفى أى ان الراغبين فى النقد المعـارض هم أقلية عاجزه عن أن تفرض سماع صوتها .

يرى كثير منا ان نطالب الحكام القيام بالدور الذى يحد من حريتهم فى العمل عندما يكون هذا الدور ليس محدداً بوضوح فى أذهان كافة النـاس ، ونوع النقا الذى يحدده لاتوجد إلا قلة ضئيلة فى الدول الحـــديثة قادرة على القيام به . لاتوضع السلطة فى حدودها بواسطة تعريف الأدوات الشرعيـة والقانونية ، ولكن عند ما يكون الشعب مستعداً على الاحتجاج فى حالة تخطى هذه الحدود ، فى المجتمعات الصغيرة القديمة كان للتقاليد وسائل عديدة (عدا الثورة أو التمرد) وقامت هذه الآلية على الاستفادة من العلاقات بين الحاكم والمحوم وهذا غير موجود فى المجتمعات الجديدة

---

(١) فى Comparative Stuolies in Society & History Uol (pp. 265—92,379—4)
تحت عنوان Political Development in the New States

تحتاج الديمقراطية ذات الطابع الحديث إلى مصادر من النقد النشط والمعارف مجموعات المصالح المنظمة ، صحافة لديها معلومات جيدة ، جامعات حيث يعتبر البحث عن المعرفة موضوعاً يتساءل فى الآراء المسلم بها . والحكومة التى تهيىء ذلك بجعل النقاش الحر منتشرا بصورة تمكنها من وقف الهجوم عليها بسبب أى نقطة سببت الاشياء ، وان لم يحدث فان مصادر النقد غير المريح ستسكت الواحد تلو الآخر .

هذه المناقشة ترجعنا إلى القول بأن ليس كل أفراد المجتمع على استعداد واحد للاستفادة من الفرص الجديدة ، خاصة حين يقود ذلك إلى الفكاك من نمط الحياة الذى تعود عليه الناس كما هو حادث الآن فى أغلب الدول النامية . البعض حجبت عنه الفرصة لأن دور العضو فى القطاع الحديث لا يمكن القيام به إلا بتحصيل قدر من التعليم الرسمى . وقد يتضايق هؤلاء بسبب الخلخلة الناجمة عن التغيير الدائر حولهم ويشعرون أن الطرق القديمة أحسن . ولكن على الانثروبولوجيين ألا يعتقدوا أن اهتمامهم الرئيسى يجب أن يكون التعاطف مع عدم الرضا ، بل محاولة تتبع عملية التغير باهتمام متساو يقدر طموحات وآمال أولئك الذين يرحبون بالتغيـــير .

الدين والمجتمع

تعتبر المجادلات حول ما يمكن أن يسمى سحراً وما يسمى ديناً تمهيداً لمناقشة مكانه الدين فى الحياة الاجتماعية . فيما عدا التلميح بطريقة عامة فى نظرية دوركايم لم تذكر الصلة بين الدين والأخلاق الا نادراً . ولم يذكـــر شيئا عن مسألة مناسبات الطقوس الدينية ، وقليلا جداً عن الطريقة التى يمد بها الدين التابعين له برؤية متماسكة للعالم .

تعتبر المناسبات التى يظن أنها تتطلب طقساً من أجـــل البحث عن الاتصال بقوى فوق الطبيعة (أو فوق بشرية أو غــــير امبيريقية أو كائنات روحية أو باختصار الالهه) متشابهة تقريبا فى كل المجتمعات.

قدم ايفانز برتشارد مناقشته حول معنى القرابين عند النوير بتقسيمه مناسبات التضحية والقرابين إلى نوعين تأكيدى أو اثباتى وتفكيرى وهـــذا يصلح للطقس عامة ولا يهم ان كان يتضمن التضحية فى شكل قتل حيوان . يتضمن جزء كبير من الطقس ـــ كما لا حظ هورتون ـــ العطاء الرمزى لشيء ما . لا بد من التفريق بين مصطلحى طقس المستعمل كاسم ويشير إلى مجموعة من الأفعال تضم عدداً من الناس ومصطلح السلوك الطقسى الذى يصف أفعال فردية لها طبيعة طقسية ومن بين ذلك يضمن ليتس لبس الخاتم لتظهـــر انك متزوج ويضمن أغلب الأنثروبولوجيين مراعاة التجنبات الطوطمية .

---

(١) أو تحطيم شيء كمـا هو التعريف الاوسع للتضحية الذى أعطاه هيوبرت ومادس فى كتابهما Sacrifice, its Nature avd Tunction, toavs. M. D. Halls, 1964.

يقول ايفانز برتشارد ان بعض الطقوس يهتم بتغييرات المكانة الاجتماعية وتفاعل الجماعات الاجتماعية وهـذا ما اهتم به دور كايم . اهتم البعض الآخر أكثر بالرفاهية الأخلاقية والجسمانية للفـرد وهذه أشياء كانت فى أذهان الذين رفضوا تفسير دور كايم للدين واعتبروه ناقصا .

مناسبات الطقوس من النوع الأول التى سماها إيفانز برتشارد تأكيـدية أو اثباتية متشابهة بشكل ملحوظ فى كل العـالم . رغم أن عدداً كبيراً من الناس فى المجتمعات العربية ممن تمسكهم بالدين شكليا ، لا يهملون القيام بالطقس فى ثلاث مناسبات كلها تختص بتغير المكانة . الميلاد عندما يجىء شخص جديد للمجتمع ، الزواج والموت حين يغادر المجتمع . مثل هؤلاء الناس يمكن أن نفترض عدم اهتمامهم بالآثار الروحية لهذه الطقوس ومع ذلك فهذه الحقيقة تعكس شعوراً عاما أن هذه الحوادث يجب أن تقدم بطريقة ما .

طقوس الانتقال Rites de Passaqe

كان فان جنيب Van Gennep أول كاتب يهتم بالأهميـــة الاجتماعية للطقس التأكيدى وساهم بادخال مصطلح طقوس الانتقال فى لغة الانثروبولوجية الاجتماعية . هناك صعوبة معينة فى اختيـار ترجمة مناسبة لهذا المصطلح لأنه فى النطق قد تختلط كلمة Rite طقس بكلمة Rights حقوق وقد توحى بشىء شرعى legol هناك عبارة أحسن عنـد بيتى طقوس الانتقال (١) ولكن الكثيرين من الناس يقولون طقوس أزمات الحياة وبالتالى يحصرون أنفسهم فى مجـال أضيق .

---

(1) Beattie, Other Cultnoes, 1964, p 211 .

يؤكد فان جنب انه فى المجتمعات البسيطة كل تغيير يعتبر انتقالا من حالة إلى أخرى وتقام له الطقوس — فالتغييرات فى أطوار القمـــر أو فى الفصول كذلك تغييرات المراكز الاجتماعية للأفراد ، وحركة الجماعة إلى قرية جديدة ، دخول زوجين فى منزل جديد أو حتى دخول ومغادرة أى منزل . وذكر كمثال عادة العرب قبل الاسلام وهى أن كل شخص دخل أو غادر المنزل يلمس تمثال آلة المنزل عندما يمر بالباب . ووجد الانثروبولوجيون الاجتماعيون اليوم نظرياته مثيرة للاهتمام وتعتمد على تقديس التغييرات فى المركز الاجتماعى . يذكر فان جنب أن الإنسان لا يكون عضواً فى مجتمعه بمجرد ميلاده فقط ويجب أن يقبل رسميا فيه وهذا يتم من خلال اعطاء اسم للطفل فى مجمع عام أو عرضه على أقرباء والديه . كما يحدد اكمال النضج بطقس وكذلك الزواج والموت . ومن بين نتائج طقس مستودع الجثث هو تأسيس مكانه المتوفى كأحد الاسلاف . كل هذه التغييرات — كما يقول فان جنب — يمكن تفسيرها بالقدوم والخروج وليس انتقال فقط ولكن انتقالات خلال .

يزلج الشخص الذى سيتغير مركزه فى الاتصال اليومى أولا بطقس الانفصال والذى يضعه فى عالم المقدس حسب المفهوم الدوركايمى للكلمة . ومن الأمثلة الفراق الطقسى من قرية أفريقية لعصبة أولاد أو بنات إلى مكان خارج القرية حيث يقضون فترة تكريسهم ، أو وضع عروســـة فى عشة حيث تمضى فترة العزل — أما قبل ذهابها إلى زوجها أو فى منزل زوجها قبل أن تزاول واجباتها المنزلية كزوجة يعقب هذا فترة إنتقالية حيث يترك الإنسان الذى يمر بالطقس مركزاً ما خلفه وحيث لم يدخل بعد فى المركز الجـــديد . الطقس فى هذه المرحلة يسميه فان جنب هامشيا ويستعمل أيضـــا الكلمة الفرنسية Iiminaire

والتي استنبط مجازها — المنزل وكلمة liminaire تعني عتبـــة (مدخل) المنزل ويتخيل فان جنب فعلا شخصا على عتبة المنزل ليس فى الخارج أو الداخل بعد . ثم يجيء طقس التجمع aggretation والذى يؤكد فيه المركز الجديد رسميا أو يخلق المركز طالما المركز هو مسألة اعتراف اجتماعى وليس فعلا أو حالة تخص فرداً واحداً وتسمى المراحل الثلاث فى الانجليزية : طقوس الانفصال ، الانعزال والتكامل . يركز فان جنب على القول بأن تقديس تغير المركز ليس هو الهدف الوحيـــد للطقوس التى تحيط به . فهى دائما تتضمن عناصر موجهة لنجاح الشخص فى مركزه الجديد مثلا تهتم طقوس الزواج بالخصوبة وطقوس الميلاد بسلامة وصحة المولود وحظه المتقدم خلال الحياة .

رمزية طقوس الانتقال هى غالبا تجديد الميلاد ، فى بعض طقوس التكريس يقال ان الأولاد قد ابتلعهم مخلوق غريب وسيلدهم من جديد من بطنه . قد تعتقد امهاتهم فعلا انهم حقيقة ماتوا وولدوا من جديد ، خاصة وانهم فى هذه التكريسات التى تشمل خضوعهم لفترة طويلة للمشقة الجسمانيـة ويموت بعضهم حقيقة نتيجه لذلك . كثيراً ما يمرون خلال باب — كما تعـــود رؤساء وزعماء نياكيوسا Nyakyusa أن يفعلوا عنـــد ما يباشرون وظيفتهم فى احتفال يسمى فعـلا « الخروج » لأن هذا يعتبر أهم جانب فيه ، أو كما تعود أطفال الكيكيو kikuyu فى التكريس أن يمروا تحت قوس مصنوع من جذوع أشجار الموز .

بالاضافة لطقوس الإنتقال التى يحتفل فيها بدخول الأفراد إلى مركز جديد تقام أيضا الطقوس التأكيدية باسم الجماعة كلها . وهذه عادة سنوية . وكان فى امكان فان جنب أن يصنفها ضمن طقوس الانتقال بتأكيده على توقيتها بالمرور من عام إلى آخر . هنـاك بالتاكيد بعض الطقوس السنوية من هذا النـوع مثـال ذلك فى

جنوب غانا عند ما يقذف بشرور الماضى طقسيا فى البحر وتبـدأ السنة الجـديد بسجل نظيف . ورغم أن كثيراً من الناس يحسبون السنة الجديدة من وقت حصد المحصولات ولكن ليست هذه الدلالة الأساسية لمثـل هذه الطقوس . ويهتمون أكثر بالعمل المرضى المستمر للنظام الطبيعى والاجتماعى . وهذه هى الطقوس التى رأى دوركايم انها تحتوى على جوهر الدين .

برز السؤال عن سبب احاطة التغييرات فى المركز الاجتماعى بالطقسية . وناقش قلوكمان وفورتس(1) ، وفى نظـــرية فلوكمان شىء مشترك مع شرحه لعمليات القانون الافريقى . ويذكر مرة أخرى أن العلاقات فى المجتمعات الصغيرة تعددية العناصر حيث أدوار الأب ، الرئيس ، الكاهن وغيرها يقوم بهـا نفس الناس . ولذلك فان الفشل فى أى دور قد يؤثر على علاقات أخرى أكثر من المتضمنة منطقيا فى ذلك الدور المحدد وهذه الفكرة أشد خطورة فى النتائج مما هو الحال فى مجتمع تكون الأدوار فيه منفصلة حيث أن الأب الفاشل جدا يمكن أن يكون محاضرا جامعيا ناجحا مثلا . فالطقس — كما يجب أن نتفق عليه — يتعلق بالأمور التى يأخذها الناس بجـدية ، ففى المجتمعات الصغيرة يعطى الناس أهميـة قصوى للقيـام الصحيح بالأدوار . يضيف قولكمان ان الطقس يفصل دوراً عن تدخل الأدوار الأخرى ، ويرجع للانثولوجى Tsonga آخذا مثال طقس التحضير للصيد عنـد تسونقـا Tsonga ويفسره بسبب فصـل الصياد عن وسطه العـادى ونشاطاته كزارع .

يذكرنا فورتس أن الدور ليس شيئا يكونه الممثل كما أن الممثل على خشبة

(1) M. Gluckman ed., Essays on the Ritual of Sociad Relalions 1962

المسرح لايتحـول إلى أمير قروسطى الذى اغتيل والده كلما دخل فى تمثيل دور هاملت يوزع أو يعطى المجتمع الادوار ويوجه الممثلين فيها ـ كل الوقت بواسطة المنع المنتشر بالتعليق العام وبطريقة مركزة خلال طقوس تغيير المركز . لكن هذه الطقوس ليست هى فقط عمليات تدريب فنى ، هدفهـا العلنى وأثرها أيضا ـ حسب فورتس ـ هو تاكيد الجانب الاخلاقى للدور ، الالتزامات تجاه الزملاء والتى يقوم بها لتسلمه الدور ، حتى ولو كان الدور الذى يقوم به مكتسبا فليس له خيار . بالرجوع خاصة إلى طقوس تنصيب الملوك والرؤساء وهذا جزء من فكرة تخص كل طقوس الانتقال حيث يقول هدفهم هو «ان روابط المنصب التى تربط من تسلم المنصب بالذين تسلمه من أجلهم يمكن أن تكون بالتاكيد مزورة» .

كما أن الطقوس السنوية بالاضافة إلى الاهتمام بالحصاد وتكرار حدوث مواسم حصاد جيدة فى المستقبل فهى تتضمن تذكيراً لأصحاب المناسب السياسية بالالتزامات التى تتطلبها ، ربما أحسن الأمثلة هو الاحتفال بالسنة الجديدة عن السوازى Swasi ـــ محاكاة الثو ة على الملك وانتصاره عليها ،ويذكر فورتس الاحتفالات العظيمة عند تالنسى Tallensi وهى سلسلة من الطقوس التى تمتد خلال فصل الجفاف ـ من الحصاد حتى البذر القادم ، وتستعاد اثنائها ـ كجزء من طقس معقد ـ الاصول الاسطورية للمناصب المتممة للرئيس وكاهن الأرض « وبذلك تأكد الدورة الاحتفالية سنويا وظيفة كل منصب وبالتالى تعيد فرض الواجبات والمهمات على القـائم بالمنصب » (١) كما انها تذكر أيضا كل واحد

---

(1) Essays on The Rituad of Social Relations . 25

بعدم انفصال بين وجود منصبة وبين الأداء المطلوب لمسئولياته تجـــاه الجماعة باعطاء كل واحد دوره فى الدراما الطقسية يستطيع أن يقوم به .

يمضى فورتس بتعميماته إلى ما بعد ميدان القيام العلنى بالطقس إلى التابو أو تحريم الطقس وهنا يعطى ملاحظة تعتمد على نقاش التجنبات الطموطمية ، وفى كل حين للمرء مناسبة يتذكر فيها ان طعاما معينا محرم عليه بسبب عضويته لعشيرة ، أو — التابو غير العادي عند التالنسي — لأنه الابن البكر ، يذكر دائما بواجباته كعضو فى عشيرة أو كابن بكر لوالده .

الطقس والبناء الاجتماعى :

يوضح نقاش فورتس كيف تقدم فهم العلاقة بين الدين والمجتمع فى الاتجاه الذى افتتحه دوركايم إلى حد الاعتراف بان الدين يفعل أكثر — وربما أيضا أقل — من خلق إدراك عام ، فى حالات العاطفة الشديدة ، لاعتماد كل فرد أنه يحيا فى مجتمع منظم . ترينا الملاحظـــة اللصيقة للطقوس التاكيدية فى المجتمعات الصغيرة والبسيطة التكوين كيف انهم يؤكدون على الاعتماد المتبادل لأقسام عديدة فى مجتمع ما بتقسيم المهام الطقسية فيما بينهم . وهذا يمكن ملاحظته فى المجتمعات التى تشتمل على بدنات مستقلة وتلك التى تعترف برئيس أعلى . واحتفـــالات التالنسى هى نموذج كلاسيكى لهذا النوع . ينقسم شعب التالنسى إلى : ثاليس حقيقى الذين يدعون انحدارهم من الساكنين الأوائل لأرض تيـل Talelanel والنامو Namoo انحدروا من مهاجرين لاحقين . ورؤساء بدنات النامو هم الحـكام والاكثر اهمية فى السياق الطقسى هو امتلاكهم سحر صنع المطر والذى يدعون أنهم أحضروه معهم من وطنهم فى الشمال . يشتمل الاحتفال العظيم على طقوس يقوم بها بالتناوب الناموين والتاليسيون وكل مصاحب بالرقص ياخذفيه المحتفون

دوراً بينما يقوم الجزء الآخر بالفرجة فقط . وفى أجزاء معينة فى الطقوس هناك مواجهة رسمية بين الحاكم الرئيسى وكاهن الأرض الرئيس ويلقى كل منهما الدعوات على كل الجماعة التى تمنحه منصبه الطقسى حق اعطائها تلك الدعوات . ويصف فورتس « تعزل الطقوس بوضوح كل مجموعة عن الأخرى وفى نفس الوقت توحدهم فى المسئولية المشتركة لرفاهية البلد »(1) .

عند ما تعقد هذه الاحتفالات لا يسمح بالمشاجرة . هذا لا يشير بأى صورة إلى أن النية الحسنة – أو الادراك العاطفى الدور كامن للاعتماد الاجتماعى المتبادل – التى تولدها الاحتفالات تطهر قلوب الناس من الغضب والكراهية . وما تعنيه هو أن النزاعات لا يمكن مواصلتها بطريقة مكشوفة وتلك التى أصبحت عامة ويجب انهاءها قبل مزاولة الاحتفالات . تهتم المنازعات من هذا النوع بادعاءات المنافسة ويتم تسويتها بتسليم طرف ما أو بشكل من الحل الوسط . وقرب بداية الاحتفالات التى يعتقد أن قيام الأفراد بها – يعتبر ضروريا لرفاهيتهم أو حتى لبقائهم – يجعل تسوية النزاعات أمراً عاجلا ، وهذه أفعال – تقوى التساند – بطريقة عملية والذى ترمز له طقوسهم .

يظهر طقس التيكوبيا Tikopia المعقد ، المعروف بعمل الآلهة – كيف يفرض الدين التزامات التعاون من أجل الرفاهية العامة على أقسام المجتمع وهى مستقلة فى سلوكها فى شئون الحياة اليومية . كان كل واحد فى رؤساء التيكوبيا

---

(1) « **Ritual Festivals and Social Cohesion in the Hinterland of the Gold Coast** », **American Anthropologist, 1636, p. 602**

— قبـــل تحولهم إلى المسيحية — يعتبر مسئولا طقسيا عن واحد من المواد الغذائية الأساسية .

توضح طقوس الاعتلاء والتنصيب تقسيم المسئوليات الطقسية بين الاقسام المعترف بها فى المجتمع المحلى تنقسم منطقة الشلك فى أعالى النيل إلى إحدى عشرة قسما على رأس كل واحد رئيس البدنه المسيطر هناك . يعترف الشلك بملك الحى (رث) والذى يصبح فى مراحل طقس التنصيب تجسيداً لمنشىء الأمة ـ نصف الاله أو البطل نيكانق Nyikang ويعتقد أن مملكته تحتوى على نصفين وعاصمته فىالوسط وأكثر العناصر درامية فى طقس التنصيب هىالمعركة غير الحقيقية بينهم والتى تحارب على ضفاف مجرى المياه وهذا ما يفترض أنه نقطة الوسط فىالمملكة وفى هذه المعركة يهزم جيشالملك ولكن فقط بواسطة جيش يحمل تمثال نيكانق الذى يهزمه قبل أن يدخل فيه . وكلواحدة من مناطق سكنهم المئة التىتنقسم اليها منطقة الشلك وكل عشيرة رئيسية مسئولة عن اعطاء شىء محـــدد يستعمل فى الطقس . وتلعب البدنه أدوار طقسية معينة وكذلك فروعها التى فقدت الحق فى منح القبيلة الملك وحرسه الخاص الموروث .

عند الالور Alur فى غرب يوغنده ، يمشى رؤساء العشائر الخمس الكبيره فى طقس الاعتلاء إلىجانب رئيس جديد ولكلمهمة طقسية غريبة . يحمل رجال احدى العشائر الرئيس الجديد على اكتافهم ليزور قبور اسلافه وعشيرة أخرى تشعل النار التى انطفأت عند موت الرئيس السابق وهكذا . يشتمل اعتلاء ملك قاندا Ganda على أخذ روح ـ يعتقد أنها تقوى الملك الجديد ومن خلاله تقوى شعبه أيضا ، وعلى بعض العشائر مسئولية تزويد بالضحايا . هذه الواجبات هى موضوع فخر لانها تؤكد مكانة هذه العشائر المرتبطة بالملكية .

أما الطقس التأكيدى السنوى عن السوازى المرعـــو انكوالا Incwala أو احتفال الثمار الأولى فهو واحـــد من أكثر ما نعرف تعقيـداً وقاموا به فى السنوات الأخــــيرة فقط . يحتوى على عرض أفعال إنتصار الملك على أعدائه ويرمز فيه بوضوح للبنـاء السياسى للأمة حسب الأجزاء المعطـاة للأفراد من مكانات مختلفة . وفى قمة الطقس يجرى تقسيم : للرعايا المخلصين للملك ، العاصبون (Aqnates الذين يمكن أن يكونوا منافسيهما ، الأجـانب الذين لا يدينون بالولاء له ، وتؤمر هاتان الفئتان الأخيرتان بالابتعاد قبل ظهور الملك منتصراً ومحاطاً بجيشه .

الطقوس التكفيرية :

يقول إيفانز برتشارد عن الفئة الثانية الطقوس التفكيرية (١) « يقومون بها فى مواقف الخطر الذى كثيراً ما يعتقد حدوثه بسبب خطأ ما وفيها نجد فكرة الاسترضاء والتكفير ظاهرة جداً»(٢) ولأنها تهتم بالرفاهية الأخلاقية والجسمانية للفرد لذلك نجد فيها الصلة بين الدين والأخلاق .

أكد أنه فى بعض الديانات « البدائية » لا توجد مثل هـذه الصـــلة . هذا الغرض قد يعنى أن الالهية ليست خيرة ، كما قال يوربيدس عن آلهة اليونان ـ انهم لا يعطون نموذجا للناس المطيعين يجعـــل تمسكهم بالاحكام الخلقيـة مقبولا لديهم .

---

(١) أدخل دون كابم هذا المصطلح إلى أدبيات علم الاجتماع والانثروبولوجيا .

(2) «The Meaning of Sacrifice anrong lhe Nlier» Journa of thc Royol Anthro Pological Institute, 1954, p. 21.

حقيقة هناك آلهة صفتها الاساسية القـــوة أو البعص الذى أثار الاعجاب لتغلبهم على خصومهم . ولكن فى المجتمعات التى ينظـــر للآلهة من هذه الزاوية ليس من المفترض أن يحاول الناس ارضاء آلهتهم بتقليدها . يمكن الاعتقاد بفصل الدين عن الاخلاق حين يكون التأكيد على ارضاء الآلهة يتم بأداء الطقس الصحيح أكثر من أن يكون بواسطة السلوك الصحيح .

لكن من النادر حقا أن نجـد مجتمعا بسيطا لا يعتقد أن مصائر الناس تعتمد بطريقة ما على سلوكهم الاخـــلاقى — فالاحداث التى لا يمكن السيطرة عليها كبشر لا يفترض انها موجهة من قبل كائنات مشخصة تشاركهم فى أفكار إنسانية عن العدالة . عندما يكون هناك اعتراف بالسببية غير الشخصية (الموضوعية) فلابد للناس أن يعتقدوا أن هذه الكائنات تقف أساساً إلى جانبهم، وإلا أصبحت الحياة مستحيلة .

الكائنات التى يتضرعون إليها فى حالات العجز لابد أن تساعدهم — ان لم يكن هناك سبب يجعلهم لا يستحقون المساعدة ورغم أن الاسباب توجد أحياناً فى نقص أداء الطقس ، فانها توجـــد على الاقل كثيراً فى الفشل فى إحترام الالتزامات الاجتماعية . بطريقة أخرى يفكر فى الكون على اساس أنه نظـام أخلاقى لا يعاقب الناس ضمنه ان لم يكونوا يستحقون ذلك .

لذلك يجب اعتبار الطقس التفكيرى فى سياق التفسيرات الممكنة التى تقدم حينما يعانى الفرد من مصيبة بالذات المصيبة التى تتعرض لها كل فرد فى وقت ما، كالمرض مثلا ، فالناس الذين يتعرضون للمرض فى المجتمعات البسيطة التى لا يوجد بها طب علمى قد يذهبون « للأطباء » الذين لهم معرفة فى المعالجة بالاعشاب ولكن فى الحالات الكثيرة التى لا يكون فيها استجابة لذلك ، فهم يتحولون من

معالجة أبدانهم إلى معالجة وجدانهم . يتساءلون هل أساءوا إلى أحد ولمن يقدمون تعويضا .

وسائط روحية وعرافون :

من أجل الاجابة لابد أن يذهبوا لشخص ما يستطيع الوصول إلى المعلومات اللازمة ، لنقل إنسانا يمكنه الاتصال بكائنات خارج مستوى القدرات العادية وهؤلاء الاشخاص هم دائما متخصصون تعلموا مهنتهم . هناك نوعان رئيسيان يمكن تسميتهم ، وسيط روحي ، وقارىء غيب أو عراف لأن هاتين المصطلحين أكثر استعمالا يرمي الوسيط الروحي إلى التكلم - في حالة غيبوبة أو انفصال بصوت كائن غـير بشرى يعرف اجابات لاسئلة الناس . أما قارىء الغيب (العراف) بينما هو في حالته الطبيعية - يستعمل الاشياء التي يفترض أنها تعطى إجابة دون تدخله .

يسمى الممارسون للنوعين في أفريقيا عادة أطباء سحر Witch-doctors . واستعملت الكلمة في عمل كلاسيكى حول هذا الموضوع لإيفانز برتشارد (1) لانها احتوت على كلمة سحر - وهى شائعة بين الناس وتدل على شيء مشئوم وارتبط استعمالها بالاعتقاد في أن المتخصصين الذين يذهب إليهم الافريقيون هم سحرة وموضوعات للرعب ، و « طبيب - السحر المفزع » تعبير نجدة في كثير من الكتابات . ومن هنا فمن الاحسن تجنب الكلمة لمن يرغب في تجنب سوء الفهم . ودور الوسيط الروحي والعراف ضرورى في مثل هذه المجتمعات التي يعمل فيها مثل هؤلاء ويعتبرون مفيدين اجتماعيا .

---

(1) Witchcraft amonq the Azande (1934) .

حسب معنى الكلمة المستعمل عند العلماء الكلاسيكين أى الوحى (هاتف الغيب) فهى نطق ، ولذلك فلابد أن تكون روح الوسيط هى التى تعطى هواتف الوحى . ولكن أغلب الانثروبولوجين استعملوا كلمة هتف لتوصف الأشياء المستعملة فى الكشف عن الغيب . وهناك أعـــداد لا تحصى منها ـ من أبسطها عند اللوقبارا Lugbara عصا الاحتكاك ـ وهى مثل أشياء « أفعله بنفسك» qo-it yonrsef يمكن لأى شخص إستعمالها أى دون وسيط ـ فبينما يمسح شخص ما حزمة عشب بفندول ذرة تذكر أسماء بعض الناس أحياء أو أموات يحتمل أن يكونوا سبب المرض . وعنـــدما يثبت أو يلتصق العشب بالذرة يعتقد أن الاسم الصحيح قد ذكر نطق به . هذه واحدة من طرق عدة يستعملها اللوقبـــارا للكشف ، فلو شكلوا فى الاجابة التى أعطيت أو لم يرضوا بها ، فهم يبحثون عن التأكيد بمحاولة طريقة أخرى . ويستعمل النيدمبو Ndembu فى زامبيا طرقا أكثر تعقيداً ـ تعتبر نموذجا للكشف فى مناطق عديدة ـ وهى وضع عدد من الأشياء فى سـلة وترمى فى الفضـــاء . ويقرأ العراف الاجابة حسب الطـريقة التى تسقط بها .

الكشف والوساطة لا يمكن دائما التفريق بينهما بوضـــوح ، فكاشفو أو عرافو يندمبو مثلا رغم أنهم يعملون بطـرح الأسئلة على الأشياء الموجودة فى السلة وليس بدخولهم فى غيبوبة ، فانه يعتقد أن مدرتهم قد أعطيت لهم بواسطة روح بنفس طريقة وسطاء الروح .

الحقيقة المثيرة للاهتمام هى ان نشاطات العرافين ووسطاء الروح يقوم بها غالبا اناس محرومون من التطور فى المجال الدنيوى . فى بعض المجتمعات هى مهن نسائية . وبين اللوقبارا ـ حيث يجب أن يحتل منصب الرئيس ابن الزوجة

الأولى الكبيرة السابقة ـ فابن زوجة صغرى لاأمل له في تحقيق ذلك لأنه لا يمكن أن يخلف أخيه غير الشقيق كما أنه قريب جدا له لينفصل ويرأس مجموعه نسبه الخاص . مثل هؤلاء قد يبحثون عن السمعة أو المكانة في العمـــل كصناعي ومستخدمي رقى وتعاويذ ، وينجمون لو اكتسبت رقيهم سمعة بأنها تعطي أجوبة ترضي طالبي النصيحة .

أما الوسطاء فيجب أن يكون لهم نوعا خاصا من الشخصية . يجب أن يكونوا مستعدين للدخول في حالة انفصام ويتكلمون كما لو أن صوتا قد دخلهم من الخارج وغالبا ما يجدون نداء مهنتهم بعد فترة من الاضطراب يمكن أن يسميها الاطباء النفسيون مرضا عقليا . تأخـذ هذه الحالة المضطربة عادة كعلامة بأن روحا ما تريد أن تضم الشخص إلى خـــدمتها . ولكن مما له دلالة ـ هو اننا لم نسمع عن شخص يحتل مواقع سلطه قد ملكته روح بهذه الطريقة ، ربما يمر بعضهم أحيانا بتجربة اضطراب مماثل ولكن من غير المستحسن أن تفسر بطريقة تمنحهم دوراً لا يتفق تماما عمـا هو موجود .

لا يدعى العرافون ـ مثـــل قارىء الحظ الغجريين ـ انهم يعرفون كل شيء عن عمـــلائهم بطريقة سحرية باطنية ولذلك لا يجدي أن تسيء إلى . عراف باظهاره أنه لا يستطيع أن يفعل هذا . بالطبع الشخصي الفطن يكون قادراً على أن يحوز اعجاب الغرباء . وأن يخرج باستنتجات ذكية من مظرهم وسلوكهم . ولكن هـذه مسألة أسلوب مهني أكثر منـــه تشخيص والناس الذين يستشيرون يعطونه عادة مجالا ضيقا للممكنات والبدائل يختار منها اداته . رغم أن تيرنر(1)

---

(1) V.W. Turner, Ndembu Divination, Rhedes Livingstone Papers no 31, 1691, P. 14

يقول عن النيدمبو ان بعض العـرافين تعرضت حياتهم للخطر لاعطائهم اجابات غير محببة، فانّ هذا يبدو خروجا عن القاعدة (استثناء) فأى إجـابة قد تكون غير محببة لشخص ما، ولكن من الممكن دائما محاولة عراف آخر أو طريقة أخرى اذا لم تعجبك الاولى . والاجابة غير المقبولة اطلاقا غير معروفة .

سبب هذا واضح لانه عندما يمرض الإنسان ولا يستطيع الشفاء فهو يبحث فى وجدانه وقد يجد عدداً من الافعال التى يمكن أن تكون قد أساءت إلى الارواح بطرق مختلفة أو قد لا يجد شيئاً، فى هذه الحالة يبحث عن عدو يريد به شراً . ولكن النظام الفكرى الذى يربط الدين بالاخـــلاق قد يبدو لا معنى له فى حالة البحث عن تفسير للمرض فى وضع لا يكون الضحية وجيرانه غير مدركين له .

أساس نظام الافكار هذا هو القناعة بأن المعاناة جزاء مستحق لان الكائنات التى يعتمد الإنسان على حمـايتها لا تحجبها إلا سبب معقول . والسبب المعقول أو الجيد يعنى عموما — ما يمكن أن يعنيه فى حـالة السلطة البشرية أى كسر القوانين التى من مسئولية المـرء أن يحافظ عليها . هذه واحدة من الطرق التى يعتقد ان الدين هو امتداد للعلاقات الاجتماعية خارج العالم الإنسانى .

وتعتقد كثير من المجتمعات الافريقية ان ارواح الاسلاف تهتم بسلوك الخلف الاحياء، وتزور - فى شكل المرض - الذين لا يراعـــون التزامات القرابة، ويعتقد احيانا ان الاسلاف فى صلة القرابات المختلفة (حسب وجهة نظر الفرد) يكونون مهتمين بمجالات مختلفة للتصرف والسلوك . يعتقد ايضا ان الموتى يغضبون لنسيان الاحياء لهم والذين يتجاهلونه تقديم القرابين للموتى . يظن ان اسلاف اللوقبارا يقولون الجوع تغلب علينا، ابناؤنا لا يعطوننا شيئاً لنأكله . عندما يتعرف على السلف الذى اسىء إليه — يعطى قربانا له وهذا هو

الطقس التكفيرى والذى يحدث السلام لكى تعود العافية إلى من يعانى . اللوقبارا فى هذا المجال استثناء فهم لا يقدمون القرابين حتى يروا الشفاء . فهم يعرضون Show فقط حيواناً للأرواح ، ويشرعون بتضحيتها أو ذبحها فى الوقت المناسب . هذه معاملة للآلهة مثل اناس يصعب الوصول إليهم .

ولكن ماذا يحدث حين لا يمكن التعرف على أسىء إليها أو — وهذا كثير الاحتمال — عندما رفض الضحية أو أقرباؤه الأقربون مرضه كعقوبة مستحقة؟ يدرك الناس عامة أنه ليس كل المعاناة مستحقة . نتيجة لذلك يجب أن تكون بعض الحالات بسبب تأثيرات شريرة وليس لأخرى خيرة — من كائنات ليس هدفها تأديب المصاب ليتعلم درساً ولكن ببساطة تبحث عن تسبيب الأذى له . وتفهم هذه الكائنات كبشر ، وهم الذين يتجسدون فى أساطير كثير من الشعوب كسحرة . ولهذا السبب يجب اعتبار السحر كعنصر من العقيدة الدينية وليس شيئاً منفصلا عنها .

السحر :

كتب إيفانز برتشارد الدراسة الأولى المفصلة عن السحر بين عامى ٣٦ — ١٩٣٠ عن الزاندى فى حدود السودان والكونغو . فقد وجد عقيدة — ثبت منذئذ انها منتشرة جداً فى افريقيا ، وهى فكرة أن السحر مادة موجودة فعلا فى أجسام بعض الناس والتى تعمل حتى دون أرادتهم . ولو كان هذا هو كل الأمر ، لامكن القول أن السحر محايد ، وهو ببساطة طريقة لصدفة مجسدة . ولكن الزاندى يعتقدون انه ما أن توجد هذه القوة فى شخص ما — كما هو الحال عندما يحددها العراف كسبب لمرض شخصى ما فسرعان ما يبدأ فى إستعمالها قاصدا إيذاء الناس الذين لا يحبهم .

الناس الذين يتخيلون السحر بهذه الطريقة يفرقون بين السحر والسحر الأسود ، والأخير هو استعمال مواد حسية لإيذاء الآخرين . والرجال أو النساء الذين يدعو معرفة مثل تلك المواد يمكن إستخدامهم عموما لاستعمالها من أجل الآخرين . عندما نقوم بهذا التفريق يفترض عادة إمكانية تبرير السحر الأسود ـ مثلا ـ لكي يعاقب لص غير معروف ولعدم معرفتنا به لا نستطيع احضاره للعدالة . ويعتقد فى جرز التروبرايند أن الرؤساء تتركز مكانتهم لحد كبير على قواهم السحرية المفترضة فى السيطرة على المناخ ،وهم يستعملون أصحاب السحر لمعاقبة الاعداء وهذا لا يعتبر خطئيه .

حاول الانثروبولوجيون فى كتاباتهم متابعة التفريق بين السحر والسحر الاسود كما هو عند الزاندى ، فالسحرة يعتمدون على قوى فطرية طبيعية فيهم بينما السحر الاسود يستعملون « الادوية » ـ كما تسمى مادتهم فى الادبيات الاثنوغرافية ، ولكن هناك مجتمعات لا يمكن تطبيق ذلك عليها بسهولة. لا تقوم بعض الشعوب بتمييز واضح ، ويرون أن هناك أنواعا متعددة من الناس يستعملون « الادوية » ولكن يمكن التفريق بينهم كسحرة وأصحاب سحر أسود .

السبب الاساسى للاعتقاد فى السحر هو أكثر أهمية من الصفات الخيالية التى ينسبها اليهم اناس معينون رغم أهمية هذا .انها الضرورة لشرح وتعليل المصائب غير المستحقة عندما لايعترفون بأن المصائب يمكن أن تأتى عن طريق الصدفة . أكد إيفانز برتشارد فى تحليله لعقيدة الزاندى على حقيقة الطريقة المنطقية المحكمة فى تفسير الاحداث ، بالطبع يعرف الزاندى ان الشجر لو وقعت عليه ستقتله ولكنه يتسائل أيضا « لماذا وقعت على ؟ ! »

الإجابة يجب أن تكون « انها غلطتك » أو « أنها ليست غلطتك » فاما أن تكون المصيبة قد جاءت على الضحية بسبب سدنه علويين للنظام الاخـــلاقى أو بسبب قوة ما هدامة للنظام الاخلاقى ـ مبـدأ الشر . ولذلك لابد أن يكون دائما فى مكان ما فى الكون ـ قوة كاملة للشر ـ كائن مجسد لايمكن اطلاقا تبرير أفعاله . وفى غالبية المجتمعات الافريقية هو الساحـر ـ يحدد كما يحدد الزاندى السحرة . ولكن فى بعض المجتمعات هو شخص يستعمـــل الادوية وهذا مايسميه الزاندى وعدد كبير من الانثروبولوجيين صاحب السحر الاسود .

إهتمت دراسات إيفانز برتشارد عن السحر بين الزاندى بأنه غالبا ما يكون نسقا للعقائد وأظهر أنه حسب مفهومات السحر الخاصة ـ فهو عقلانى محكم يعطى تفسيرات سببية لاحداث كان يمكن فى غير ذلك أن تكون غير مفسرة بالاضافة إلى أن التفسيرات هى ملاذ عملى يظل بدونه الانسان عاجزا فى مواقف الازمات . وأظهر كيف أن بعض مجـــالات نسق العقيدة يمكن الاستعانة بها لتفسير أى موقف وقد ناقش أيضا مسألة أمانة العرافين وتصديق زبائنهم لهم . مـــن خصائص ثقافات الزاندى وبعض الافريقيين الآخرين ـ ان الاخصائيين الدين يستشارون فى حالة المرض يرمون إلى ازالة اشياء فى جسم المريض وضعهـا الساحر ويفترض انها السبب المادى للمتاعب . من الواضح أنهم لا يستطيعون فعل ذلك انه لم يحضروا الاشياء معهم ـــ وهذا يكفى عند الاوروبيين لدمغهم كدجالين يستغلون ان الناس مصدقون فيهم . وهنا نقطة يجـدر تسجيلها هى أن وظيفتهم اعطاء تفسير للمرض أهم كثيراً من الفعل العلاجى والاكثر أهمية هو الخاطر بأن الناس لابد لهم مـــن اللجوء إلى ملاذ من نوع ما فى المصاعب التى لا يعرفون لها حلا عمليا . كما أبرز إيفانز برتشارد أنهم قد يكونون شكاكين

في أصالة بعض الممارسين ولكن كل واحد يؤمن بوجد آخرين أصيلين في مكان ما ، وفي وقت الشدة لايكون لديهم أي أمل بغير هذا الإيمان.

في المجتمعات التي يؤمن فيها الناس بالسحر هناك مجموعة كبيرة من الأفكار حول أشكالهم وكيف يتصرفون جوهر العقيدة هو عدم وجود طريقة تجريبية عملية لكشف نشاطات الساحر . رغم ذلك هناك أفكار عديدة من أعمالهم الشاذة الخفية . المهم في هذه الأفكار هو الرمزية التي يعبر من خلالها . وهذه دائما هي الرمزية اللا إجتماعية . فالليل — عندما يراد فعل شيء خفي — هو وقت السحر المناسب والمخلوقات الليلية مرتبطة بالسحر مثل المخلوقات السامة مثل الثعابين . وهم مرتبطون بالتشويه والمناطق المتوحشة مثل الادغال وخارج القرى التي حضرها الانسان . ويصورون في أفعال تمثيلية تستفز الادب مثل الرقص عاريا والتبرز فوق الارض المنبسطة أمام المنازل. هناك فكرة عامة عن نوع البشر يعتقد أنهم ساحر شخص عابس ، غير اجتماعي متذمر ، يأكل لوحده ولكنه يشكو من عدم تقديم الطعام له بواسطة الآخرين .

تتبلور في هذه المعتقدات صورة لمجتمع فيه كل مايكرهه المجتمع ، ومايعزه المجتمع يؤكد بماهو معاكس لمايصور . أفكار شخصية الساحر النموذجية تكون جزءاً في نظام الضبط الاجتماعي في نفس الوقت تزود بصورة ذهنية مضادة - وهي نموذج لما يعتقد أن من يستحق تقدير زملائه لايجب أن يكونه . في بعض الاحيان - كما هو عند بايكيوسا Nyakyusa يعلم الاطفال الايقوموا بأفعال يمكن أن تثير الاستياء لكيلا تغضبوا ساحراً . لانه من خصائص عقائد السحر انها يمكن أن تستعمل لتبرير اى شك في السحر ، قد يمارس السحرة قواهم — كما فعل اياغو Iago في اموره المادية — بواسطة احقاد غير مسببة — ولو اثرت احدهم فقد تزيد مخاطرة ان تجعل نفسك ضحية لايشغل المؤمنون بالسحر انفسهم بوجوب ان تكون افكارهم حول الموضوع منطقية تماما على الاقل في الوقت الذي يطبقون فيه افكارهم على حالات ملموسة .

الحالة الملموسة النموذجية هى المرض ، هناك نوائب تنسب للسحر ولكن أغلب المحاولات لتحديد ساحر هى فى حالة مرض شخص ما ومن المهم أن الصورة الذهنية العامة للساحر لاتستحضر للمساعدة فى الكشف — لا يسأل أحد أن كان شخصاً غامضا مصحوبا بكوبرا كان يتربص حول مسكن الضحية . لو كان هناك أناس لهم سمعة كسحره لا تعرض أسمائهم . بل يسأل الناس عمن له شكوى ضد الشخص المريض .

اتهامات السحر هى طرق لمتابعة المشاجرات رغم أنه قد يكون من المبالغة القول بانها تستعمل عن قصد بهذه الطريقة . وقد أعطى عدد من الانثروبولوجيين فى الفترة الأخيرة اهتماما خاصا للاتجاه الذى تأخذه الاتهامات ، ووجدوا أنه فى كل مجتمع هناك سياق له خاصية لمثل هذه الاتهامات . هذا يحدث كنموذج بين الاشخاص — الذين نتيجة لقواعد المجتمع — يجب أن يكونوا على صداقة ولكنهم فى اختلافات . وتتطور مواقف التوتر باتهامات السحر وفى بعض الأحيان يؤخذ هذا الاتهام كتبرير لانهاء العلاقة عند ما لاتوجد أى طريقة أخرى

ويزودنا اللوقبارا بمثال مثير للاهتمام — حيث يعتقد هذا الشعب كما يعتقد آخرون ان غضب البشر على أخطاء الآخرين يلهم اشباح الاسلاف لكى تعاقب المخطئين ويعتقدون أيضا أن حسد البشر على نجاح الآخرين يمكن أن يجلب الأذى للمحسود ، وهذا هو مفهومهم للسحر وهم يستعملون نفس الكلمة ole للمشعوذين . فى واجب أكبر البدنه أن يسبب تدخل الاشباح ضد أفراد البدنه الذين يتخطون أحكام البدنه المتحابة واحترام كبار السن ، ولو مرض أحد الصغار يدعى انه فعل ذلك ولكن ما أن يكبر المسنون أكثر حتى تقل سلطتهم حتما ويجدون أنفسهم باستمرار مجبرين على أن يستنجدوا بالأشباح وحين يجيء الوقت الذى يريد فيه فرع أحد البدنات

أن يؤكد استقلاله وذاتيته والطريقة لعمل ذلك هى الادعاء أن الكبير لا سلطة له عليها ، ولو سبب مرضا وهو لا يملك السلطة لفعل ذلك فهو يمارس السحر . وهكذا فان نفس الفعل هو سحر أو عدم سحر حسب اتجاه الذين ينظرون اليه، أولئك الذين يبحثون عن تأسيس مكانتهم ككبار مستقلين فهم الذين يوجهون تهمة السحر . وعند ما تشيع هذه الأفكار يصبح من المستحيل التفكير فى السحره كطبقة منفصلة من الناس وعند اللوقبارا الساحر الاسود وليس الساحر هو نمط الشر .

يطرح بين الشعوب الأموية المنحدر فى زامبيا ومالاوى — انقسام مجموعة الانحدار عامة باتهام الشعوذة ضد الرئيس ولايفرق ياو yao فى مالاوى والنيدمبى فى زامبيا بدقة بين السحر والسحر الأسود.وهذا من الصعب فصله حين يكون الشخص المتهم حتى تلك الفترة هو قائد وراعى القرية.وهذه الشعوب ليست لديها الايدولوجية المعقدة مثل اللوقبارا . يلاحظ المرء مثلهم ببساطة أنه عند ما يفكر جزء من مجتمع القرية فى الانشقاق ، فالمرض بين أفراد هذا الجزء عرضه إلى أن ينسب إلى سحر الزعيم أو الرئيس .وقدلاحظ الانثروبولوجيون أنه فى الاحوال البيئية لدول وسط افريقيا يصعب لجماعة أن تجد طعامها لو زادت عن حجم معين، حتى يأتى وقت فى دورة زمنية معينة تكون القرية فيه عرضة للانقسام . لكن القناعة قوية إن مجموعة الانحدار لابد أن تكون معا حتى لا يتحرك قسم بعيدا لانه يريد ذلك الايمان فقط أنهم ضحايا خطأ لا يغتفر وهو ما يبرر التقسيم . على كل حال لا يوحى ذلك بان اتهامات السحر تدرك بوعى لمقابلة المناسبة .

اتهامات السحر ضد أشخاص محددين باسمائهم ليست منتشرة فى كل المجتمعات

مطلقا . فى بعض المجتمعات هى أدوات لازمة لحاكم الرئيس ، وفى أخرى ينسب الناس مصائبهم إلى سحرة مجهولين ويترددون فى اثارة عداء شخص حقيقى بسبب اتهامه . لابد من أن يفرق المرء بين الاتهـامات الرسمية التى تفعل بقصد وعلى أساش الكشف وذكر الاسم خلال سخونة مشاجرة ما . ولكن هذا النوع الاخير من الاتهام - ربما لا يعنى بجدية - قد يكون له سياقه المتميز . وقد لاحظ لينهاردت بين الدينكا ان الناس الذين يتهمون بعضهم الآخر بهذه الطريقة هم فى الواقع فى علاقة تنافسية مع شخص ثالث - مثل الزوجات الضرائر تجاه زوجهم المشترك ، العلاقة الى لم يحدد فيها قاعدة تبين امتياز أحد الأطراف ، وبالتاكيد بالنسبة للحق فى مسألة النزاع والذى فيه امتيازات يجب أن توزع .

وطالما فهم السحر كتجسيم للشر فليس من المدهش أن تكون هناك محاولات لكى تتخلص المجتمعات من السحرة نهائيا . وتأخذ هذه المحاولات أحيـــانا شكل مؤسسة أو نظام . مثـال ذلك نوبة Nupe فى شمـال نيجريا لديهم رابطة عبادة وظيفتها الوحيدة هى اكتشاف وفضح السحرة . يزور راقصو العبادة المقنعون مدينة أو قرية ويجمعون النساء - لاعتقادهم أن كل السحرة فى النساء - فى ميدان الرقص . ويستمر الرقص طوال اليـــوم وبين كل فترة وأخرى يتوقف الراقصون وينقضون على النساء ، والتى تتهم بهذه الطريقة عليها دفع غرامة ومن لاتستطيع تعدم . وبالتاكيد هناك إمكانية الابتزاز فى حكمهم . ولكن حين ناقش النـوبة ذلك الموضوع مع نادل بعد سنوات لم يعتبروا ان اختفاء النظام مكسبا صرفا وشعروا بعدم الراحة لأنهم لا يملكون حماية ضد السحرة(1) .

ويظهر الأفراد الذين يقدمون مثل هذه الحماية من وقت لآخر خلال فترة الحكم

(1) S. F. Nadel, Nupe Religion, 1954, pp 1947

الاستعماري، ويشير بعض الكتاب إلى أن ظهورهم هو أغراض لزيادة القلق الناجم عن كل المشاكل التي خلقتها محاولات تحديث افريقيا للناس البسطاء ، ويقال ان تكاثر عبادات معرفة السحر هي استجابة للقلق المحدد الذي نشأ حين منعت السلطات الاستعمارية المحاكم من محاكمة المتهمين في تهم السحر . ولا نستطيع أن نتيقن من عدم ظهور مثل هذه الحركات قبل الاستعمار رغم انها لم يكن من الممكن انتشارها في مناطق واسعة بالطريقة التي جعلت ذلك ممكنا بالمواصلات الحديثة ..

ليس هناك انكار للادعاء بان بعض الناس لهم طرقهم في كشف السحر واحتمال التحطيم أو المعالجة ـ ويقابلون بنجاح كبير . هناك شيء مشترك بينهم وبين المجددين المسيحيين، رسالتهم للسحره ان يتوبوا لكي ينجوا في نتائج مهلكة بسبب خبثهم وليس لهذا مقابل في الاديان المعروفة حيث يصلح المرء خطأ حدث لانسان أو كيان مقدس بعمل معين آخر ككفارة . اكتشاف السحر هو جزء من حركة دينية أخرى هي الالفية millenary و chiliastic حسب تفضيل القارىء للكلمة اللاتينية أو الاغريقية لكلمة ألف thousand .

عبادات الالفية :

تشمل هذه الكلمة الطوائف المسيحية في افريقيا اليوم ، والعبادات التي ظهرت في أماكن عديدة في جنوب الباسفيك خلال هذا القرن وبعض القديم منها بين هنود أمريكا الشمالية ـ بتاريخ طويل يرجع إلى العصور الوسطى . هذا تاريخ المسيحيين لوصول السماء إلى الأرض ، انهم في بعض الاحيان يمنون أنفسهم أن بجيئة بات وشيك الحدوث وينجوا من ذلك فقط الذين يعلمون هذه الحقيقة ومهيأون

للحدث . وحين اقتربت سنة ١٠٠٠ يعتقد الكثيرون انها الميعاد ويعتقد أيضاً أن مملكة الله على الأرض ستستمر لالف عام ولذلك جاءت تسمية هذه المعتقدات بالالفية وهى كما يقول الحريصون على استعمال الكلمات — ليس استعمالا دقيقا جداً للكلمة .

جوهر هذه المعتقدات وجود حالة كمال للعالم خالية من العيوب وتخلو من كل الشرور التى هى جزء من نصيب وقدر الانسان — وستحدث نتيجة معجزة . يعتمد الحدث نفسه على أداء الطقس المناسب وعندما تجىء الحالة يستمتع الذين قاموا بالاداء بالعالم الكامل ، بينما سيدمر الذين رفضوا القيام بذلك وأخروا حدوثها . يزيد احتمال وجود مثل هذه المعتقدات بين أنصار الاديان التى تنظر إلى حالة من الكمال فى المستقبل — كما يفعل اليهودية والمسيحية والاسلام بطرق مختلفة(1) . يرى الناس فى كثير من المجتمعات الصغيرة العميد الذهبى كحالة وان الانسان اضاعه بافعاله ولن يسترجع أبداً . ولكن بقى حلم الالفية عند بعض هذه الشعوب ، يعتقد هنود Tüpe Güarani فى البرازيل فى وجود أرض بلا شر الآن، وشرع الكثيرون منهم فى هجرات بحثا عنها . وعند شعب جزيرة Biak فى الشاطىء الشمالى الغربى فى غينيا الجديدة — اسطورة — يبدو انها مخلية تعد برجعة بطل عاش فى الماضى السحيق، ومع هذه الرجعة يختفى المرض والموت والكبر والحاجة إلى العمل الشاق .

يتضمن العصر الذهبى دائما — كما يعتقد — عودة الحياة إلى الذين ماتوا .

---

(١) نظير عند بعض طوائف المسلمين فى فكرة المهدية وظهور المهدى الذى سيملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جوراً . كذلك ظهور المجددين عقب فترات معينة (م) .

وإذا اعتبر الناس أن اضطهاد الذين أقوى منهم هو أحد الشرور ، فان عالمهم المثالى سيخلو من المضطهدين . وتحيا الاسطورة عند ما يظهر نبى برسالة عن قرب الوقت .

عند ما نتعامل مع شعب لا يمتلك تراثا مكتوبا ، لن نستطيع أن نحدد الظروف التى حدت بهم أن يفترضوا أن الوعد يكاد أن يتحقق . الحالات التى جاءت إلى الانثروبولوجيين كلها من المناطق الخاضعة للاستعمار ويبدو فيها تحطيم المضطهدين مهماً فى الحلم . وقد دار نقاش حول ان حركات الالفية فى العصور الوسطى نشأت بين المحرومين وبالذات الذين لم تكن لديهم وسائل دنيوية لتأكيد تطلعاتهم والسعى وراء مصالحهم . هذا رأى نورمان كوهين (ليس انثروبولوجيا) ، وكتب أن كثيراً من هذه الحركات تجذب اتباعها من العمال المهاجرين إلى المدن الجديدة التى كانت تنمو فى القرن الحادى عشر إلى الثالث عشر فى شمال فرنسا والارياف المنخفضة وعلى طول الراين(١). وقد ذكر أن بعض حركات الالفية نشأت بين اناس ليسوا فقراء ولا مضطهدين وهذا يبين وجود أكثر من سبب للناس لكى يشعروا بعدم الصبر على الحالة القائمة وهم عاجزون عن تغييرها بالسبل الدنيوية . وتبقى حقيقة أن الإحساس بالظلم هو غالباً ما يكون عنصراً فى هذه الحركات .

من أشهرها رقصة الاشباح عند هنود أمريكا الشمالية الغربية — سميت بهذا الاسم لأنها تنظر إلى عودة الموتى ولأن الوسائل لاحضارهم يعتقد أنها الرقص فى أيام النهاية بطريقة يصفها النبي . وتعتبر الالفية هنا كرجوع لحالة خلت قبل مجىء الرجل الأبيض — أيام مثالية وكاملة حيث كان العبيد دائما ناجحا ، حيث لا مشاجرة ولا سحر . يدعى الانثروبولوجيون الامريكيون ان حركة النظرة إلى الخلف هذه

(1) N. cohen : The Pursuit of the Millennium, 1957

« محلية أو وطنية » ولفترة استعملت الكلمة عامة كمصطلح لوصف كل الحركات الدينية التى يعطى فيها السكان المحليون معلومات رمزية عن نوع العالم الذى يودون رؤيته . ولكن رقصة الشبح تبدو فريدة فى اضفاء صفة الكمال على الماضى. وتهدف أغلب حركات الالفية المعاصرة إلى تحقيق قدر أحسن من المستقبل ـ لنقل نتيجة تقنيه الاله. ويسعى أغلبهم أيضا إلى تبنى تعاليم وطقوس المسيحية من أجل تحقيق طموحاتهم . ولذلك يسمون أحيانا التوفيقيين.

من أشكال الحركة التى أخذت اهتماماً بين الانثروبولوجيين هى عبادة الشحنة Cargo cult التى ظهرت فى صور كثيرة فى جنوب الباسفيك . مضمون عبادة الشحنة . هو الاعتقاد أنه عند الالفيـة يجىء الاسلاف ويحضرون معهم كميات كبيرة من البضائع المستوردة التى عند الاوربيين امكانية غير محدودة للوصول إليها ، بينما ليست فى متناول الدخول النقدية للوطنيين. يحاول قادة حركة الشحنة ان يقيموا سلطتهم السياسية الخاصة فى بعض الاحيان ، أو يقنعون بالاعتقاد أنه عند مجىء اليوم يحدث أمر آخر وينقلب العـالم رأسا على عقب ويصبح الاسود متفوقا على الأبيض .

ولم تحظ الحركات الافريقية من هذا النوع بدراسات كثير من الانثروبولوجيين البريطانيين رغم وجود مادة كثيرة عما يسمى حركة « النبى » فى منطقة الكونغو. فى هذه الحركات ـ كما هو فى ثورة Chilembwe بنياسلاند ـ كان التعبير عن الأمان السياسى أكثر وضوحا . وصفها عالم الاجتماع الفرنسى جورجز بالانديز بانها ردود فعل شاملة ضد الوضع الاستعمارى وما يمكن تسميته بالانجليزية حركه احتجاج ويعتقد بالانديز أن الاحتجاج السياسى يأخذ هذا الشكل فى الوقت الذى لاتكون فيه هناك فرصة للثورة الناجحة ـ مقولة تقـــربه من مقاولات المصور

الوسطى التى ذكرت قبل قليل.وقد لاحظ كوهين — على كل حال — ان حركات الالفيةفى القرون الوسطى تظهر غالبا حين تكون ثورة دنيوية فى طريقها للحدوث . حقيقة ان الحركات التى درست أثناء فترة الاستعمار تبين أن قادتها يهدفون إلى وضع ثقتهم فى الله وحده ويرفضون استعمال القوة ضد زملائهم . لم يصدقهم الذين فى السلطة ولذا اعتقدوا دائما أن من فى السلطة شرير . ولذلك كثيراً ما قاوموا الأوامر — مثلا اجراءات الصحة العامة — وهذا يجعل من الضرورى للسلطات أن تتخذ اجراءات عنيفة وهذا يقود فى بعض الأحيان إلى مواجهة مباشرة مع العنف .

بينما كتبت هذه الكلمات أوردت الصحافة يوميا تقارير من زامبيا عن عدد الذين قتلوا بواسطة طائفة Lumpa التابعة للنبية أليس لينشينا Alice Lenshina ويبدو أنهم غير راغبين فى انتظار الالهة التى سوف تحطم غير المؤمنين (كتب أنه غير المؤمنين بادروا بالهجوم عليهم) .

لو قلنا مع بيتى أن جوهر الدين هو البيان الرمزى للرغائب المشعور بها بشدة، فيمكن أن نرى كيف تصل هذه الرغائب أقصى درجة العنفوان ، أكثر مما يمكن أن تكفله النظم الدينية المؤسسة (أو الاروثودوكسية) ، تدعم النظم الاورثودكسية التقليدية — كما يقول دوركايم — النظام الاجتماعى بتبريره — ان لم يكن بعمل طقوس له . سيأتى زمن تكون فيه الطوائف المهرطقة أو الخارجة أديانا تقليدية (أورثودوكس) ، ولكن حين يحدث ذلك ، فهى تتخلى عن مثاليتها الالفية .

الأسطورة :

ذكرت أساطير الأديان الالهية السميدة سابقاً وهذه مقدمة لمناقشة الاسطورة كعنصر هام فى الدين .

فى الاستعمال العادى تستعمل كلمة اسطورة فى أى كلام أو تصريح يفترض المتحدث أنه غير حقيقى . والبيانات التى يسميها الانثروبولوجيون اسطورة هى حقيقة غير واقعية . فهى تصف أحداثا يعرف الشخص المتدرب علميا أنها لا يمكن أن تحدث، وعند رواة الاساطير أيضا هى احداث لا يتوقع أن تحدث مرة أخرى فهى تنتمى إلى زمن المعجزات البعيد ، حيث كانت الأشياء مختلفة .

ولكن ماهو مهم فى الاسطورة — كما يعبر مالينوفسكى — ليس هو ببساطة كونها قصة وقائع اعجازية . ومن هذا المنطلق من الخطأ اعتبار الاسطورة تاريخا مشوهاً أو علما مشوها . جوهر الاسطورة — كما يقرر — هو كالميثاق. الاسطورة هى قصة الصنع أو العمل الأول لفعل ما ولازالت تتردد فى الطقس ؛ أو هى صلاحية ادعاء ما فى العلاقات الاجتماعية . فهى تضع أسس فعالية سابقة لماض عظيم لافعال متكررة فى الحاضر(١) . مثلا قصص مجيء السلف الأول من سلالة ملكية حاملا معه فنون الحضارة ، معجزات السلف الأول ، سلطة طقسية . وأول من يستعمل نوعاً من السحر . هى أساطير لانها تعطى صلاحية لادعاءات الخلف فى ممارسة سلطة سياسية أو روحية ، أو ليكون للجماعة احتكار فى استعمال السحر ، والاسطورة مرتبطة بالطقس حين يجسد الطقس الوقائع المذكورة فى الاسطورة . كل القصص التى تحكى أن شيئا ما صار توتما لمجموعة سلالية . هى مواثيق للسلوك والطقوس ملزمة تجاه موضوع الطوطم .

---

(1) B. Malinowski : Sex, Culture and Myth, 1963, p. 251

يتضح فى هذه النظرية اذن أن الاسطورة لها صلة بصورة ما بالكونيات فهى ليست محاولة لتفسير الكون أو كيف ظهرت الأشياء — انها تفسر كيف أن ما يفعل اليوم هو الفعل الصحيح . وطور ليتش هذا الاتجاه أكثر حين قال أنه من العبث أن تطرح أسئلة عن المعلومات التى فى الاسطورة كما أنها تكون جزء من جسم النظرية(١) يمكن توسيع تفسيره أكثر . يقول ان الاسطورة هى ببساطة الجانب الشفهى للطقس ، فلو قاله لك أحـــد الكاشتين Kachin أن الطقس الذى تلاحظه هى قربان لكائن يدعى nats عليك أن تقبل هذا لأنه كل الذى يمكن أن يقال . و يمكنك أن تستنتج من الطقس نفسه ان بعض الـ nats أكثر أهميـة من بعض ولكنه من العبث أن تطرح أسئلة حول مظهر وطريقـة حياة الـ nats لأن الكاشيتين نفسه لا يمكن أن تجيب على مثل هذه الأسئلة .

يفرق مالينوفسكى بين : اسطورة ، قصة قديمة ، حكاية خرافية . يقـول ان القصة القديمة Legend تحكى ويعتقد أنها تاريخ قديم رغم أن هدف الراوى هو عادة أن يدعم ادعاءات لجماعة ماينتمى اليها، ولكنها لاتحتوى على أى عنصر للمعجزة ولاتعتبر مقدسة . الحكايات الخرافية مليئة باحداث معجزات ولكن لا صلة لها بالطقس فهى تسلية محضة ولا يفترض أى شخص انهـا حقيقة . الاسطورة هى تحديد لحقيقة أعلى وأكثر أهميـة ، حقيقة أولى بواقع بدائى ومازالت تعتبر نمط وأساس الحياة البدائية(٢) .

لاحظ فيرث أن القصص التى تحكى فى المجتمعات الصغيرة لا يمكن تقسيمها دائما على هذا الشكل السابق . فعند التيكوبيا ليس من السهل أن تفـرق بين القصص

---

(1) Political Systems of Highlard Barma, 1954, p. 14.

(2) Sex, Culture and Myth, p. 305

المقدسة (الاساطير) والدنيوية . فى القصة المقدسة : « تعتبر الكلمات وشخصيات القصة أو فعل القص نفسه لديها شيء من القوة أو الارادة أو صفة ذات معنى فى حد ذاتهـا » (١) بعض القصص واضح انهـا مقدسة لأنها تختص بارواح قوية ، ومن الخطر أن تحكى فى غير الطريقة المناسبة . ولكن نفس الأرواح تظهر فى قصص التسلية كما سماها مالينوفسكى فى الحكايا الخرافية .

ومثل النقاشات حول التفريق بين الدين والسحر ، هناك صعوبة ما فى معرفة أى نوع من القصص له أكثر خصائص الاسطورة المقـــدسة ، والصلة الوثيقة بالطقس هى خصائص الاسطورة والتى يمكن فى أى قصة أن ترتبط بخصائص الحكاية القديمة أو القصة الخرافيـة حسب تعريف مالينوفسكى .

بعض القصص التى يسميها أغلبنا أساطير ليس لها صلة بالطقس والبعض حتى صلته بالبناء الاجتماعى ضئيلة . كمثال للاساطير التى ليس لهـا صلة بالطقس يمكن أن يلجأ المرء إلى أساطير الشلك الغنيـــة : بعضها يروى كيف ولد شبيه الاله — نياكانق — وكيف جاء إلى أرض الشلك وهذا له ارتباط وثيق بالادعاءات السياسية والطقسية لملك الشلك والذى يعتقد أن الروح تتناسخ فيـه ؛ وبالطقس الذى يؤدى عنـــد تنصيب الملك الجديد . ولـكن القصص الأخرى — والتى يسميها مالينوفسكى قصصا تاريخية ، فهى تحكى كيف وصل الشلك وجيرانهم إلى هذه البلاد التى يسكنونها الآن والمغامرات التى واجهتهم فى الطـــريق . قامت محاولات لإعادة بناء تاريخ هجرة شعوب أعالى وادى النيل — من هذه المصادر ولـكن هذه الحكايات رغم أنها ليست مرتبطة أو مجسدة فى طقس ، فهى تعطى ميثاقا للامر الواقع . وتعطينا — كما تفعل اسطورة التكوين — تاكيداً بأن

(1) R.W. Firth : History and Tradition of Tikopia, 1961, p. 8

عالم التجربة منظم إلهياً ، فهي تدعم نظرة للعالم — عند كثير من الشعوب التي لا يسجل تراثها التغييرات الدرامية ، فقد كانت دائما ويجب أن تبقى كما يعرفونها .

يرفض مالينوفسكي فكرة ان الأساطير هي نوع من الوصف الأخلاقي الرمزي لعالم الطبيعة — الشمس ، القمر ، النجوم وحركة الفصول . ولا يفترض أحد الآن ان تشخيص الاسطورة يجسد هذه الكيانات والعمليات ولكن ليست كل الاساطير هي ميثاق لافعال معينة . هي تجيب فعلا على أسئلة . ويقال أن العلم يجيب على أسئلة « كيف » بينما يجيب الدين على أسئلة « لماذا » . وأكثر الشعوب لديها أساطير تجيب على أسئلة « لماذا » البشرية العامة — لماذا يجب أن نموت ؟ لماذا يحدث للأرض دون شر ؟ هذه الاساطير تحكي كيف جاء الموت للعالم ، وكيف انفصلت الأرض عن السماء ، لأن شخصا ما عصى الأمر الالهي وهو غالبا أمر محايد أخلاقيا وغالبا ما يكون العصيان ليس تحديا ولكن مجرد تكاسل وعدم اهتمام .

منذ مالينوفسكي حدث اتفاق حول كون الاساطير هي أكثر من محاولات لارضاء حب الاستطلاع الموضوعي لعالم التجربة . يرى بعض الانثروبولوجيين الآن انها تحتوي فعلا عن هذا الجانب وأنه تجاهل من الذين يؤكدون فقط العلاقة بين الاسطورة والفعل الاجتماعي . يقال ان الناس يريدون حقيقة أن يكون العالم منطقيا — فهم يبحثون عن مبادىء موحدة من نوع ما ضمن تنوع التجربة ، وليس فقط العلماء ذوي الأفكار المعقده هم الذين يحاولون فرض هذا النوع من النظام على العالم .

قارن هورتون (١) بين الأفكار الدينية فى المجتمعات الافريقية وبين النماذج النظرية للعلماء الغربيين — عند صنع نموذج كهذا يستعمل العالم حقيقة للتجربة المشتركة نظيراً تشبيهياً للعملية التى يحاول أن يشرحها . يقـــرر هورتون أن النموذج لابد أن يكون نظاما أو نسقا — مجموعة ظواهر فى علاقة منظمة ، طالما يفترض وجود نظام فى الظواهر التى يستعملها من أجل الشرح . يجـد العلماء الغربيـون نماذجهم بين الأشياء بينما يجدها الكونيون الافريقيون بين الناس . يلاحظ هورتون أنه فى المجتمعات التى تغيرت قليـــلا خلال فترات طويلة من الزمن لايظنون انهم يتغيرون أبدا ،والعلاقات بين الناس تأخذ بسهولة كنموذج أو نسق أو نظام مرتب . كما يعرض تفسيراً آخراً لصعوبة المناقشة مع الكاشتين حول خصائص وصفات ال nats ، ويقول انه عنـد ما يستعمل الناس فكرة الكائن المجسد كنموذج لتوضيح القـوى غير المسيطر عليها فى الطبيعة يحتاجون فقط أن ينسبوا له صفات انسان لانها ضرورية للمناظر التشبيهية — دوافع انسانية وقوة مثل الرجل واعظم . يعلق ليتش ولهذا لايهتم الكاشتين بأين يسكن nats وقد يهتم الكثيرون حول ان كان لهم سيقان .

وهذا المدخـــل للتفكير الكونى الذى يسميه فريزر وتايـــلور فيه الكثير المشترك مع مدخل الطوطمية عند ليفى ستراوس وفى السياقين تطـــور الانثروبولوجى من تفسير الأفـكار الدينيـة كتأملات مضللـه بحتــــه إلى تفسيره كانعكاسات للحقيقة الاجتماعية ، وبالإضافة لصلتها

---

(1) Ritual Man in Africa, Africa, 1964, pp. 85—103

بالنظام الاجتماعى نوقشت أيضـــاً كشكل أصيل لتأمل طبيعة الكون .
ويجب أن نتذكر دائما الفرق الجوهرى بين التفكير الدينى والعلمى —
فالنموذج الدينى مقـــدس وغـير قابـل للتساؤل بينما يختبر العـالم
ملاءمة نموذجية مع الحقائق التى لاحظها ويغيرها لو ثبت انها لاتلائم
الحقائق .

الجزء الرابع(*)

الثقافات الفرعية

مدخل الى التصورات والمفاهيم النظرية

- تعريف الثقافة .
- مفهوم الثقافات الفرعية .
- الثقافات الفرعية والجماعات العرقية .
- الثقافات الفرعية والجماعات المجتمعية الفرعية .
- الثقافات الفرعية والمجتمع الفرعى .
- خاتمة .

(*) للدكتور محمد عباس ابراهيم مدرس الانثروبولوجيا الحضرية بقسم الانثروبولوجيا ـ كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

الثقافات الفرعية

مدخل إلى التصورات والمفاهيم النظرية

تعريف الثقافة :

يعتبر مصطلح أو مفهوم الثقافة Culture من أكثر المصطلحات شيـــوعا واستخداما، وأنه لم يحظ مفهوم من مفاهيم الأنثروبولوجيا العامة بقدر ماحظى به مفهوم الثقافة من ثراء فى تعريفاته منذ أوائل القرن التاسع عشر وحتى الآن. ويرجع الفضل فى ذلك إلى أن الثقافة هى موضوع الانثروبولوجيا الثقافية ، التى تعتبر من أوسع التخصصات والكتابات إنتشارا لاسيما فى محيط الانثروبولوجيا الأمريكية . وقد أدى هذا الاهتمام المتزايد إلى ظهـــور بعض المصطلحات أو المفاهيم الرئيسية التى تتصل بمعالجة موضوع الثقافة والمجتمعات المحلية ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر الاتصال الثقافى ، والتغير الثقافى . والاكتساب الثقافى والتخلف الثقافى ، وأنماط الثقافة ، والثقافات الفرعية Sub-Cultures وغـــيرها .

وإلى جانب ذلك ظهرت بعض الاتجاهات الأساسية فى معالجة الثقافة ، والتى يرى من خلالها أصحاب كل اتجاه بأنهم يتميزون عن أصحـــاب الاتجاهات الأخرى فيما يتعلق بفهم الثقـــافة وتفسيرها . ومن هذه الاتجاهات ، اتجاه الايكولوجيا الثقافية ، والاتجاه التطورى والانتشارى ، والاتجاه الوظيفى ، إلى جانب الاتجاه السيكولوجى المتصل بوجه خاص بدراسة الثقافة والشخصية ، أو بمعنى آخر دراسة الشخصية فى الثقافة ، ودراسة الثقافة فى الشخصية ،إلى غير ذلك من الاتجاهات والنزعات المذهبية والمنهجية .

وفى اطار الجهود التى بذلت لتعريف الثقافة ، نجد فى عام ١٨٧١ قد نشر العالم البريطانى ادوارد بيرنت تايلور E.B. Tylor كتابه المكون من جزئين عن « الثقافة البدائية Primitive Culture » وهو يعتبر بحق أول محاولة هامة أسهمت فى مجال الانثروبولوجيا الثقافية . وقد حدد تايلور مفهوم الثقافة بقوله : « ان الثقافة أو الحضارة هى ذلك الكل المركب الذى يشتمل المعرفة ، والمعتقدات ، والفنون ، والقانون ، والأخلاق ، والعادات ، والعرف ، وكافة القدرات والأشياء الأخرى التى تؤدى من جانب الانسان باعتباره عضوا فى المجتمع »(١) ولهذا كانت اشارات تايلور لاتعنى تحديد مفهوم أو اصطلاح الثقافة فى حد ذاتها بقدر ما كانت محاولاته تهدف إلى وضع تاريخ للثقافة أو الحضارة بصفة عامة .

ومن جهة أخرى فقد وجدت دراسات الثقافة فى مجال الانثروبولوجيا إهتماما كبيرا من جانب اثنين من علماء الانثروبولوجيا فى أمريكا وهما الفريد كروبير Kroeber ، وكلايد كلاكهون Kluckhohn ، اللذان قدما العديد من الدراسات والأعمال فى مجال الانثروبولوجيا ، وعلم الاجتماع ، وعلم النفس الاجتماعى والاكلينيكى . ونظر كل من كروبير وكلاكهون إلى الثقافة على أنها تمثل الاساس الجوهرى الذى يمكن أن تقوم عليه الانثروبولوجيا فى عمومها ، كما أشارا إلى أن الاهتمام بمفهوم الثقافة يمكن أن يساعد على تشييد نظرية علمية متكاملة لدراسة الإنسان والمجتمع .

---

(1) Tylor, E.B.; Primitive Culture; Fifth Edition, London, 1913, P.3.

كما قدمت أودرى ريتشاردز Audrey Richards تحليلا لمفهوم الثقافة من خلال مقالها المعروف . « مفهوم الثقافة فى أعمـــال مالينوفسكى The Concept of Culture in Malinowski,s Works » ، وانها بحثت من خلال عرضها بأن مالينوفسكى قدم فكرة طيبـــة لمفهوم الثقافـة ومعناها ، وذلك عند تعريفه للثقافة فى ١٩٣١ ، والذى ذكر فيه « ان الثقافة انما تشمل المهارات الموروثة ، والأشياء ، والاساليب أو العمليات الفنية ، والافكار ، والعادات ، والقيم »(١) . وبهذا التعريف يكون مالينوفسكى فى رأيها قد أدخل مفهوم الثقافة إلى مجـــال الدراسات الاجتماعية ، وذلك عندما أشار إلى كلمة « العادات » ضمن تعريفه للمضمون الثقافى ، لانها تخرج بالتعريف من حيز الوسط البيولوجى إلى مجال الدراسات الانسانية .

وعلى نفس إتجاه مالينوفسكى يرى هوبل Hoeble أن السلوك المكتسب بصفة عامة ، يعتبر هاما وضروريا فى تعريف الثقافة ، وعلينا عند تحليل الثقافة أن نحذف كل ما هو بيولوجى أو موروث من مفهوم الثقـافة . لان الثقافة هى مجموع التجديدات الاجتماعية ، والتى يمكن اعتبارها فى النهاية بمثابة الارث الاجتماعى الذى ينتقل عبر الاجيـــال المتلاحقة عن طريق التنشئة والاكتساب الثقافى المستمر (٢) .

---

(1) Cowell, F.Richard; Culture in private and public Life; Thames and Hudson, London, 1959, pp. 238-240.

(2) Hoeble, E.A.; The Nature of Culture ; in; Shapiro, H.L., (ed.); Man, Culture and Society, New York, 1960, p. 198 .

كما يعرف ماكيفر وبيج الثقافة بأنها تستخدم للاشارة إلى كل ما صنعه أى شعب من الشعوب — أو أوجده لنفسه — من مصنوعات يدوية ومحرمات ونظم اجتماعية سائدة . وأدوات ومعاول ، وأسلوب للتقليد . وباختصار كل ما صنعه الإنسان اينما وجد ، اذن فمفهوم الثقافة ، يعنى مجمل التراث الاجتماعى للبشرية . ويريان من ناحية أخرى أن علماء الانثروبولوجيا أدركوا ادراكا تاما خلال دراساتهم للشعوب البدائية وثقافاتها علاقة الفرد الوثيقة بالثقافة نفسها . كما أيقنوا أن أى فهم واف لشخصية الفرد أو للمركب الاجتماعى أو الثقافى الذى هو جزء منه إنما يتطلب تحليلا دقيقا للعلاقة المتبادلة بين الجزء والكل ، وتوقف كل منهما على الآخر (١) .

أما عن الاعمال التى قام بها كل من الفريد كروبير وكلاكهون فقد تضمنت على العديد من الآراء حول معنى الثقافة وجوهرها . وكانت أغلب تلك التعريفات تسير فى فلك المجالات والمحاور النظرية للثقافة ، أو على الاقل حول نظرية الثقافة والتغير التاريخى ، دون اللجوء بصفة أساسية نحو التطبيق فى مجال الدراسات الحقلية . وعلى هذا نجد أن كتابات كروبير وكلاكهون تزخر بالعديد من الآراء والمناقشات التى تناولها باحثون سابقون فى هذا المجال . الا أنهما خرجا ببعض الاقتراحات فيما يتعلق بمضمون وجوهر الثقافة ، وهى :

الاقتراح الاول : وهو أن التكيف الثقافى انما يضيف معنى وقيمة للحياة . ويمكن التعبير عن ذلك بأن الثقافة هى المعرفة المكتسبة للتصرفات ، والافعال

(١) ماكيفر ، ر . م . ، تشارلز بيدج ، المجتمع ، ترجمة : على أحمد عيسى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ١١٥ — ١١٦ .

والأنشطة ، والاتجاهات والمشاعر ،والمعتقدات ، وتهذيب النفس ، والاهداف ، وكافة الموجهات المرتبطة بالتكيف مع وظائف الثقافة.

الاقتراح الثانى : وهو كيف يمكن لهـــذه المعانى والقيم الثقافية أن تضاف إلى الحياة : وذلك من خلال عمليات الادراك والتقدير ، للقيم المتناقلة فيما بين الافراد ، والتى من خلالها تنشأ مظاهر التكيف والانتقال الثقافى التقليدى من جيل إلى آخر .

ومن خلال تلك الاقتراحات الســـابقة فقد عبر كل من كرويبر وكلاكهون بفكرة عامة حول الثقافة ، وهى أن الثقافة انما تتضمن : كافة الميراث البيولوجى ، وحاملوا أو ناقلوا الثقـــافة ، والانماط العامة أو المشتركة ، والاستمرارية أو الثبات ، وخلق النماذج المستحدثة ، والانتشار ، والعلاقات البنائية والدينامية ، والجماعة المرجعية ، والعادات ، وكافة متضمنات الثقافة من اللغة ، والمعرفة، وكل المشاركين فى عمليات الاكتساب ، والمعـــانى الرمزية الثقافية المتناقلة . وفى ضوء الانطلاق من هذه الفكرة العامة التى تبناها الباحثان ، ومن خلال المسوح الدراسية التى قاما بها حول معنى الثقافة والتى جمعاها من صفحات ما يقرب من ستمائة مجلد متنوع فى الدراسات الانسانية بمكتبة جامعة هارفارد الامريكية ، فقد توصلا إلى أن مضمون الثقافة يمكن أن يشمل ويشير إلى : كافة القدرات ، والوسائل ، والمهارات ، والسلوك ، والعادات ، والمعـــرفة ، والفن ، واللغة ، والعلم ، والفكر المتناقل ، والفلسفة والافكار ، والعمليات الادراكية ، وآداب السلوك ، والاخلاق ، والذوق الاجتماعى ، والدساتير ، والقواعد ، والعرف التقليدى ، والانظمة ، والقـــانون ، ومستوى الفهم التقليدى ، ومنتجات النشـــاط الانسانى ، والكتب ، والمبانى ، وسلع الاستهلاك ، والوسائل ، والمخترعات ،

والنقوش ، والادوات ، والمأوى ، والاوانى ، والاسلحة ، والارث الاجتماعى ، والنظم الاجتماعية ، والقيم ، والمثاليات ، والمحتويات ، وطرق التفكير فى الحياة ، وفى العمل ، وفى الشعور أو الاحاسيس ، وكافة الانساق المرتبطة بالتفكير والمعرفة » (١) . وبهذا يؤكد كل من كروبير وكلاكهون على أهمية تلك المسوح لان لها فعاليتها فى تحديد معنى الثقافة ، ويستند رأيهما فى ذلك على أن الثقافه هى محصلة أو نتاج ، كما أن لها مضمونا تاريخيا ، وتشتمل فى نفس الوقت على الافكار والقيم والنماذج . إلى جانب أنها تتميز بصفة الاختيار والانتقاء ، كما أنها تتميز بصفة الاكتساب ، وترتكز بصورة أساسية على الرموز Symbols، والتجريد Abstraction للسلوك الانسانى . وبهذا يشكل مفهـــوم الثقافة فى حد ذاته أحد الافكار الرئيسية التى ساعدت البشرية على تحقيق الكثير من جوانب التقدم والتطـــور والرقى الاجتماعى ، ويرجع ذلك بصفة خاصة إلى ما ينطوى عليه مفهوم الثقافة من عناصـــر داخلية تتسم بالشمول والعمومية ، حيث تسير تلك الشمولية إلى أن كل بنى البشر لديهم ثقافاتهم الخاصة والمميزة ، ونحن لانعرف مجتمعا إنسانيا يخلو من الثقافة بغض النظر عن مستواها أو درجة تقدمها أو تخلفها .

وعلى الرغم أنه من الصـــواب تماما أن نقول أن لكل مجتمع بشرى ثقافته الخاصة المتميزة ، والتى تختلف فى مجموعها عن ثقافة أى مجتمع آخر ، الا أنه

---

(1) Kroeber, A.L. & Kluckhohn, C.; Culture, A Critical Review of Conept and Difinitions , In; Cole, W.E., & Cox,R.L., eds; Social Foundations of Education, American: Book Company, New York, 1968, pp. 69-74.

من الصواب أيضا أن الانثروبولوجيين كثيراً ما يستخدمون مصطلح ثقافة بالنسبة لجماعات قد تكون أكبر أو أصغر من مجتمع معين . فنجد — على سبيل المثال — انه كانت تعيش فى سهول أمريكا الشمالية قبل استيطان الاوربيين لها مالا يقل عن واحد وثلاثين مجتمعا هنديا أمريكيا . وكان لكل من هذه المجتمعات اسمه القبلى الخاص ، وثقافته الخاصة ، ولغته الخاصة التى تختلف فى مضمونها عن ثقافات ولغات المجتمعات الأخرى كافة . وبرغم ذلك فقد كانت تلك الثقافات الاحدى والثلاثين تتميز بعدد كبير من الخصائص المشتركة ، فجميع القبائل كانت تطارد الابقار لأكلها . وكانت تعيش فى مساكن مصنوعة من الأعمدة الخشبية المغطاة بجلود الحيوانات ، وكانت جميعهـا تستخدم الكلاب فى نقل الأمتعة ، وفى جر نوع معين من الزحافات البرية المصنـوعة من قوائم خشبية ، كما كانت كلها تصنع الملابس من جلود البقر أو الابل ، وكانت تتفوق جميعا فى تصنيع الجلود ، وتنتشر بينها جميعا طريقة الزخرفة بالأشكال الهندسية . وكان الرجال يرتبون فى سلم التدرج الاجتماعى تبعا لمهاراتهم فى فنون الحرب والقتال . وهكذا يطلق الانثروبولوجيون على هذه الأساليب فى السلوك ، وعلى طائفة أخرى غيرها اسما عاما هو « ثقافة السهول » تمييزا لها عن الأنماط الثقافية الأخرى الشائعة عند بعض قبائل الهنود الحمر الأخرى (١) .

وفى استخدامنا لمصطلحات ثقافة السهول أو ثقافة الساحل الشمالى للمحيط الهادى أو ثقافة مناطق الغابات الشرقية ، تدل كلمة ثقافة على أساليب السلوك

---

(١) رالف ل . بيلز ، وهاري هويجـن ، مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة ، ترجمة : محمـد الجوهرى ، والسيد الحسينى ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ١٤١ — ١٤٢ .

الشائعة بين عدد من المجتمعات وليس فى مجتمع واحد فقط . ويرجح أن تكون قد قامت بين المجتمعات التى تشترك فى بعض جوانب الثقافة على هذا النحو درجة ما من الاتصال بعضها ببعض ،على الرغم من أن هذا الاتصال قد لايكون بنفس الشدة التى يتم بها بين أفراد مجتمع واحد ، ويؤدى تعدد الاتصالات بين المجتمعات إلى إنتشار بعض جوانب الثقافة فيها وراء حدود المجتمع الواحد بحيث تصبح مشتركة بين عـــدة مجتمعات ، والشائع أن ترتبط هذه الثقافات الاقليمية بمناطق بيئية معينة بحيث يمكن أن تحـــدث بعض جوانب التكيف البيئية المتماثلة .

وإذا كانت الثقافة فى كل المجتمعات على هذا القدر من الاهتمام ، فيقول رالف بيلز Beals أستاذ الانثروبولوجيا بجامعة كاليفورنيا ــ لوس انجيلوس أيضا فى مقال نشر له مؤخرا بعنوان «خبرة خمسين عاما فى مجال الانثروبولوجيا» انه عندما التحق بالجامعة لاول مرة فى يناير من عام ١٩٢٢ لم يكن يسمع عن علم يدعى الانثروبولوجيا ، وأن هـدفه الاول كان يكمن فى رغبته لان يصبح كاتبا روائيا أو فيلسوفا . وأثناء تلقيه المحاضرات ، جذب إهتمامه ثلاثة من المحاضرين هم روبرت لوى ، والفريد كروبير ، وادوار جيفورد E.Gifford حيث كانوا يتناولون فى محاضراتهم عمليات التكيف الثقافى فى المجتمع البشرى . ويقول بيلز لقد شدت انتباهى كلمة الثقافة Culture فى مضمونها وديناميتها بشكل لم أكن أتوقعه . وسرعان ما وجدت نفسى باحثا حقليـا أنثروبولوجيـا فى منطقة مكسيكو Mexico ، أسعى إلى الكشف عن جوهر ومضمون الثقافة . ولكن اليوم وبعد مضى أكثر من خمسين عاما يرى البعض من الباحثين فى مجالات العلوم المختلفة ان كلمة « الثقافة » ما هى الا « قبعة قديمة Old Hat » يحاول

أن يرتديها بعض الانثروبولوجيين الشبان . ويأتى هذا القول من جانب الذين يسعون إلى التخصص فى مجالات العلوم البيولوجية والفيزياء النووية ، ولكن أستطيع أن أقول لهم ببساطة أن الثقافة التى يسخرون منها ما هى الا القوة النووية والدافع الحقيقى وراء تخصصاتهم المتلاحقة ، لان هذه هى سمة المجتمع المتطور ،وان هذه هى الثقافة بعينها ولهذا فاننى أرى أن هناك مسئوليات جسيمة أمام الجهود الانثروبولوجية المخلصة التى تسعى إلى الكشف عن جوهر ومضمون الثقافة ، وخصوصا ما يرتبط بالسلوك الانسانى فى مجتمع تسود فيه التعددية الثقافية ، والتخصصات الانتاجية المترامية لعناصر الثقافة المادية والمعنوية (1) .

والثقافة إذن طبقا للتعريفات السابقة ، انما نسير فى معناها العام إلى أساليب الحياة التى تنتشر فى كافة المجتمعات الإنسانية خلال فترة زمنية محددة ، مع الاخذ فى الاعتبار الا نخلط بين الثقافة كمفهوم تجريدى للسلوك ، وبين الانشطة والافعال الفردية المادية ، والتى جاءت فى صورتها المصنعة نتيجة لانماط معينة من السلوك الانسانى . فالانسان يحقق توافقا جمعياً من خلال الثقافة مع البيئة المحيطة والظروف التاريخية ، الامر الذى يجعلنا نفهم الثقافة على أنها استجابات توافقية لمثل هذه الظروف ، والتى يعمل الانسان من من خلالها على تطوير الثقافة ، حتى لا تحد أو تعوق من حركته وممارساته السلوكية .

---

(1) Ralph L. Beals; Fifty Years ın Anthropology, in; Annual Review of Anthropology, Vol. lI, University of California, 1982, pp. 1-23.

وبالرغم من تلك النظرة المنهجية التكاملية التى ينظر الباحثون عادة من خلالها إلى كافة أساليب الحياة البشرية بأنها تشكل أنماطا ثقافية عامة ، الا أن هناك بعض الانماط الثقافية الخاصة ، التى تسير وفقا لضوابط وقواعد محددة بحدود الزمان والمكان ، وارتبطت بجهود الانسان ومشاعره ، وقدرته على الابداع والتكيف، وسعيه المستمر من أجل البقاء والتميز ، والمحافظة على الخصوصية الثقافية كاسهام فريد يستحق الاحترام والتقدير . وهى تلك التجارب الانسانية ، التى تشكل عنصرا متميزا يسهم فى تدعيم عناصر النسق الثقافى الكلى وتسانده ، ولا تحمل ضمن أهدافها أية نوازع هامة أو مدمرة للعناصر الثقافية الاخرى ، وهى تلك التجارب الانسانية التى عرفت باسم الثقافات .

مفهوم الثقافات الفرعية :

تحظى مفهوم الثقافات الفرعية Sub-Cultures الآن باهتمام متزايد من جانب الباحثين فى الانثروبولوجيا الثقافية والعلوم الاجتماعية الاخرى ، حيث لا تقل الاهمية النظــرية والتطبيقية التى يجدها من هؤلاء الباحثين عن الاهتمام ببعض المصطلحات الاساسية الاخرى مثل دراسة وتحليل مفاهيم الدور ،والطبقة والكاريزما ، والنسق ، والنظام ... الخ . ولهذا فان مفهوم الثقافة الفرعية يجب أن يعالج من الناحية النظرية فى ضوء ثلاث قضايا هامة ترتبط بهذا المفهوم ، حيث تشير القضية الاولى إلى ضرورة توضيح فكرتى الثقافة والبناء كمنظورين أساسيين يعتمدان على فهم سير العــلاقات الاجتماعية . أما القضية الثانية فهى ضرورة توضيح الحدود أو الفواصل Boundaries الخاصــة بأية ثقافة فرعية . وتتركز القضية الثالثة والإخيرة حول ضرورة ادراك المكونات والاستمرار

أو الدوام والتغير فى مستوى الثقافة الفرعية(١) .

وعلى هذا الأساس فاذا كان ألفريد كروبير وتالكوت بارسونز قد أكدا فى عام ١٩٥٨ على ضرورة توضيح التمايزات أو الفروق بين الثقافة والبناء الاجتماعى للجماعة ، فان مايكل كلارك Michael Clarke وفى عام ١٩٧٤ يؤكد أيضا على أهمية التمييز بين « الثقافة الفرعية » و « البناء الفرعى » ، وذلك فى ضوء المعانى الاجتماعية المتمايزة التى ترتبط بكل منهما . حيث أن الثقافة الفرعية ترتبط بنسق الأفكار Ideas أو المعانى ، بينما يرتبط البناء الاجتماعى الفرعى بالاحداث الاجتماعية او السلوك Behaviour . وقد ظهر اتجاه آخر يجمع بين لاتجاهين السابقين على أيدى هوارد بيكر الذى يشير الى ضرورة الربط بين نسق الأفكار الذى يتضمن (القيم والمعايير) . وبين الممارسات التى تشمل سلوك الأشخاص والجماعات داخل الحدث الاجتماعى . وذلك من خلال مناقشته لفكرة الثقافة فى ضوء التفاعلية الرمزية كاتجاه للتحليل والتفسير .

وقد ظهر مفهوم الثقافات الفرعية لأول مرة فى مجال العلوم الاجتماعية خلال البحث الذى أجراه فردريك تراشر Frederic Trasher حول عصابات مدينة شيكاغو الامريكية فى عام ١٩٢٧ . حيث يرى تراشر أن هذه الجماعات الجانحة لها تقاليدها وقيمها من خلال تأثير البيئة التى نشأ فيها أفراد أو أعضاء تلك العصابات والتى جعلتهم أفرادا منعزلين بل ومنفصلين عن الوسط الاجتماعى السوى (٢).

---

1 — Michael Clarke; « On The Concept of Sub-Culture », In; British Journal of Sociology, 1974, Vol. 25, pp. 428—441.

2 — Frederic Trasher; The Gang Chicago; University of Chicago Press, Secomp Edition, 1963, pp. 14—16.

ثم اتجه علماء الاجتماع بعد ذلك نحو دراسة وتطوير فكرة الثقافة الفرعية، حيث ظهرت فى عام ١٩٢٩ لدى كل من سزرلاند وهولينجشيد Sutherland & Hollingshead ، وذلك من خـــلال مناقشاتهما لفكرة أنساق السلوك Behavior Systems التى اهتم بتوضيحها سزرلاند . وفكرة الأنماط العامة للسلوك بين الجماعات الاجتماعية الخاصة ، والتى اهتم بتحليلها هولينجشيد (١) .

وعلى الرغم من الاستخدام المبكر لاصطلاح الثقافة الفرعية فى النظرية الاجتماعية ، وخصوصا فى الاهتمامات والدراسات التى ارتبطت بفهم الجناح والانحراف ، الا أن مفهوم الثقافة الفرعية ظل مبهما وغير واضح . ولقد حاول بعض العلماء والباحثين الاجتماعيين أمثال ارنولدجرين Arnold W. Green وميلتون جوردون Milton M. Gordon فى عام ١٩٤٧ أن يضعا معادلة متساوية فيما يتعلق بمفهوم الثقافة الفرعية واصطلاح المجتمع الفرعى ، وهما ينظران الى معالجة الظواهر الثقافية على أنها تمثل عنصرا انقساميا مع سكان المجتمع الكلى (٢) . بينما نجد عالمين آخرين هما والترميلر Walter B.Miller والبرت كوهين Albert K. Cohen فى عام ١٩٥٨ ، ومن خلال تحديدهما لاصطلاح الثقافة الفرعية أكدا على أهمية موجهات القيم الأساسية لأعضاء

---

1 — August B. Hollingshead; «Behavior Systems as a Field for Research», in; American Sociological Review, No. 4, December, 1939, pp. 816—822.

2 — Milton M. Gordon; «The Concept of the Sub-Culture and its Application», In; Social Forces, Vol. 26, October, 1947, pp. 40—46.

المجتمع الفرعى فيما يتعلق بالمعايير وأنماط السلوك . وهو الاتجاه التفاعلى الذى تبلور بعد ذلك على أيدى علماء التفاعلية الرمزية ،وهم كل من هوارد بيكر Howard S.Becker ، وبلانش جير Blanche Geer ، ومالكولم سبيكتور Malcolm Spector ، وذلك فى عام ١٩٧٣ ،وهو الاتجاه الذى يرى ضرورة الاشارة الى الثقافة الفرعية ومعالجتها من خلال مستويات الفهم الخاصة بأنماط سلوك الجماعات ، وخصوصا مايرتبط منها بالوظائف الكامنة أو المستترة لسلوك أفراد الجماعة الفرعية (١) .

وعموما ، يقصد بالثقافة الفرعية أن هناك جماعة من الناس يشتركون فى أنماط متميزة من القيم والمعتقدات ، وتتميز طريقة حياتهم عن الثقافة الكلية التى تسود المجتمع الأكبر فى بعض الأنماط السلوكية الخاصة بهم . واستخدام مفهوم الثقافة الفرعية لم يكن بالأمر المستحدث فى البحوث الانثروبولوجية والاجتماعية ، حيث استخدم فى أغلب الدراسات التى أجريت على جماعات المراهقين تحت مفهوم « الثقافة الفرعية للمراهقين » كجماعة متميزة لها طريقة حياتها وأنماط سلوكها واستجاباتها التى تختص بها دون غيرها من الجماعات الأخرى . كما أن هناك دراسات أجريت حول الثقافة الفرعية للضواحى الحضرية، والثقافة الفرعية للجماعات الفقيرة وغيرها .

ولهذا فان الثقافة الفرعية هى نمط من المعيشة يختلف عن الثقافة الكلية ،

I — Malcolm Spector; «Secrecy in Job Seeking Among Government Attorneys : Two Contingencies in the Theory of Sub-Cultures», In; Urban Life and Culture, Vol. 2, 1973. pp. 2II—229.

أو بمعنى آخر هى نمط من السلوك تتميز به الجماعات الخاصة التى تعيش داخل المجتمع الأكبر، وقد يختلف سلوك أفراد تلك الجماعات عن سلوك أفراد المجتمع الكلى ، ولكن فى نفس الوقت تتضمن ثقافتهم الفرعية على عناصر تشترك فيها مع الثقافة الكلية ، كما تحتفظ لنفسها بعناصر أخرى تميزها عن غيرها من الثقافات (١) . ولكن تبين عند استخدام مفهوم الثقافة الفرعية أن هناك كثيرا من المشكلات النظرية والمنهجية حول تفسير الأنماط السلوكية التى تختلف عن السلوك العام داخل النسق الاجتماعى . فنجد أن ميلتون يانجر milton Yanger يميز بين استخدامين لمفهوم الثقافة الفرعية ، فيشير الاستخدام الأول الى الأنساق المعيارية للجماعات التى تختلف عن المجتمع الأكبر،وأن هذا الاستخدام هو الشائع لمفهوم الثقافة الفرعية ، بينما يشير الاستخدام الثانى الى وجود فكرة الصراع بين الجماعة والمجتمع الأكبر ، وذلك فى اطار مفهوم الثقافة المضادة Countra-Culture . ويرى يانجر أن الثقافة الفرعية فى الاستخدام الأول تتصف بالشمول ، لأنها تقوم على أساس علاقات الجماعة مع النسق الثقافى الاجتماعى الرئيسى ، بينما الثقافة المضادة يكون فيها الصراع هو العنصر الرئيسى فقط (٢)

وعلى هذا الأساس يستخدم مصطلح الثقـــافة الفرعية ـ طبقا لوجهة النظر هذه ـ ليشير الى جماعات داخل المجتمع الأكبر ، ذات أنماط سلوكية خاصة ومعترف بها . هذه الجماعات وان كانت تشارك فى الثقافة الكلية والعامة للمجتمع،

---

1 — Abner Cohen; (ed.); Urban Ethnicity; Tavistock Publications, London, 1974, pp. 14—16.

2 — Milton Yanger; «Countra-Culture and Sub-Culture», In; American Sociological Review, Vol. 25, October, 1960, pp 618-627

الا أنها تنفرد بسمات ثقافية خاصة بالدرجة التي تميزها عن باقي اعضاء المجتمع الكلي .

وقد حدد هاجور يدنج Hugo F. Reading اصطلاح الثقافة الفرعية كما ورد في «قاموس العلوم الاجتماعية» من خلال المعاني الآتية :

— ان الثقافة الفرعية هي الثقافة الخاصة بالطبقة أو الجماعة الاجتماعية والتي تتميز بأنها ذات ثقافة مستقلة ومتغايرة عن الثقافة الكلية ولكنها لاتتعارض معها.

— ان الثقافة الفرعية هي الثقافة التي تميز الجماعة بصفة التكامل والكلية اذا نظرنا اليها من داخل الجماعة نفسها .

— ان الثقافة الفرعية هي الخصائص الثقافية أو السلوكية الشائعة في مجتمع معين .

— ان الثقافة الفرعية هي الثقافة التي يتميز بها نمط معين من المجتمعات الفرعية .

— ان الثقافة الفرعية هي تلك السمات الثقافية التي تتميز بها الجماعة الأصلية ، ويطلق عليها الجماعة الثقافية (١) .

أما في « قاموس الانثروبولوجيا » فقد ورد اصطلاح الثقافة الفرعية ليشير الى أن الثقافة الفرعية هي مجموعة من الخصائص الثقافية والأنماط السلوكية التي تتميز بها جماعة معينة أو مجتمع فرعي معين ، ولكنها لاتتعارض في أدائها

---

1 — Hugo F. Reading; A Dictionary of The Social Sciences; Routledge & Kegan paul, London, 1977, pp. 204—205.

وتحقيق أهدافها مع الثقافة الكلية للمجتمع الأكبر ، وانها تضفى على أعضائها سمات ثقافية وخصائص محددة لايتميز بها سوى الاعضاء فى تلك الثقـــافة الفرعية (١).

الثقافات الفرعية والجماعات العرقية :

ومن منطلق ارتباط الثقافة الفرعية ببعض الجماعات الخاصة ، يرى فردريك بارث Fredrick Barth أستاذ الانثروبولوجيا بجامعة أوسلو ، أنه يمكن تحديد اصطلاح الثقافات الفرعية من خلال الجماعة العرقية ، حيث تعتبر الجماعة العرقية ودراستها ـ فى رأيه ـ مجالا هاما للبحث يشغل بال الكثيرين من الباحثين والعلماء الانثروبولوجيين . ويرى بارث أن الجماعة العرقية هى جماعة من السكان يمكن تحديدها فى ضوء الخصائص الآتية :

٢) تتحدد الجماعة العرقية بأنها ذات وضع سلالى خاص يميزها عن غيرها من الجماعات الأخرى .

٢) تتحدد الجماعة العرقية من خلال اشتراكها فى محتوى ومضمون النماذج الثقافية التى تحدد وحدة الجماعة من خلال نظرتها الادراكية لهذا المحتوى الثقافى المتميز .

٣) ان يكون لتلك الجماعة العرقية بناء خاص من وسائل الاتصال والتفاعل الداخلى بين الأعضاء .

٤) يتميز أفراد تلك الجماعة بشخصيات ذاتية مستقلة من خلال عضويتهم

---

1 — David Davies; A Dictionary of Anthropology, Frederick Muller Ltd., London, 1972.

وانتمائهم لها، كما يتميزون فى نفس الوقت بعضويتهم لبعض الجماعات والمنظمات الأخرى داخل المجتمع الكبير (١).

ولهذا نجد أن النموذج المثالى الذى وضعه بارت لتحديد الجماعة العرقية انما يشير الى المحددات التقليدية فيما يتعلق بالجماعات الخاصة أو ذات الاتجاهات أو الاهتمامات المتميزة ، وهذه المحددات تتمثل فى نواحى معينة مثل : السلالة ، والثقافة ، واللغة ، ثم المجتمع . كما يرى أن هناك بعض المحددات الاخرى التى تخضع لها النمط التنظيمى لأعضاء تلك الجماعات . ومن هذه المحـــددات أيضا الايكولوجيا الثقافية ، ودرجة التغاير الطبقى ، والذاتية الاثنية المستقلة ، والأبعاد أو المحتويات الثقافية ، بالاضافة الى عوامل التغـــير الداخلية المؤثرة فى الذاتية الأثنية ، ومدى شدة الروابط الاجتماعية التى تدعم مستوى القيم الثقافية الخاصة بتلك الجماعات . وانه من خلال تلك المحددات يمكن لنـــا أن نشير الى وضع الجماعة ، الاثنية ، وعما اذا كانت تتميز بأنها ذات ثقافة فرعية تميزها عن غيرها أم لا . وذلك فى ضوء بناء النسق الاجتماعى والثقافى الفرعى لها . ويرى بارث أيضا أن الجماعة الاثنية غالبا ماتتميز بالاقامة المحلية بالاضافة الى السمات الثقافية الخـاصة بها ، ولهذا فهى غالبا ماتشير الى منطقة ثقافية تقليدية . وان اهتمام الانثروبولوجيا المتزايد بدراسة الجمـاعات الاثنية وثقافاتهـا المتمايزة يأتى من خلال العلاقات الدينامية لتلك الجماعات ، والتى تتحدد بوجه خاص فى دراسة عمليات التغير والاكتساب الثقافى ، وذلك من خـلال الاتصـال والاحتكاك المستمر بين ثقافة الجماعة الاثنية وبين الثقافة الكلية للمجتمع الأكبر .

I — Fredrick Barth, (ed.); Ethnic Graups and Boundaries, Routledge & Kegan paul, London, I98I. pp. 200—206.

الثقافات الفرعية والجماعات المجتمعية الفرعية :

أما على المستويين المنهجى والتطبيقى عند مناقشة اصطلاح الثقافات الفرعية وارتباط هذا المفهوم بدراسة الجماعات المجتمعية الفرعية ، فيرى كل من فاين Fine وكليمان Klenman ، بجامعة مينسوتا الامريكية ، أنه يجب أن تؤخذ فى الاعتبار بعض القضايا الهامة الآتية :

٢) ضرورة مراعاة عدم الخلط بين الثقافة الفرعية والمجتمع الفرعى .

٢) الأخذ فى الاعتبـار النقص الواضح فى حجم المعلومات التى تشير الى تحديد معنى موحد ومتطابق للثقافات الفرعية .

٣) الانتباه الى ضرورة التمييز بين فكرة مشاركة الأعضاء أو مجرد الانتساب الاجتماعى التى تحيط بهذا الاصطلاح .

٤) التأكد من أن فكرة الثقافات الفرعية المحددة يمكن توضيحها من خلال مصطلحات القيم والمعايير وقواعد السلوك المحورية لمن يشاركون فيها أو ينتمون اليها .

وعلى هذا الأساس فانه من المفيد تتبع دراسة الثقافة الفرعية فى ضوء الكشف عن عمليات التفاعل المرتبطة بالاحتياجات أو المطالب أو الأهداف الخاصة ، والتى تسعى الجماعات الى تحقيقها من خلال عمليات التفاعل الداخلية فيما بينها ، كما يجب النظر والاهتمام بالخصائص الداخلية التى تتميز بها تلك الجماعات ، والتى تمدنا بالفهم فيما يتعلق بشبكة العلاقات الاجتماعية التى تميزها ، وكذا عضوية الجماعة ، والروابط الاجتماعية والثقافية ، والأدوار البنائية التى تعمل على نشر المعلومات بين الأعضاء مع وجود وسائل الاتصال الخاصة بها . ولهذا التمييز .

تلك الجماعة المرجعية بتوفير الأمن والرعاية لأعضائها ، كما قد يسود بينها نظام خاص يتصل بالخصائص الفنية والممارسات السلوكية والمعيارية ، واتجاهات القيم الخاصة بتلك الثقافة الفرعية .

وعلى المستوى التطبيقى يمكن أن نعرض من خلال الثقافات الفرعية للشباب بعض التحليلات المرتبطة بهذه العمليات التفاعلية ، حيث أنه من المعروف الآن أن المجتمعات الغربية المعاصرة لاتسودها فكرة التجانس.وقد تكون المجتمعات متجانسة من خلال النظر الى الطبقة والأساس العرقى ، والسلالة ، والدين ، كما أن بعض المجتمعات قد قسمت الى أقاليم ، والى فرق أو جماعات عمرية ، بالاضافة الى الجماعات السياسية والايديولوجية . ولاشك أن مثل هذه التقسيمات انما تتوازى الآن مع التقسيمات والتخصصات المعرفيه والعلمية الخاصة بمعرفة وتفسير عناصر المجتمع واتجاهاته .

ويرى فاين وكلينمان أنه لايمكن القول أن الثقافة بصفة عامة يمكن أن تسير على اتساق متكامل من خلال تفسيرات النسق الاجتماعى الكلى ، وخصوصا فى المجتمعات التى تعتمد على تقسيم العمل المكثف أو الدقيق ، ومن هنا يزداد وصف المجتمع الآن بأنه يتكون من جماعات مجتمعية فرعية Subsocieties-groupings ، وهى التى من خلالها يجب النظر الى تحديد وصياغة مفهوم الثقافات الفرعية وتحليله .

وفى ضوء ذلك فان هناك بعض القضايا التصورية المعاصرة التى تتصل بمناقشة اصطلاح الثقافة الفرعية ، فى ضوء الاستعانة بالاطار التفاعلى لمكونات الثقافة . وقد جرى العرف فيما يختص بالتحليلات الاجتماعية لاصطلاح الثقافة الفرعية أن يعالج الاصطلاح كبناء أو حدث مستقل لأنه من السهل فى ذلك امكانية

التعرف والوصف للثقافة الفرعية على أنها ذات متضمنات خاصة ومما ساعد علماء النظرية على ذلك وجود المحددات أو الفواصل الانقسامية بين السكان فى المجتمع الكبير . وهم يستندون فى تحليلاتهم الى بعض القضايا التصويرية المرتبطة بخصائص وسمات الثقافة الفرعية لديهم على النحو التالى :

١) إن الثقافة الفرعية تعالج باستمرار على أنها مرادف للمكونات السكانية للمجتمع الفرعى .

٢) جرت العادة عند بعض الباحثين على أن تفحص الثقـــافة الفرعية دون الاهتمام بالترابط المتبادل فيما يتعلق بتحديد جماعة الأفراد والتى تكون بمثابة الاطار المرجعى لها .

٣) يصور النسق الثقافى الفرعى دائما على أنه متجانس ، وثابت ، ومغلق .

٤) توصف الثقافة الفرعية بأنها ذات مكونات متكاملة فيما يتعلق بالفهم والمعايير والاهتمامات المحورية Central Themes [1] .

ويرى فاين وكلينمان أن الترادف بين الثقافة الفرعية ، والمجتمع الفرعى جاء نتيجة لعدم الفهم من جانب الباحثين الذين ينظرون الى أعضاء المجتمع الفرعى ، بأنهم يتميزون جغرافيا أو سكانيا عن بقية المجتمع الكبير أو الأشمل ، ولكنه بغض النظر عن تلك التمايزات ، فان الثقافات الفرعية تتميز ببعض القيم والمعايير الداخلية التى تحدد مستوى قبول الأعضاء فى تلك الثقافة ، وهذا الجانب الرمزى هو بمثابة الاطار المرجعى لتلك الثقافة الفرعية .

1 — Gary Alan. Fine & Sherryl Kleinman; « Rethinking Subculture : An Interactionist Analysis», In, American Journal of Sociology, Vol. 85, No. I, July, 1979-May, 1980. pp.1-20.

وقد أجرى فاين وكلينمان دراستهما على مجموعة من الشباب بقصد اختبار اصطلاح الثقافة الفرعية والتى أدت بهما الى أهم النتائج التالية : حيث لاحظ كل منهما أن أغلب الاتجاهات النظرية السابقة انما عالجت الثقافات الفرعية على أنها تنسق ثابت لوحدات أو اتجاهات محددة أو قيم أو أهداف محورية . الا أن دراستهما الراهنة كشفت عن اصطلاح الثقافة الفرعية من خلال اطار التفاعلية الرمزية ، ويمكن القول أن الثقافة الفرعية تشتمل على مستويات من الفهم ، وأنماط السلوك وكذلك الأساليب الفنية أو المهارات التى تستخدم بواسطة تلك الجماعات الخاصة ، والتى يمكن ادراكها بالنظر الى مكونات شبكة العلاقات الداخلية لهذه الجماعات . ويستند هذا التصور عندهما الى ضرورة مراعاة مايلى :

أ) لابد من معرفة الطريقة أو الكيفية التى من خلالها تستطيع عناصر الثقافة الفرعية من الانتشار بين أعضاء الجماعة السكانية الواحدة .

٢) ضرورة مراعاة الاختلافات والفوارق البيئية والمحلية والخاصة بتوجيه المحتوى الثقافى من خلال عمليات التفاعل الرمزى التى تتم بين أعضاء الجماعة الفرعية .

٣) الاهتمام بجوانب ومستويات الفهم الخاص بديناميات تغير الثقافة الفرعية (١) .

وعلى هذا فقد وجد الباحثان أن فكرة الذاتية أو الاستقلالية الخاصة بالثقافة الفرعية يمكن أن تتجدد باستمرار من خلال حركة التنشئة الاجتماعية Socialization التى ترتبط بعناصر ثقافية معينة لها القدرة على اعادة بناء

1 — Ibid., pp. 1—20.

التصورات والأبعاد الخاصة بتلك الجماعة فى أذهان النشىء . وبذلك تكون الثقافة الفرعية ذات اسهامات متصلة ومستمرة ، ويكفى أن يكون ذلك ردا على الذين يدعون أن الثقافة الفرعية تتميز بالثبات والانغلاق على نفسها . هذا بالاضافة أيضا الى امتداد واتساع نطاق تلك الثقافة الفرعية من خلال التزايد المستمر فى عضوية أعضائها ، والتى تتزايد معها عوامل ومتضمنات الخلق والابتكار المرتبطة بممارسة الثقافة وتداولها وانتشارها فى ضوء اطارها الخاص المحدد لمعاييرها واتجاهاتها وقيمها المتميزة .

الا أن جاى كورزين Jay Corzine يختلف مع فاين وكلينمان فيما يتعلق بفكرة وسائل الاتصال بين الجماعات العرقية ، وهو يرى أنها لاتقتصر على حد قولها فيما يتصل بالانتاج أو المضمون الثقافى الذى يقتصر على فكـــرة التنشئة الاجتماعية . وتزايد أعداد عضوية الجماعة . لكنـه يرى أن تؤخذ فى الاعتبار عمليات ادراك مستوى الفهم الداخلى لتلك الجماعات ، وخصوصا تلك الناجمة عن التفاعلات التى تتم أثناء قضاءهم لأوقات الفراغ ، ونوعية الأنشطة التى تؤدى من خلاله . كما يجب البحث عن أسس وقواعد الاتصالات الجمعية التى تتم بين الأعضاء ، وخصوصا من داخل الاطار المحورى المحدد لحركة النشاطات والممارسات فى ضوء قواعد وضوابط الثقافة الفرعية (١) .

الثقافات الفرعية والمجتمع الفرعى :

واذا كان التحليل السابق يشير الى مفهوم الثقافة الفرعية من خلال دراسة

---

1 — Jay Corzine, «Media Diffusion of Subcultural Elements: Comment on Fine and Kleinman», In, American Journal of Sociology, Vol. 87, July, 1981-May, 1982, pp. 170-173.

الجماعات الخاصة ، أو التى أطلق عليها جماعات مجتمعية فرعية ، الا أن هناك نظرة انثروبولوجية أخرى تمثلت فى عرض مفهوم الثقافات الفرعية من خلال تحليل المجتمعات القبلية أو الفرعية . وجاء هذا الاسهام على أيدى جوليان ستيوارد Julian H. Steward استاذ الانثروبولوجيا بالجامعات الأمريكية (ايلينويز وكاليفورنيا ونيويورك) ، عند محاولاته لوضع أسس نظرية للتغير الثقافى فى المجتمع الانسانى . ويقول ستيوارد فى هذا الصدد أن معظم الانثروبولوجيين قد بدأوا اهتماماتهم البحثية بدراسة المجتمعات التقليدية والقبلية ، والتى تطلبت منهم بالضرورة نظرة تحليلية متعمقة للأنساق السوسيوثقافية المعاصرة والمعقدة ولهذا فقد اهتمت تلك المحاولات المنهجية ، والتحليلات المستمرة للثقافات المعاصرة ، بوضع صياغة ملاءمة أو تحديد مناسب لثقافة المجتمعات الصغيرة ، وقد جاء هذا التحديد مستندا الى ثلاثة أسس أو مظاهر أساسية ترتبط بأعضاء تلك المجتمعات القبلية أو التى يطلق عليها أحيانا المجتمعات الفرعية وهى :

أولا — تتميز ثقافة المجتمعات القبلية أو الفرعية بمعدلات معيارية ثابتة لتوقعات سلوك أعضائها ، والتى تمتاز بالاستقلالية والبساطة والتجانس ، حيث يسود التطابق التام فى الأنماط السلوكية بين كافة الأفراد ، على الرغم من وجود بعض الأساليب الخاصة للسلوك والتى ترتبط بدور طبقة العمر ، والجنس ، والمهنة ، أو بعض الأدوار الأخرى . وبهذا يشير اصطلاح الثقافة القبلية الى فكرة السلوك المشترك بين الأعضاء ، والذى يميز الحياة القبلية فى ذاتها بأنها أسلوب أو طريقة فى الحياة.

ثانيا — تتحدد الثقافة القبلية عادة بأنها نمط pattern ثقافى أو صيغة ثقافية Configuration . ولكن اذا كانت فكرة النمط تشير الى معانى متعددة

ومتغايرة الا أنها تبدو فى عمومها معبرة عن مكونات أو وحدات أساسية للتكامل الشامل . وقد توصلت الانثروبولوجية روث بنديكت Ruth Benedict الى ايجاد مترادفات لفكرة النمط أشارت اليها بما يسمى بالاتجاهات الأساسية Basic Attitudes ، أو نظرة الحياة Life View ، أو نسق القيم Values System الذى يشارك فيه أعضاء المجتمع المحلى ، ويضفى عليهم فكرة التطابق من خلال المشاركة فى الممارسات السلوكية . وأنه من الطبيعى أن نجد أن تحديد فكرة النمط بهذه الكيفية قد أدت الى صياغة التصور العام لفكرة الشخصية الثقافية ، لأنه طبقا لتحديد الاتجاهات يمكن التعبير عن نمط الشخصية الذى هو نتاج للتطابقات أو التوحد الثقافى ، أو الاشتراك فى الخصائص والسمات العامة بأنه نموذج متطابق مع الثقافة .

ثالثا — يتحدد مفهوم الثقافة القبلية الفرعية فى ضوء فكرة النسبية الثقافية لأن المعايير والانماط الثقافية تختلف بطبيعة الحال من ثقافة تقليدية الى أخرى ، الأمر الذى يجعلها فى النهاية تتميز بالاستقلال والتفرد . وهذا ما أدى ببعض الباحثين فى دراساتهم الى التمسك بفكرة المنطقة الثقافية Cultural Area ، والطراز أو النموذج الثقافى Cultural Type ، وغير ذلك من التصورات العامة المرتبطة بتحديد مفهوم الثقافة والمناطق الفرعية .

وفى ضوء هذا العرض لخصائص المجتمعات الفرعية ، يناقش ستيوارد مفهوم الثقافة الفرعية ، حيث يرى أن اصطلاح الثقافة الفرعية قد ظهر نتيجة للتحليلات المنهجية المركزة المستمرة للتغير والاكتساب الثقافى للانساق السوسيوثقافية . ويرى أن هناك بعض الخصائص والسمات والمعايير الثقافية التى لا يمكن فهمها من خلال النظر اليها على أنها تمثل نواحى نسبية بالنسبة

للثقافة الكلية ، ولكنها فى الوقت ذاته لاتنفصل عن النسق الثقافى العام . ولهذا فاننا قد نجد أن ثقافة المجتمع الحديث لاتكون على درجة من البساطة ، فيما يتعلق بالمعايير والقيم السلوكية الخاصة بأعضائه ، وذلك نظرا لوجود كثير من الجماعات الفرعية التى ينتمى اليها الافراد داخل الثقافة الواحدة ، ويتميزون فى نفس الوقت بثقافات فرعية معينة .(١)

هذا الاصطلاح أى المفهوم الذى رغم أهميته بالنسبة لتفسير وتحليل الحياة الاجتماعية والثقافية ، الا أنه لم يحظ باقبال شديد من جانب الباحثين والعلماء على إستخدامه والاستعانة به بصورة مباشرة . ولكننا نجـــد أن خصائص ومظاهر الثقافة الحديثة لا يمكن فهمها بدقة وعناية الا عن طريق الدراسة الجزئية للسلوك الإنسانى ، فلا يستطيع باحث معين أو مجموعة من الباحثين مهما أوتيت من الوسائل والامكانيات البحثية أن يقدموا صورة متكاملة ، ومسحا كليا عن ثقافة مجتمع القاهرة أو لندن أو باريس ككل مثلا . لان مثل هذه المجتمعات المعقدة والتى تحوى عديدا من الثقافات الفرعية طبقا لابنيتها المورفولوجية ، تتطلب عند دراستها نظرة منهجية ، تسعى إلى تحليل العناصر الجزئية ومدى ارتباطها وعلاقاتها بالنسق الثقافى الاشمل .

وطبقا لذلك يرى ستيوارد انه إذا ما تعرضت تلك الثقافات الفرعية لعمليتى التغير والاكتساب الثقافى نتيجة لاحتكاكها بثقافات أخرى أكثر تقدما ، فانها تكون فى هذه الحالة فى وضع اختبـــار بالنسبة وضعها المستقل كثقافة محلية أو فرعية . وهنا تظهر عمليات التأثير الثقافى بما يطلق عليه « عمليات الاحـــلال فى

I — Julian H. Steward, Theory of Culture Change, University of Illinois press, Urbana, 3rd Printing, 1961, pp. 43—49.

السلوك التقليدى للأفـــراد » ، أو بمعنى آخر فى نمط الثقافة الفرعية . وليس بالضرورة — من وجهة نظر ستيوارد — أن يحمل الأفراد أو الجماعات النمط الثقافى الجديد ، ولكن على الأقل يشاركون فى بعض الممارسات الجزئية الخاصة داخل تلك الثقافة الكلية . وهم فى نفس الوقت يعتبرون أعضاء لثقافة فرعيةذات عـلاقات خاصة بالمجتمع الكلى (1) .

ويبدو أن إتجاه الايكولوجيا الثقافية أكثر وضوحا وتأثيرا على آراء جوليان ستيوارد ، حيث يرى أنه منالضرورى علىالباحث الاثنولوجى أو الاثنوجرافى أو الانثروبولوجى أن يهتم بمنهج الملاحظـــة المباشرة ، وأن ينظر إلى تلك الثقافات الفرعية أما علىاعتبار انها خاصة بجماعات محلية Localized groups لها خصائصها الثقافية وأساليبهـــا فى التكيف الايكولوجى الثقافى ، أو على انها ثقافات فرعية ترتبط بجماعات ذات مستويات أفقية أو متوازيه Horizontal groups مثل الثقافات الخاصة ببعض الطوائف Castes أو الطبقات Classes أو الجماعات المهنية وغيرها . ويرى ستيوارد ضرورة تركيز المنهج الاثنوجرافى حول تلك الانقسامات السوسيو ثقافية فى منطقة ايكولوجيا محلية ، وانه لايمكن أن نستطيع فهم الثقافات القومية أو الخصائص العـــامة الكلية الا بالرجوع إلى دراسة وفهم الثقافات الفرعية .

ويسوق ستيوارد مثالا لعمليتى الاكتساب والتغير الثقافى من خلال عرضه للثقافة والثقافات الفـــرعية الخاصة بسكان جزيرة بورت ريكو puerto Rico الامريكية ، حيث يرى أن أصول ومستوى الانماط الثقافية لسكان تلكالجزيرة ترجع إلى الثقافات التقليدية الخاصة بالمستوطنين الاصليين من جماعاتهاسبانيك

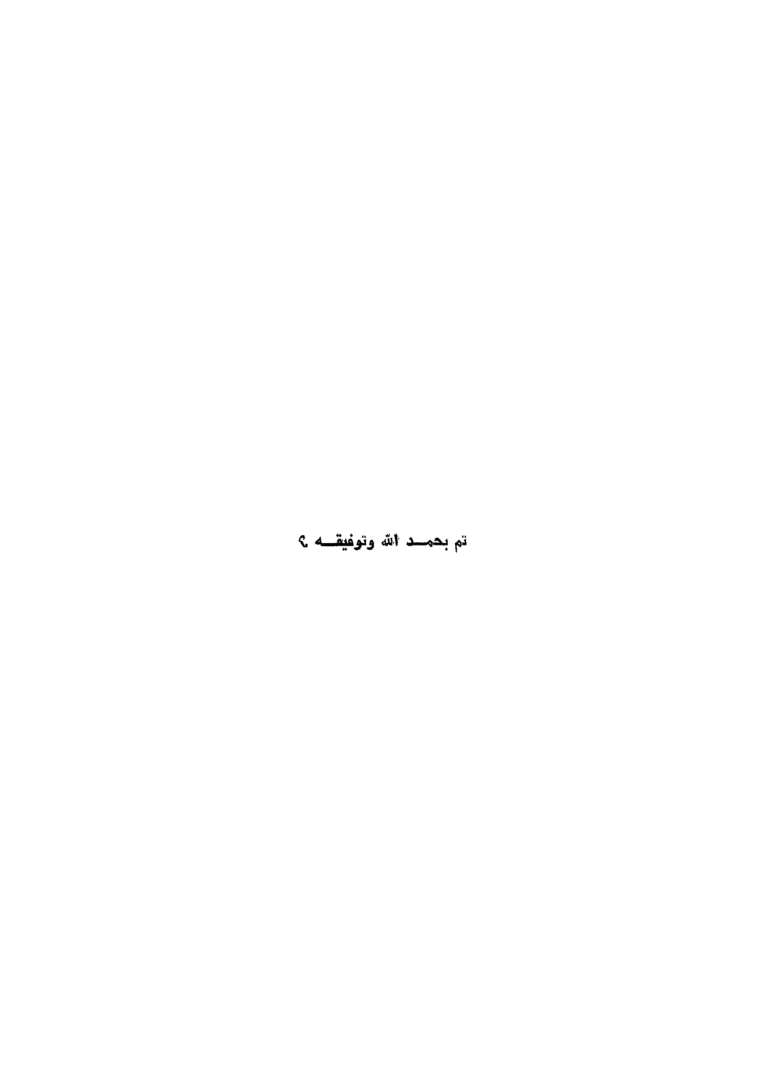
I — Ibid., pp. 51—54.

Hispanic الاسبانية ، والتى كانت تتميز بأصالتها التقليـــدية منذ أربعة قرون مضت فيما يتصل بانتشار الحرف والفنون وأساليب التجارة والفلاحة، والممارسات الدينية ، والنظم العائلية ، والتمسك باللغة الاسبانية ، والزى التقليدى، والعادات الغذائية . وغيرها . وذلك على الرغم من وجود بعض المقيمين معهم من الهنود والافريقيين ، وبعض السكان من الجنسيات والطبقات الاوروبية المختلفة والذين كانوا يمثلون أقليات اثنية بين الهايسبانيك ضمن سكان الجزيرة . ولكن فى الوقت الحاضر ومع ظهور حركة التصنيع ، وقيام الادارة الامريكية بوضع الترتيبات والخطط اللازمة فيما يتعلق بالمناطق والاقاليم الانتاجية التخصصية من ناحية ، ومن ناحية أخرى ظهـــور دوافع الهجرة الخارجية بين جماعات الهايسبانيك ، فقد تأثرت تلك الثقافات الفرعية باتجاهات التأمرك Americ anization الثقافى والقومى . الأمر الذى أدى إلى تغـــير الوضع الثقافى فى تلك الجزيرة ، حيث بعد أن كانت ثقافة هايسبانيك التقليدية هى السائدة من قبـل ، وما عداها كانت تعتبر ثقافات فرعية بالقياس إليها ، أصبحت ثقافة هايسبانيك الآن تمثل هى نفسها ثقافة فرعية بين سكان الجزيرة . ولايزيد عدد سكانهم الآن عن مائة أسرة أو عائلة ، يعيشون حياة منعزلة فى المناطق الجبلية ، وخصوصا فى منطقة سان جوان San Juan ويطلق عليهم الآن لقب جيبارو Jibaro أى المنعزلين ، ويقومون بزراعة محاصيل التبغ والبن فى مناطق اقامتهم، بالاضافة إلى التحاق البعض منهم للعمل بالأجر فى مزارع قصب السكر الحكومية الأمريكية. ولهذا تعزى الأهـــداف والقيم والاتجاهات والانماط السلوكية المستحدثة إلى ماقامت به عمليتا التصنيع والهجرة من تغيير سريع فى السلوكيات التقليدية، وبناء النسق الثقافى الفرعى (١) .

I — Ibid., pp. 2I2—222.

خاتمـة :

ولهذا فقد أصبح مدخل فهم الثقافات الفرعية يمثل اتجاها نظريا وتطبيقيا على درجة بالغة الأهمية ، وخصوصا عندما يقوم الباحثون بدراسة وتحليل حياة المدينة التى تحوى عديدا من الثقافات ذات الاختلافات البنائية ، أو بمعنى آخر فان كل منطقة من مناطق المدينة تضم مجموعات من الناس ذات ثقافات معينة ، وعادة ماترجع [illegible] الثقافية إلى عوامل متعددة منها الاختلافات الاثنولوجية والسلالية ، أو الانتماءات الاقليمية وغيرها . وينتج عن ذلك تباين معايير الجماعات المختلفة فى مجالات الأسرة ، وأساليب التنشئة الاجتماعية ، وعضوية الجماعات المرجعية ، والنظرة للحياة ، وإدراك الواقع الإجتماعى والثقافى .



تم بحمـــد الله وتوفيقـــه ؟